



مع تحياتي : علي مولا

نيقولاي غوغول

الأنفس الميتة

رواية

ترجمة د. عبد الرحيم بدر
راجع الترجمة واكمل الناقص منها
غائب طعمة فرمان



دار «رادوغا»
موسكو

Николай Гоголь

МЕРТВЫЕ ДУШИ

Поэма

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Н. В. Гоголь. Мертвые души. Поэма.
На арабском языке.
Редактор Л. Ф. Чеботкевич.
Перевод осуществлен по изданию:
Н. В. Гоголь. Сочинения в 2-х томах.
Москва, «Художественная литература», 1973, т. 2.

غوغول اللغز

حين أصدر غوغول المجلد الاول من «الانفس الميتة» ، وهى أروع عمل له ، فى عام ١٨٤٢ كتب الناقد الروسى الشهير فيساريون بيلينسكى : «دلونا ، اين تلك الروح التاريخية العالمية فى أعمال غوغول ، اين ذلك المحتوى المشترك بقدر واحد بالنسبة لجميع الشعوب والقرون ؟ دلونا ماذا سيحصل لأى عمل من أعمال غوغول اذا ما ترجم الى اللغة الفرنسية أو الالمانية أو الانجليزية ؟»

كان بيلينسكى معجباً متحمساً بغوغول ، وجد فيه كاتباً روسياً عظيم الشأن ، ومع ذلك فحتى هو كان يعتبر أهمية مبدع «الانفس الميتة» ، و«المفتش العام» و«المعطف» مقتصرة على روسيا وحدها .

ونحن اليوم واثقون من أن الامر ليس كذلك . فقد ترجم غوغول ويترجم الى اللغة الفرنسية والالمانية والانجليزية واليابانية والى الكثير من لغات العالم الاخرى . وتنشر المقالات والكتب المكرسة لغوغول فى جميع أنحاء المعمورة . وتقام مناقشات ولقاءات علمية حوله .

ولعل صفة «اللغزى» اكثر ما يتردد من بين الصفات التى تطلق الآن عن ابداع هذا الكاتب . فكثيراً ما يقال : «غوغول اللغز» .

وقد تجلّت صفة «اللغزى» ، بالطبع ، فى فرادة المآل الذى صار اليه غوغول بعد الوفاة ، وفى اطراد تنامى صيته العالمى . ولكن ليس هذا وحسب . فان كلمة «اللغزى» تتضمن انعكاساً لحياة الكاتب ، وصورة لخصائص طبعه السايكولوجى والروحى ، وطبعاً لخصائص طريقته فى الابداع ايضا .

نحن لا نستطيع ، طبعاً ، ان نحدد كم ستكشف الملاحظات الحالية من هذه الخصائص ، والى اى حد من الكمال . ولكننا سنحاول الاشارة اليها على الاقل ، وتقديم المعلومات الاكثر ضرورية عن حياة الكاتب وابداعه .

• • •

ولد نيقولاى فاسيليفيتش غوغول فى الاول من نيسان (فى ٢٠ آذار حسب التقويم القديم) عام ١٨٠٩ فى الجزء الجنوبى الغربى من الامبراطورية الروسية ، فى اوكرانيا ، فى منطقة «فيليكيه سوروتشينتسى» . وكان والداه من ملاكى الاراضى المتوسطين . وكان لهما حوالى ٤٠٠ قن من الفلاحين وضيعة صغيرة باسم «فاسيليفكا» (لها اسم آخر هو يانوفشينا) تقع غير بعيد عن فيليكيه سوروتشينتسى فى نفس ولاية بولتافا . وقد قضى كاتبنا المقبل اعوام طفولته فى فاسيليفكا .

كان الاقليم غنياً بالاساطير والنوادر والحكايات العجيبة التى حفزت مخيلة الصبى الحساس العصبى .

عندما بلغ غوغول الثانية عشرة ارسل الى مدرسة العلوم الرفيعة ، وهى مؤسسة تعليمية عالية فتحت حديثاً فى مدينة نيجين الصغيرة فى ولاية تشيرنيغوف المجاورة . وقضى «نيكوشا» الصغير هناك سبعة اعوام ، ولم يؤخذ الى بيت والديه فى فاسيليفكا الا فى العطل المدرسية ، وما عدا ذلك ابقى بين جدران المدرسة فى وسط من الاولاد متنوع الطوائف جامح ، حاد المزاج .

لم تكن علاقة غوغول بزملائه بسيطة . فكانوا يسمونه بالغريب واللغز فى هذه الازمنة ايضا . وقد كتب غوغول الى امه قبل بضعة اشهر من تخرجه فى المدرسة : «انا اعتبر لغزاً لدى الجميع ، ولا احد حلّنى اطلاقاً» . واضاف : «ولك ان تعتبرينى ما تشائين . . فقط ان تصدقى بأن العواطف النبيلة تملأ نفسي دائماً ، واننى لم احط من قدر نفسي ، وانني طوال حياتي كنت الى جانب الخير» .

فى سن مبكرة جداً ، منذ السادسة عشرة من عمره ، اخذ يعد نفسه لنشاط اجتماعى . ولم تكن لغوغول بعد فكرة عن الاشتغال فى الكتابة ، رغم انه بدا يكتب وهو فى المدرسة ، بل وبعض المعلومات تشير الى انه بدا الكتابة فى سن ابكر ، وهو ما يزال صبياً صغيراً جداً .

وكان «المجال» الذى ذكره غوغول فى رسالته الى امه ، والذى اراد ان ينذر له نفسه كلياً هو الخدمة فى

مؤسسة من مؤسسات الدولة ، والادق مجال القانون ، العمل فى ميدان القضاء والتشريع . «لقد رأيت أن العمل فى هذا المجال سيكون الاكثر . . . ان الجور القضائى ، التعاسة العظمى فى الدنيا ، كان يمزق قلبي اكثر من اى شيء آخر» .

ولكن حدث ما لم يكن فى تصور غوغول . فبعد انهائه المدرسة ، ووصوله الى بطرسبورج فى نهاية ١٨٢٨ حاول بالفعل أن يبنى مستقبله فى الخدمة ، وكان وقتا ما يشغل منصب موظف صغير ، ولكنه لم يستطع ان يقوم بأى أعمال مهمة فى ميدان القضاء . والخدمة فى مؤسسة الدولة التى كانت تسلم غوغول الى خيبة أمل متنامية ساعة بعد أخرى ، اخذت تتراجع أمام نشاطات اخرى ، هى النشاطات الادبية والتعليمية . وصار غوغول مدرّساً فى معاهد بطرسبورج التعليمية — المعهد الوطنى ، وبعد ذلك جامعة بطرسبورج . وهنا ، ولا سيما فى الاعمال الادبية ، قد حقق غوغول نجاحات مثيرة مباشرة دفعة واحدة تقريباً .

واذا كان كتاب غوغول الصغير الاول — وهو القصيدة العاطفية «هانز كيوخيلغارتن» التى صدرت عام ١٨٢٩ تحت اسم مستعار ، هو ف . الوف قد أثار سخريات الصحفيين ، فان الكتاب التالى — وهو مجموعة «أمسيات فى قرية قرب ديكانكا» من مجلدين صدرا ١٨٣١-١٨٣٢ — رفعت مؤلفه الى عداد الكتاب الروس الافذاذ . وقد كسب غوغول رأساً المهارة والنضج واصالة الطريقة . لقد جسّد فنياً التجربة التى حصل

عليها من تربة أرضه — معرفته الرائعة فى الاساطير الاوكرانية ، ومعيشة الشعب ، والعادات . وقد حبب غوغول ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، اوكرانيا الى الآف والآف من القراء الروس .

وقد كتب ألكسندر بوشكين تحت تأثير الجزء الاول من كتاب غوغول هذا : «. . . الآن أتممت قراءة «امسيات قرب ديكانكا» . وقد أذهلنى . ذلك هو المرح الحقيقى الصافى ، الصادق ، بدون تكلف ، ولا تحفظ . وفى بعض الاماكن شعر ، وأى شعر ! أى رهافة حس ! كل ذلك غير اعتيادى فى أدبنا الحالى ، بشكل ما زلت مذهولا به» .

وخلال ذلك كان فى انتظار القراء مفاجأة جديدة . فى الروايات القصيرة التى اعقبت «امسيات» وجُمعت فى مجموعتين هما «ميرغورد» و«منمنمات» (كلتاهما صدرتا فى عام ١٨٣٥) لم يعد غوغول رومانسياً ملهماً ، بل كاتباً اجتماعياً صارماً ، محللا بصفاء ذهن للوضاعة والحقارة الحياتية (رغم ان الاساس الشاعرى العميق فى هذه الروايات القصيرة وفى كل ابداع غوغول احتفظ بقوته) . وفى بعض الاعمال ، مثل «كيف تشاجر ايفان ايفانوفيتش مع ايفان نيكيفوروفيتش» نظر غوغول من زاوية نظر جديدة الى الحياة الريفية التى عرفها منذ الطفولة ، الى اوكرانيا الحبيبة . وفى أعمال اخرى ، وهى ما أطلق عليها «قصص بطرسبورج» («شارع نيفسكى» ، «مذكرات مجنون» الى آخره) عكس بصفاء ذهن بالغ وبلا رأفة حياة العاصمة الروسية . وقد أعطت القدرة على

الملاحظة ، وتصوير التناقضات الاجتماعية الحادة ، وتعارضات الحلم والواقع ، وفنطازية النكهة غير القابلة للمحاكاة ، والشاعرية العميقة المروّى فيها طابعاً حياتياً غير مألوف ، ونمطية لتصوير غوغول لبطرسبورج .

وفي مجموعتي «ميرغورد» و«منمنمات» تكشفت بكل حجمها موهبة غوغول الهازلة وغنى سخريته وألقها . وعندها ، وحسب اعترافه ، اتخذ هذا القرار : «اذا كنت تريد أن تضحك فمن الاحسن أن تضحك بقوة ومما يستأهل الضحك العام بالفعل» («اعترافات مؤلف») . وهكذا انضمت الى فكرته في أن يكون «في خدمة الدولة »فكرة الاشتغال في مجال الكتابة . وتوصل غوغول الى استنتاج حاسم حدد كل مستقبله : يجب البحث عن المنفعة الاجتماعية غير بعيد عن طريق الكاتب ، لكن لا في العمل الوظيفي ، بل يمكن ايجاد هذه المنفعة في عمل الكاتب نفسه ، والكاتب المعاصر ، الكوميدي ، بشكل خاص .

في عام ١٨٣٦ ظهرت كوميديا «المفتش العام» منشورة وممثلة على خشبة المسرح ، وقد صورت بوضوح ، وكأنما من خلال عدسة مكبرة ، حياة بلدة صغيرة اقليمية . وكانت صورة هذه البلدة المتخيّلة واضحة للعيان عميقة المعاني وفي نفس الوقت تكاد تكون من كثرة الدلالات الرمزية مما جعلها تترك اثراً قوياً جداً على المعاصرين ، وجلبت لمؤلفها لا استحسان الاصدقاء فقط ، بل السباب الفظ من قبل المغرضين . ورغم انزعاج غوغول الشديد من هذه الشتائم ، الا انه

لا يحيد عن الطريق الذي سلكه ، ويبدأ بتحقيق مشروع اكثر ضخامة ، وهو قصيدة «الانفس الميتة» التي بداها في وقت مقارب لبدئه في «المفتش العام» اي حوالي ١٨٣٥ ، فضلا عن ان موضوعي هذين العملين هما من ايحاء الكسندر بوشكين .

قضى غوغول الفترة ما بين حزيران ١٨٣٦ ونيسان ١٨٤٨ خارج روسيا (في المانيا ، وسويسرا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، ولكن معظم هذه الفترة قضاه في ايطاليا) . ولا يعود الى روسيا الا لفترة قصيرة ، لا تتجاوز بضعة شهور ، مرة في عام ١٨٣٩ لترتيب امور اخواته اللواتي تخرجن من المعهد الوطني ، ومرة اخرى في عام ١٨٤١ للقيام بنشر المجلد الاول من «الانفس الميتة» (نشر في عام ١٨٤٢) .

وكان غوغول قد صرح في عام ١٨٣٦ بأن «الانفس الميتة» ستكون من عدة مجلدات . وقد شبّه الكاتب المجلد الاول بـ«مقدمة» القصر الذي أشيده» (من رسالة مؤرخة في ١٧ آذار ١٨٤٢) . وحين صدر المجلد الاول عرف القارىء من الفصل الحادي عشر ان القصيدة مكونة من ثلاثة مجلدات («الجزءان الكبيران يتبعان . . .») .

ورغم ان غوغول في الاربعينات نشر اعمالا جديدة (من بينها نفائس كقصة «المعطف» والعملين المسرحيين «خطوبة» و«المقامرون») الا ان حياته كلها كانت مكرسة للعمل الرئيسي ، وهو اكمال «الانفس الميتة» ومن جديد ظهرت الصفحتان «اللغز» و«السر» ، وكانتا ، في هذه المرة ، تعودان الى قصيدة غوغول هذه ، لأن

«الانفس الميتة» كانت موكلة بالكشف عن سر الحيا
الروسية ، ورسالة روسيا فى التاريخ المعاصر .

وبذل غوغول جهداً هائلا فوق الطاقة الانسانية فـ
العمل على هذه القصيدة . وفى صيف عام ١٨٤٥ ، احرق
مخطوطة المجلد الثانى ، تعبيراً عن عدم رضاه عما
انجزه .

ويكتب غوغول ، وهو يتحدث عن اسباب حرقـ
للمخطوطة : «ثمة ساعات لا يمكن فيها ان تحث المجتمـ
او وحتى جيلا كاملا الى الرائع الجميل ، الا اذا اظهرت
كل عمق وضاعته الراهنة . ثمة ساعات لا ينبغى فيها
حتى التحدث عن الرفيع والرائع دون ان تشير
بوضوح ، كوضوح النهار ، الى السبل والطرق التـ
يسلكها كل انسان اليه . وكانت هذه الناحية الاخير
قليلة وضعيفة التطور فى المجلد الثانى من «الانفس
الميتة» ، بينما كان يجب ان تكون الرئيسية او تكاد .
ولهذا احرقته» . («اربع رسائل الى اشخاص مختلفين
بشأن «الانفس الميتة» ، الرسالة الرابعة) وبهذا الشكل
كانت الصعوبات الناشئة مرتبطة بالهدف الرئيسى
للمجلد الثانى . فقد كان يجب الاحتفاظ بـ«جسامة
الشخصيات ، وتحاشى الافتعال والمثالية فى ذات
الوقت ، والاقتراب من «الرفيع والرائع» فى وعـ
القارىء .

فى عام ١٨٤٨ وبداية ١٨٤٩ عمل غوغول عملا مكثفـ
فى صيغة جديدة للقصيدة .

وبعد سبعة أعوام ، فى بداية ١٨٥٢ انفجرت ازمـ

جديدة . فى ليلة ١١ على ١٢ شباط يحرق غوغول فى
البيت الذى كان يسكنه فى بولفار نيقيتسكى الصيغة
النهائية للمجلد الثانى . وبعد عدة أيام ، فى صباح ٤
آذار (٢١ شباط فى التقويم القديم) فارق غوغول
الحياة .

واخذ الكاتب معه الى القبر «سر» بقية القصيدة ،
ومحتواها الذى تروى فيه المؤلف بسعة واستيعاب .

والفصول التى سلمت من الجزء الثانى نشرت لاول
مرة فى عام ١٨٥٥ ، على شكل مجلد اضافى الى الطبعة
الثانية لمؤلفات غوغول (الطبعة الاولى للمؤلفات صدرت
فى عامى ١٨٤٢-١٨٤٣) : «مؤلفات نيقولاى
فاسيليفيتش غوغول التى وجدت بعد وفاته . مغامرة
تشتيشيكوف او الانفس الميتة . قصيدة ن . ف .
غوغول . المجلد الثانى (٥ فصول) ، موسكو ١٨٥٥» .

• • •

وجوهر ما يؤلف «لغزية» غوغول هو أنه فى
ظاهره يبدو كاتباً بسيطاً جداً ، بينما هو ، فى داخله ،
فى باطنه الخفى ، معقد جداً . يجب ان يقرأ غوغول فى
غاية الاهتمام ، دون التوقف عند الموضوع والحدث ،
نافذين الى أصغر الدقائق والتفاصيل . كان الكاتب
والشاعر الروسى الشهير والباحث الادبى اندريه بيلى
يقول ان المحتوى الغوغولى غارق فى التفاصيل ، وهذا
بالطبع ، ينطبق ، بالدرجة الاولى على «الانفس الميتة»

اعقد أعمال غوغول . والطريق الى الطبقات العميقة لمحتوى هذا العمل يمتد أيضا خلال أدق التفاصيل والدقائق .

فلنوضح ذلك بمثال .

فى الفصل المخصص للمالك مانيلوف توجد هذه العبارات : «وقد كان فى الواقع يقف ، فى بعض الاحيان فى الشرفة وينقل بصره من الساحة الى البركة ويقول لنفسه ، كم يكون رائعاً فى الحقيقة لو ان ممراً شق تحت البركة ، وان ينصب جسر حجرى فوق البركة فجأة أيضا ، وان تقوم فى لمح البصر حوانيت ، فيها جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية» .

اذن ، جسر حجرى فوق البركة ! يمكن ان يتصور المرء (مثل هذه الاعتقادات موجودة بالفعل فى أدب غوغول) أن هذا التفصيل الصغير قد أوحت به للكاتب انطباعاته الواقعية عن الحياة الايطالية - قنطرة «ريالته» فى البندقية أو «بونته فيكو» فى فلورنسا . الا أن الامر ليس كذلك ، فان السطور الواردة قد كتبها غوغول قبل سفره الى ايطاليا .

ان لوصف غوغول معناه الفريد الخاص به ، وهذا المعنى قائم على محتوى القصيدة كلها .

وفى حقيقة الامر ان لجسرى البندقية وفلورنسا المذكورين غاية معينة قائمة بذاتها . فالجسر القائم على نهر (أو قناة) هو مركز اتصالات . وساكن المدينة يعبر هذا الجسر مرة فى الاسبوع (وربما فى اليوم) وتلفت انتباهه الدكاكين الموجودة على جانبيه . ثم

ان هذين الجسرين جميلان جداً ، وكل من رآهما متيقن من ذلك .

ولكن لصورة غوغول معنى مختلف تماماً . فهل من المصادفة أن الجسر الذى يتخيله مانيلوف غير قائم على نهر ، بل على بركة لا تحتاج له طبعاً ؟ ومعنى ذلك ان الباعة والمشترين (الفلاحين ، وهذا تفصيل آخر ليس قليل الاهمية عند غوغول) يجب أن يمشوا على الجسر خصيصاً ، ليقوموا بمشترياتهم . والجسر الضخم المقام على البركة (مانيلوف يريد ان يبنيه من الصخر !) هو فى مغزاه الجمالى منظر سخيف وغير معقول . وبهذه الطريقة يصير مغزى جسر مانيلوف بلا غاية محددة ، وبلا معنى .

والموضع الذى أشرنا اليه يميز بناء القصيدة كلها . بل يمكن القول ان هذا جوهر أسلوبها ، لانه قد ثبت عمدا نوعان من انعدام الهدف فى عالم مانيلوف وتشيتشيكوف : اقتصادى صرف (عملى) وجمالى . وهما فى «الانفس الميتة» ينبعثان كتيارين ، وأحياناً يتحدان سوية .

ولنضرب مثلا فى انعدام الغاية الاقتصادى (العملى) فى بيت مانيلوف نفسه ، على الاقل ، ذلك البيت المقام على «مرتفع منعزل مكشوف ، تضرب فيه الرياح من أى ناحية هبت» . ومثال انعدام الغاية الجمالى هو بيت مالك آخر ، هو سوباكيفيتش . فان كل شىء فى هذا المبنى مربع وراسخ ، ولكن على حساب الجمال والتناسق «فقد فشلت جهود المهندس القوية فى جعل

قمة الهرم فوق مركز البناية لأن المالك ازال احدى اعمدتها الاربعة الاساسية» .

وكلا المبنيين مشترك فى السماجة . والشاعرية الغروتسكية للسماجة شائعة فى «الانفس الميتة» الى حد الدقة المبالغ فيها ، الى حد الكمال الفنى البالغ .

ويصير المظهر الخارجى للاشياء ، احداث السفر ، وتاملات الشخصيات واقوالها مجالات لظهور اللامعقولية والسماجة . وحماقة الانسان ، وغياب الفهم الاولي بل والمنطق البدائى تحرز النصر تلو النصر . حين يستنتج مدير البريد (الفصل العاشر – اجتماع عند مدير الشرطة) ان تشيتشيكوف هو الكابتين كوبيكين ، غافلا تماماً ان كوبيكين هذا بلا رجل ولا يد ، بينما اطراف تشيتشيكوف كلها ، فى مكانها ، والحمد لله ، فانه بذلك اقام مبنى ذهنياً غير معقول يشبه جسر مانيلوف .

ان شاعرية السماجة مرتبطة اوثق الارتباط بالحدث والموضوع – شراء وبيع «الانفس الميتة» .

(يجب التوضيح هنا ان الفلاح فى ظل قانون القنانة فى روسيا كان يمكن ان يباع ويشترى كشىء ، كملكية غير منقولة . والى جانب ذلك كان عدد الفلاحين – «النفوس المسجلة» – تثبت بقوائم خاصة توضع وتقدم مرة كل بضعة أعوام . وفى الفترة بين تسجيل وتسجيل يعتبر الفلاحون الموتى احياء ، بل وان ملاكها ملزمون على دفع ضرائب للسلطة . وعلى هذا الاساس بنيت حسابات تشيتشيكوف . فان المالك يتخلى له برحابة صدر عن الفلاحين الموتى حتى لا يدفع عنهم نقودا

اضافية . بينما سيرهنهم تشيتشيكوف فى مجلس الرعاية باعتبارهم أحياء ويحصل على مبلغ كبير من المال) .

ولكن الحقيقة ان كل ما يجرى فى القصيدة – وحدثها المركزى (التلاعب الاحتيالى بالنفوس الميتة) متزعزع ومشكوك فيه بما فيه الكفاية . وهو مشكوك فيه ليس فقط فى المعنى الرفيع للخير الاجتماعى (طفيلية تشيتشيكوف لا تثير اى شك) بل ومن وجهة نظر المنفعة الشخصية أيضا ، من وجهة نظر النجاح الفردى للنصاب . فان «متاجرة» تشيتشيكوف على مدى القصيدة المنظور لم تؤدى الى النجاح المرتجى . فهو يغادر البلدة على عجل عائداً من حيث اتى ، ولو انه لم يفضح . وكانت فى انتظاره فى المجلدين التاليين ، حسب المعلومات المتوفرة ، آثام جديدة بل وخيبات ساحقة جديدة . ومهما يكن المبلغ الذى ينتزعه تشيتشيكوف من حين لآخر فان الهدف الاساسى يبتعد عنه اكثر فاكثر ، مثل سراب فى صحراء رامضة ، وهذا السراب قرين لمنشأة مانيلوف الفنطازية .

وغوغول يرتفع الى التعميمات القصوى ، وهو يبسط صيغة السماجة الغروتسكية التى اكتشفها لتشمل معيشة الانسان نفسها . وهكذا نجد سطوراً فلسفية مريرة عن ضلالات الانسان وضياعاته : «فكم من الطرق المعوجة المسدودة ، الضيقة ، المنيعة المنحرفة بعيداً اختارتها الانسانية فى سعيها للوصول الى الحقيقة الازلية . . . وكم من مرة ، حتى بعد أن تزودوا

بالرسالة المنزلة من السماء ، زاغوا وانحرفوا سواء السبيل ، ووقعوا من جديد وفى وضح النهار فى مغازات نائية مسدودة ، وانزلوا من جديد غشاء العمى على عيون بعضهم البعض ، منجذبين الى السراب الخادع ، ووصلوا الى حافة الهاوية ، ليسأل بعضهم بعضاً فيما بعد : أين المخرج ، أين الطريق ؟ . .»

وتتكشف علاقة مباشرة ، توافق مباشر بين الصور الصغيرة التى ينتسب اليها وصف جسر مانيلوف ، وتراكيب هذا العمل الرئيسية . وتتكشف الفكرة الاصيلة الصادقة لقصيدة غوغول كلها ، وهى الحلم الملتهب بطريق حقيقى نزيه للانسانية وفضح شديد للخطوات الكاذبة السمجة ، لكل ما يؤدى الى انحراف مهلك عن هذا الطريق .

لقد وفى غوغول الكاتب بالكلمة التى أعطاها فى بداية حياته : «. . . صدقينى ، لقد كنت طوال حياتى الى جانب الخير» .

يورى مان

الأنفس الميتة

رواية

المجلد الاول

الفصل الاول

انسابت الى باب فندق فى مدينة «ن» عاصمة الولاية عربة انيقة ، متوسطة الحجم ذات لوالب من النوع الذى يقتنيه العزاب : الضباط المتقاعدون من ذوى الرتب المتوسطة والضباط الصغار والملاك الذين يمتلك الفرد منهم قرابة مئة نفس ، وباختصار ، كل الاشخاص الذين يكونون الطبقة الوسطى . كان يجلس فى العربة سيد ليس بالجميل ولا بالقبيح ، ولا هو بالكثير السمنة ولا بالكثير النحول ، ومع انه غير بالغ الكبر الا انه لم يكن بالغ الصغر ايضا . ولم يثر وصوله ضجة فى المدينة ولم يُحدِث حدثاً خاصاً ، سوى أن فلاحين كانا يقفان صدفة امام حانة فى الجانب المقابل من الفندق ، تبادلا بعض الحديث بشأن العربة لا بشأن الرجـــل الجالس فيها . قال احدهما «انظر الى هذه العربة ، أتظن انهـــا بهذه العجلات ستتمكن من الوصول الى موسكـــو ؟ »— فاجاب زميله «أظن ذلك» . وسأل الاول «انا لا اظنها ستصل الى قازان ، ايه ؟» فقال الثانى : «لن تذهـــب بعيدا حتى قازان» . وبهذا انتهى الحديث . وعندما كانت العربة تقترب من الفندق ،قابلها شاب يرتدى سراويل

قطنية بيضاء ضيقة جدا ، قصيرة جدا ، ومعطفا طويلا
على الطراز الحديث ، وقميصا معلق فيه دبوس برنزى
على شكل مسدس . وادار الشاب راسه عندما مر
بالعربة ونظر اليها نظرة فاحصة ، رفع يده بعدها
ليمسك قبعته (فقد كادت الريح تقذف بها عن راسه)
واستانف السير فى طريقه .

وعند وصول العربة باب النزل وجد راكبها خادم
الفندق واقفا لاستقباله ، وكان هذا خفيف الحركة
سريعها لدرجة يتعذر على المرء فيها أن يتبين طابع
ملامحه . وهرول حاملا على يديه فوطة ، بمعطف مقسوم
من أسفل المؤخرة يغطى ظهره النحيل حتى أعلى عنقه ،
وهز خصل شعره الى الوراء ، ورافق السيد الى الطابق
العلوى عبر رواق خشبى ، ليريه غرفة النوم التى
انعم الله به عليها . وكانت الغرفة المذكورة ذات منظر
عادى جدا ، اذ أن الفندق كان من نوع الفنادق التى
تعجّ بها عواصم الولايات والتى يستطيع المسافر
فيها ، مقابل روبلين فى اليوم ان يستحصل على غرفة
تطل فيها الصراصير ، الشبيهة باجاص مجفف من جميع
اركانها ، وذات باب مستور كالعادة بدولاب ويؤدى
الى الغرفة المجاورة التى يسكن فيها جار صامت ، مرخيا
اذنيه يتحرق شوقا لسماع كل هنة عن القادم الجديد .
وكان مظهر الفندق الخارجى يدل على مظهره الداخلى :
كان طويلا يتالف من طابقين ؛ نصفه السفلى خلو من
التبييض ، مما جعل الطوب الاحمر القاتم الذى كان
مكمدا فى الأصل ، يزيد اكمدادا تحت تاثير التغيرات

الجوية ؛ اما النصف العلوى من العمارة فقد كان مطليا
بالدهان الاصفر العادى الذى لا يبهت ؛ وكان فى
الطابق الاول حوانيت تبيع لجم الخيل والحبال والكعك
المدور . وفى نافذة الحانوت الواقع فى الزاوية اطل
بائع العسل المخمر بوجهه الاحمر وبالقرب منه سماور
نحاسى ، حتى يخيل الى من ينظر اليهما عن بعد ان فى
النافذة سماورين ، لولا ان لاحدهما لحية سوداء
كالقار .

وبينما كان المسافر يتفحص الغرفة ، احضرت امتعته
اليها . احضرت اول الامر حقيبة من الجلد الابيض تدل
رثاثتها على انها قامت بعديد من الاسفار . وكان يحمل
هذه الحقيبة رجلان : احدهما سيليفان ، حوذى السيد
(وهو رجل صغيرة فى معطف فرو) ، والآخر بيتروشكا ،
وصيف السيد ، وهو شاب فى حوالى الثلاثين من
العمر ، يرتدى سترة مشعثة بالية ، يتضح انها كانت
لصاحبه . وكان له انف كبير وشفتان غليظتان وكان
صارماً قليلاً . وتلا الحقيبة صندوق للمراسلات مصنوع
من الخشب الاحمر مزين الاطراف ، ثم صندوق احذية ،
ودجاجة مشوية ملفوفة بورقة زرقاء . وبعد ان تم
ايداع كل هذه الاشياء ، انصرف السائق للعناية
بخيوله ، وانصرف الوصيف الى مخدع صغير منزو مظلم
كجحر الكلاب ، حيث كان قد اعد لنفسه عباءة لها
رائحتها الخاصة وكيسا مملوءا بالثياب وركن الى
الحائط . واقام السرير الضيق ، وغطاه بقطعة زهيدة
من حشية – قطعة كالفطيرة فى رقتها وتفاهتها (وربما

في دهنها أيضاً) – لتلك التي تمكن من استجدائها
من صاحب النزل .

وبينما كان الاتباع يدبرون امورهم نزل السيد الى
قاعة الاستقبال العامة . وهذا النوع من قاعات الاستقبال
معروف لكل من يقوم بالاسفار . فلها جدران مطلية
دائما ، يعلو الاسوداد قسمها العلوى من أثر دخان
التبغ ويكتسب القسم السفلي لمعانا من احتكاك ظهور
الزبائن به ، وخاصة ظهور اولئك التجار المحليين
الذين يدأبون على اللجوء الى نزل البلدة أيام السوق ،
واحتساء كوبين معهودين من الشاى فيه . وقاعات من
هذا القبيل أيضاً ، لها فى العادة سقوف قذرة ، وثريات
بالقذارة نفسها تتدلى منها علاّقات تثب وتقرقع كلما
هرول الخادم فوق البساط الزيتى البالى ، حاملا معه
طبقا مليئا بالكؤوس (وتبدو الكؤوس كأنها سرب من
الطير جاثم على شاطىء بحر) ، ثم نفس المجموعة من
الصور الزيتية . وبايجاز ، هناك اشياء معينة يراها
المرء فى كل فندق . اما فى حالتنا هذه فقد كان ابرز
ظاهرة فى الغرفة صورة زيتية لحورية برزت اثداؤها
بحجم لا يمكن ان يرى القارىء مثله فى حياته . تصوير
مماثل للطبيعة نراه فى الصور التاريخية التى حملها
الينا فى روسيا من ايطاليا فى وقت ما أناس مجهولون
بل ووجهاء فى بعض الاحيان يدعون انهم خبراء فى
الفن : وذلك ان الوجهاء المشار اليهم اشتروا ما اشتروه
بناء على ارشادات الدليل الذى كان يرافقهم فى السفر .

خلع مسافرنا قبعته ، ونزع عن عنقه لفاعا صوفياً

ملوناً ، من ذلك النوع الذى تحيكه الزوجة لزوجها
بيديها وحينما تعطيه اياه توصيه وصايا معتبرة عن
كيفية طيه . والواقع ان العزاب ايضا يلبسون لفاعات
مماثلة ، لكنهم فى حالتهم هذه لا يعلم الا الله من الذى
حاكها لهم ! فانا لم البسها قط . وطلب السيد الغداء
بعد ان نزع اللفاع ، وبينما كانت الصحون المختلفة
رهن التحضير : حساء الكرنب وفطيرة لها من العمر
بضعة اسابيع ، وصحن من مخ مع بازلاء ، وصحن من
المقانق مع الكرنب ، ودجاجة مشوية ، وبعض الخيار
المملح ، والكعكة التى تكون دائما فى محلات كهذه
تحت الطلب – اقول ، بينما كانت هذه الاشياء تسخّن
او يجلب بعضها باردا ، جر السيد الخادم الى التحدث
عن نتف من الاخبار بشأن المالك الأخير للنزل ،
وشخصية صاحبه الحالى ، وكمية الدخل الذى يدرّه
النزل . ورد الخادم على السؤال عن صاحب الفندق
بجواب يرد به دائما فى حالات كهذه ، وهو «ان معلمى
انسان نصّاب جداً يا سيدى» . ومن الغريب أن هناك
كثيراً جداً من الناس من الطبقة المستنيرة فى روسيا
كما فى اوربا المستنيرة لا يستطيعون ان يتناولوا
طعاما فى فندق دون ان يثرثروا مع الخادم فى الحديث
بل ويمزحوا معه احياناً . ومهما يكن من امر ، فلم تكن
جميع اسئلته بلا هدف . فقد سأله بدقة عن حاكم
الولاية وعن رئيس المجلس المحلى وعن المدعى العام .
وباختصار لم ينس موظفاً ذا مكانة . وراح يسأله
أيضاً بمزيد من التدقيق ان لم يكن من التعاطف عن

الشؤون الخاصة جداً للملاكين فى تلك الناحيـة . فساله ايهم يملك اقنانا ، وكم نفساً يملك ؟ وعلى اية مسافة من المدينة يقطنون ؟ وما هى شخصية كل مالك ؟ وهل له عادة التردد على المدينة ؟ واستفهم السيد مدققا عن الاوضاع العامة فى المنطقة . وتساءل ان كانت هناك امراض كحميات متفشية ، او برداء مميتة او جدرى او ما الى ذلك . وكل ذلك بتفصيل ودقة تخرج عن حدود حب الاستطلاع المحض . الا انه ظل محتفظا بهيبته ، فكان بين الحين والآخر يتمخط بصوت غاية فى الارتفاع . وكان يقوم بهذه العملية بطريقة مدهشة جداً . فمع ان صوت انفه كان يشبه البوق فى حدته ، الا ان هذا الصوت ، باقترانه مع الكبرياء الاصيلة ، كان يستثير احترام الخادم الشديد . وقد بلغ هذا مبلغا كبيراً جداً حتى ان الصوت لم يكد يصل سمع الاجير حتى يهز هذا خصل شعره الى الوراء ويعتدل بكل احترام ، ويسال من جديد – مع احناء الراس ثانية – ما اذا كان عند السيد رغبة فى شىء آخر . وبعد الغداء احتسى الضيف فنجان قهوة ، ثم جلس على الاريكة وخلفه احدى الوسائد المكسوة بالصوف ، والموجودة عادة فى الخانات الروسية ، والتى تشبه الطوب او الصوان . ثم اخذ يتثاءب وطلب أن يوصل الى غرفته ، حيث استلقى بطوله على الفراش ، ونام مدة ساعتين نوماً عميقاً . وافاق عندما دخل عليه الخادم طالباً اليه ان يكتب اسمه ولقبه ومركزه على قصاصة من الورق لارسالها الى الشرطة بحسب القانون ، ففعل . وانحنى

الخادم فى الممر على قصاصة الورق ، وقرا فيها ما يلى ، مقطعا مقطعا : بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف – مستشار ، ملاك ، مسافر فى مهمة خاصة . ولم يكد الخادم ينهى قراءتها حتى انطلق بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف الى المدينة ليستطلع امرها . ويبدو انها حازت على رضاه . وفى الحقيقة ، كانت على الاقل فى المستوى العادى لعواصم الاقاليم . وحيث لم تسر مبانى الحجر الاصفر عينيه ، كان يجد المبانى الخشبية ذات اللون الرمادى الاكثر اتزانا . وكانت البيوت من طابق او طابقين بعليات دائما ، وهذا ما يغرم به متهدسو الاقاليم ، فكانت تظهر وكانها ضائعة فى الفسحة وفيما اختلط بينها من جدران لا نهاية لها . وفى اماكن اخرى كانت تبدو دلائل اكثر من ذلك على الحياة والحركة . وكانت البيوت هنا تتجمع فوق بعضها البعض ، وعليها لوحات اعلان متهرئة ابلتها الامطار ، منقوش عليها صور احذية او قطع حلوى او سراويل زرقاء ، وقد كتب عليها «ارشافسكى – خياط» او ما مائل ذلك . وعلى محل صغير فيه مختلف القبعات كتب «فاسيلى فدروف – اجنبى» ، بينما علقت على ناحية اخرى لوحة رسمت عليها طاولة بلياردو ولاعبان – وهذان الأخيران يلبسان معطفين اسودين من النوع الذى يرتديه – عادة – الضيوف الذين يدخلون المسرح فى نهاية الفصل الأخير . ومع ذلك فقد كان لاعبا البلياردو السابقان يصوّبان الى الهدف فى اهتمام شديد ، باذرع شديدة الالتواء ، وسيقان مائلة ادت لتوها حركات

راقصة فى الهواء . وكان قد كتب فى اسفل كل لوحة من هذا القبيل «هذا محل عال العال» . وفى بعض الاماكن فى الشوارع موائد عليها اكوام من الجوز والصابون وكعك الزنجبيل (والأخير يصعب تمييزه عن الصابون) . وعلى جدران احد المطاعم بدت سمكة سمينة انغرزت فيها شوكة . ولكن اكثر ما كان يشاهد على الجدران هو النسر ذو الراسين ، شعار الدولة آنذاك (بهذه المناسبة ، قد تغير الآن هذا الشعار الى صورة مختصرة لحانة) . اما بشأن ارصفة المدينة فقد كانت كلها على نسق واحد من السوء . واطل تشيتشيكوف على حدائق البلدية التى لا تحوى سوى بضع شجيرات بائسة سيئة النمو تسندها دعائم ثلاثية مدهونة بالدهان الزيتى الأخضر الجميل ، وليس لها ما تزهو به من الطول اكثر من يراع عادى . الا ان الجرائد المحلية نشرت فى المدة الأخيرة على سبيل الاحتفاء بها تقول «الشكر للحاكم الادارى الذى اصبحت المدينة بمجهوده غنية بالاشجار الظليلة الممتدة الاغصان . فهى تغمرنا بالظلال الوافرة حتى فى اشد الايام حرا . وكم هو جميل حقا ان نرى قلوب المواطنين تنبض بعرفان الجميل ، مثلما يترقرق الدمع فى عيونهم اعترافاً بما قدمه حاكمهم فى سبيلهم» . وبالتالى ، بعد ان سأل تشيتشيكوف شرطيا عن احسن السبل والوسائل للاهتداء الى الكاتدرائية والدوائر الحكومية والمحاكم المحلية وحاكم الولاية ، فيما لو احتاج اليها ، ذهب لكى يلقى نظرة على النهر الذى يخترق المدينة . وفى الطريق

نزع اعلانا ملصقا على عامود كى يتمكن من قراءته على راحته بعد رجوعه الى الفندق . وحدث ان كانت سيدة ذات منظر بهيج تسير فى ممر خشبى جانبى بصحبة خادم يحمل لها متاعا ، فجاد عليها بنظرة طويلة ايضا . واخيرا القى نظرة شاملة حوله (كما لو كان يريد ان يثبّت صورة المكان فى دماغه) وعاد الى مقره . وهناك ، بمساعدة الخادم اللطيفة ، صعد السلالم الى غرفته ، وشرب قدحا من الشاى ، وبعد ان جلس الى المائدة طلب شمعة . وما ان احضرت اليه حتى أخرج الاعلان من جيبه وقرّبه الى لهب الشمعة واخذ يدرس فحواه ، مغمضا عينه اليمنى بعض الاغماض . غير ان الاعلان لم يكن فيه شىء يستحق الاهتمام . فكل ما يتحدث عنه هو ان احدى روايات كوتزيبو * ستمثل قريبا وان شخصا معينا اسمه بوبليفين سيأخذ دورا فى الرواية . وهنا دور آخر ستأخذه المدموازيل زيابلوفا ، أما الأدوار الأخرى فسيأخذها آخرون اقل شأناً . ومع هذا فقد تتبع السيد الاعلان بكل عناية واهتمام ، بل ولم يهمل اسعار التذاكر . ولاحظ أيضاً ان الاعلان مطبوع فى مطبعة حكومة الولاية . ومن ثم قلب الورقة على ظهرها ليرى اذا ما كان هناك شىء آخر للقراءة على الصفحة الأخرى . ولمّا لم ير شيئاً فرك عينيه ووضع الورقة ثانية فى محفظته التى يضع فيها كل ما تقع عليه يداه . وانهى يومه

* كوتزيبو – مؤلف دراما المانى (١٧٦١–١٨١٩) . الناشر .

بقطعة من لحم العجل البارد وصحن شوربة من الكرنب المكبوس ونوم عميق .

وكرس اليوم التالى للزيارات ، فزار جميع وجهاء المدينة ، وزار حاكم الولاية زيارة بالغة الاحترام . وقد تبين ان حاكم الولاية يشبه تشيتشيكوف نفسه من حيث انه لم يكن بالسمين ولا بالنحيل . وكان يلبس حول عنقه شريطاً مع وسام آنا ، وقيل انه كان مرشحاً للحصول على وسام النجمة . وفيما عدا هذا كان طيبا كبير القلب . ولكن له عادة تنتابه احيانا وهى التسلى بتطريز الدنتلا . ثم زار تشيتشيكوف نائب حاكم الولاية ، فبيت المدعى العام ، فرئيس المجلس المحلى ، فرئيس الشرطة ، فرئيس الجباة ، فالمدير المحلى لمصانع الدولة . ان تذكر كل صغيرة وكبيرة فى عالمنا هذا ليس بالأمر البسيط . ولكن زائرنا على الأقل اظهر منتهى النشاط فى عمله هذا بالقيام بالزيارات ، حتى انه ذهب الى مفتش دائرة البلدية الصحى والى مهندس المدينة المعمارى لتقديم واجبات الاحترام . وبعد ذلك جلس فى العربة لوقت طويل مفكرا غارقا فى التفكير فيمن تستحسن زيارته من غير هؤلاء . ومهما يكن من امر فهو لم يهمل وجيهاً واحداً ، وكان يجيد الملق فى حديثه مع مضيفيه ، كل على حدة . وقد لمّح لحاكم الولاية مثلا بان الغريب اذا وصل الى ولايته يدرك انه وصل الى الفردوس بطرقه المخملية . وقد قال تشيتشيكوف «ان الحكومات التى توظف محافظين قديرين لتستحق اجزل فروض المديح» وكذلك ، ابدى

بطلنا فى حديثه مع رئيس الشرطة ملاحظة بشأن الشرطة المحلية كانت موضع عرفان الجميل . بينما اخطأ مرتين فى حديثه مع نائب حاكم الولاية ورئيس المجلس المحلى (وكلاهما موظف فى الدرجة الخامسة من الوظيفة) بأن ناداهما «يا صاحب السعادة» ، فراق لهما هذا الخطأ . وكانت نتيجة هذا كله ان دعاه حاكم الولاية لزيارته ذلك المساء ، وتلاه بعض الموظفين فدعوه واحداً بعد الآخر ، احدهم للغداء والآخر لحفلة شاى وما الى ذلك .

على اية حال ، فان المسافر لم يتكلم عن نفسه الا القليل . واذا حدث ذلك ، فقد كان بصورة عامة وباعتدال شديد . وقد كان فى الواقع ، اذا ما تطرّق الى هذا النوع من الحديث ، يتناوله بقالب ادبى . فكان يروى انه غير جدير باى تقدير من اترابه ، نظرا لكونه دودة لا يحسب لها حساب فى هذا العالم ، وانه مرّ بتجارب غريبة عديدة فى زمانه ، وانه بناء على ذلك قد عانى كثيرا فى سبيل الحقيقة . وان هناك اعداء كثيرين يطلبون حياته ، وانه – طلبا للراحة – يقوم الآن بالتفتيش على بقعة يستقرّ فيها . وحيث انه عثر على هذه المدينة والفى نفسه فيها ، فقد راى من واجبه الحتمى ان يقدم احترامه الى السلطات المسؤولة فيها . كان هذا ولا شىء غيره هو ما عرفته المدينة عن القادم الجديد فى تلك الآونة . ولم يضع – بالطبع – فرصة تقديم نفسه فى حفلة حاكم الولاية تلك الليلة . وقبل كل شىء ، على اية حال ، استغرق استعداده

لهذه المهمة مدة تزيد على الساعتين ، واستلـزم ان
يعتنى بهندامه اعتناء قل ان يشاهد له مثيل . وتفصيل
ذلك ، انه بعد اغفاءة قصيرة عقب العشاء ، طلب الماء
والصابون وامضى وقتاً طويلاً فى دعك خديه اللذين
كان بغية ذلك يدعمهما من الداخل بلسانه ، ثم فـى
تجفيف وجهه الممتلىء المستدير بفوطة تناولها عـن
كتف الخادم . وقد نخر فى وجه الخادم مرتين وهو يفعل
ذلك ، ثم استقر اما المرآة ،ولبس قميصا حقيقـى
المقدمة كاذب الجوانب والمؤخرة ، ونتف من انفـه
شعرتين بارزتين ، وخرج لابسا معطفا رسميا ذا لون
أحمر . ومن ثم ركب خلال الشوارع الواسعة الضئيلة
الأنارة ووصل بيت حاكم الولاية فوجده يتلالأ نورا كما
تعد البيوت للحفلات الراقصة . وعلى الباب كانت عربة
مشتعلة المصابيح ، وشرطيان متهيئان ، ولغط السائقين
وصياحهم . وكل ما يبعث الهيبة موجود كما يجـب ان
يكون . وما وصل الزائر الصالة حتى وجد نفسه مضطرا
لاغلاق عينيه برهة وجيزة . فقد كان شديدا جدا ذلك
البريق الخليط مـن المصابيـح والشمـوع وملابس
السيدات . كان كل شيء يبـدو مخضّبا بالنـور ،
والمعاطف السوداء فى كل مكان تبرق وتمرق – كما
يحوم الذباب فى يوم من أيام الصيف القائظ حول قالب
من السكر ، حين تجلس ربة البيت العجوز أمام النافذة
المفتوحة لتقطّع القالب الى مكعبات صغيرة فيتجمـع
حولها أطفال البيت ليراقبوا حركات يديها الخشنتين
وهما تهويان بالمدقة ، والذباب يدخل بشجاعة ويملء

حريته فى اسراب جوية يحملها النسيم ، ويغتنم فرصة
ضعف بصر العجوز وتوهج اشعة الشمس فى عينيه ،
فينتشر على قطع السكر زرافات ووحدانا ، ومع ان وفرة
المشهيات التى يجدها فى كل خطوة من خطواته تدعوه
للدخول ، الا انه كان يدخل للتعريف بنفسه اكثر مما
يدخل للأكل ، فيجرى استعراضا على القالب وهو صاعد
نازل عليه ، ويفرك أرجله الخلفية وارجله الأماميـة
بعضها ببعض ، وينظف جسده مما تحت الجناح ، او
يفرك ارجله الأمامية فوق الراس ومن ثم يطير مـن
النافذة ليعـود باسراب نهابـة اخرى . وقـد كان
تشيتشيكوف فى الحقيقة يبدأ بالنظر حوله حتى اخذه
حاكم الولاية بالذراع ليقدّمه الى زوجته ، الا ان ضيفنا
الحديث الوصول احتفظ فى رأسه بما يكفى لكى يختلق
ويشتم بعض المجاملات ، وهو ما ينتظر تماما من رجل
متوسط العمر ، من طبقة ليسـت بالرفيعة جدا ولا
بالوضيعة جدا . وبالتالى ، حين تشكلت الأزواج للرقص
وتراجع بقية الجمع الى الحائط ، طوى تشيتشيكوف
ذراعيه وراءه وأخذ لدقيقتين يتفحص الراقصين باهتمام
متزايد . كان بعض السيدات يلبسن لباسا جيدا مـن
طراز حديث ، اما بقيتهن فكن يلبسن اخلاقا هى ما يهب
الله عادة لعاصمة الولاية . وكان الرجال هنا ايضا –
كما هم فى اى مكان آخر ينتمون الى صنفين مختلفين
متمايزين : صنف يتألف من الرجال المشوقين الذين لا
تكاد تميزهم ، عند تحويمهم حول السيدات ، عن سكان
العاصمة . فقد شذبت افوادهم فى منتهى العناية ومنتهى

الفن ، وفى غاية القبول بدت وجوههم البيضاوية
الحليقة ، وكانت غاية السلاسة طريقتهم فى رعاية من
يراقصونهن من السيدات ، وفى غاية الانطلاق حديثهم
بالفرنسية حين يطرحون الاحاجى لصديقاتهم من النساء
كما فى بطرسبورج . اما الصنف الآخر فيتألف من
الأشخاص السمّان او الذين هم فى بنية تشيتشيكوف
(اى ليسوا بالكثيرى السمنة ولا بالكثيرى النحول) .
وهؤلاء تراجعوا او حادوا عن طريق السيدات واخذوا
يحدقون هنا وهناك ليروا فيما اذا كان خدم حاكم
الولاية قد اعدوا الموائد الخضراء للعبة الوست . كانت
ملامحهم مليئة سمينة ، وكان لبعضهم ثآليل ولم يكن
اى واحد منهم بشعر اجعد او متموج او على الطراز الذى
يسميه الفرنسيون «ليأخذنى الشيطان» ، بل على
العكس ، فقد كانت رؤوسهم امّا طويلة او مشط الشعر
عليها فغدت ملساء جداً . أما وجوههم فكانت مستديرة
رصينة . وهذا الصنف يمثل أكثر الموظفين احتراما
فى المدينة . ويمكننى ان اذكر ، للأسف ، أن الرجال
السمان فى هذه الدنيا يثبتون دائما تفوقهم على اخوانهم
النحاف فى شؤون الاعمال . فالنحاف تعهد اليهم مهمات
خاصة فى الاكثر اذ يتقاضون رواتب على ذلك لا غير
ويعملون ويتسكعون هنا وهناك ، وجودهم هوائى تافه
هو خيبة الأمل المحضة . وزيادة على ذلك ، فالسمان لا
يجلسون فى مقعد خلفى ، ولهم المقعد الأمامى دائما ،
ويجلسون بثبات وثقة اينما كانوا ، ويأبون التحرك
حتى لو تفسّخ المقعد وهوى تحت ثقل اجسامهم . وهم

لجمال مظهرهم لا يكترثون ابدا ، ولهذا لا يستريح
المعطف على اكتافهم كما يستريح على اكتاف النحاف .
الا ان السمان دائما يجمعون الثروة الكبرى . اما
النحيف ففى ثلاث سنوات لن تجد عنده فلاحا لم
يرهنه . واذا نظرت الى السمين فستجد عنده قصرا
فى الضاحية مسجلا باسم زوجته ، ثم قصرا أكبر فى
ضاحية اخرى ، ثم ضيعة قرب المدينة ، ثم قرية
واسعة فيها الخير كله . اى ان السمين ، بارضاء الله
وارضاء الدولة يحوز على احترام الجميع . وتكون نهايته
ان يعتزل العمل ويعيد تنظيم حياته من جديد ، ويصبح
سيدا لطيفا يوزع الكرم ويحيا حياة بذخ ورخاء ، ويكون
مصيره ان يخلّف ورثة نحافا بعد موته ، يستولون على
املاكه ويبعزقونها بسرعة على العادة الروسية . انا لا
انكر ان ما سبق وصفه يمثل الى حد كبير خلاصة ما
كان يدور فى مخيلة تشيتشيكوف عندما وقف يراقب
الجمع . وكانت نتيجة هذه التأملات ان صمّم على
الانضمام الى القسم الأسمن من الضيوف ، لا سيما وقد
عرف بينها وجوها عديدة اليفة لديه ، منها وجه المدعى
العام (وهو رجل بحواجب بارزة سوداء وغمزة ضعيفة
فى عينه اليسرى وكأنها تغمز وتقول «تعال الى الغرفة
المجاورة يا صديقى فعندى ما اقوله لك» ، الا ان
صاحبها غالبا ما يكون رجلا مهيباً صموتاً) ، ومدير
البريد (وهو شخص قصير الا انه ذكى وفيلسوف) ،
ورئيس المجلس المحلى (وهو انسان على كثير من
الوداعة) . حيّا هؤلاء الرجال الثلاثة تشيتشيكوف وكأنه

احد المعارف القدماء ، ورد على تحياتهم بانحناءة جانبية
فيها الكثير من التأهيل . وقد تعرف على ملاك شديد
الألفة والتهذيب اسمه مانيلوف ، وعلى ملاك آخر اكثر
خشونة اسمه سوباكيفيتش . وقد بدأ الأخير بالتعارف
بعد ان داس بشدة على قدم تشيتشيكوف ثم رجاه
العفو . ودعى تشيتشيكوف بعد ذلك الى لعبة الوست
فقبل الدعوة باحناءة الرأس اللطيفة المعهودة . وحين
جلسوا الى المائدة الخضراء لم ينهضوا حتى موعد العشاء
المتأخر . وفى هذه الفترة خيم الصمت على اللاعبين كما
هى عادة الرجال عندما يكرسون اعصابهم لعمل خطير
حقا . حتى ان مدير البريد الثرثار بطبيعته ، ما كاد
يمسك الورق بيديه حتى بدا على وجهه التفكير
العميق ، وزم شفتيه ، وظل محافظا على هذه الصورة
طيلة فترة اللعب . ولم يكن يتكلم الا اذا لعب لعبة
رابحة ، عندئذ كان يضرب المائدة بقبضة يده ، واذا
كانت الورقة الرابحة هى ملكة الورق يقول – «وبعد ،
ايتها الكاهنة العجوز» ، اما اذا كانت الورقة الرابحة هى
ملك الورق ، فيقول – «وبعد ، يا فلاح تامبوف» . وكان
رئيس المجلس المحلى يرد دائما على هذه الصيحات
ويقول – «آه ، امسكته من شاربيه ، امسكتها من
شاربيها» . ومن حوالى المائدة كانت تتعالى صيحات
تتناسب مع اللعب ، تتخللها كنية او اخرى يطلقها
المشتركون فى اللعب على الاوراق المختلفة . ولا اظن
بى حاجة الى القول بان اللاعبين تشاجروا فى نهاية
اللعب ، وان صاحبنا اشترك فى الشجار . وقد فعل

ذلك بكل حذق ودراية بحيث جعل كل من رآه ، على
الرغم من دوره الفعال فى الشجار ، يعتقد انه قام بدوره
هذا فى الطف اسلوب مستطاع . فلم يكن يقول للاعبين
قط «لقد لعبت الورقة الفلانية» . لا ، بل انه كان
يستعمل جملا كالتالية – «لقد سمحت لنفسك بلعب
الورقة الفلانية» ، ولقد ظل فى الحقيقة محافظا على
الوداد بينه وبين منافسيه ، يقدم لهم علبة السعوط
المطلية بالفضة (وقد وضع فى قعرها زهرتى بنفسج
لرائحتهما الجميلة) . وقد وجه القادم الجديد اهتمامه
الى الملاكين مانيلوف وسوباكيفيتش المذكورين سالفا
واستفسر عنهما فى الحال حين تنحى برئيس المجلس
ومدير البريد . ودلت الاسئلة التى وجهها الى هذين
الملاكين لا على حب الاستطلاع وحسب ، بل على قدر
من الذكاء العميق . فقد بدأ بالتساؤل عن عدد الانفس
التى يملكها كل منهما ، وكيف تسير امورهما حاليا ،
واخذ يستطلع عن اسميهما وعن عائلتيهما . وفى
الحقيقة ، لم يستغرق وقتا طويلا حتى خلب عقول
اصدقائه الجدد خلبا جميلا . اما مانيلوف بالذات –
وهو رجل لا يزال فى عنفوانه وله عينان فى حلاوة
السكر تغمضان كلما ضحك – فقد وجد نفسه غير قادر
على ابداء الكفاية من اعجابه ، فتوسل اليه – وهو
يحتضن تشيتشيكوف احتضانا طويلا – ان يشرفه
بزيارة فى بيته الريفى الذى قال انه يقع على بعد لا
يزيد عن خمسة عشر فرستا * من حدود المدينة . واكد

* قياس طول روسى يساوى ١،٠٦ كيلومتر . الناشر .

له تشيتشيكوف رداً على ذلك (بانحناءة هي في منتهى اللطافة ومصافحة توحي بغاية الاخلاص) انه ليس مستعداً لتنفيذ مشيئته وحسب ، بل انه يرى في تنفيذ هذه المشيئة واجباً مقدساً . وقال له سوباكيفيتش على طريقته الخاصة وبايجاز «اتزورونى ؟» وراح يحرك حذائيه الكبيرين اللذين بلغت ضخامتهما درجة يصعب ان تجد زوجا بحجمهما – خاصة في هذه الايام التي اخذ فيها الابطال القصصيون الخرافيون في روسيا بالانقراض .

وفي اليوم التالي ذهب تشيتشيكوف ملبيا دعوة عشاء ، وقضى المساء في بيت مدير الشرطة ، حيث جلس كل فرد فيه بعد العشاء منذ الساعة الثالثة للعبة الوست وظل في جلسته اياها حتى الساعة الثانية صباحا . وفي هذه الفرصة كان من بين من تعرف عليهم تشيتشيكوف ملاك يسمى نوزدريف ، وهو انسان مرح في الثلاثين من عمره . ولم يكد يتبادل معه ثلاث كلمات او اربعاً حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثاني . ومع انه فعل الشيء نفسه مع مدير الشرطة والمدعي العام ، الاّ أن الجمع لم يكد يستقرّ في المقاعد على مائدة اللعب حتى بدا هذان الموظفان يراقبان لعب نوزدريف باهتمام ويدققان في كل ورقة يلعبها . وامضى تشيتشيكوف المساء التالي عند رئيس المجلس المحلي الذي استقبل ضيوفه برداء بيتي متسخ مع أن بين الضيوف سيدتين . وتبع ذلك مساء في بيت نائب حاكم الولاية ، وحفلة عشاء كبيرة في بيت رئيس الجباة ، وحفلة اصغر

في بيت المدعي العام وهي حفلة كبيرة في الحقيقة ، وحفلة استقبال عند رئيس البلدية . وباختصار ، لم يجد تشيتشيكوف ساعة واحدة في اليوم يضطر الى قضائها في نزله ، ولم يعد رجوعه الى النزل ضروريا الا في ساعات النوم . وكيفما كان الأمر فقد استقر به النوى ، وظهر في كل مكان على انه رجل حنكته الحياة . فقد كان دائما يحافظ على ان يكون له نصيب في الحديث ، لا يعيقه عن ذلك مهما كان موضوع الحديث . فلو دار الحديث عن تربية الخيول ، فعن تربية الخيول خاصة فهو اهل للكلام . ولو دار عن الكلاب المدربة ، فله في الحال راى جدي في هذا الموضوع . ولو تطرق الكلام الى محاكمة قضت فيها حديثا محكمة التمييز ، ففي التو يظهر انه غير جاهل في شؤون القانون . ولو ابدى راى بشأن البلياردو ، فقد كان باستطاعته في هذا الموضوع ان يتحاشى اى خطا . ولو اثير حديث عن الفضيلة ، فعن الفضيلة يفيض بحديث يستنزف الدمع من كل عين . ولو كان موضوع الجدل عن تقطير الخمور ، أجل ، فهذا امر عنده فيه العلم الصحيح . ولو ذكر أحد موظفي الجمارك او احد المفتشين ، ففي اللحظة يسهب في الحديث كما لو كان موظفا في الجمارك او مفتشاً . الاّ انه كان عنده امر ملحوظ ، وهو قدرته على ان يجعل كل شيء جديا وكان يستطيع كبح جماح نفسه في اثناء الحديث ، وهو في سبيل ذلك يتكلّم لا عالياً جدا ولا منخفضاً جدا ، ولا يزيد عما يكون مناسباً . بكلمة واحدة ، كان سيدا ذا طبائع متميزة ،

وكان كل موظف يفرح بوصول الوجه الجديد . وكان راى حاكم الولاية فى تشيتشيكوف انه رجل ذو اهداف سامية ، وراى المدعى العام انه رجل اعمال بارع ، وراى عقيد الدرك انه رجل مثقف ، وراى رئيس المجلس المحلى انه دمث الاخلاق مهذب ، وراى رئيس الشرطة انه انسان محترم ومتادب ، ورات زوجة رئيس الشرطة ان ادب سلوكه لا يعادله الا حسن تربيته . بل ان سوباكيفيتش الذى كان من مبدئه ان لا يذكر الناس بالحسنى الا نادراً ، قال لزوجته الهزيلة عند عودته متاخرا من المدينة ، وبعد ان خلع ملابسه ليتمدد بجانبها على الفراش «تناولت العشاء هذا المساء عند حاكم الولاية ، وذهبت الى بيت رئيس الشرطة ، وهناك قابلت من بين المدعوين شخصا اسمه بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف ، وهو من متوسطى الاعيان ، وله شخصية محببة جدا .» واجابت زوجته على ذلك قائلة «همهم» ولكزته بقدمها .

هكذا كانت آراء المديح التى جناها القادم الجديد فى المدينة . وقد ظلت هذه الآراء على ما هى عليه حتى حدثت حادثة غريبة (سيعرفها القارئ فيما يلى) اغرقت سكان المدينة فى بحر من الحيرة .

الفصل الثانى

عاش الزائر فى المدينة ما يزيد عن اسبوع وسط الولائم والحفلات ، حيث امضى – على حد التعبير

الشائع – وقتاً ممتعاً . وصمم اخيراً على ان يمد نطاق زياراته الى خارج حدود المدينة بالذهاب الى الملاكَين مانيلوف وسوباكيفيتش نظراً الى انه وعدهما بشرفه ان يفعل ذلك . الا ان ما دعاه فى الحقيقة الى هذا الامر قد يكون سبباً اكثر ضرورة وهدفاً اشد خطورة وغرضاً اقرب الى قلبه من السبب الذى ذكرت وسيحيط القارئ علماً بهذا الغرض اذا كان لديه من الصبر ما يقرا به هذا الاستهلال القصصى الذى مهما بدا طويلا الا انه قد يتسع ويزداد طولا كلما قاربنا العقدة التى قدر ان يتتوج بها هذا الكتاب . وعلى ذلك فقد تلقى الحوذى سيليفان ذات مساء امراً باعداد الخيول فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ؛ بينما تلقى بتروشكا امراً بالتخلف للعناية بالحقيبة والغرفة . وقد يرغب القارئ هنا فى التعرف على الخادمين المذكورين . طبعاً لم يكونا من الشخصيات التى تستحق الذكر بل مجرد من يسميهم الناس شخصيات ثانوية ، او حتى اقل من ذلك شاناً . وبالرغم من ان جوهر القصة ومحورها لا يعتمد عليهما بل سيمسهما مساً رقيقاً فقط او قد يشملهما احياناً – الا ان للمؤلف رغم روسيته غراماً فى التفصيل ورغبة فى الدقة كما عند الالمانى . فمن الضرورى اذن ان نزيد قليلا على ما عرفه القارئ عن ان بتروشكا كان يرتدى عادة سترة بنية منبوذة اصلا بحجم كبير عليه جداً ، وكان له ايضاً – كما هى عادة من هم فى صنعته – زوج غليظ من الشفاه ، وانف بارز جداً . وكان بطبعه صموتاً اكثر منه ثرثاراً ،

وبه ميل الى تثقيف نفسه . اعني انه كان مغرماً بقراءة الكتب وان لم يكن لديه فرق بين محتوياتها ، سواء منها كتب المغامرات البطولية او الحب او كتب الصرف والنحو او الكتب السماوية المقدسة . وكما اقول ، فقد كان يتتبع كل كتاب وقع بين يديه بالدرجة نفسها من الاهتمام ؛ ولو قُدّم اليه كتاب فى الكيمياء لقبله ايضاً . كان مجرد السلوى التى يستمدها من فعل القراءة – لا الكلمات التى يقرؤها – هو ما يرتاح اليه عقله . عل انه فى اية لحظة قد تبرز له فى الصفحة الواحدة كلمات شيطانية لا يفرّق فيها بين الراس والذنب . وكان فى الغالب يقوم بمهمته هذه وهو مضطجع فى مخدعه ؛ وهذا ما ادى بفراشه الى ان يصبح كالفطيرة الرقيقة . وبالاضافة الى حبه الانكباب عل الكتب ، كان يزهو بعادتين هما ميزتان اخريان اساسيتان فى تكوين شخصيته : اولاهما عادته فى ان ياوى الى مضجعه بملابسه (اى بالسترة البنية السالفة الذكر) ، والاخرى فى ان يحمل حيث ذهب جوه الخاص ورائحته الخاصة – رائحة بلغت من الاختصاص به مبلغاً كبيراً حتى انه ما يكاد "يَنصُب" فراشه ويجلب معطفه الى مكان ما – حتى لو كان مسكناً جديداً لم يقطنه احد بعد – حتى تنبعث رائحة تدل عل آنه كان عامراً طوال السنين العشر الخوالى . ومع ان تشيتشيكوف رجل متأنق – او بالاحرى سريع الانفعال – غير انه اذا التقطت خياشيمه هذه الرائحة مع اريج الصباح يقطّب اساريره فقط ويهز راسه ويقول :

«الشيطان وحده يعلم ما بك . انك بلا شك تعرق كثيراً ، اليس كذلك ؟ وافضل ما يمكن ان تعمله هو ان تذهب فتستحم» . ولم يكن بتروشكا يجيب عل هذا الكلام بشىء ويحاول ان يشغل نفسه بعمل ما ، كان يقترب والفرشاة فى يده الى حيث يكون معطف سيده معلقاً ، او يأخذ بترتيب شىء من الاشياء . بماذا راح يفكر فى صمته هذا ؟ وبما كان يقول لنفسه «وانت ما اغربك ، الا تمل من اعادة هذا الكلام اربعين مرة» . لا يعلم ولا يرى كل شىء غير الله ، ولهذا فمن المستحيل اطلاقاً ان يعلم كائن بشرى كل ما كان يدور فى عقل الخادم عندما يعنفه سيده . ومهما يكن من امر ، فلا حاجة بنا مبدئياً الى زيادة فى القول عن بتروشكا . اما من الناحية الاخرى ، فكان الحوذى سيليفان شخصاً آخر . . .

ولكننى اودّ ان اذكر هنا انني لا احب ان اشغل بال القارئ بشؤون اشخاص هم من طبقة احط من طبقته ، فقد علمتنى التجارب ان لا رغبة لهم فى التعرف عل الطبقات الدنيا ، وان من طبع الروسى العادى ان يتعرف عل اشخاص فى درجات السلم الاجتماعى العليا . وفى الواقع فان تعرفه عل امير او كونت ، حتى ولو بانحنائه لهما ، يعتبر فى نظره اهم كثيراً من العلاقات المتينة بينه وبين الناس العاديين . ولهذا السبب نفسه فان مؤلف القصة يشعر بالخوف عل بطله لا سيما وقد جعل هذا البطل من متوسطى الاعيان فقط – اى مجرد شخص قد يأنس اليه كبار الاعيان ، ولكن من كانوا

برتبة جنرال سينظرون اليه نظرتهم الى كل مـــن لا
يتذلل تحت اقدامهم الجليلة . واسوأ من ذلك ، فان
اشخاصاً كهؤلاء ممن يحملون رتبة جنرال ، من المحتمل
ان يعاملوا تشيتشيكوف باهمال مقصود ، والاهمال
المقصود ينفث الموت للمؤلف . مهما يكن من امر ،
وعلى الرغم من القنوط الذى توحيه الاحتمالات السابقة ،
فقد حان الوقت لان أعود الى بطلى . فبعد ان املى عـلى
الخدم اوامره الليلية الضرورية ، نهض مبكراً واغتسل ،
ودعك نفسه من الراس الى القدم باسفنجة مبتلّة (وهو
امر كان يقوم به كل يوم احد فقط ، وقد حدث ان كان
ذلك اليوم بالصدفة يوم احد) وحلق وجهه بعناية حتى
اخذ خداه يشرقان اشراقة الحرير اللماع ، واصبحـا
ناعمين نعومته ، وارتدى اولاً معطفه الرسمى بلون
التوت ، ومن ثم وضع معطفه المصنوع من جلد الدب
وراح نازلا على السلم والخادم طوال هذه الأونة واقـف
على خدمته ودخل العربة . وبقرقعة عالية انطلقت العربة
من الفندق الى الشارع . ورفع كاهن قبعته اذ مـرت
العربة عليه ، واخذ بضعة من الصبية بملابس كئيبـة
يصيحون طلباً لشىء من الاحسان لليتامى . ولكـن
السائق لمح نذلا منهم يوشك ان يتعلق برفرف العربة ،
ففرقع بسوطه فقفزت العربة بسرعة متزايدة على الارض
المبلطة . واخيراً تنفس المسافر الصعداء عندما لمـح
عن بعد بداية الطريق الحصباء التى تبشره بنهايـة
الطريق المبلط ونهاية متاعب اخرى شتى . ولم يكـد
تشيتشيكوف يصدق ان يرى نفسه والعربة تدرج به

على الطريق المستوية بعد ان انخبط راسه بصندوق
العربة عدداً غير قليل من المرات . وما كادت المدينة
تتباعد فى الافق حتى اخذت جنبات الطريـــق تعرض
مناظرها المختلفة من الآكمات المالوفة واشجار الشربين
وخمائل الصنوبر الصغيرة والاشجار الهرمة ذات الجذوع
المجرّحة وايكات العرعر البرى ، وما ماثـــل ذلـــك .
وسرعان ما لاحت للابصار البيوت الريفية المتسلسلة
التى كانت قريبة الشبه باكوام الحطب نظراً لدعاماتهـا
المائلة وسقوفها الرمادية التى كانت تدلى من الجوانب
كما تدلى الملاءة على اطراف المائدة . وبالمثل فقد كان
الفلاحون بمعاطفهم المالوفة المصنوعة من جلد المعزى
يجلسون كالعادة متثائبين على مقاعد نصبت امــــام
اكواخهم ، بينما اطلت نساؤهم ذوات التقاطيع الممتلئة
والنهود الملتفة من الشبابيك العليا ، اما الشبابيـــك
السفلى فقد بدا من احدها عجل متطلع ، ومن الآخر بدا
فكا خنزير قبيحان . وباختصار ، كان المنظر من المناظر
العادية المالوفة . وبعد ان مر تشيتشيكوف بالحجـر
الذى نقشت عليه علامة الخمسة عشر فرستا تذكـر
فجأة ان المسافة بين بيت مانيلوف الريفى وبين المدينة
هى خمسة عشر فرستا تماما كما قال له مانيلـــوف
بنفسه . لكن علامة الفرست السادس عشر مرت ايضاً
دون ان يظهر اى اثر للقرية . وفى الحقيقة لو لم يقابل
المسافر فلاحَيْن فى الطريق لذهبت مهمته من الرحلة
عبثاً . ورداً على ما اذا كانت قرية زامانيلوفكا تقع فى
تلك الضواحى ، خلع الفلاحان قبعتيهما ، ومن ثم انبرى

احدهما ويبدو أنه معتز بذكائه اكثر من زميله وله لحية تشبه الأسفين ، وقال :

– ربما كنت تعنى مانيلوفكا – لا زامانيلوفكا ؟

– اجل ، اجل ، مانيلوفكا .

– مانيلوفكا ، اية ؟ عليك ان تتابع السفر فرستا آخر ، وعندئذ ستراها امامك مباشرة الى اليمين .

فردد السائق الصدى يقول «الى اليمين ؟»

فأكد الفلاح قائلا «نعم الى اليمين . انك فى الطريق الصحيح الى مانيلوفكا ، لكن زامانيلوفكا – لا وجود لمكان بهذا الاسم . فالقرية التى تعنيها تدعى مانيلوفكا لان اسمها مانيلوفكا ، لكن لا وجود لقرية باسم زامانيلوفكا . والبيت الذى تعنيه يقع هناك على تلك الرابية ، وهو بيت مبنى من حجر ذو طابقين يعيش فيه سيد ، اسمه مانيلوف . ولكن زامانيلوفكا غير موجودة فى هذه النواحى ، ولم تكن موجودة فى يوم من الايام» .

وهكذا شرع المسافرون فى التفتيش عن مانيلوفكا . وبعد ان ساروا فرستين آخرين وصلا الى بقعة تتشعب منها طريق فرعية . غير أنهم ساروا فى الطريق الفرعية فرستين وثلاثة ثم اربعة قبل ان تلوح لهم أولى علامات البيت الحجرى ذى الطابقين . عندئذ تذكر تشيتشيكوف فجأة ان الصديق اذا دعا صديقه الى زيارته فى بيته الريفى وقال له بان المسافة اليه خمسة عشر فرستا وجب ان يُفهم من ذلك أن المسافة لا تقل عن الثلاثين . ان موقع قرية مانيلوف لا يحلو لكثير من الناس ، وكان بيت السيد على مرتفع منعزل مكشوف ، تضرب فيه

الرياح من اى ناحية هبت . وعلى سفح المرتفع زُرِعَ حشيش أخضر جار المقص عليه فى التقطيع ، بينما انتشر هنا وهناك حوضان او ثلاثة احواض من الزهور على الطراز الانجليزى فيها اضغاث من البنفسج والطلح الأصفر . وكانت هناك أيضاً خمس او ست من أشجار البتولا ذات ذرى هزيلة الاوراق . وتحت اثنتين من هذه الاشجار عريش بقبة مسطحة خضراء ودعائم خشبية مدهونة باللون الازرق ، ولوحة كتب عليها «هذا معبد التفكير الوحدانى» . وعند أسفل السفح كانت بركة مطلية باللون الأخضر – فالبرك ذات الطلاء الاخضر هى المنظر المألوف المتكرر فى حدائق الملاكين الروس وعند سفح المرتفع وفى بعض المواضع من منحدره تمتد سلسلة من الاكواخ المبنية من جذوع الاشجار ، والتى ابتدأ بطلنا – لسبب لا يعلمه أحد – باحصائها . وقد احصى مئتين او أكثر ولكنه لم يشاهد بينها عرقاً واحداً أخضر . كل ما كانت تقع عليه العين هو جذوع الاشجار التى بنيت منها تلك الاكواخ . لقد كان المنظر كئيبا حقاً لولا امرأتان فلاحتان رفعتا ذيلي ملابسهما بشكل يسترعى الانتباه ، وأخذتا تخوضان فى ماء البركة حتى ركبتيهما ، وهما تجران شبكة صيد متهرئة ذات مقابض خشبية وقد عَلِقَ بين ثناياها سرطانان وأسماك صغيرة نهرية بقشورها البراقة . ويبدو أن المرأتين كانتا على خصام شديد لسبب ما لأن الجدل الحاد كان قائماً بينهما . ومع الافق على احدى ناحيتى البيت كان يبدو شبح غابة الصنوبر الازرق

الاغبش . وحتى الطقس كان منسجماً مع تلك الظروف ، فلم يكن اليوم بالصافى ولا بالغائم ، ولكن السماء كانت مكسوة باللون الرمادى الذى نعهده فى ملابس الجنود الحرس الذين قضوا فى الخدمة عهداً طويلاً وتعودوا السكر أيام الآحاد . واكمالا للوحة التى وصفناها ، كان الديك نذير التقلبات الجوية ، موجوداً . ومع ان عُرفه كان عارياً ، نظراً الى ان الديوك الاخرى قد نتفته لامور تتعلق بالشهامة ، الا أنه رفرف بجناحين أجردين كبرقع قديم ، وزعق بالصوت عالياً . وما ان اقترب تشيتشيكوف من البيت حتى وقع بصره على مضيفه مرتدياً معطفاً رسمياً اخضر وواقفاً على الشرفة ، واضعاً احدى يديه على عينيه لكى يقيهما اشعة الشمس ، ويصبح فى امكانه أن يستوضح العربة القادمة . وبالقدر الذى كانت فيه العربة تقترب من الشرفة كان يبدو الابتهاج فى عينى المضيف وتزداد ابتسامته عرضاً .

وما كاد يقع نظره على تشيتشيكوف وهو يهبط من العربة حتى صاح قائلا «بافيل ايفانوفيتش . لم يكن يدور بخلدى اننا سنخطر لك على بال» .

وتعانق الصديقان عناقاً حاراً ، ثم قاد مانيلوف ضيفه الى قاعة الاستقبال . وسوف اغتنم الفترة القصيرة التى سيقضيانها فى اجتياز القاعة والغرفة الامامية وغرفة الطعام ، لأحاول ان أتحدث شيئاً عن رب البيت . ولكن امراً كهذا ملىء بالمصاعب ، وهو أكثر سهولة من تصوير شخصية من الشخصيات البارزة التى لا تحتاج عند

رسمها الاّ الى أضفاء شتى الألوان عليها ، كان تقول : العينان سوداوان ملتهبتان والحاجبان غليظان ناتئان والجبهة تعلوها التجاعيد والعباءة سوداء أو حمراء قانية مرمية على الكتف ، وما الى ذلك . أجل ان ملاكى الاقنان الروس كثيرو العدد جداً ، ومتشابهون ، ومع ان دراستهم العميقة المتفحصة ستبدى لنا خصائص غريبة عديدة للافراد منهم ، الا ان وصفهم من الصعوبة بمكان عظيم . وعلى من أراد ذلك ان يستنزف جهده العقلى حتى آخر قطرة قبل ان يصبح فى استطاعته معرفة ملامح الوجه الدقيقة التى لا تكاد ترى والتى تتميز بها هذه الطبقة . وباختصار ، يتحتم على المرء ، قبل ان يقوم بهذا العمل ، ان يسبر غور هذا الموضوع أمداً طويلاً بفطنة حادة ونظر بعيد عميق .

الله وحده يعلم حقيقة شخصية مانيلوف . ان هناك فئة من الناس ينطبق عليها المثل القائل «لا هو فى العير ولا فى النفير» . لهذه الفئة يجب أن تنسب مانيلوف . كان مظهره الخارجى على قدر كبير من الوسامة لا ينتقصه شىء من اللطف ، ولكن هذا اللطف مضاف اليه قسم كبير من عنصر السكر ، بحيث اصبحت كل لمحة من لمحاته وكل وضع من اوضاعه تدل على رغبة فى التعارف وشوق لربط اواصر الوداد .

كان ذا ابتسامة مغرية وشعر اشقر وعينين زرقاوين واذا ما بدأ المرء بالحديث معه ، فان ابتسامته المحببة وشعره الكتانى وعينيه الزرقاوين تجعل المرء يقول عنه فى اللحظة الاولى «ياله من رجل لطيف محبوب» ، لكنه

في اللحظة التالية سوف يشعر بانه غير راغب في ان يقول شيئاً ، اما في اللحظة التي تلي ذلك فلن يجد امامه ما يقول الا «الشيطان وحده يعلم ما هو هذا الانسان» . واذا لم يسرع المرء بتركه لسبب من الاسباب فمما لا شك فيه انه سوف يحس بذلك السأم القاتل الذي يشعر به كل انسان اذا ما عرف ان ليس هناك من جديد او طريف في وضع من الاوضاع وان عليه ان لا ينتظر اية كلمة حية او متعجرفة يتدفق من شفتي انسان آخر اكتشفت هوايته . ولكل انسان هواية . فهواية البعض تربية الكلاب ، وهواية آخر الاعتقاد بانه محب للموسيقى وان باستطاعته ان يسبر هذا الفن الى غوره ، وآخر ان يظهر بمظهر الخبير بانواع المأكولات الطيبة ، وهواية آخر الطموح في ان يلعب في هذه الحياة دوراً اكبر من ذلك الذي خصصته له الطبيعة ، وهواية آخر (وهذا اقل طموحا) قد تكون في النوم ليحلم – انه يتنزه في الشارع مع ضابط كبير امام ابصار اصدقائه وغير اصدقائه ، وقد تكون هواية آخر ان تصبح يده قادرة على خدش طرف الآس في اوراق اللعب ، وقد تكون هواية انسان آخر ان يضع الامور في نصابها ، ويتقرب من شخصية مدير محطة تبديل الخيول او الحوذية . وباختصار لكل انسان هواية وميل – الا مانيلوف ، فلم يكن له شيء من هذا القبيل . فقد كان في البيت قليل الكلام وكان يقضي القسم الأكبر من اوقاته في التفكير – اما مضمون هذا التفكير فلا يعلمه الا الله . ولا استطيع ان اقول بانه

كان يهتم بامور مزرعته لا في الكثير ولا في القليل ، لانه لم يذهب لتفقدها قط ، وكانت المزرعة عملياً هي التي تدبر نفسها . واذا قال له مأمور املاكه يوما «قد يكون من المستحسن ان نعمل الشيء الفلاني» اجابه قائلا ، «نعم انها فكرة لا بأس بها» ثم يأخذ في تدخين غليونه – وهي عادة اكتسبها اثناء خدمته في الجيش حين كان اترابه ينظرون اليه على انه ضابط محترم مرقته رقيق الحاشية . ومن ثم يكرر قائلا «نعم انها فكرة لا بأس بها» . واذا ما جاءه يوما فلاح واقترب منه وهو يحك مؤخرة عنقه وقال «سيدي ، اتسمح لي باجازة لكي اذهب واشتغل لنفسي حتى اجمع ضريبتي» كان يجيبه حالا بقوله ، «اجل ، اذهب» ولن يتعب نفسه في التفكير عما اذا كان هدف الفلاح الحقيقي الذهاب للسكر في الحانة . وقد كان في الواقع يقف ، في بعض الاحيان في الشرفة وينقل بصره من الساحة الى البركة ويقول لنفسه ، كم يكون رائعاً في الحقيقة لو ان ممراً شق تحت البركة ، وان ينصب جسر حجري فوق البركة فجأة ايضاً ، وان تقوم في لمح البصر حوانيت ،فيها جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية . وفي لحظات كهذه تبدو في عينيه علامات النصر وعلى ملامحه امارات الرضى العميق . غير ان هذه المشاريع لم تتعد مرحلة التأمل اطلاقاً . وبالمثل ، ففي مكتبته كتاب مقلوب ابداً على الصفحة الرابعة عشر . انه الكتاب الذي كان ولا يزال يقرأ فيه في السنتين الأخيرتين ! اما قصره الجميل فكان يبدو ان هناك شيئا

ينقصه على وجه التعميم . فمع أن غرفة الاستقبال مثلا ، كانت مليئة بالأثاث الحريري الجميل الذى كلّف مبالغ غير قليلة ، فقد كان فيها كرسيان لا غطاء لمقعديهما بل حصيرة من ليف ، الا ان رب البيت كان قد اعتاد فى السنوات القليلة الماضية ان يحذر ضيوفه من الجلوس عليهما قائلا «لا تجلسوا على هذين الكرسيين ، لم يتم انجازهما بعد» . وهناك غرفة اخرى خالية من الأثاث ، مع انه فى الأيام الأولى التى تلت عرسه قال لزوجته «غداً يا عزيزتى سوف نجلب بعض الأثاث لهذه الغرفة ، ولو كان اثاثا مؤقتاً» . ففى كل امسية يضع الخدم على مائدة غرفة الاستقبال شمعدانا برونزياً لطيفاً مزيناً بالصدف عليه ثالوث الجمال وشمعداناً عادياً عتيقاً من نحاس تعلوه طبقة كثيفة من الاوساخ ، الا ان أحداً لم يفكر فى هذا الموضوع ، لا رب البيت ولا ربته ولا أحد من الخدم . وفى الوقت نفسه كان مانيلوف وزوجته راضيين عن بعضهما البعض كل الرضى . فقد مر على زواجهما اكثر من ثمانى سنوات ، الا ان كل واحد منهما كان دائماً وأبداً يقدّم للآخر قطعة من التفاح او الحلوى او الجوز ، وهو — او هى — يتمتم كلمات عاطفية صادرة من اعماق القلب . كانت الجملة التى يردّدانها هى الجملة المحفوظة التالية «افتحى (او افتح) فمك يا عزيزتى (او يا عزيزى) ودعنى اضع فيه هذه القطعة» وعلى القارئ ان يتأكد ان الفم العزيز كان ينفتح بكل دلال . واذا جاء عيد ميلاد الواحد منهما كان الآخر يقدم له هدية المفاجأة ككيس

مزين بالخرز لحفظ تسليك الاسنان أو ما ماثل ذلك . واذا ما كانا يجلسان معاً على الديوان فانه ، فجأة ولسبب غير معروف ، يضع غليونه جانباً وهى بدورها تلقى ما فى يديها من شغل الصوف (اذا حدث أن كان آنذاك بين يديها) ويتعانق الزوجان ليطبع كل واحد منهما على شفتى الآخر قبلة فاترة طويلة يستطيع المرء اثناءها ان يدخن سيجاراً صغيراً . وباختصار ، كانا من النوع الذى يطلق عليه «زوجين سعيدين» . الا انه يجب أن نذكر هنا ان الزواج السعيد يتطلّب امورا اخرى يهتم بها الزوجان غير المعانقة واعداد الهدايا المفاجئة . اجل ، فهناك اعمال يجب أن تحظى باهتمام الزوجين . فلماذا يُظَنّ مثلا ، بان اشراف ربة البيت على شؤون المطبخ امر معيب او ماسّ بالكرامة ؟ ولماذا لا يصرف الاهتمام الكافى الى المخازن ومستودعات البيت لكى لا ينقص من مستلزماته شىء ؟ ولماذا تعطى الفرصة للقهرمانة فى البيت لكى تسرق ما فيه ؟ ولماذا يبقى فى البيت خدمه المهملون السكارى ؟ ولماذا يسمح لهم بالنوم والعربدة طول الوقت ؟ لكن لا شىء من هذه الامور جدير بالاهتمام فى عينى مدام مانيلوف لأنها كانت قد تربت تربية راقية . والتربية الراقية — كما تعلم — موجودة فى المدارس الداخلية . والمدارس الداخلية — كما هو معروف لدى الجميع — ترى ان أسس الفضيلة تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية هامة ، اللغة الفرنسية (وهى أمر لا غنى عنه للحياة الزوجية) ، والعزف على البيانو (وهو امر ضرورى لتسلية الزوج فى

اوقات الفراغ) ، وذلك الفرع من التدبير المنزلى الذى يختص بحياكة المحفظات واعداد المفاجآت . على أية حال ، فقد بدات الاصلاحات والتغييرات تحتل مكانها فى هذه المؤسسات فى الوقت الراهن لأن الامور فيها اصبحت تسير وفق رغبات القائمين عليها وحسب اهوائهم الشخصية . ففى بعض هذه المعاهد مثلا ، اصبح العزف على البيانو يحتل المرتبة الاولى والفرنسية تحتل المرتبة الثانية اما التدبير المنزلى المذكور اعلاه فياتى فى المرتبة الأخيرة . بينما نجد فى معاهد اخرى ان حياكة هدايا المفاجآت تحتل الدرجة الاولى تليها اللغة الفرنسية ثم العزف على البيانو – الى هذه الدرجة بلغ الاختلاف فى الانظمة السائدة ! ومع ذلك فيمكن ان اقول ان مدام مانيلوف . . . لكننى يجب ان اعترف باننى اخشى دائماً ان اتحدث الكثير عن السيدات . وبالاضافة الى ذلك فقد حان الوقت لكى نعود الى بطلينا اللذين كانا واقفين فى الدقائق القليلة الماضية امام باب غرفة الاستقبال يتباريان فى تقديم بعضهما البعض فى السبق الى الدخول .

قال تشيتشيكوف «ارجو ان تتكرم بالدخول وان لا تزعج نفسك بسببى ، فسوف أتبعك» .

فاشار مانيلوف الى الباب وقال «لا يا بافيل ايفانوفيتش ، لا ! انك ضيفى» .

فقال تشيتشيكوف «لا تجعل من هذه المسألة امراً كبيراً ، ارجوك لا تجعل منها امراً كبيراً وان تتفضل بالدخول قبلى» .

«انى لن افعل ، فارجو عفوك . اننى لن أسمح لنفسى بان اتقدم على ضيف عزيز مهذب ، مثلك ، اطلاقا» .

«ولماذا تصفنى بالمهذب يا سيدى العزيز ؟ أرجوك ان تدخل» .

«كلا ، لن يكون ذلك ، تفضل» .

«ولماذا ؟»

فابتسم مانيلوف ابتسامته الحلوة ، وقال «للسبب الذى ذكرت» .

واخيرا دخل الصديقان سوية بجانبيهما يزحم أحدهما الآخر بعض الشىء .

واستأنف مانيلوف حديثه قائلا «اسمح لى ان اقدم لك زوجتى» . وقال لزوجته «هذا بافيل ايفانوفيتش يا عزيزتى !» وفى تلك اللحظة وقعت عينا تشيتشيكوف على سيدة كان قد سها عن رؤيتها حين كان يتبادل الانحناءات مع مانيلوف فى مدخل الباب . لم تكن قبيحة المنظر قط ، وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الملون ، وعندما دخل الزائر الغرفة رمت من يديها الصغيرتين شيئا على المائدة وامسكت بمنديل من الشيت قبل ان تنهض من على الديوان الذى كانت تجلس عليه . واخذ تشيتشيكوف يدها بغير قليل من الارتياح ، وراح يستمع اليها وهى تحدثه بلثغة بسيطة فى اللفظ ، وتخبره أنها هى وزوجها يشعران بالامتنان العظيم لمجيئه ، وان زوجها فى المدة الأخيرة كان يذكره كل يوم .

واكد مانيلوف هذا الحديث بقوله «وفى كل يوم

كانت تسألنى – ولماذا لم يطل علينا صديقك حتى الآن – وكنت دائماً اجيبها قائلا – انتظرى قليلا يا عزيزتى ، فلن يمر وقت طويل حتى يأتى – وها أنت قد جئت ، ها انت قد شرفتنا بهذه الزيارة ، وها انت قد اغدقت علينا البهجة الكبرى ، بهجة تجعل هذا اليوم عيدا ، اجل انه عيد ميلاد القلوب» .

وما ان سمع تشيتشيكوف أن المسألة قد تطورت بحيث أصبحت عيد ميلاد القلوب حتى اعتراه بعض الارتباك . فأجاب اجابة متواضعة بأنه لا يعتز باصل ممتاز ولا برتبة ممتازة ، ولكن مانيلوف قاطعه بابتسامته الآسرة قائلا ، «انك لكذلك ، بل اكثر من ذلك» .

وتساءلت مدام مانيلوفا ، «وكيف رأيت مدينتنا ؟ هل قضيت فيها وقتا طيبا ؟» .

فأجاب تشيتشيكوف «اجل ، انها للطيفة جداً ، وقد اعجبنى فيها كرم اهلها» .

«وما رأيك فى حاكمنا ؟»

واضاف مانيلوف «الا تراه شخصية عظيمة ساحرة ؟»

فقال تشيتشيكوف «انه لكذلك ، وهو فى الحقيقة رجل يستحق كل احترام . ويا للدقة التى يقوم بها بانجاز مهامّه حسب ما يرشده اليه عقله النير ! ليت فى البلاد الكثير من امثاله !»

فابتسم مانيلوف واغمض عينيه نصف اغماضة كالقطة التى يداعبها صاحبها من خلف اذنيها ، وقال ، «يا للروعة التى يقابل بها كل انسان» .

فأكد تشيتشيكوف هذا بقوله «تماما . انه فى غاية الأنس والوداعة . ويا له من فنان ! لم اكن أتصور انه يستطيع ان يعمل هذه الاشغال اليدوية المنزلية التى عملها ! ان بعض اشغال الابرة التى اطلعنى عليها لا تستطيع سيدة فى البلاد أن تجاريه فيها !»

وتساءل مانيلوف مغمضا عينيه مرة أخرى «ونائب حاكم الولاية ، انه شخص لطيف . أليس كذلك ؟»

فأجاب تشيتشيكوف «جداً جداً ! انه شخص عظيم حقاً» .

«وما رأيك فى رئيس الشرطة ؟ أليس هو فى الواقع انساناً طيباً خلوقاً جداً ؟»

«طيب ، خلوق بكل تأكيد . ويا له من انسان بارع واسع الاطلاع ، لقد لعبت معه ومع المدعى العام ورئيس المجلس المحلى لعبة الوست الى أن صاح ديك الصباح صيحاته الأخيرة . انه لشخص رائع .

وتساءلت مدام مانيلوفا «وما رأيك فى زوجته ؟ أليست شخصيتها من الفخامة على قدر كبير ؟» فوافق تشيتشيكوف قائلا «انها من أحسن من عرفت» .

ولم ينس الجمع فى حديثهم رئيس المجلس المحلى ومدير البريد ، حتى مروا بذكر موظفى المدينة كلهم . وقد تبين فى كل حالة من هذه الحالات ان هؤلاء الموظفين فى أسمى درجات الكفاءة .

ثم تساءل تشيتشيكوف قائلا ، «وهل تقضى وقتك كله فى الريف ؟»

فأجاب مانيلوف «معظم الوقت ، مع اننا أيضاً نقوم

بزيارات للمدينة بغية الاختلاط مع الطبقة ذات النشأة الحسنة . ان المرء ليعلوه الصدأ اذا ما سيحيا حياة العزلة» .

فوافق تشيتشيكوف قائلا «ان هذا لصحيح» .

فتابع مانيلوف يقول «أجل هذا صحيح ، وفى الوقت نفسه سيكون الامر مختلفا فيما لو كان هناك جار واع – اى ان يكون هناك صديق مثقف يستطيع الانسان ان يبحث معه فى الاخلاق والآداب أو ان يتجادل معه فى فرع من فروع العلم ، لكى يحرك المرء عقله . لان هذه الامور تبعث الحيوية فى الانسان . ان ، ان . . .» ووجد نفسه ضائعاً فى التفتيش عن كلمات يعبر بها عن مشاعره واشار اشارة تدل على انه قد ذهب بعيدا فى الموضوع ، واستمر يقول «ان ما اعنيه انه لو كان ذلك الشىء موجودا ، فاننى سوف اجد متعة كبيرة فى العيش فى الريف . ولكن شيئا كهذا فى الواقع غير موجود ، وكل ما استطيع عمله هو اننى فى بعض الاوقات أقرأ مجلة «ابن الوطن» .

وقد وافق تشيتشيكوف على هذه المشاعر موافقة كاملة ، واضاف الى ذلك يقول بأن من المبهج حقاً للانسان ان يحيا حياة العزلة اذا ما استطاع ان يقضى اوقاته بين التأمل فى الطبيعة وقراءة الكتب .

ولكن مانيلوف استدرك قائلا «ولكن هذا كله لن يساوى شيئاً اذا لم يجد المرء صديقا يشاطره الحياة» .

فوافق تشيتشيكوف على ذلك ايضا بقوله «حقا ، حقا ، فما قيمة كنوز العالم كلها بدون صديق . وقد

قال احد الحكماء – الكنز الثمين لا يغنيك عن الصديق الامين» .

هنا بدت على وجه مانيلوف اشراقة ليست حلوة وحسب ، وانما لها صفة المزيج الذى يخلطه الطبيب الحاذق بالدواء المر فيجعله حلواً عندما يريد ان يسقيه للمريض الوجل . وقال «أجل يا بافيل ايفانوفيتش ، لا اظنك تستطيع ان تتصور اى سعادة او على الاصح اى سعادة كاملة شاملة اغدقتها علينا هذه الفرصة الحالية . فهى قد اتاحت لى ان احظى بسماع حديثك العذب وان استمتع بهذا الحديث» .

فاجاب تشيتشيكوف «انك تبالغ يا سيدى . اى حديث عذب ! ما أنا الا انسان ضئيل ، اننى فى الواقع لا شىء» .

فصاح الآخر «كفى يا بافيل ايفانوفيتش ، اذا شئت ان أكون صريحاً معك فاننى اقول لك باننى ساكون سعيداً لو اعطيت نصف ما املك مقابل أن أحوز على قسم من مواهبك» .

«على العكس من ذلك ، فانا أعتبر ان أسمى شرف فى العالم . . .»

ولا يعلم الا الله طول المدى الذى كان سيمتد اليه هذا الحديث الروحانى المتدفق المتبادل لو لم يدخل احد الخدم ليعلن لهما ان الغداء جاهز .

وقال مانيلوف «بكل احترام ادعوك لاصطحابنا على المائدة . وانى لألتمس منك المعذرة لعدم استطاعتنا ان نهيئ لك احتفالا مناسبا كما يفعلون فى المدينة او فى

العاصمة . فليس لدينا غير حساء الكرنب الروسى ، ولكننا نقدمه اليك من قلب مخلص . تفضل بكل احترام ، ارجوك» .

وبعد جدل طويل فى تقديم الواحد على الآخر فى الدخول الى غرفة الطعام ، اجتاز تشيتشيكوف الباب وهو يسير وجنبه الى الامام . ووجدا طفلين فى انتظارهما . كانا ولدي مانيلوف ، وهما فى سن يسمح لهما بالجلوس على الموائد ، اذا ما وضعت لهما الكراسى العالية الخاصة لهذا الغرض . وكان يقف الى جانب الصبيين معلّمهما الذى ابتسم وانحنى للضيف بكل ادب . ومن ثم جلست ربة البيت أمام طبق حسائها ، فاجلس ضيف الشرف بينها وبين رب البيت ، بينما اخذ احد الخدم يربط الفوط البيضاء على عنقى الطفلين .

وحدق تشيتشيكوف فى الصبيين وقال «يا لسحر هذين الطفلين ! كم عمرهما ؟»

فاجاب مانيلوف «الكبير فى الثامنة أما الصغير فقد أكمل السادسة أمس» .

والتفت الأب الى الأبن الأكبر ، وكان يجاهد فى تخليص ذقنه من الفوطة التى لفه بها الخادم ، وقال «ثيميستوكليوس» . وما ان سمع تشيتشيكوف هذا الاسم الاغريقى الصرف (الذى كان الأب لسبب غير معروف يضع فى آخره دائماً «يوس») حتى رفع حاجبيه قليلا ، ولكنه سارع فى اللحظة التى تلتها الى استرجاع المظهر الملائم لملامحه .

وقال الأب «ثيميستوكليوس ، قل لى ما هى أجمل مدينة فى فرنسا ؟»

وعندما سمع المعلم هذا السؤال ركز اهتمامه على ثيميستوكليوس ، وكان يريد أن تقع عيناه على عينيه . ولم يبد على المعلم الهدوء الا عندما لفظ ثيميستوكليوس كلمة «باريس» فخفض رأسه .

وعاود مانيلوف السؤال «وما هى أجمل مدينة فى روسيا ؟»

وعاد المعلم الى وضعه السابق من الاهتمام والتركيز الشديدين .

واجاب ثيميستوكليوس «بطرسبورج» .

«وما هى المدينة الاخرى ؟»

فاجاب الصبى «موسكو» .

فالتفت تشيتشيكوف الى الأب وعلائم الدهشة على وجهه «يا للصغير البارع ! ويا لسعة معرفته فى سن كهذه السن ! عليّ ان أقول بأن مواهب عظيمة تكمن فى هذا الطفل الصغير» .

فابتهج مانيلوف وقال «انك لا تعرفه معرفة صحيحة بعد ، فان حدة ذكائه تفوق التصور . ان أخاه الاصغر الكيد ليس فى هذه الحدة من الذكاء . اما الأكبر فان عينيه تكادان تخرجان من رأسه كلما راى شيئاً ، مهما كان ذلك الشىء — سواء كان صرصاراً او جندباً او اى شىء آخر ، ويركض ليمسك بذلك الشىء ويتفحصه . انى اعدّه لمنصب دبلوماسى» والتفت الأب الى ابنه مرة اخرى وسأله «هل تحب ان تكون سفيراً ؟»

فقال ثيميستوكليوس وهو يمضغ قطعة من الخبز ويحرك رأسه من جهة الى اخرى «نعم ، احب» .

وفى هذه اللحظة انبرى الخادم الواقف خلف سفير المستقبل ومسح فمه بالفوطة . وقد احسن صنعاً بعمله هذا ، فلولاه لزاد طبق الحساء الموجود امامه نقطة غير ظريفة الشكل ولا التكوين . وتحول الحديث بعد ذلك الى مباهج الحياة الهادئة ، لولا ان ربة البيت كانت تقاطعه بالحديث عن التمثيل والممثلين فى المدينة . وكان المعلم اثناء ذلك يركز بصره على وجوه المتكلمين ، واذا ما لاحظ أن الجمع على وشك الضحك فتح فمه واخذ يضحك بحماس . وقد يكون صاحب عرفان بالجميل اراد ان يكافئ مستخدمه على المعاملة الحسنة التى يلقاها فى منزله . مهما يكن من امر ، ففى فترة من الفترات علت وجهه امارات العبوس والتقطيب ، وسدد نظره على الولدين الجالسين أمامه وقرع المائدة قرعة رصينة . حدث ذلك عندما راى ان ثيميستوكليوس عض الكيد من اذنه ، فقطب الكيد المذكور عينيه وفتح فمه استعداداً للبكاء بصوت يستدعى الشفقة . وما ان ادرك ان اجراء كهذا قد يترتب عليه حرمانه من طبق اكله حتى سارع الى اعادة فمه الى الوضع الطبيعى وراح ، والدموع تتساقط من عينيه ، ينهش قطعة من عظم سرعان ما غطى دهنها خديه . بينما كانت ربة البيت بين الآونة والأخرى تلتفت الى تشيتشيكوف قائلة «انك لا تاكل شيئاً ، ان ما اكلته لقليل جداً» . ولكن الضيف كان يجيبها

دائماً بقوله «شكراً ، لقد اكلت فوق الكفاية . ان الحديث الظريف احسن من كل اطباق الطعام فى العالم» .

ونهض الجمع أخيراً عن المائدة . وكانت معنويات مانيلوف عالية جداً ، وقد وضع يده على كتف تشيتشيكوف لكى يسير به الى غرفة الاستقبال عندما اعلن الأخير فجاة انه يريد أن يحادثه فى موضوع هام جداً .

فقال مانيلوف «اذا كان الامر كذلك فاسمح لى ان ادعوك الى مكتبى» وسار به الى غرفة صغيرة تطل على الغابة الزرقاء ، واضاف قائلا «هذا معتكفى» .

قال تشيتشيكوف «يا له من معتكف رائع !» وراح يتفحص الغرفة بعناية .

والواقع انه لم يكن ينقصها اى جمال . كانت الجدران مطلية بلون بين الازرق والرمادى ، وكان فيها من الأثاث اربعة كراسى ومقعد ومنضدة – وكان على الأخيرة بضعة اوراق بيضاء والكتاب الذى سنحت لى فرصة سابقة ان اتحدث للقارئ عنه . ولكن اهم ميزة للغرفة بارزة فيها بشكل ملحوظ هى التبغ . فقد كان يبدو فيها بمظاهر مختلفة – محفوظاً فى علب من الورق ، وفى اوان خزفية ، وعلى شكل اكوام منثورة على المنضدة . اما على حافة الشبابيك فقد صفت اكوام صغيرة من الرماد مرتبة بشكل لا يخلو من فن وفى صفوف فيها شيء من الانتظام . من الجلى ان التدخين كان متعة يقضى فيها رب البيت اوقاتاً طويلة .

وقال مانيلوف «اسمح لى ان اقدم لك هذا المقعد لتجلس عليه . وستنعم بالهدوء هنا اكثر» .

«ولكنى أفضل الجلوس على هذا الكرسى» .

فاعترض مانيلوف قائلا «اننى لن اسمح بذلك . فانى احتفظ بهذا المقعد خصيصا للضيوف . وسواء حلا لك أم لم يَحْلُ ، فيجب أن تجلس عليه» .

وبناء على ذلك انصاع تشيتشيكوف .

«ودعنى اقدم لك غليونا» .

فاجابه تشيتشيكوف بكل ادب وبمظهر الأسف «انى لا ادخن اطلاقاً» .

فتساءل مانيلوف بأدب وبأسف أصيل «ولماذا ؟»

«اننى اخشى أن اكتسب هذه العادة . ويقال انها تورث الرئتين الجفاف» .

«اذن فاسمح لى بان اقول لك بان هذا غير صحيح . بل أستطيع ان اقول بان تدخين الغليون هو احسن للصحة من استنشاق الصعوط . لقد عرفت فى كتيبتنا ملازماً مهذباً ممتازاً كان لا يستطيع ان يرفع الغليون من فمه ، سواء كان على مائدة الطعام او كان ، إلا مؤاخذة ، فى محلات أخرى . انه الآن فى الأربعين ويتمتع بفضل الله بصحة لا يتمتع بها شخص آخر» .

فاجابه تشيتشيكوف بأن هذا الشىء معقول ، لان الطبيعة فيها الغاز لا يستطيع اكبر عقل بشرى ان يجد لها تفسيراً .

ثم قال «اسمح لى ان اطرح عليك سؤالا» وبدا فى صوته نغم غريب أو فى الواقع كان غريبا . ولسبب

غير معروف نظر من فوق كتفه . ولسبب غير معروف نظر مانيلوف من فوق كتفه ايضاً .

والقى الضيف سؤاله يقول «منذ متى قدمت للحكومة الاحصاء الأخير ؟ *

«منذ مدة طويلة ، طويلة جداً . اننى لا اذكر فى الحقيقة متى كان ذلك» .

«ومنذ تلك الفترة ، هل مات الكثير من اقنانك ؟»

«لا أعرف . اذا شئت ان اتاكد لك من ذلك يجب ان أسال مأمور املاكى . ايها الخادم ، اذهب وناد مأمور الاملاك . كان لا بد أن يكون اليوم موجودا هنا» .

وجاء مأمور الاملاك آخر الأمر . كان يقارب الأربعين من العمر ، حليق الذقن ، يرتدى معطفا رسميا ، ويبدو على سيماه انه أليف الراحة . نظرا الى ان وجهه كان من ذلك النوع الممتلئ الناعم ، كان لون الجلد المحيط بعينيه الصغيرتين الشبيهتين بشقين شاحباً مما يدل على أن صاحب هذه الملامح اليف فراش من ريش النعام . وفى لمحة البصر يدرك الانسان انه لعب فى الحياة الدور الذى يلعبه اضرابه المأمورون الآخرون . اى انه كان فى البداية قناً حاز على قسط من التعليم

* كان الملاكون يقدمون للحكومة لائحة باسماء الاقنان والفلاحين الموجودين لديهم ، وبناء على هذه اللوائح كانت توضع الضريبة التى تتقاضاها الحكومة . وكانت هذه اللائحة تقدم كل بضع سنوات . فاذا مات مثلا ، احد الاقنان ما بين الاحصائين فان المالك يدفع الضريبة عنه الى ان يشطب اسمه من اللائحة فى الاحصاء التالى . **الناشر** .

وتزوج وصيفة او خازنة اثيرة عند ربة البيت ، ومن ثم اصبح نفسه خازناً وارتقى تبعاً لذلك الى رتبة مامور . وسار بعد ذلك على الطريقة التى يسير عليها ابنـاء عشيرته — اى انه وقف مع الاقنان الاقوياء فى المزرعة وجاراهم واضاف اسماء الفقراء المستضعفين منهم الى قائمة دافعى الضرائب الاضافية بينما كان هو نفسـه يغادر الفراش فى التاسعة صباحا ، ينتظـر السماور وشرب الشاى فى هدوء بال .

وساله مانيلوف «اسمع ايها الرجل الطيب ، كـم مات لدينا من الاقنان منذ الاحصاء الأخير ؟»

«كم مات منذ الاحصاء الأخير ؟ عدد غير قليل» . وفاق ووضع يد على فمه .

فايّد مانيلوف هذا الخبر بقوله «اجل ، هذا ما كنت اتصور ؛ فلقد مات عدد غير قليل منهم فى الواقـع» والتفت الى تشيتشيكوف وكرر القول مرة اخرى .

فتساءل تشيتشيكوف «كم يبلغ الرقم مثلا ؟»

فردد مانيلوف صداه قائلا «نعم ، كم يبلغ الرقم ؟»

فردد المامور الصدى للمرة الثالثة «كم يبلغ الرقم ؟ لا احد يعرف الرقم الصحيح ، لأننا لا نحتفظ بسجلات لهذا الغرض» .

فقال مانيلوف «تماما كذلـك . انى اعرف معدّل الوفيات عالية ولكنى اجهل الرقم الصحيح» .

فقال تشيتشيكوف «فهل لك ان تسدى لى معروفا فتهيىء لى لائحة تفصيلية باسماء الموتى منهم ؟»

فوافق مانيلوف «اجل ، سافعل — لائحة تفصيلية» .

فقال المامور «سمعا وطاعة» واحنى رأسه وخرج .

وبعـد خروجـه تساءل مانيلـوف «ولأىّ غرض تريدها ؟»

ويبدو ان السؤال قد احرج الضيف ، اذ ان ملامحه تغيرت واحمرّ وجهه كما لو كان يجاهد بغية التعبير عن امر ليس من السهل وضعه فى كلمات . وقد شاء القدر لأذنى مانيلوف ان تسمعا امرا غريبا عجيبا لـم يطرق سمع انسان من قبل .

وراح تشيتشيكوف يقول «تسألنى لأىّ سبب اريد اللائحة ؟ ان غرضى منها هو هذا — هو اننى اريد ان اشترى بضعة اقنان» . قال ذلك وهو يقطع حديثـه تقطيعا .

عندئذ تساءل مانيلوف «ولكن هل لى ان اسألـك كيف تريد ان تشترى الاقنان ؟ بالارض التى هم عليها أم تريد ان تنقلهم الى ارض اخرى — اى ان تشترى النفوس فقط ؟»

فأجاب تشيتشيكوف «لا اريد الاقنان الاحياء بل اريد الموتى منهم» .

«ماذا ؟ ارجو عفوك ، ان سمعى ثقيل بعض الشىء . ان كلماتك فى الواقع تبدو لى غريبة حقا» .

فقال تشيتشيكوف «ان الذى اريد هو ان اشترى الاقنان الموتى الذين ورد اسمهم فى لوائح الاحصـاء الأخيرة على انهم احياء» .

فاسقط مانيلوف غليونه على الارض وفتح فاه فترة من الزمن . ان الصديقين اللذين كانا قبـل لحظـة

يتطارحان عواطف الصداقة ومشاعر الوداد ، جلسا الآن ساكتين يحدّق احدهما فى الآخر كصورتين متشابهتين من تلك التى كان توضع منذ قديم الزمن على جانبى المرآة فى صالات الاستقبال . واخيراً ، انحنى مانيلوف لكى يلتقط غليونه عن الارض ، ونظر من طرف خفى اثناء ذلك الى تشيتشيكوف ليرى فيما اذا كان هناك اثر لابتسامة على شفتيه ، اى فيما اذا كان الرجل يقصد المزاح . ولكنه لم يلمح اثرا لشىء من هذا القبيل . بل على العكس من ذلك ، راى وجه تشتيشيكوف صارما حازما أكثر منه فى اى وقت مضى . وبالتالى ، اخذ مانيلوف يفكّر فيما اذا كان ضيفه لسبب من الأسباب قد فقد عقله ، وراح بناء على ذلك يحدّق فيه فترة من الزمن بقلق شديد . ولكن عينى الضيف كانتا صافيتين هادئتين خاليتين من تلك الومضة النارية الغريبة التى تحوّم فى اعين المجانين . كان كل شىء طبيعياً كما يجب ان يكون . وبناء على ذلك ، وعلى الرغم من الاتجاه الذى سبحت فيه افكاره ، لم يجد افضل من ان يجلس نافثا من فيه دخان التبغ على شكل عامود نحيف يخترق الهواء .

واكمل تشيتشيكوف يقول «وعلى هذا الاساس اريد ان اعرف فيما اذا كنت تنوى ان تسلّمنى هؤلاء الأقنان – الذين هم فى الواقع موتى ولكنهم بحكم القانون احياء» .

كان مانيلوف فى حالة عميقة جداً من الاضطراب

النفسانى والبلبلة الفكرية بحيث لم يجد ما يفعل الا ان يحدّق فى محادثه .

ولكن تشيتشيكوف لاحظ يقول «أظن انك سادر فى اضطراب لا لزوم له» .

فتمتم مانيلوف قائلا «انا ؟ اوه . لا ! أبداً ! انما ارجو عفوك . فانى لم افهمك تماماً . فانا لم أبلغ حداً من الثقافة اكتسب بها هذه الالمعية التى – كما يقولون – تتجلى فى كل حركة من حركاتك . حتى اننى لم اكن فى يوم من الايام قادراً على التعبير عما يجول فى نفسى بوضوح . وبناء على ذلك فقد يكون هناك احتمال بأن وراء الكلمات التى لفظتها معنى آخر لا استطيع ادراكه ، او من المحتمل ايضا ان تكون قد جررت هذا الحديث بغية جمال القالب الادبى الذى استطعت ان تضعه فيه» . فردو تشيتشيكوف مسرعا «كلا ، كلا ، اننى افهم الوضع كما هو عليه ، بمعنى تلك النفوس التى ماتت بالضبط» .

كان مانيلوف لا يزال يحسّ بأنه ضائع ، ولكنه كان يشعر بأن عليه أن يعمل شيئا ما – يجب أن يلقى سؤالا ما . أما ما هو هذا السؤال ؟ فالشيطان وحده يعلم ! وانتهى آخر الأمر الى الاكتفاء بنفث دخان التبغ ، لا من فمه وحسب كما كان يفعل من قبل ، بل من أنفه أيضاً .

واستانف تشيتشيكوف الحديث قائلا «وعلى ذلك اذا لم تكن هناك عقبة تقف فى الطريق ففى امكاننا ان نعقد صفقة البيع» .

«ماذا ؟ بيع النفوس الميتة ؟»

«النفوس الميتة ؟ طبعا لا يا عزيزى ! اننا سنكتبهم فى العقد أحياء لأن هذه هى حقيقتهم كما هى مدوّنة فى سجلات الاحصاء . اننى لا أسمح لنفسى اطلاقا ان اتجاوز حدود القانون ، على الرغم من الاضرار التى لحقت بى فى الخدمة من جراء ذلك . ان ارتباط المرء بتنفيذ القوانين فى نظرى هو شيء مقدس . اننى أمام القانون لا أبدى حراكا» .

كان مفعول الكلمات الأخيرة فى نفس مانيلوف غير قليل ، ومع ذلك فان معنى القضية كلها لم يزل فى عينيه غير مفهوم . وانكبّ استجابة لذلك يسحب من غليونه بعنف شديد حتى بدأ الأخير يصدر صوتا كالمزمار . وكأنه يريد أن يستلهم منه الوحى ليدلهّ على التصرف الصحيح فى هذه المشكلة التى لم يسمع بمثلها بشر حتى الآن . ولكن الغليون كان يزمر فقط ، ولم يكن ينزل من الوحى شيئاً .

وقال تشيتشيكوف «ربما لديك شك فى هذا العرض ؟»

فاجاب مانيلوف «لا ، أبداً ! ولكن ، أجل ، أظن انك ستسمح لى اذا قلت وارجو ان لا تحمل قولى على انه انتقاد لشخصك أو تحامل عليك بأن . . وارجو ان تسمح لى . . . بأن ال . . . اى اقصد هذا المشروع . . هذه الصفقة . . . قد . . . قد تفشل بالمرة اذا ما وجد انها تخالف الانظمة والقوانين وتطور روسيا بالذات» .

وراح مانيلوف بهزة بسيطة من رأسه ينظر فى وجه تشيتشيكوف نظرة ذات معنى . وكان يبدو على ملامحه – بما فى ذلك شفتاه المطبقتان على بعضهما اطباقاً محكماً – مظاهر التفكير العميق الذى لا نراه على محيا انسان – اللهم الا اذا كان وزيراً فى الدولة ويناقش فى مسألة غاية فى الخطورة .

ومع هذا فقد أجابه تشيتشيكوف ببساطة بأن مشروع بيع الأنفس الذى يبتغيه لا يتعارض بأى حال من الاحوال مع الانظمة والقوانين الروسية ، واضاف الى ذلك بأن الدولة نفسها سوف تنتفع من هذه الصفقة لانها سوف تتقاضى النسبة المئوية القانونية المعتادة .

فقال مانيلوف «وما الذى تراه الآن ؟»

«انى أعتقد بأن ذلك سيكون جيداً» .

وظهرت الآن على وجه مانيلوف امارات الاطمئنان الكامل ، وقال «اذا كان الامر كذلك فهذه قضية اخرى ليس لى عليها اى اعتراض» .

«اذن فلم يبق الا ان نتفق على الثمن» .

«الثمن ؟» – وقطع مانيلوف كلامه فجاة ، ثم استأنفه يقول «وهل أستطيع ان اتقاضى ثمنا عن نفوس هى فى العدم ، على الاقل من وجهة نظر معينة . ونظراً لوجود هذه النزوة الغريبة – اذا سمحت لى بأن أستعمل هذا التعبير – المستحكمة فيك الى هذه الدرجة فانى من ناحيتى على استعداد لتقديم هذه النفوس اليك دون قيد او شرط ، وسوف ادفع من جيبى كل النفقات اللازمة لاجراء المعاملة» .

وسوف يلومني القارئ أشد اللوم فيما لو اغفلت ان اذكر له أن تشيتشيكوف لم يكد يسمع هذه الكلمات من فم مضيفه حتى تلألأ وجهه بامارات الغبطة والارتياح . وعلى الرغم مما هو عليه من الاتزان والفطنة فقد بذل مجهوداً كبيراً جداً في كبح جماح نفسه عن القفز من موضعه كما تفعل الشاة التي يعرف الجميع قفزتها العالية جداً في الحالات التي تكون فيها نشوتها قد بلغت الذروة . على اية حال ، فان تشيتشيكوف ، بالرغم من ذلك كله ، تحرك حركة سريعة هي أشبه بالقفز ، مزق بها غطاء المقعد الذي كان يجلس عليه مما جعل مانيلوف يحدّق فيه باندهاش . أما عرفان تشيتشيكوف بالجميل فقد قاده آخر الأمر الى الانجراف في تيّار من الحمد والشكران ، تيار عنيف جداً مما أعاد البلبلة الى مضيفه وجعل خديه يتضرجان بحمرة الخجل ودعاه ان يحرّك رأسه استعاذة من ان يكون قد عمل غير الواجب ، وان ينتهي الى التصريح بان هذا الاتفاق كله هو لا شيء ، وان رغبته الوحيدة هي في ان يمتثل لما يمليه عليه قلبه تجاه المغناطيسية النفسانية التي يحس بها نحو صديقه ، اى باختصار ، كان يرى ان النفوس الميتة شيء تافه لا يستحق الذكر .

فأجاب تشيتشيكوف «لا ابداً» . وهز يده ضاغطاً عليها . وتنفس بعمق وقد شعر آنذاك بأنه في وضع يستطيع فيه ان يبثّ مكنونات قلبه ، استمرّ يقول بصوت يفيض بالعاطفة «آه لو عرفت اى معروف اسديت بهذا الشيء الذي «لا يستحق الذكر» لشخص

تافه ، شخص وحيد حرمه الزمان من الاهل والاقارب ! فاى مصيبة لم تصبني في هذه الحياة ؟ لقد كنت المركب التائه في خضم نوائب الحياة وويلاتها . واى ثبور واى خطب لم يمرّ بي ؟ واى حسرة لم أذق مراراتها ؟ ولماذا ؟ لأنني كنت دائماً وابداً اضع الحق نصب عينيّ . لأنني كنت دائماً وابداً ذا نية صافية وضمير طاهر . لأنني كنت دائماً أمد يد العون للارملة الضعيفة واليتيم المحروم» . وبعد هذا السيل الجارف من العواطف الفياضة سحب تشيتشيكوف منديله ومسح دمعة تترقرق في عينيه .

ولقد تحركت عواطف مانيلوف حتى أعماق الفؤاد ، فاخذ الصديقان يضغطان على أيدي بعضهما البعض مرة تلو الأخرى ، وهما في صمت عميق يحدّقان في عيون بعضهما التي كانت تترقرق بالدمع . وفي الحقيقة ، لم يكن مانيلوف بقادر على ترك يد بطلنا وانما كان يتشبّث بها بحرارة حتى ان البطل المذكور وجد نفسه في حيرة وهو يفتش عن أحسن الوسائل لتخليص يده . ولكنه آخر الأمر تمكن من سحبها بلطف وقال أن اكمال الصفقة بسرعة امر لا باس به ، فيستطيع بناء على ذلك ان يعود الى المدينة لتسوية الأمر . فتناول قبعته ونهض ليلقى تحية الوداع .

فعاد مانيلوف الى نفسه فجأة ، وأحسّ بشيء من الرهبة ، وقال «ماذا ؟ اانت ذاهب بهذه السرعة ؟»

واذا بزوجته في تلك اللحظة تخطر داخل الغرفة .

«بافيل ايفانوفيتش يريد ان يتركنا يا عزيزتي

ليزانكا» – قال مانيلوف بشيء من التوسل .

فاجابت – «يبدو اننا اورثناه الملل» .

فقال تشيتشيكوف واضعا يده على قلبه . «ابداً يا مدام ، ففى هذا القلب ساحتفظ بذكرى جميلة للوقت الأنيس الذى قضيته معكم . ثقى بانى لا أجد نعمة اكبر من ان اعيش معكم تحت سقف واحد وعلى الأقل فى الجوار القريب» .

ويبدو ان هذه الفكرة راقت لمانيلوف جداً ، فقال «حقا ؟ كم يكون رائعاً لو جئت تعيش معنا فى بيتنا هذا . اننا سنتفيأ ظل شجرة دردار ونجلس معا نتحدث فى الفلسفة ونبحث الاشياء من أصولها» .

فتنهد تشيتشيكوف وقال «أجل ان هذا يكون جنات النعيم !» ومع ذلك صافح المدام ، «وداعا ايتها السيدة الكريمة» ، وصافح المضيف «وداعا ايها الصديق العزيز . لا تنس طلبى اليك» .

فاجاب مانيلوف «تأكد اننى لن انسى . وسوف نتقابل فى المدينة بعد يومين» .

وبهذا تحرك الجمع الى غرفة الاستقبال .

فوقعت عينا تشيتشيكوف على الصبيين وكانا يلعبان بجندى خشبى مجدوع الأنف مكسور اليد ، وقال لهما «وداعاً ايها الطفلان العزيزان ، وداعاً ايها الصغيران . اغفرا لى هذه المرة اننى لم احضر لكما هدايا ، فما كنت اعلم بوجودكما قبل زيارتى هذه . ولكنى عندما احضر المرة القادمة فلن انسى ان احضر لكما الهدايا التى تليق بكما . سوف أحضرك سيفاً يا ثيميستوكليوس .

انت تحب السيف ، أليس كذلك ؟»

«نعم» .

«وانت يا الكيد ، سوف احضر لك طبلا ، اتحب الطبل ؟» قال هذا وادار راسه واحناه نحو الكيد . فارجع الصبى راسه ولثغ قائلا «معم ، تبل» .

«اذن فليكن طبلا ، واى طبل جميل سيكون . اذا ما قرعت عليه سيقول ترا ترا ترم ترم ترم . . . وداعاً يا صغيرى» . وقبّل راس الصغير ، ثم التفت الى مانيلوف وزوجته بابتسامة تدلهما على مدى اعجابه بصغيريهما .

ثم خطا الثلاثة الى الشرفة وقال الأب «اظن من الافضل ان تبقى يا بافيل ايفانوفيتش ، انظر الى السماء انها متلبدة بالغيوم» .

فقال تشيتشيكوف «انها غيوم صغيرة لا ضير منها» .

«وهل تعرف الطريق الى بيت سوباكيفيتش ؟»

«لا ، لا اعرفها ويسرنى لو دللتنى عليها» .

«اذن دعنى أخبر السائق عن تفاصيل الطريق» . وهنا حضر سيليفان ، وكان مانيلوف رقيقاً جداً معه بحيث اخذ يخاطبه بضمير المخاطب الثانى .

وما سمع سيليفان ان عليه ان يتعدى منعطفين ثم يسير فى الثالث ، حتى قال «حسنا يا سيدى ، سنصل الى هناك بسلام» . وانطلق تشيتشيكوف وسط عاصفة من التحيات والهتافات وتلويح المناديل – كان يقوم بها رب البيت وربته ، وكانا يفعلان ذلك وهما يرفعان نفسيهما على رؤوس الاصابع من فرط الحماس .

ووقف مانيلوف فترة طويلة من الوقت وهو يتبع العربة بنظراته . وقد استمر فى الواقع يتبعها بانظاره وهو يدخن غليونه حتى بعد أن اختفت وراء الأفق بمدة غير قليلة . ومن ثم عاد الى غرفة الاستقبال مرة اخرى وجلس على احد الكراسى مستسلما للتفكير وكانت القضية التى ابتدأ بالتفكير فيها فى الحقيقة ، هى فيما اذا كان قد قام نحو الضيف بما هو واجب عليه كمضيف . ثم سرح تفكيره الى امور اخرى لا يعلم الا الله الغياهب التى وصلت اليها . فكر فى مباهج الحياة ومسرّاتها ، وفى الصداقة ، وكم هو جميل أن يعيش الانسان مع صديق ، على شاطئ نهر مثلا ، وأن يقيم جسراً خاصاً له على النهر ، وأن يبنى عمارة ضخمة جدا عالية جدا ، ببرج بحيث يرى الانسان من شرفتها العليا مدينة موسكو ، وسيجلس على تلك الشرفة هو وصديقه يتناولون شاى الأصيل فى الهواء الطليق ويتناقشون فى المواضيع الطريفة الشتى . ومن ثم ينطلقون بعد ذلك فى عربة انيقة الى منتدى يسحرون فيه الجميع بلطف تعاملهما حتى اذا عرف الامبراطور بصداقتهما خلع عليهما رتبة جنرال ، وما الى ذلك مما لا يعرفه الا الله . ولكنه أحس فجاة ان طلب تشيتشيكوف الغريب قد قطع عليه حبل الاحلام ، ووجد أن عقله اعجز من أن يهضم هذه القضية . فاخذ يقلبها على وجوه مختلفة شتى ، ولكنه لم يستطع أن يجد لها تفسيرا . واستمر جالساً فى موضعه يدخن غليونه ، حتى حان موعد العشاء .

الفصل الثالث

كانت العربة تدرج على الطريق وتشيتشيكوف جالس فيها يشعر بأنه راض عن نفسه تمام الرضى . ولا بد أن يكون القارئ قد ادرك من الفصل السابق ما انطوت عليه نفسه وما هو الغرض الرئيسى الذى يهدف اليه . فلا عجب اذن ، ان رايناه ينغمس فى الموضوع بالروح والجسد انغماساً كلياً . كانت افكاره وحساباته ومشاريعه تنعكس على وجهه فتتشارك فى إسباغ البشر والمرح عليه ، اذ تترك كل واحدة منها — ساعةً تخطر — ابتسامة رضى خاطفة تتبع الابتسامة التى تركتها سابقتها . وقد كان فى الحقيقة مستغرقا فى هذا الشان بحيث لم يلحظ ان سائقه — الذى كان مزهواً بكرم خدم مانيلوف — كان يتكلّم مع الحصان الأرقط ، احد الخيول الجانبية فى الترويكا * . كان هذا الأرقط حيواناً علياً ، فكان يتظاهر بالسّحْب . بينما كان رفيقاه ، الحصان الأوسط (وهو حصان احمر اللون) والحصان القريب (وهو بنى اللون) ويعرف بالمستشار لأن الرجل الذى اشترى منه كان يحمل هذه الرتبة يعملان بشهامة وتظهر فى عيونهما الغبطة التى يستمدانها من اجهاد نفسيهما فى سبيل قيامهما بالواجب . كان سيليفان يرتفع عن مقعده ليضرب الحصان الكسول بالسوط وهو يقول «ايه ايها السافل ، ايه ايها

* الترويكا — عربة تجرها ثلاثة خيول . **الناشر** .

التذلل ، سوف اربّيك . انك تعرف جيداً ماذا تعمل ، ايها الصعلوك الالمانى ! ان الحصان الأحمر طيب القلب قائم بالواجب ، وسوف ازيده علفاً ، انه حصان جدير بالاحترام ، والمستشار طيب ايضا ، اما انت . فلماذا تحرك اذنيك ؟ انك غبى . عليك منذ الآن ان تأخذ حذرك عندما تتلقى امراً . هذه نصيحة منى اليك ايها الجاهل ، وانها لنصيحة خالصة . ايه ، انك تستطيع السير لو اردت» . واهوى على الحيوان بضربة من سوطه وهو يقول «اذا كنت لعيناً فانا العن منك» ، وقال مخاطباً الخيول الثلاثة «هيا يا اعزائى» ومر بالسوط مرورا رقيقا على ظهرى الحصانين الآخرين دلالة على الرضى لا العقاب . ثم عاد الى مخاطبة الأرقط مرة اخرى «اتظن اننى لا ادرى ماذا تفعل ؟ انك تستطيع ان تسلك سلوكا اكثر احتراماً فتجعل المرء يحترمك» وعندئذ راح يستعيد بعض الذكريات . وانشأ يقول «لقد كانوا قوماً كراماً ، اؤلئك الناس فى بيت السيد الذى هناك . انى اتوق الى مؤانسة الرجال الكرام اذا كانوا حقاً كراماً ، ومع امثالهم اترك النفس على سجيّتها . انى احب ان اشاطرهم شرب الشاى وتناول الحلوى . ان المرء لا يستطيع الا ان يحترم الانسان المحترم . وسيدى مثل طيب على ذلك ، والكل يحترمه ، فقد كان فى خدمة الحكومة وهو الآن من الأعيان» .

وسرح وهو يحادث نفسه على هذه الوتيرة الى احلام اكثر بعداً ، ولو انصت اليه تشيتشيكوف لسمع تفاصيل غريبة بهذا الشأن تخصه نفسه . الا انه هو

الآخر كان مشغولا عن كل شيء بموضوعه الخاص . ولكن انفجارة مدوية من الرعد ايقظته من احلامه ، فتلفت حوله . كانت السماء مغطاة كلها بالغيوم ، واخذت قطرات المطر تتناثر فوق الأرض المغبرة . ثم انفجر صوت آخر ، اقرب واعلى من سابقه ، وانهمر المطر صيباً مدراراً كما لو كان من فوهات القرب . كانت قطراته تضرب سقف العربة بانحراف ثم فى جانب ، وبعد ذلك تغير شكل هجومها وتصير مستقيمة وتنقر على الحوض فتتناثر مبللة وجهه ، بحيث اضطرّ الى سحب الستائر الجلدية (وكان فى الستائر فتحات مستديرة تمكنه ان يلمح منها جانبى الطريق) ، واضطر ايضاً الى الصياح على سيليفان حاثاً اياه ان يسرع الخطى . وارى السائق الذى قوطع فى منتصف خطابه ان لا يضيع الوقت سدى ، فسحب من تحت صندوق المقعد قطعة عباءة قديمة قذرة لفها على كميه وامسك بالعنان وصاح بفرقته الثلاثية (التى كانت تحت تأثير خطابه قد استرخت استرخاءا كاملا حتى اصبحت لا تكاد تقدم رجلا على اخرى) . ولم يستطع سيليفان لسوء الحظ ان يتذكر فيما اذا كان قد تعدى منعطفا او منعطفين . وما إن استجمع ذاكرته مراجعا معالم الطريق حتى ادرك ان عددا كبيرا جدا من المنعطفات قد مر عليه حتى الآن . وبما ان الروسى سريع فى اكتشاف احسن الطرق الواجب اتباعها فى اللحظات التى تستوجب سرعة البت فى الأمور ، فقد طرح سائقنا التساؤل جانبا ودار فى

المنعطف التالى الى اليمين وصاح «ايـــه يا جيادى الحسان» . فانطلقت خببا ولم يَدُرْ فى خلده لحظة ان يفكر الى اين تقوده تلك الطريق .

الا ان المطر ظل يسقط طويلا وبلا انقطاع حتى اختلط بتراب الطريق فصار اوحالا عَلِقَتْ بالعجلات ، فاصبح معها جَرُّ العربة على الخيول امراً ثقيلاً . وبدا تشيتشيكوف يحس بخيبة امل فى رؤية بيت سوباكيفيتش الريفى . اذ كان يجب ان يصل اليه بناء على حساباته منذ امد طويل . واخذ يجيل البصر فى كل ناحية ، الا ان الظلمة كانت أكثف من ان يخترقها بصر .

واطل من العربة وصاح «سيليفان !»

فاجابه السائق «ماذا تريد يا سيدى ؟»

«هل ترى البيت الريفى فى ناحية ما ؟»

«لا يا سيدى» . ولوح بسوطه فى الهواء واخذ يغنّى اغنية من ذلك النوع الذى لا نهاية له . كان فى تلك الاغنية موضع لكل شىء ، واعنى «بكل شىء» تلك الصيحات المشجعة التى يستحثّ بها عامة الروس خيولهم وتلك الصفات المختارة التى يلقونها خبط عشواء . ثم انتهى الامر به الى ان اخذ يسميها يا حضرات !

وبدا تشيتشيكوف يلاحظ ان العربة اخذت تتأرجح بشدة مما راح يسبب له بعض الصدمات ، واحس بناء على ذلك بأنها قد حادت عن الطريق الى حقل محروث . وخيم على عقل سيليفان احساس من هذا القبيل فامسك

عن الغناء . وسأله تشيتشيكوف «اى طريق سلكت ايها النذل ؟»

فاجاب السائق «لا ادرى ، فماذا يستطيع المرء ان يفعل فى وقت بلغت فيه حلكة الليل درجة لا يكاد يرى فيها سوطه ؟» وبينما كان سيليفان يتكلم مالت العربة الى جانب بحيث لم يعد خيار امام تشيتشيكوف الا ان يتعلق بيديه واسنانه . عندئذ عرف يقينا ان سيليفان كان سكران .

فصرخ عليه «قف ، قف والا انقلبنا !»

فاجاب سيليفان ، «لا ، لا يا سيدى ، كيف يمكن ان اقلبك ؟ ان قلب الناس خطأ ، اننى اعرف هذا جيداً ، ويستحيل على ان اسلك سلوكا كهذا» . وهنا بدا يدير العربة قليلا واستمر يفعل ذلك حتى انقلبت على جانبها انقلاباً كاملاً ، فهبط تشيتشيكوف فى الوحل على يديه ورجليه . وقد نجح سيليفان ، لحسن الحظ فى ايقاف الخيول مع انها كانت ستتقف بنفسها بطبيعة الحال نظراً الى انها كانت قد أجهدت غاية الاجهاد . اما السائق — على ما يظهر — فقد ادهشته هذه الحادثة غير المنتظرة . فانزلق من مقعده على الارض ووقف امام العربة بينما كان تشيتشيكوف يتخبّط ويتمرغ في الوحل ، باذلا جهده عبثاً للخلاص منها . وقال سيليفان مفكرا ومخاطبا العربة «يا لك من عربة ، لم اكن اظن انك ستقلبيننا على هذا الشكل» .

فقال تشيتشيكوف متعجباً «انت سكران طينة !»

«لا ، لا يا سيدى . أحقيقة انى سكران ؟ انا اعرف

ان السكر مرذول . انها مؤانسة مع صديق ، هذا كل ما حدث لى . ان كل امرئ يشعر بالانس اذا ما جلس مع رجل محترم . ليس فى ذلك اى خطأ . وقد تناولنا جرعة ايضاً . وليس فى تناول الجرعة اى خطأ – لا سيما اذا كانت مع رجل محترم» .

فقال تشيتشيكوف «ماذا قلت لك عندما لقيتك سكران آخر مرة ؟ هل نسيت ما قلت لك ؟»

«لا ، لا يا سيدى . كيف يمكن ان انساه ؟ اننى اعرف مواضع الاشياء ، واعرف أن السكر غير صواب . وكل ما حدث لى هو مجرّد مؤانسة مع انسان محترم . وذلك لأن . . .»

«حسنا ، فلو لففت السوط الآن حول عنقك لعرفت كيف تؤانس الانسان المحترم» .

فأجاب سيليفان موافقا «كما تشاء يا سيدى . اذا شئت ان تضربنى بالسوط فلك ذلك ، ولن اشكو منه . ولِمَ لا تضربنى اذا كنت أستحق الضرب ؟ لك ان تفعل ما تشاء . وضرب السياط ضرورى احيانا ، فكثيراً ما يتمادى الفلاح فى هواه ، ويجب على المرء أن يحفظ النظام . فاذا استحققته فاضربنى ، ولِمَ لا تفعل ؟»

وقد ظهر ان هذا التعليل فى تلك اللحظة سليم لا يدحض ، فسكت تشيتشيكوف ولم ينبس ببنت شفة .

وقد شاء القدر ان يكون به رحيماً . فطرق سمعهما من بعيد نباح بعض الكلاب . واستبشر تشيتشيكوف واصدر اوامره بتعديل العربة والسير بالخيول قدماً .

وحيث ان للسائق الروسى ميزة واحدة على الأقل ، وهو انه يستطيع عند الضرورة ان يستعيض عن عينيه بحاسة طريق حادة ، وبارشادها يقود عربته اعتباطا ولكنه مع ذلك يصل الى مكان ما ، فقد افلح سيليفان وهو عاجز عن تمييز اى شىء ، فى ان يوجه خيوله الى بيت ريفى قريب . وقد كان احساسه قوياً جداً حتى انه لم يوقف العربة الا لما اصطدم عامودها بجدار الحديقة وتبين ان التقدم خطوة اخرى عاد مستحيلا . وكل ما استطاع تشيتشيكوف ان يتبينه من خلال القناع الكثيف من المطر المنهمر هو شىء يشبه السقف . ولهذا أرسل سيليفان يفتش عن مدخل المكان . وكانت هذه العملية ستدوم مدة غير محدودة لو لم يقصرها شىء واحد وهو ان كلاب الحراسة فى روسيا كثيراً ما تحل محل الحارس . فبدأ عدد كبير من هذه الحيوانات يعلن قدوم المسافر بصوت عال جدا حتى ان تشيتشيكوف اضطر الى اقفال اذنيه . وبالتالى سطع ضوء من احد الشبابيك وتسرب على شكل جدول رفيع الى جدار الحديقة ، وهكذا ظهر موضع باب الدخول . ومن ثم انهال سيليفان على الرتاج قرعا حتى سحب مزلاج الباب الداخلى وظهر منه شبح ملتف برداء متهدّل .

وسمعا صوت امرأة عجوز أبحّ يقول «من ذا الذى يقرع الباب ؟ وما هذه الضوضاء الساعة ؟»

فقال تشيتشيكوف «اننا مسافرون أيتها الأم الطيبة . فنرجو أن تسمحى لنا بقضاء الليلة هنا» .

فتمتمت العجوز «مستعجل ! وقت لطيف من الليل هذا
الذى وصلتم فيه ! ليس لدينا فندق ، نحيطكم علما
ان هذا بيت سيدة» . «لكن ماذا نعمل يا اماه ، فقد
اضعنا الطريق ولا نستطيع ان نقضى ليلتنا فى العراء
فى طقس كهذا ؟»

واضاف سيليفان «لا ، لا نستطيع فالليل مظلم
بارد» .

فنهره تشيتشيكوف قائلا «اخرس يا احمق» .

وتساءلت العجوز «من انت اذن ؟»

«نبيل أيتها الأم الطيبة» .

وقد ظهر ان كلمة نبيل – بشكل ما – كانت غذاء
لتفكير العجوز ، فقالت «انتظر لحظة حتى أخبر
سيدتى» .

وعادت بعد دقيقتين وفى يدها مصباح .

وفتحت الرتاج ، بينما تالق ضوء آخر من نافذة
البيت . ودخلت العربة الساحة ووقفت أمام بيت
متوسط الحجم . ولم يكن الظلام يسمح بالملاحظة
الدقيقة ، انما كان يلوح بأن البيت قد أضيئت نصف
نوافذه فقط ، فكانت الاشعة تنعكس منها على بركة أمام
الباب . هذا بينما استمر المطر فى انهماره ، فكان يقع
بصوت طنان فوق سطح خشبى ومن ثم يُسمع صوته
وهو ينصب من شؤبوب فى اناء كبير . أما الكلاب
فلم تنقطع لحظة عن النباح بكل ما فى رئتيها من قوة .
واخذ احدها ينبح وهو رافع راسه الى اعلى بكل ما
لديه من طاقة وباطول ما يستطيع من الوقت حتى

ليخيّل الى ناظره انه يطمع فى كسب رهان ثمين .
والثانى ينبح بسرعة وكانه قندلفت ، بينما اخذ آخر
له صوت جرو صغير ينبح بلا ملل بحيث يملأ صوته
مقاطع صوت الكلب السابق ، وكانه جرس ساعى
البريد . واخيراً ، انبرى كلب كبير ذو مزاج عنيف
خاص واخذ يقوم بالرد عليهم وكانه قائد جوقة يردّ
مع جوقته على المغنى الأصيل ، وكانت نبحاته تشبه
هدير ذلك القائد حينما تكون الجوقة فى أوج ترديدها
وحينما يرتفع المنشدون مع قائدهم على رؤوس الاصابع
وهم يبذلون جهدهم فى رفع حدة النغم ، ويمد المرتّلون
رؤوسهم قبل بلوغهم الشأو ، ويلصق قائد الجوقة
ذقنه الملتحية الى ياقته ويجمع نفسه فى حنكه حتى
تحسبه جالساً على الارض القرفصاء ليخرج نغماً قوياً
يهز الشبابيك ويرج الزجاج . وجوقة من ذوات الانياب
كهذه الجوقة تدل بطبيعة الحال على ان القرية ليست
صغيرة .

مهما يكن من أمر ، فان بطلنا المبتلّ المرتجف بردا
لم يُعِرْ ذلك اهتماماً ، فقد كان يشغل عقله شىء واحد
وهو الفراش . وفى الواقع لم تكد العربة تقف حتى قفز
الى عتبة البيت ولم يكن بينه وبين الوقوع شىء كثير .
وقد تصدّت لمقابلته سيدة أصغر سناً من الأولى
ولكنها تشبهها شبها كبيراً . ولما دخل غرفة الاستقبال
كانت لمحتان كافيتين لترياه ان الغرفة مكسوة بستائر
قديمة مقلّمة وجدرانها مزينة بصور الطيور وبعض
المرايا الأثرية الصغيرة – والأخيرة موضوعة فى اطارت

غامقة اللون عليها نقوش تشبه ورق الشجر . وقد الصق خلف كل مرآة خطاب أو مجموعة قديمة من اوراق اللعب او بعض الجوارب ، بينما علّقت على الحائط ساعة بميناء مرصّعة بالازهار . ولم يستطع تشيتشيكوف ، على اية حال ، ان يتبين اكثر من ذلك لأن جفونه كانت ثقيلة كما لو تلطخت بالعسل . وحضرت ربة البيت بنفسها حالا – وهي امراة كبيرة السن تضع على راسها غطاء (يظهر انها اسرعت في ارتدائه) وتلف حول عنقها لفاعا صوفيا .

كانت من طبقة الملاكات اللواتي يشكين دائما وابدا من اخفاق الموسم وما يترتب عليه من خسارة لهنّ ، من طبقة اللواتي يطاطئن رؤوسهن يأساً وقنوطاً وهنّ كل الوقت يحشين النقود في اكياس مقلمة ويكتنزنها في ادراج الخزائن . فيحشين قطع الروبل في كيس ونصف الروبل في كيس آخر وقطع ربع الروبل في كيس ثالث . وإلا يبدو من منظر الخزانة ان فيها شيئاً سوى قطع القماش الكتانية وثياب داخلية وشلل من الصوف وقطعة القماش الرثة التي يقدّر لها عادة أن تنقلب الى ثوب جديد فيما لو احترقت أطراف الثوب الحالي أيام الآحاد عند خبز الكعك والحلويات والطيبات الأخرى ، او فيما اذا تهرّأ الثوب من نفسه . ولكن الثوب لا يحترق ولا يتهرّأ ابداً ، وذلك لأن السيدة محتاطة كل الاحتياط حذرة كل الحذر . وعلى ذلك تظل قطعة القماش الرثة غير مشغولة الى ان يأتي الوقت لتوزيع التركة فيوصى

باعطائها – مع كمية اخرى من سقط المتاع – لابنة اختها .

واعتذر تشيتشيكوف على ازعاجه البيت بقدومه غير المنتظر .

فاجابت السيدة ، «لا ، ابداً ، لا ابداً ، ولكن في اي طقس فظيع بعث الله بكم الى هنا ! اي ريح واي مطر هذا ! كان من المحتّم ان تضلاّ الطريق . نرجو المعذرة اذ لا نستطيع في هذا الوقت من الليل ان نهيئ لكم الطعام» .

وقطع كلامَ المضيفة فجأة صوتٌ ذو فحيح غريب ، صوت عال جداً أجفل الضيف منه خوفاً ، وزاد خوفه بازدياد الصوت الذي جعل الغرفة تبدو وكانها ملاى بالأفاعي . ومهما يكن من امر ، فقد استعاد سكينتَه حينما رفع بصره الى اعلى وادرك ان الصوت صادر عن الساعة التي كانت على وشك ان تدق . وتلا الفحيح شخير دل على ان الساعة تبذل منتهى جهدها حتى ضربت ضربتين كان لهما من القرقعة ما للهرارة حين تهوي على قدر من حديد مكسور . وما ان تمت فعلتها هذه حتى عاد الرقاص الى تذبذبه من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين .

وشكر تشيتشيكوف المضيفة بلطف وقال لها انه لا يحتاج الى شيء ، وان لا دواعي لأزعاج نفسها ، فهو لا يريد غير الراحة وان كان يود ان يعلم ايضا اين وصل وفيما اذا كانت هناك مسافة كبيرة بينه وبين البيت الريفي للملاك سوباكيفيتش . واجابت السيدة على

ذلك بانها لم تسمع بهذا الاسم قط وليس صاحب هذا الاسم فى تلك النواحى .

واستمر تشيتشيكوف قائلا «ولكن تعرفين على الاقل الملاك مانيلوف ؟»

«لا ، من هو ؟»

«ملاك آخر يا مدام» .

«لم اسمع بهذا ايضا . ليس فى هذه النواحى ملاك كهذا» .

«فمن هم الملاكون المحليون اذن ؟»

«بوبروف ، سفينين ، كاناباتيف ، خريباكين تريباكين ، بليشاكوف» .

«هل هم اغنياء ؟» – سال تشيتشيكوف .

«لا ، لا احد منهم . قد يملك احدهم عشرين نفساً ويملك الآخر ثلاثين ، اما من السادة الذين يملكون المئة فلا يوجد احد» .

فطن تشيتشيكوف الى انه فى منطقة ريفية نائية .

وتساءل «على اية حال ، هل المدينة بعيدة ؟»

«حوالى ستين فرستا . كم انا آسفة اذ ليس لدى ما اطعمك ! اتحب ان تشرب الشاى ؟»

«شكرا أيتها الأم الطيبة . ولكنى لا اريد شيئاً عدا الفراش» .

«أجل ، بعد رحلة كهذا لا شك فى انك بحاجة الى الراحة . ستنام على هذا الديوان . فيتينيا ، يا فيتينيا ، احضرى حشية ريش ومخدات وملاءات . اى طقس ارسل لنا الله ! واى رعد مخيف ! ما زلت منذ مغيب الشمس

احرق الشمع أمام الايقونة فى مخدعى . يا الهى ! ظهرك وجوانبك ملطخة بالوحل كالخنزير البرى . ماذا عملت حتى وصلت الى هذه الحال ؟»

«من حسن حظى أن لا يكون بى اكثر من التلطيخ بالوحل ، فلو لا العناية الربانية لكنت مكسر الاضلاع» .

«يا الهى ! ان القلب ليجف ان خطرت به الاهوال التى مرت بك . اليس من الافضل ان امسح لك ظهرك ؟»

««شكراً ، شكراً ، لا داعى لأزعاج نفسك . يكفينى منك ان تتلطفى فتقولى للخادم ان تنظف وتجفف ملابسى» .

كانت فيتينيا آنذاك قد لحقت تدخل الغرفة وهى تجر حشية الريش يتطاير الريش منها ليملأ جو المكان . فقالت لها ربة البيت . «اتسمعين يا فيتينيا ؟ خذى هذا المعطف وهذا الصدار ، وبعد ان تجففيهما امام النار – كما كنا نفعل بملابس المرحوم سيدك افركيهما فركا جيداً واطويهما بعناية» .

فقالت فيتينيا وهى تضع الملاءات على حشية الريش وترتب الوسائد «سمعاً وطاعة يا مولاتى» .

فقالت ربة البيت لتشيتشيكوف «فراشك جاهز الآن . اسعدت مساء يا سيدى ، اتمنى ان تصبح على خير . الا تريد شيئاً آخر قبل ان اتركك ؟ ربما تعودت ان يدغدغ أحد قدميك قبل النوم . ان زوجى المرحوم لم يكن يستطيع النوم بغير ذلك» .

ولكن الضيف رفض دغدغة الاقدام هذه ، وما كادت تتركه السيدة حتى سارع الى انتضاء ملابسه كلها ، العلوية والسفلية منها على السواء ، وتسليمهـــا الى فيتينيا . وبعد أن حيته هذه تحية المساء اخـــذت الملابس المبتلة وانصرفت ، فوجد نفسه وحيداً . ونظر الى الفراش الذى يكاد يصل السقف علوّا نظرة كلهـا رضى . من الجلى ان فيتينيا كانت فنّانة عريقة فـي تنجيد فراش كهذا الفراش . وترتب على ذلك انه مـا كان يصعد على احد الكراسى ليرمى بنفسه عليه ، حتى هبط به الفراش فكاد يداني أرض الغرفة ، وانطلقت من فتحات صغيرة جانبية فى حواشيه اسرابٌ كثيفة من الريش اخذت تحلق فى سماء الغرفة وتملأ كل زاوية فيها . ولكنه على الرغم من هذا كله ، أطفأ المصباح ، وسحب على نفسه غطاء من التشيت تقوقع تحتــه ، واستغرق حالا فى نوم عميق . واستيقظ فى ساعـة متأخرة من صباح اليوم التالى . كانت أشعة الشمس من النافذة تصب فى عينيه ، والذباب الذى كان يجثم فى الليل هادئا على السقف والجدران تنبه الآن لوجــود الزائر . فاستقرت احداها على شفته واستقرت اخرى على اذنه وثالثة اخذت تحلق فوق عينيه كانها تريد الهبوط فيهما ، اما الرابعة فقد جازفت بالرسوّ على منخره ، فاستنشقها وهو فى حالة الوسن فعطس عطسة شديدة عادت به الى كامل وعيه . فنظر الى ما حوله فى الغرفة فوجد أن الصور ليست كلها صور طيور كما عهد فى الليلة السابقـة ، بل كان بينهـا صورة للقائــد

كوتوزوف * وصورة زيتية لرجل عجوز بملابس رسمية تزينها شرائط حمراء من النوع الذى كان يرتدى أيـام الامبراطور بافيل ** . وفى تلك اللحظة فحت الساعـة نحيحها المعتاد ودقت عشر دقات ، بينما اطلّ وجـه امرأة من شق الباب وانسحب حالا ، لأن تشيتشيكوف ، رغبة فى ان يستمتع بالنوم ما استطاع ، كان قد نضى كل ما عليه من ثياب . غير أن الوجه كان يبدو اليفـاً لديه ، فاخذ يسترجع فى ذاكرته وجه من يكـون . وتذكر اخيرا انه وجه مضيفته . ووجد ثيابه بالقرب منه جافة ونظيفة فارتداها واقترب من المرآة وعطس مرة اخرى عطسة عنيفة جداً ، حتى ان ديكاً هنديـاً كان قريباً من النافذة (التى لم تكن بدورها تعلو عـن الارض كثيرا) قوقاً جملة قصيرة ، قد تعنى بلغتـه الغريبة انه يحيى تشيتشيكوف تحية الصباح . ولكـن تشيتشيكوف نعته بالغباء ثم تقدم الى النافذة ليستجلى المنظر الذى تطل عليه . وتبين أن المنظر الرئيسى كان خمّا للدجاج . كانت الساحة ما بين الخم والنافذة - على اية حال - مليئة بانواع الدجاج المختلفة بينها ديك يخطر ويتبختر بخطى متزنة ويثابر على هز عرْفه والالتفات براسه كما لو كان يتسمع الى شىء . والى احدى جوانب الحظيرة جلست خنزيرة وعائلتها ممـا

---

* كوتوزوف - القائد الروسى الذى قاوم نابليون بشدة فى معركة بورودينو . **الناشر** .

** اى فى اواخر القرن الثامن عشر . **الناشر** .

يضفى على المنظر رونقا وبهاء . كانت تحفر اول الامر فى كومة من القش ومن ثم اكلت فى طريقها فرخة صغيرة وبالتالى اخذت تقضم قطعاً من قشور البطيخ فى راحة وهدوء بال . وحول هذه الساحة الصغيرة اقيم سياج خشبى . وفيما وراء ذلك كانت حدائق البيت الكبيرة التى زرع فيها الكرنب والبصل والبطاطا والشمندر والخضروات البيتية الأخرى . وكان فى الحديقة أيضاً بضعة اشجار تفاح وفواكه مختلفة وضعت عليها شباك لكى تحفظ ثمارها من العصفور والعقعق . وكان من هذه الطيور اسراب تنطلق وتحوّم حول الشباك من نقطة الى اخرى . وللسبب نفسه نصبت بضعة هياكل من مفزعات الطيور ، وعلى رأس واحد منها وضعت قبعة كانت فى زمانها الغابر لربة البيت . ومما وراء الحدائق قام عدد من اكواخ الفلاحين . كانت الاكواخ مبعثرة بدلا من أن تكون منتظمة فى صفوف بدت فى عينى تشيتشيكوف انها تضم سكانا فى سعة من العيش ، لمظاهر العناية البادية عليها والسقوف الخشبية المتعفنة عادة كانت هنا جديدة ، ولم يكن يظهر فيها بان منحرف او مخلوع ، ومظلات العربات الماثلة امام عينيه كانت تدل ، على الأقل ، على وجود عربة او عربتين احتياطية زائدة جديدة تقريبا تقف تحتها .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «ان هذه السيدة تمتلك قرية غير فقيرة أبداً» ، ولهذا قرر آنئذ ان يتحدث فى الموضوع مع مضيفته وان يوثق معها اواصر المعرفة .

ونظر بناء على ذلك من شق الباب الذى أطل منه راسها قبل قليل ، فرآها جالسة الى منضدة الشاى ، فدخل عليها وحيّاها بابتسامة ملؤها البشر والمرح . فنهضت السيدة احتراماً وقالت :

«صباح الخير يا سيدى ، كيف كان نومك ؟»

كانت ترتدى ملابس أحسن من ملابسها فى الليلة السابقة . كانت ترتدى رداء غامق اللون ، وعلى رأسها قبعة اخرى غير قبعة الليلة الماضية ، وكان عنقها ملفوفا بشىء ما ، يخفيه لفاع .

فقال تشيتشيكوف وهو يجلس على كرسى «لقد نمت نوماً هنيئاً جدا . وكيف حالك ايتها السيدة الطيبة ؟»

«على غير ما يرام يا سيدى العزيز» .

«ولماذا ؟»

«لأننى لا أستطيع النوم . ان ألماً يشد وسطى ويمتد الى ساقى مما فوق الكاحلين حتى اخال عظامى تتكسر» .

«لك الشفاء ، لك الشفاء العاجل باذن الله . يجب ان لا تعيريه كثير الاهتمام» .

«سمع الله دعاءك . على اية حال فقد كنت افركه بالدهن والتربنتين . ماذا تريد ان تشرب مع الشاى ؟ لدى فى هذه العلبة بعض الروم» .

«عظيم جداً أيتها الأم الطيبة . اذن سأحتسى منه» .

ومن المحتمل ان يكون القارئ قد لاحظ ان تشيتشيكوف ، على الرغم من رقة قلبه الظاهرية ، اخذ يخاطب مضيفته الجديدة بنغمة مختلفة كل الاختلاف عن

نغمته التي يبدع فيها ؛ نغمة فيها الكثير من البشر وفيها ايضاً من الحرية ورفع الكلفة اكثر من تلك التي استعملها مع مانيلوف ولي هنا ان اؤكد بان الاجانب مهما كانوا يفوقوننا – نحن الروس – في وجوه عديدة ، فاننا على الاقل نفوقهم في مواضع الكلِم ولباقة الحديث . فاننا نستطيع في الواقع ان نضفي على مخاطباتنا واحاديثنا في المجتمع مختلف الظلال وان نصبغها بمسحات متعددة تتحدى كل حصر . فالفرنسي او الالماني يعجز عن تصور او فهم كل خصائص هذه الظلال او المسحات لأن نغمته في مخاطبة صاحب الملايين لا تختلف الا قليلا جدا عن تلك التي يخاطب بها بائع التبغ الفقير ، هذا على الرغم من محاولته الشديدة في التذلل النفساني امام الاسبق . لكن الامور عندنا تختلف على اية حال . ففي المجتمع الروسي قوم ماهرون يستطيعون ان يتكلموا بنغمة معينة للملاك الذي يمتلك مئتي نفس وبنغمة اخرى لذلك الذي يمتلك ثلاثمئة وباخرى لصاحب الخمسمائة ، وهكذا . اى ان الروسي لديه من نغمات الخطاب المختلفة ما يستطيع ان يخصص منها لكل ملاك حسب درجته حتى ذلك الذي يمتلك مليون نفس . لنفرض ان هناك دائرة حكومية في مكان ما ، وفي هذه الدائرة رئيس . ارجو ان تتصوره ، ايها القارئ جالساً بين موظفيه المطيعين . ان غطرسته سوف تمنعك من ان تنبس ببنت شفة ، فدلائل العظمة والكبرياء الظاهرة على وجهه اكثر من ان توصف . واذا شئت يوما ان ترسم له صورة في مخيلتك فلن تجد له

شبيها بغير بروميثيوس * لأن نظرته نظرة النسر ومشيته مشية الهيبة والاعتداد بالنفس . ولكن ما يكاد النسر يترك الغرفة ذاهبا الى مكتب رئيسه الاعلى حتى يهرول وهو يلصق الاوراق بأنفه كأي حجل يدرج في الفلاة . ولكنه في المجتمع وفي حفلات المساء (عندما يكون الموجودون اقل رتبة منه) يعود بروميثيوس ، بروميثيوس مرة أخرى . اما اذا كان من هو اعلى منه ، فانه سوف يسلك معه سلوكا لم يحلم به اوفيدي ** ويتحول الى ذبابة وحتى الى أحقر من ذبابة ، الى حبة رمل . واذا نظرت الى رجل كهذا فانك ستقول «ليس هذا زيداً بكل تأكيد ، ان زيداً طويل وهذا قميء ضئيل ، ان زيداً ذو صوت جهوري عميق لا يبتسم أبداً ، وهذا الرجل (اى رجل كان) يرتجف كالعصفور ويبتسم طوال الوقت» . لكن اقترب من الرجل وانظر اليه ملياً تجد زيداً بعينه ، ولا تستطيع الا أن تقول «واأسفاه واأسفاه» ولنعد الآن الى شخصياتنا من الحياة الواقعية . فقد عرفنا أن تشيتشيكوف آنذاك عقد العزم على وضع حد للمجاملات ، فامسك بأناء الشاي وصب عليه الروم وبدأ الحديث كما يلي :

«ان قريتك الصغيرة جميلة يا سيدتي ، كم نفسا فيها ؟»

---

* بطل خرافي يوناني تحدى كبير الآلهة زيوس واحضر النار لبني الانسان على الارض . **الناشر** .

** شاعر روماني . **الناشر** .

«اقل من ثمانين بقليل ، يا سيدى العزيز . ولكن الزمان صعب قاس ، وقد فقدت الكثير فى قحط السنة الماضية» .

«ولكن فلاحيك رجال اقوياء أصحاء. هل لى أن اسألك عن اسمك ؟ ان وصولى المتاخر فى الليلة الماضية جعلنى أفقد الصواب» .

«كوروبوتشكا ، ارملة موظف فى الدرجة التاسعة» .

«شكراً جزيلاً ، واسمك الاول ؟»

«ناستاسيا بتروفنا» .

«ناستاسيا بتروفنا ! يا لها من اسماء جميلة ! ان لى خالة بالاسم نفسه» .

«وما اسمك انت ؟ هل انت مختار • كما يبدو لى ؟»

فاجابها تشيتشيكوف بابتسامة «لا يا سيدتى ، لست مختاراً ، انما انا مسافر فى مهمة خاصة» .

«اذن يجب ان تكون ممن يشترون المنتوجات ؟ يا للأسف لأننى بعت كل ما لدى من العسل لتجار آخرين بثمن زهيد . ولو لا ذلك لبعتــه لك ايها السيد العزيز» .

«لا ، لا اشترى العسل أبدا» .

«اذن ما الذى تشتريه يا الهى ؟ قنب ؟ عندى شئ قليل منه ، نصف بود •• أو اكثر بقليل» .

• مختار – شخص يختار للاشتراك فى اعمال مؤسسة ما فى روسيا قبل الثورة . **الناشر** .

•• البود – ١٦،٣٨ كيلوغراما . **الناشر** .

«لا يا سيدتى ، فانى أتعامل باشياء اخرى . قولى لى ، هل مات فى السنين السابقة عدد كبير من فلاحيك ؟»

فتنهدت العجوز وقالت «اجل ، لا اقل من ثمانية عشر ، وكلهم من الاقوياء العاملين . لقد نما غيرهم فى الواقع ولكننى لا ارجو خيراً من الاحداث . انهم طائشون . وعندما جاءنى المختار فى المرة الأخيرة رحت ابكى أمامه . كان عليّ ان ادفع ضريبة عن رجالى الاموات كما لو كانوا احياء . ومنذ اسبوع فقط توفى عندى الحداد حرقا . لقد كان فى مهنته بارعاً ضليعاً» .

«ماذا تقولين ؟ هل شب حريق فى القرية ؟»

«لا ، لا ، وقانا الله شر ذلك ! ان الامر لم يكن بهذه الدرجة من السوء . انما الحداد قد احرق نفسه بنفسه . فقد اشتعلت النار فى امعائه من كثرة الشراب . نعم ، فقد بدا فجأة منه لهب ازرق واخذ لونه يتحول الى السواد شيئاً فشيئاً حتى اصبح وكانه قطعة من فحم . لكن اى فلاح بارع كان . ليس لدىّ الآن خيول تقود العربة ، فلا أحد فى القرية يستطيع حذوها» .

فتنهد تشيتشيكوف وقال «انها مشيئة الله فى كل شئ ، يا مدام . وليس لنا ان نرفض مشيئته . اعطنى اياهم يا ناستاسيا بتروفنا» .

«أعطيك ماذا ؟»

«الفلاحين الموتى» .

«ولكن كيف يتسنىّ ذلك ؟»

«الامر بسيط . بيعيهم لى ، وسوف اعطيك بدلا منهم نقوداً» .

«لكن كيف ابيعهم لك ؟ انى لا أكاد افهم ما تعنى ! هل تريدنى ان انبش قبورهم واخرجهم لك» ؟

فراى تشيتشيكوف ان العجوز فى بحر من الضياع ، وان عليه أن يوضح لها الامر . وعلى ذلك أفهمها ببضعة كلمات ان بيع الأنفس الميتة هذه او نقلها سوف يتم على الورق فقط ، وانها ستسجّل كما لو كانت حية .

فحدّقت ربة البيت بعينين شاخصتين وقالت «وما الفائدة التى سوف تجنيها منها ؟»

«ان هذا من شأنى» .

«ولكنها نفوس ميتة !»

«ومن قال انها غير ذلك ؟ انها مجرد نفوس ميتة تتألمين حزناً عليها وتضطرين الى دفع الضريبة عنها . وكل ما اريد ان اعمله هو ان اخلصك من هذه الاحزان وارفع عنك عبء دفع الضرائب . هل فهمت الآن ؟ ولن افعل ذلك وحسب وانما سوف اعطيك خمسة عشر روبلا عنها . هل اصبح واضحاً ما أقول ؟»

فقالت المضيفة مترددة «نعم — لكن . . . لا اعرف . فانا لم ابع ابداً نفوساً ميتة من قبل» .

«تماماً ، وسيكون مستغرباً لو فعلت . وهل توقنين فى قرارة نفسك بأن الانفس الميتة ذات فائدة ؟»

«اوه ، طبعاً لا . وما جدوى الانفس الميتة ؟ انى واثقة من عدم نفعها . انما الشىء الذى يحيرنى هو انها ميتة !»

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «انها لعجوز عنيدة حقاً»

واضاف بصوت عال «انظرى يا سيدتى ، فكري جيداً . ولكنك ، بصريح القول ، ستجرّين الخراب والدمار على نفسك بالاستمرار فى دفع ضريبة عن نفوس ميتة كما لو كانت حية» .

فقالت السيدة «يا للهول يا سيدى ! لا تتكلم عنها ! فمنذ اسابيع ثلاثة فقط دفعت مئة وخمسين روبلا للجابى ورشوته . . .»

«ها انت ترين بأم عينك ما يحدث لك . اليس كذلك ؟ تذكرى أنك اذا اصغيت اليّ لن تضطرى فى المرة القادمة الى رشوة الجابى ، لأننى أنا الذى سأدفع الضريبة عندئذ — لا أنت — بل انا سوف اصبح مسؤولا عنها كلياً ، بعد ان اصبح المالك لهذه النفوس بنقودى ، ومسؤولا عن كل ما يترتب عليها . بل وادفع نقوداً لحق الامتلاك . هل فهمت أخيراً ؟»

مهما يكن من امر ، فان نفس السيدة العجوز ظلت تساورها . كانت ترى ان بيع النفوس فى مصلحتها ، ولكن القضية ذات طبيعة غريبة جداً حتى انها بدات تحسب من ان هذا المشترى يريد ان يخدعها . لقد جاء من حيث لا يعلم الاّ الله ، وهبط على البيت فى ظلمة الليل ايضاً .

وقال تشيتشيكوف ناصحاً «هلا اتفقنا ؟»

«ولكن لم ابع فى حياتى قوماً موتى ! لقد بعت الاحياء فقط . فمنذ سنوات ثلاث خلت بعت فتاتين للكاهن ، كل فتاة بمئة روبل ، وقد شكر لى ذلك شكراً جزيلاً ، فقد تبين له انهما عاملتان ماهرتان تصنعان الفوط» .

«نعم ، ولكن حديثنا لا يتناول الأحياء منهم – اطال الله اعمارهم – انى اطلب اليك الموتى فقط» .

«نعم ، نعم ، بالطبع . ولكنى خشيت بادئ الأمر ان تكون لى فى الصفقة خسارة – وان يكون قصدك ان تغلبنى يا سيدى العزيز . . . وربما ثمن النفوس الميتة اعلى مما عرضت» .

«اسمعينى ايتها السيدة (كم صعبة انت !) كيف يمكن ان يكون ثمنها اعلى من ذلك ؟ فكرى بنفسك . انها رفات – رفات ، هل تفهمين ؟ خذى اى شيء تافه مهمل – كقطعة بالية متهرئة من القماش مثلا ، ان لها ثمنا ما ، فهى تباع على الأقل لصنع الورق . ولكن الانفس الميتة هذه – انها لا تصلح لشيء اطلاقاً . هل تستطعين ان تتذكرى لى شيئاً واحداً لها نفع فيه ؟»

«لا ، لا ، انها لا تنفع لشيء . ولكن الذى يزعجنى هو انها ميتة» .

فابتدأ تشيتشيكوف يفقد الصبر وقال فى نفسه «يا لها من مخلوقة غبية حقاً ، صعبة المراس لا مجال للاتفاق معها . لقد جعلتنى اتصبب عرقا هذه العجوز اللعينة» .

وهنا سحب من جيبه منديلاً ومسح العرق عن جبينه . بيد انه ما كان عليه ان ينفعل الى هذا الحد . فان كثيرا من رجال السياسة اذا ما جوبهوا بقضية هامة يتكشف المرء مدام كوروبوتشكا اخرى . فاذا حمل فى راسه فكرة معنية فليس من سبيل الى نزعها او تغييرها . وقد تدلى له بالحجة تلو الحجة وبالبينة تلو البينة ، وكل

منها واضح وضوح الشمس الا ان حججك وبيناتك ترتد راجعة عن دماغه كما ترتد كرة من مطاط بعد أن تضرب فى قطعة من صخر . على اية حال ، فبعد ان مسح تشيتشيكوف عرقه قرر ان يكرر محاولته فى الوصول بالسيدة الى ما يريد عن طريق آخر . فقال «اسمعى يا سيدتى ، اما انك لا تفهمين ما أطلب اليك او انك تتحدثين لمجرد الحديث فقط . انا اعطيك نقوداً – خمسة عشر روبلاً ورقياً . . . هل تفهمين ؟ انها نقود ، وليست شيئا يمكن ان تجديه فى قارعة الطريق . . . قولى لى ، بكم بعت عسلك مثلا ؟»

«باثنى عشر روبلا لكل بود» .

«ايه انك بهذه الكلمات يا سيدتى تكذبين على نفسك . لانك لم تبيعى العسل باثنى عشر روبلا» .

«بلى والله لقد بعته بهذا الثمن» .

«لا بأس ، لا بأس ، ان العسل هو العسل . ولكنك قد جمعته فى مدة طويلة من الزمن قد تكون سنة كاملة بذلت فيها من العناية والجهد ما لا نهاية له . كنت تهتمين بأمره وتروحين وتاتين اليه ، وحفظت النحل واطعمته فى خلاياه طيلة ايام الشتاء والبرد . ولكن النفوس الميتة التى اتحدث عنا لم تبذلى فيها اى مجهود . مشيئة الله هى التى وضعت حداً لحياتها على الارض وانقصت عدد الأقنان فى قريتك . ففى الحالة الاولى ، استلمت اثنى عشر روبلا لكل بود (كما تقولين) عن تعبك ومجهودك فى العسل . ولكن فى الحالة الثانية ستاخذين – لا اثنى عشر روبلا – بل خمسة عشر .

وسوف لا اعطيها لك روبلات فضية ، بل روبلات من العملة الورقية *» .

لم يكن هناك شك لدى تشيتشيكوف فى ان هذه الحجج الدامغة سوف تغرى العجوز بالاستسلام بكل تأكيد .

فاجابت العجوز تقول «يا لغرابة الاعمال التى تعترضنى وانا ارملة عديمة الحيلة ! قد يكون من الافضل لو انتظرت بعض الوقت فقد يمر بعض المشترين الآخرين وارى فيما اذا كانوا سيدفعون ثمناً آخر ، واقارن عندئذ بين الاثمان» .

«يا للعار يا سيدتى ! يا للعار ! هل تفكرين فيما تقولين ؟ فمن هو الذى سيشترى هذه النفوس ؟ واى فائدة يمكن ان يجنيها انسان منها ؟»

فاخذت العجوز تفكر بصوت عال وتقول «اذا كان الامر كذلك فقد يتبين ان لها فائدة لى» . ومن ثم جلست تحدّق فى تشيتشيكوف بفم مفتوح ووجه متوتر تنتظر ماذا سيكون رد الفعل عند محدثها .

فقال تشيتشيكوف متعجباً «فائدة ترتجى من الموتى فى عقر بيت . ماذا ؟ ما الذى يمكن ان تفعليه بهم ؟ تنصبينهم على اعمدة لتخيفى العصافير فى الحديقة ؟»

فقالت وهى تصلب على نفسها «احفظنا يا رب ! لكن ما هذا الذى تقول ؟»

---

* كانت قيمة العملة الورقية اكثر من قيمة مثيلتها الفضية . **الناشر** .

«اجل ، ماذا ستفعلين بهم ؟ انهم أصبحوا الآن عظاما وقبوراً لا شىء آخر . وانتقالهم سيكون على صفحات الورق فقط . كفى ! كفى ! هيا أعطنى الجواب الأخير» .

وراحت العجوز مرة أخرى تستشير نفسها .

فقال تشيتشيكوف «ما الذى تفكرين به يا ناستاسيا بتروفنا ؟»

«انى لا أكاد اعرف ماذا سأفعل . قد يكون من الافضل ان أبيعك تيل قنب ؟»

«وما الذى اريده من تيل القنب ؟ اسمحى لى . . . عندما اقترح عليك اقتراحاً ، ارى انك تطنطنين لى بقصة تيل القنب . تيل القنب هو تيل القنب . وقد احتاج منه شيئاً فى زيارتى القادمة ، اما الآن فاريد ان أعرف ما هو رايك فى الاقتراح الذى هو موضع البحث» .

«اظن أنها مساومة غريبة جداً ، فلم أسمع بشىء كهذا اطلاقا !»

عندئذ فقد تشيتشيكوف ما تبقّى لديه من الصبر ، فقلب الكرسى على الارض وقال لها ان تنصرف الى الشيطان . ولكن ذكر الأخير جعلها ترتجف هلعا . فشحب لون وجهها وقالت «أتوسل اليك ، لا تذكره ! عفا الله عنه ! كانت الليلة الماضية ثالث ليلة يظهر لى فيها فى المنام . فبعد ان أنهيت صلاة المساء خطر لى ان أعرف حظى فى ورق اللعب . يجب أن يكون قد أرسله الله لى عقاباً على ذلك . كان منظره مرعباً جداً وقرناه أطول من قرنى الثور !»

«لا أدرى لماذا لا ترين عشرات من الشياطين فى احلامك . قد يكون جاء عطفا عليك ورأفة بك يخبرك بانك عجوز فقيرة سائرة فى طريق الدمار وستنتهين فى القريب العاجل الى العوز والفاقة . هيا – الى جهنم بك وبقريتك !»

فنظرت العجوز الى ضيفها برعب وهلع وراحت تقول «يا للاهانات !» فاكمل تشيتشيكوف قوله «لا اجد فى الحقيقة الكلمات المناسبة لأ صفك بها . انك كالكلب المربوط الى المِذْوَدِ ، لا يأكل العلف ولا يدع غيره يأكل منه . كل ما كنت اريده منك هو ان اشترى بعض المنتجات من قريتك ، لأننى متعهد للحكومة بمثل هذه الحاجات» .

ذكر هذه الفكرة الأخيرة ، عابراً ، لأنها مرت فى خاطره كفكرة حلوة دون أن يكون له من ورائها هدف بعيد . ولكن ذكر تعهدات الحكومة كان له تأثير قوى على ناستاسيا بتروفنا ، فسارعت تقول بنغمة متضرعة كأنها فى صلاة «ولماذا اشتد بك الغضب عليّ ؟ لو كنت أعلم أن الغضب سيساورك من هذا الحديث لما ناقشتك فيه» .

«لا عجب أن غلا غضبى . ان الامر لتافه جداً ، ولكنه قد يصل بالانسان أحياناً الى درجة الغليان» .

«سوف أعطيك النفوس ، بخمسة عشر روبلاً ورقياً ، على أن تعدنى عند التعهدات ان تذكرنى فى اى وقت تحتاج فيه الى الحنطة والجويدار او الجريش واللحوم المجففة» .

«لا ، لن انساك ابداً يا سيدتى» . واخذ يمسح عن جبهته ثلاثة جداول من العرق تصب على وجهه . ثم سألها اذا ما كان لها فى المدينة اى قريب او وكيل تستطيع ان توكل اليه التوقيع على الصفقة ، وان ينوب عنها فى كل ما تتطلبه العملية من اجراءات فى دوائر الحكومة» .

فاجابت السيدة كوروبوتشكا «طبعاً ، ابن قسّيسنا الأب كيريل ، هو نفسه محام» .

عندئذ رجاها تشيتشيكوف ان تكتب للرجل المذكور صيغة التوكيل ، وذهب بنفسه تيسيراً للامور فى التو والساعة لكتابة التوكيل المطلوب .

بينما راحت السيدة تفكر فى نفسها قائلة «من المستحسن ان اغريه بشراء طحينى وحيواناتى لتعهدات الحكومة . وعليّ ان اجد طريقة اشجعه فيها على ذلك . لدينا عجين من الليلة الماضية . سأذهب الى فيتينيا واجعلها تقلى له بعضاً . ولا بأس ان اقدم له منها فطيرة بالبيض . اننا نحسن صنع هذه الاكلة هنا ، وهى لا تأخذ وقتاً طويلا» . وهكذا انطلقت تترجم افكارها هذه الى حيّز التنفيذ ، ولكى تزيد على الفطير اشياء اخرى من محتويات المطبخ . اما تشيتشيكوف فقد عاد الى صالة الاستقبال – حيث قضى ليلته السابقة – ليحضر من صندوق رسائله أوراق الكتابة اللازمة . كانت الغرفة قد أعيد ترتيبها ورفع منها فراش الريش الضخم ووضعت منضدة امام الديوان . فوضع صندوق رسائله على المنضدة . ثم تنهد تنهدة

لطيفة عندما احس انه مبلل بالعرق كما لو غطس في نهر . كانت كل ملابسه من القميص الى الجوارب تنقط عرقاً . وبعد ان استراح لحظة قال «اه» ، كم اتعبتني ، هذه الشمطاء اللعينة !» ثم فتح صندوق الرسائل . وقد يكون عند بعض قرائي ، على الاقل ، رغبة في معرفة محتويات هذا الصندوق والشكل الذى رتّبت عليه . ولماذا لا البي هذه الرغبة ؟ كان اولا في وسط الصندوق صحن لقطعة الصابون يحيط بها ستة او سبعة جيوب صغيرة لأمواس الحلاقة ، وتلى ذلك قواطع مربعة الشكل لعلبة الرمل • وللمحبرة وما بينهما قاطع مستطيل لريشة الكتابة ثم قاطع آخر لشمع الاختام وما احتاج الى مجال كبير واخيراً كانت قواطع اصغر للاشياء الصغرى كبطاقات الزيارة وشهادوات الدفن ، وتذاكر المسارح وما احتفظ به تشيتشيكوف على سبيل الذكرى . وهذا القسم كله من الصندوق يمكن ان يرفع الى الخارج حيث يظهر تحته مكان للاوراق وصندوق سرى صغير للنقود . والأخير يمكن ان يسحب من الجانب . وكان يفتحه ويسده بسرعة لكى لا يعرف احد كم لديه من النقود . وشرع تشيتشيكوف ينظف ريشة ليكتب بها واذا بالمضيفة تدخل عليه مبدية اعجابها بالصندوق ، وقالت وهى تجلس على مقعد مجاور «ما

• كان الرمل يستعمل لتجفيف الحبر قبل وجود ورق النشاف . **الناشر** .

هذا الصندوق الجميل يا سيدى ؟ هل اشتريته من موسكو ؟»

فاجاب تشيتشيكوف دون ان يقطع حبل الكتابة «نعم ، من موسكو» .

«لقد عرفت ذلك ، فالمرء يستطيع ان يشترى اشياء جيدة من هناك . من ثلاثة اعوام اشترت اختى بعض الاحذية الجيدة لابنائها . وقد كانت بضاعة جيدة جداً ، الى هذا اليوم يلبسها الاولاد . اه ، كم لديك من الاوراق بشعار الحكومة ! (قالت هذا واخذت عيناها تبصبصان داخل الصندوق فوجدت كمية غير قليلة من الورق المذكور) . اتسمح لى باخذ ورقة منها ؟ ليس عندى منها شىء ، وعليّ ان اقدم طلباً الى المحكمة وليس من شىء اكتب عليه» .

عندئذ اوضح لها تشيتشيكوف بأن هذا الورق ليس من النوع الذى تبغى ، فهو مطبوع خاصة لبيع الاقنان ولا يصلح لتقديم طلبات اخرى . ومع ذلك فقد اعطاها بغية ارضائها ورقة عليها طابع بروبل واحد . ثم سلّمها الرسالة لتوقعها ، وطلب اليها لقاء ذلك نسخة عن لائحة باسماء الفلاحين . ولكن لائحة من هذا القبيل ، لسوء الحظ ، لم تكتب فى يوم من الايام ، والطريقة الوحيدة هى انها كانت تحفظ اسماءهم عن ظهر القلب . مهما يكن من امر ، فقد طلب اليها ان تملى الاسماء عليه . وقد اندهش بطلنا من اسمائهم كما اندهش من بعض الالقاب ايضا . وقد وقف لحظة عندما سمع اسم – «بيتر سافيلييف غير المحترم للطست» وقال لا ارادياً «اى

سلسلة من الاسماء هذه» . وكان لقب قِنّ آخر «حجر البقرة» ولقب ثالث «عجلة ايفان» . على اية حال ، فقد اكمل اللائحة اخيراً وتنفس الصعداء . وفى عمليته الأخيرة هذه التقط انفه رائحة شهية لشىء مقلى بالدهن . فرفع راسه والقى نظرة على المائدة ، فاذا بها ملأى بالفطر والفطير واللحوم المختلفة .

«ارجوك ان تتناول لقمة . جرّب هذه الفطيرة الطازجة المقلية بالبيض» فامتثل تشيتشيكوف للأمر . وبعد ان اكل اكثر من نصف ما قُدّمَ له اخذ يمدح الفطير مطنباً . كان فى الواقع لذيذ الطعم ، وقد يزيد من لذة طعمه انه جاء بعد المجهود العنيف والمصاعب الهائلة التى مر بها مع مضيفته .

وقالت السيدة «وبضعة من الفطائر الصغيرة ايضاً ؟»

ورداً على ذلك طوى تشيتشيكوف ثلاثاً مع بعضها البعض وغمسها فى صحن الزبدة ووضعها فى فمه دفعة واحدة ثم مسح يديه وفمه بالفوطة . واعاد هذه العملية ثلاث مرات ايضاً ، ثم طلب من مضيفته ان ترسل لاعداد العربة . ولما طلبت السيدة من فيتينيا ان تذهب لتنفذ الامر قالت لها ان تحضر معها عند عودتها طبقاً جديداً من الفطائر الساخنة . فاخذ تشيتشيكوف يقوم بمهمته فى الطبق الجديد عند وصوله وهو يقول «انها عظيمة حقاً» .

فقالت السيدة «اجل ، اننا نتقن فى صنعها هنا . ولو لم يكن موسم الحصاد سيئاً هذا العام والطحين غير

جيد ، مما منعنى ان . . .» ورأته يمد يده الى قبعته وقالت : «ولكن علامَ تستحث الخطى يا سيدى ؟ ان العربة غير جاهزة بعد» .

«لكن هذا لا يستغرق وقتاً طويلاً ، وانى بحاجة الى دقيقتين كى احزم متاعى» .

«كما تشاء يا سيدى ، لكن لا تنسنى من تلك التعهدات الحكومية» .

فهرع تشيتشيكوف مهرولا الى القاعة وهو يقول «لا ، لقد قلت لكِ اننى لن انساك» .

فتبعته مضيفته وهى تقول «الا تريد ان تشترى شيئاً من شحم الخنزير ؟»

«شحم الخنزير ؟ اوه ، طبعاً ، ولمَ لا ؟ انما . . . انما ساترك ذلك للمرة القادمة» .

«سيكون لدى قسم منه جاهزا بعد عيد الميلاد» .

«اجل ، اجل يا سيدتى . سوف اشترى آنئذ كل شىء بما فى ذلك الشحم» .

«وربما كنت بحاجة الى الريش ايضاً ؟ سيكون جاهزاً عندى للبيع فى عيد القديس فيليب» .

«حسناً جداً ، حسناً جداً يا سيدتى» .

وخرجا الى الشرفة . فقالت «ها انت ترى ان العربة ليست جاهزة بعد» .

«ولكنها سرعان ما تجهز . الا انى ارجوك ان تدلينى على الطريق الرئيسى» .

«وكيف لى ان افعل ذلك يا سيدى ؟ ففى هذه الناحية عدد كبير جداً من المنعطفات . على اية حال ، سوف

ارسل فتاة تدلك عليها . تستطيع أن تجد لها موضعا قرب مقعد السائق ، أليس كذلك ؟»

«بلى ، بلى» .

«اذن سأرسلها معك ، انها تعرف الطريق جيداً . انما لا تذهب بها بعيداً ، فقد فقدت احدى فتياتى اذ اخذها منى بعض التجار المتجولين» .

فطمان تشيتشيكوف روعها بهذا الشأن . فاطمأنت واخذت بناء على ذلك تتفحص الساحة . فوقع بصرها على احدى خادماتها وهى خارجة من مخزن المؤن تحمل فى يديها إناء خشبياً مليئاً بالعسل ، ورات فلاحاً آخر يتلكأ قرب الرتاج . وهكذا انغمست بنفسها شيئا فشيئا فى شؤونها المنزلية واصبحت منهمكة فيها . ولكن لماذا نعير كوروبوتشكا اهتماماً ؟ تباً للارملة كوروبوتشكا ومدام مانيلوفا والحياة المليئة والحياة الفارغة ! فمن ذا الذى يهتم بهذه الامور ؟ لكن فى الدنيا من الغرابة شيئاً كبيراً . وان المرء اذا ما فكّر فى أمر وابتسم له ، ما يكاد ينهى ابتسامته هذه ، حتى يكون فكره قد انتقل الى أمر آخر قد يكون محزناً . الله وحده يعلم الافكار العديدة التى تبرق فى ذهن الانسان فى اللحظة الواحدة . وقد تفكر ايها القارئ فى لحظة كاللحظة التى نحن فيها فتقول – هل صحيح ان مدام كوروبوتشكا تقف فى سلّم الكمال الانسانى على درجة منحطّة جداً ؟ وهل هناك فى الحقيقة هوّة كبيرة تفصل بينها وبين اختها التى تقبع محسودة بين جدران أربعة فى بيت فخم ارستقراطى ، ملء بالعطور ، ذى سلالم من

حديد مزيّن بالتحف النحاسية مؤثث بالخشب النفيس ، مفروش بالسجاد ، تقضى معظم أوقاتها تتثاءب خلف كتب لم تكمل قراءتها ، تنتظر زيارة شخص متميز اجتماعياً لكى تطلعه على فطنتها وتشرح له افكارها المحفوظة المعادة التى سبقت معرفتها والتى شغلت المدينة منذ أسبوع مضى والتى لا علاقة لها اطلاقاً بشؤونها المنزلية أو شؤون مزرعتها اللتين دب فيهما الفوضى والخراب نتيجة جهلها بما هو هامّ فى الحياة . انها تناقش الانقلاب السياسى الذى تتهيأ فرنسا للقيام به ، والاتجاه الحديث الذى اخذت تسير فيه الكاثوليكية الجديدة . تباً لهذه الامور ! ولماذا نتكلم عنها ؟ ولكن لماذا يكون الانسان فى لحظة من اللحظات سعيداً هنيئاً خالى البال والتفكير ويحسّ فجأة بموجة من الهمّ تمر عليه لا يعلم لها مصدراً ؟ ولا تكون الابتسامة قد فارقت ملامحه ويشعر فوراً أن هناك فرقاً بينه وبين زميله الذى يجلس معه ، ويشع وجهه باشعاع مختلف جداً .

ولما راى تشيتشيكوف العربة تتقدم ببطء صاح «ها هى العربة» . ثم لسيليفان «يا للغبى ، لماذا تتلكأ هكذا ؟ ارى أن خمرة الامس لم تتبخر من رأسك بعد» .

ولم ينبس سيليفان ببنت شفة .

وخاطب تشيتشيكوف السيدة قائلا «وداعاً يا مدام . ولكن اين البنت ؟»

فصاحت «هاهى ، بيلاغيا» . واشارت الى فتاة فى الحادية عشرة من عمرها ترتدى ملابس مغزولة ومصبوغة

في البيت ولها قدمان عاريتان يكسوهما الوحل الكثيف ، اذا نظر اليهما الانسان من بعيد يحسبها تنتعل خفاً .

«هيّا يا بيلاغيا ، اذهبي ودلّي السيد على الطريق» .

وساعد سيليفان الفتاة في الصعود الى مقعده . فوضعت قدماً على الرفرف الذي يصعد عليه السيد وملاته بالوحل . ثم صعدت واحتلت مكانها المقرر قرب السائق . وحذا تشيتشيكوف حذوها (مما جعل العربة تميل من ثقله) واستقرّ في مقعده الخلفي وهو يقول «كل شيء على ما يرام ، وداعا يا مدام» . وانطلقت الجياد خبباً .

كانت الجهامة ظاهرة على سيليفان ولكنه كان متنبها متيقظاً لعمله . وكانت هذه عادته الدائمة عندما يرتكب خطيئة او يسكر . وكان يبدو على الجياد ايضا انها نظيفة اكثر من المعتاد ، فان طوق احدها كان مرتباً جداً ، مع ان في السابق الطوق نفسه بلغ درجة بعيدة في القدم بحيث أخذت حشوته تخترق الجلد وتبرز من خلال الثقوب . أما الصمت فكاد يكون كاملا . كان سيليفان يلوّح بسوطه فقط ولم يكن يتكلم مع الجياد ، مع أن الارقط كان على استعداد – كما هي العادة – لسماع ارشاد طويل لا سيما وان الأعنة كانت رخوة في يد السائق الفصيح والسوط يجول جولات بريئة فوق ظهر الترويكا بحكم العادة . مهما يكن من امر ، فان الانسان كان يستطيع ان يسمع من شفتي سيليفان الكئيبتين ، الصيحة البذيئة المعتادة «امشوا ايها الحيوانات . امشوا ايها الحيوانات» . حتى الكميت

والمستشار لم يكونا يشعران بالرضى لأنهما لم يسمعا النداء المألوف «أيها العزيزان» ، أو «أيها البطلان» . ثم اخذ الارقط يتلقى ضربات عنيفة على كفله العريض الواسع . فراح يهز اذنيه ويقول في نفسه «ما الذي غير من طبع سيدي ؟ انه يعرف جيداً اين يضربني . لا يضربني على الظهر ، انما يفتّش عن المواضع الحساسة كالاذنين او البطن» .

ورأى سيليفان طريقاً موحلة تمتد على استقامتها ما بين الحقول الخضراء ، فاشار اليها وهو يسأل الفتاة «الى اليمين ، أليس كذلك ؟»

فأجابت «لا ، لا ، سأريك الطريق متى يحين الحين» .

وسارت العربة شوطا ، وسأل الفتاة مرة اخرى «اي طريق اذن ؟»

فأشارت الى الطريق السالفة الذكر ، وقالت «هذه» .

فقال السائق «عليك لعنة الله ، ولكن هذه ذاهبة الى اليمين ، انك لا تعرفين يمينك من شمالك» .

كان الطقس جميلا ولكن الارض كانت موحلة جداً بحيث اكتست عجلات العربة بطبقة من الوحل كما لو كان لها غطاء من اللباد فوق عجلات الحديد ، وهذا ما زاد في ثقل العربة . ولم تستطع ان تتخلص من ضواحي القرية قبل حلول الظهيرة ، ولو لا مساعدة الفتاة أيضا لكان العثور على الطريق مستحيلا ، لأن عدداً كبيراً من الطرق يتفرع الى كل ناحية كسراطين مصادة طلعت من الكيس ولو لا المساعدة المذكورة لراح سيليفان يتصرف

بحكمته الخاصة . واخيرا أشارت الفتاة الى بناية بعيدة وقالت «تلك هى الطريق العامة» .

فسألها سيليفان «وما هى تلك البناية ؟»

فقالت «حانة» .

«اذن نستطيع السير وحدنا . أنزلى وارجعى الى البيت» .

عندئذ اوقف العربة وساعدها على النزول وهو يقول «ايتها القذرة ، ذات الاقدام السوداء» .

واضاف تشيتشيكوف الى هذا الكلام قطعة عملة نحاسية ، فانصرفت البنت مسرورة بركوبها فى عربة السيد .

الفصل الرابع

واذ بلغ تشيتشيكوف الحانة عرج عليها . وقد دعاه الى ذلك سببان – احدهما أنه كان يبغى إراحة الخيول ، والآخر أنه كان نفسه بحاجة الى استعادة النشاط بتناول شىء خفيف من الطعام . ويجد المؤلف نفسه هنا مُلزما بالاعتراف بان شهية مثل هؤلاء الرجال وسَعَة بطونهم أمران يحسدان عليهما . اما اولئك الناس من أهل موسكو وبطرسبورج ، الذين هم في يسر من العيش والذين يقضون أوقاتهم يحسبون ماذا سيأكلون فى الغد ، وماذا سيأكلون بعد الغد ، والذين لا يجلسون الى المائدة أبدا دون أن يجرعوا حبة دواء ثم يلتهمون المحار والسرطان وكمية أخرى من

المخلوقات الغريبة والذين يؤول أمرهم الى الذهاب للاستشفاء فى كارلسباد او القوقاز – اما بشأن هؤلاء فليس للمؤلف فيهم الا رأىٌ زهيد . أجل ليس هؤلاء بالقوم الذين يبعثون فى النفس الحسد . انما تلك الفئة من الطبقة المتوسطة ، الفئة التى تطلب قديد الخنزير فى نُزُل ، ولحم الخنزير المشوى فى نُزُل آخر وتطلب فى نزل ثالث شريحة من السمك او فطيرة مخبوزة مع البصل والتى تستطيع بعد ذلك الجلوس الى المائدة فى اية ساعة كما لو انها لم تتناول وجبة طعام فى حياتها من قبل ، وتستطيع أن تلتهم جميع انواع الأكل وجميع أصناف السمك المختلفة وتمضغها بشكل تقصد منه زيادة الشهية ، هؤلاء أقول ، هم الجماعة الذين يتمتعون بنعمة السماء التى ما بعدها نعمة . وللبلوغ الى هذه النعمة السماوية العلوية نجد أن الجماعة العظام الذين ذكرتهم فيما سبق ، على استعداد للتضحية بنصف عبيدهم ونصف أملاكهم . المرهونة وغير المرهونة ، بما أدخل عليها من اصلاحات اجنبية واصلاحات وطنية ، فى سبيل الحصول على معدة كتلك التى تحظى بها الطبقة المتوسطة . لكن لسوء الحظ ، لا المال ولا الاملاك ، سواء أدخلت عليها التحسينات او لم تُدخل ، بقادرة على شراء معدة كهذه .

كانت الحانة الخشبية الصغيرة بستارها الضيق – وان كان منظر مضياف – المعلّق بصارين منقوشين نقشاً غير مصقول كشمعدانى كنيسة قديمين ، تلوح وكأنها تدعو تشيتشيكوف الى الدخول . كانت البناية فى

الواقع كوخاً روسياً وحسب ، من الطراز العادى ، لكنها كانت كوخاً ذا ابعاد أكبر من المعتاد ، وقد رسمت ونقشت حول نوافذه وسقفه الهرمى افاريز من خشب بألوان زاهية خففت من عتمة ظلال الجدران وانسجمت انسجاما كليا مع الأصص ذات الزهور التى رسمت على دفات الشبابيك .

وصعد تشيتشيكوف السلّم الخشبى الضيق الى الطابق العلوى فوصل الى فسحة متسعة ووجد نفسه امام باب ذى صرير وامرأة عجوز بدينة ترتدى رداء مقلما طُبعت اقلامه طباعة . وقالت «هذه الطريق ، من فضلك» . فوجد تشيتشيكوف فى الغرفة المهياة له اصدقاءه القدامى الذين يجدهم المرء دائماً فى الفنادق القائمة على جنب الطريق كهذا الفندق ، الا وهى - سماور اشيب ، واربعة جدران ملساء مخدّشة من خشب الصنوبر الأبيض ، ودولاب مثلّث الزوايا فيه اكواب واباريق شاى ، واوان للبيض من الصينى المذهب واقفة امام ايقونات معلقة بأربطة حمراء وزرقاء ، وقطة انجبت حديثا واصبحت لها عائلة ، ومرآة تعكس للناظر فيها عيوناً اربعاً بدلا من اثنتين وفطيرة بدلا من وجه ، وبجانب الايقونات وضعت اضغاث من الاعشاب والقرنفل مغبرة ذابلة اذا حاول المرء شمها انطلق عاطساً .

وسأل تشيتشيكوف ربة البيت وهى واقفة امامه فى الانتظار «هل عندك لحم خنزير رضيع ؟»

«نعم» .

«وفجل ابيض ولبن ؟»

«نعم» .

«احضريها اذن» .

فانطلقت السيدة لهذا الغرض ، وعادت بطبق وفوطة (منشّاة لدرجة اصبحت فيها كاللحاء المجفف) وسكين بمقبض من عظم بدأ يحول لونه الى الصُفرة ، وشوكة بشعبتين فى رقة الرقاق ، ومملحة لا تقف معتدلة .

واتباعاً للعادة الجارية ، دخل بطلنا فى حديث مع المراة ، وتساءل فيما اذا كانت هى التى تشرف على الحانة او اذا كان هناك مشرف آخر ، وكم هو مدخل الحانة ، وفيما اذا كان أولادها يعيشون معها ، وهل الاكبر اعزب او متزوج ، ومن هى تلك التى تزوجها الاكبر ، وهل كان المهر الذى دفعته كبيراً ، وهل كان ابو العروس راضياً ، وفيما اذا لم يشتك ابو العروس المذكور من صغر الهدية عند العرس . وباختصار ، طرق تشيتشيكوف كل نقطة يمكن ان تمرّ بالبال . وقد ابدى - بالطبع - رغبة فى معرفة الملاكين فى تلك الناحية ، وتاكد من اسمائهم فاذا بها بلوخين ، بوتشيتاييف ميلنوى ، العقيد تشيبراكوف ، سوباكيفيتش . فقال «اذن تعرفين سوباكيفيتش ؟» فاجابته بأنها لا تعرفه وحسب ، وانما تعرف ايضا مانيلوف الأكول أكثر من سوباكيفيتش ، فمانيلوف يطلب دائما فرخة مشوية وقطعاً من لحم العجل ولحم الخروف ثم يتذوق لقمة صغيرة من كل منها ويترك الباقى ، اما سوباكيفيتش فانه يطلب طبقاً واحداً فقط

لكنه يأكله ثم يطلب طبقاً آخر من النوع نفسه وبالثمن نفسه .

وبينما كان تشيتشيكوف يتجاذب أطراف الحديث مع ربة النزل ويأكل لحم الخنزير الرضيع حتى لم تكد تبقى منه غير قطعة واحدة سمع صوت عربة تقترب . فراى وهو يرنو من النافذة عربة خفيفة تجرّها ثلاثة خيول جيدة تقف بباب الخان . ونزل منها رجلان – احدهما طويل اشقر الشعر يرتدى معطفا أزرق غامقا والآخر هزيل البنية اسود الشعر ذو معطف مقلّم . ووقفت خلف العربة عربة اخرى ، لكنها فارغة مهملة ، تجرّها اربعة جياد طويلة الوبر واطواق متهرئة لجمها من حبال . ولم يلبث الاشقر أن اتجه الى السلالم وراح يصعد عليها بينما ظل صاحب الشعر الاسود يتسكع حول العربة كأنه يفتش عن شيء فيها ويتكلم اثناء ذلك مع سائق العربة الواقفة الى الخلف ويؤشر للعربة خلفهم . وبدا لتشيتشيكوف أن صوت الرجل ذى الشعر الاسود أليف لديه . وبينما كان يلقى عليه من النافذة نظرة اخرى ليتأكد منه ، دخل صاحب الشعر الاشقر عليه الغرفة . كان القادم الجديد عالى البنية ذا شارب صغير احمر ووجه [illegible] ، بارز التقاطيع تعلوه حمرة تدل على أن لصاحبه صلة وثيقة حميمة ان لم تكن بدخان البارود فعلى الاقل بدخان التبغ . على أية حال ، فقد حيّا تشيتشيكوف بأدب وردّ الأخير بانحناءة . وقد كاد الرجلان فى الواقع يدخلان معاً فى حديث ويتعارفان على بعضهما البعض (لا سيما وقد كان

يبدو عليهما الارتياح الى ان مطر الليلة السابقة قد رسّب الغبار على الارض فغدت سياقة العربات على الطرق لطيفة ممتعة) ، لو لا ان دخل ذو الشعر الاسود ورمى بقبعته على المنضدة وازاح من فوق جبينه خُصلة مشعثة سوداء من شعره الى الوراء . كان آخر الواصلين معتدل الطول مقداماً منسجم الشكل له خدّان فى غاية الاحمرار وأسنان فى بياض الثلج وفودان ف[illegible] سواد الفحم . كانت ملامحه فى الحقيقة غضة حتى تكاد تحسبها مكونة من الدم واللبن ، بينما كانت الصحة ترقص فى كل قسمة من قسماته . وصاح وقد تفتح للعناق عندما راى تشيتشيكوف «ها ، ها ، ها . اى حظ ارسلك الى هنا ؟»

عندئذ عرف تشيتشيكوف نوزدريف – الرجل الذى قابله فى وليمة المدعى العام ، والذى أصبح فى طرفِ دقيقة او دقيقتين من تعارفهما اليفاً جداً لزميله فى الضيافة حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثانى على الرغم من ان تشيتشيكوف لم يعطه المجال لذلك.

وسأله نوزدريف يقول «اين كنت اليوم ؟» ودون ان ينتظر جوابا استمرّ يقول «اما انا فعائد من السوق حيث نظفوا جيوبى . لم يحدث لجيوبى أن اصبحت خالية خاوية كهذه المرة . وهذا ما اضطرنى فى الواقع الى ان اعود بخيول الأجرة ! انظر من الشباك ترها بأم عينيك» . وادار راس تشيتشيكوف بشدة الى الجهة المقصودة حتى كاد يصدمه بأطار النافذة . «هل رأيت فى حياتك مثلها عجباً ؟ اننى لا اكاد اصدق ان هذه

الخيول التعيسة استطاعت أن توصلني الى هذا المكان . والواقع انني اضطررت في الطريق الى الانتقال الى عربة صاحبنا هذا» . واشار الى زميله باصبعه . «بالمناسبة ، الا تعرفان بعضكما ؟ انه ميجويف ، صهري . في صبيحة هذا اليوم كنت اكلمه عنك . لقد قلت له – سوف تقابل تشيتشيكوف اليوم ، وسترى . يا آلهي ، كم هي جيوبي خالية الآن ! لم اخسر اربعة جياد اصيلة وحسب ، بل خسرت ساعتي وسلسلتي ايضا» . وقد لاحظ تشيتشيكوف في الواقع ان محدثه تنقصه الأدوات المذكورة ، كما لاحظ ايضا ان احد جانبي فودي نوزدريف كان قصيراً مشعثاً اكثر من الآخر . واستمر نوزدريف يقول «لو كان في جيبي عشرون روبلا اخرى لاسترجعت كل ما خسرت ، ولربحت ثلاثين الفاً . نعم ، اقسم لك بشرفي على هذا» .

فقال الرجل الاشقر «ولكنك قلت الشيء نفسه حينما قابلتك المرة الماضية ، واقرضتك خمسين روبلا آنذاك وخسرتها كلها» .

«ولكني لم اكن لأخسرها هذه المرة لو لم ارتكب حماقة ، حقاً ، ما كنت سأخسر . انني اقول لك انني لم اكن لأخسرها فلو سحبت الورقة الصحيحة لربحت كل النقود» .

فاجاب الاشقر «ولكنك لم تسحب» .

«نعم ، وذلك لأني لم العب الورقة الرابحة . ولكن كيف كان لعب صديقك الغالي حضرة الرائد ؟»

«سواء كان لطيفاً أم لم يكن ، فهو على الاقل قد تغلب عليك» .

«يا للسخرية ! ولكني سوف أتغلب عليه . دعه يلعب معي «بالثنائية» وسوف اريك اي لاعب هو ! ايه ايها الصديق تشيتشيكوف ، لقد قضينا وقتاً رائعاً أول الامر ، فقد نجحت السوق نجاحاً هائلا جداً . كان التجار انفسهم في الواقع يقولون بأن ازدحاما كهذا لم يحدث في سوق من قبل . اما من ناحيتي فقد دبرت بيع جميع منتوجات املاكي بسعر محترم . يا لعظمة الوقت الذي قضيناه هناك ! تباً لي ، فانني لا استطيع الآن أن افكر فيه ! لكن واأسفاه لانك لم تكن هناك ! تصور على بعد ثلاثة فرستات من المدينة تعسكر فرقة من الفرسان ، ولا تكاد تستطيع أن تصدق عدد ما فيها من الضباط . هناك على الاقل اربعون ضابطا يترددون على المدينة ويشربون فيها . وضابط الفرسان بوتسيلويف بالذات ، انه انسان عظيم حقاً ! كان عليك أن ترى شاربه فقط ! أجل ، انه يسمى الخمر الفرنسي المعتق سقط المتاع ! ويصيح على النادل يقول – هات بعضاً من سقط المتاع . والملازم كوفشينيكوف ، ايضاً ! انه غاوي ولائم تماماً . لقد قضينا وقتنا كله معه .. ولك أن تتصور تجارة الخمّار بونوماريف . على اية حال ، فهو سافل كما تعرف ، ويجب أن لا يعامله احد ، لأنه يضع جميع أنواع النفايات في مشروباته – الخشب الهندي والفلين المحروق وعصير البيلسان . . . ذلك النذل ، ومع هذا كله دعه يحضر لك زجاجة مما يسميه

المخدع الخاص فستجد نفسك عندئذ فى السماء السابعة . ويا للكميات الهائلة من الشمبانيا التى شربناها ! اذا قارنتها بمشروب حاكم الولاية حسبته شراباً عَفِناً لا يذاق . لم نشرب خمرة الكليكوت وحسب بل شربنا الكليكوت-الماترادورا – اى كليكوت مضاعفة المفعول . وقد احضر بونوماريف زجاجة من الخمر الفرنسى يسميها بون بون . وستسألنى بالطبع عن رائحتها . كانت فى رائحة ورد البستان او اى رائحة عطرة اردت . يا لعظمة الوقت الذى قضيناه ! وما كدنا نترك محل بونوماريف حتى وصل احد الامراء الى المدينة وارسل فى طلب بعض زجاجات الشمبانيا . ولكن لم تكن هناك زجاجة واحدة ، لأن الضباط شربوها كلها ! اجل ، فقد اتممت بنفسي سبع عشرة زجاجة فى جلسة واحدة !»

فقال الاشقر «مه ، مه . ليس فى وسعك ان تشرب سبع عشرة» .

فتمتم نوزدريف قائلا «ولكنى فعلت . اقسم لك بشرفى» .

«تخيل ما يحلو لك ، ولكنك لم تشرب حتى عشر زجاجات فى الجلسة الواحدة» .

«اتراهن اننى سافعل ؟»

«لا ، فما الفائدة من الرهان على ذلك ؟»

«راهن على الاقل بالبندقية التى اشتريتها» .

«لا ، لن افعل شيئا من هذا القبيل» .

«ادخل فى المراهنة كمجرد تجربة فقط» .

«كلا» .

«من الافضل ان لا تفعل لأنك ستخسر عندئذ البندقية والذخيرة معا . على اية حال ، ايها الصديق تشيتشيكوف ، فقد كان من المؤسف ان لا تكون هناك . انك لو كنت لوجدت نفسك غير قادر على مفارقة الملازم كوفشينيكوف . ستبلغان – هو وانت – من العظمة شاوها ! انه من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن جنس المدعى العام وموظفينا المدنيين البخلاء الآخرين الذين يرتجفون فى احذيتهم قبل ان يصرفوا كوبيكاً واحداً . انه على استعداد للعب بالورق – اية لعبة شئت وفى اى وقت اردت . لماذا لم تات معنا ؟ انت تستحق على هذه الفعلة ان اسميك خنزيراً او راعى ماشية • . لكن لا عليك . ضمّنى اليك . اننى احبك كثيراً . ميجويف ، هل ترى الطرافة التى انتهت اليها الامور ؟ ليس هناك من مصلحة تربطنا فتجمع بيننا ، ولكن القدر شاء ان نكون صديقين ، فهبط من حيث لا يعلم الا الله ونزل فى البقعة التى انا فيها ! ولك يا صاحبى ان تعلم كم كان عدد العربات هائلا فى السوق ! لقد ذهبت هناك لكى العب لعبة روليت فربحت فيها جرتين من المرهم العطرى وابريق شاى صينياً وقيثارة . وقامرت بعدئذ باشياء اخرى ، كالمجنون ، وخسرتها

• يقول نوزدريف لتشيتشيكوف انه حيوان على طريقته فى التحبب . **المترجم** .

كلها وخسرت فوقها ستة روبلات . أى زير نســـــاء كوفشينيكوف هذا ! قد اشتركنا معاً فى حفلات الرقص كلها تقريباً وكانت ذات مرة فيها امرأة فاخرة الثياب – يا لها من ابّهة ! لقد اكتفيت بأن قلـــت لنفسى – ليأخذها الشيطان – ولكن كوفشينيكوف ، ذلك الماجن ، جلس بقربها وبدأ يسرد امامها سلسلة من المدائـح بالفرنسية . مهما يكن من أمر ، فانه لم يترك حتــى السيدات العاديات – مع أنه يسمى هذا العمل قطف التوت . واية اسماك عجيبة قدموا لنا بهذه المناسبة ، معى قطعة شهية من السمك . وهذا كل ما أعدته معى ! لقد كنت فى الواقع سعيـــد الحظ اذ اشتريت هذه السمكة قبل ضياع نقودى . الى اين انت قاصد ؟»

«أنوى زيارة صديق» – قال تشيتشيكوف .

«ومن هو هذا الصديق ؟ فليذهب الى الشيطان : تعال معي الى منزلى بدلا منه» .

«لا ، لا استطيع فان لى عملا أريد انجازه» .

«اوه : ويا له من عمل !»

«ان لى عملا يجب ان انجزه . انه عمل عاجـــل جداً» .

«اننى اراهن انك تكذب ، واذا لم يكن ذلك فأخبرنى من ستزور» .

«سوباكيفيتش» .

عندئذ انفجر نوزدريف فى ضحكة لا يستطيعها الا الرجل العفى السليم الذى لا يزال كل سن فى ثغـره كالسكر فى بياض اللون . اعنى بذلك ضحكة الخديـن

الراجفين ، الضحكة التى تجعل الجار النائم على بعد ثلاث غرف والذى يفصل بينه وبينها بابان يقفز من فراشه ويفرك عينيه ويقول «يا للكلب ! الفرحة تدغـــدغ ضلوعه» .

فسأله تشيتشيكوف وقد اعتراه شىء من الغضب «وما الذى يستدعى الضحك ؟»

لكن نوزدريف راح يضحك غير مكبوح الجماح اكثر من قبل ويقول «أوه ! ارحمنا يا الله ! فالامر ممتـــع جداً ، اكاد اموت منه !»

فردد تشيتشيكوف يقول «قلت لك ان لا داعــى للضحك ، فانا ذاهب الى سوباكيفيتش رغبة فى الوفاء بوعد قطعته على نفسى» .

«انك ستضيق ذرعاً بالحياة اذا ما وصلت الى هناك ، لانه أبخل مخلوق فى هذه الضواحى . اه ، لو عرفت ! على اية حال ، اذا كنت تظن انك ستجد لديه لعبة ورق او زجاجة بون بون فانت على خطأ . استمع لى يا صديقى العزيز ،دع سوباكيفيتش يذهب الى الشيطان ! وتعال الى منزلى حيث ستجد على الاقل قطعة من السمك اقدّمها لك فى عشائك . لقد قال لى بونوماريف وهو يودّعنى – هذه هى القطعة التى تليق بـــك ، ولو رحـت تفتش السوق كلها لم تجد احسن منها . ولكنه بالطبع مخادع فظيع . اما انا فقد اجبته راساً ، وقلت له – انــت وجابى الضرائب اقذر مخلوقين فى الوجود . ولكنه ربّت على لحيته فقط ثم ابتسم . كنت اتناول فطورى كل يوم مع كوفشينيكوف فى حانوتـه ولكنـى كدت انسى ان

اخبرك شيئا . . . نعم ، انني لن اتنازل لك عنه ، حتى ولا بعشرة آلاف روبل – اخبرك بذلك سلفا . ولو كنت اعرف أنك الآن لن تتخلى عنه» .

وانطلق عندئذ يركض صوب النافذة ويصيح على خادمه (وكان هذا يمسك فى يد سكينا وفى اليد الأخرى لقمة من خبز وقطعة من سمك – وقد تمكن من اختلاس الأخيرة بينما كان يفتش العربة عن شىء آخر) «اى بورفيرى ! احضر ذلك الجرو أيها الوغد ! يا للجرو الرائع ! ان صاحب الفندق اللص لم يكن يريد ان يبيعه بأى ثمن ، مع اننى وعدته ان اعطيه المهرة السمراء التى قايضت عليها خفوستيريف – كما تذكر» .

غير ان تشيتشيكوف فى الواقع لم يكن قد راى فى حياته المهرة السمراء ولا خفوستيريف مطلقاً .

وتساءلت ربة النزل وهى تدخل «هل تريد شيئاً للاكل يا سيدى ؟»

«لا ، لا شىء ابداً . ايه أيها الصديق تشيتشيكوف ! اية اوقات قضينا ! نعم ايتها العجوز اعطينى كاسا من الفودكا . قولى لى اى نوع لديك ؟»

«ذات اليانسون» .

«اذن هات لى كاساً منها» .

واضاف ذو الشعر الاشقر يقول «وواحدة اخرى لى ايضاً» .

واستمر نوزدريف فى حديثه قائلا «وفى دار التمثيل كانت هناك ممثلة تغنى ، المحتالة ، كالعصفور الكنارىّ . وقال لى كوفشينيكوف وكان يجلس بجانبى –

من الافضل لك يا عزيزى أن تذهب وتقطف تلك التوته . اما اجنحة التمثيل التى اقيمت فى السوق فلا اتجاوز الحقيقة ان قلت لك بأن عددها قد بلغ الخمسين . فيناردىّ الجمبازى ظل يدور اربع ساعات كالرحى» . وعند هذه النقطة من حديثه توقف ليتناول كاس الفودكا من ربة النزل ، التى انحنت شكراناً له على عمله هذا . وفى اللحظة نفسها دخل بورفيرى ، وهو رجل يرتدى مثل سيده (اى معطفا مبطنا متسخا بالدهن) وكان يحمل الجرْو بين يديه .

فامره نوزدريف قائلا «انزل الحيوان هنا على الارض» .

فوضع بورفيرى الحيوان على الارض حيث اخذ يلعب كعادة الكلاب .

وصاح نوزدريف «اليك هذا الجرو» . وامسكه من ظهره ورفعه . فصاح الجرو صيحة تدعو للرثاء . والقى نوزدريف نظرة على بطن الحيوان واستمر يقول لبورفيرى «اننى اراك لم تعمل ما امرتك به . فقد نسيت ان تنظفه بالفرجون» .

فاحتجّ بورفيرى بقوله «لقد فعلت» .

«اذن من اين جاءت هذه البراغيث ؟

«لا اعلم . قد تكون قفزت اليه من العربة» .

«يا لك من كذاب ، لم يخطر ببالك ان تنظفه ، بل واظن انك ، يا غبى عبرت له بعض براغيثك . ومع ذلك ، انظر يا تشيتشيكوف الى هاتين الاذنين . المسهما فقط» .

«وما الداعي لذلك ؟ انني ارى انه حسن المنبت دون ان افعل»

«وان يكن ، امسك اذنيه والمسهما» .

ففعل تشيتشيكوف ما طلب منه صاحبه مجاراة له وقال «اجل ، يظهر انه حسن الاصل» .

«والمس برودة انفه ! ضع يدك عليها فقط» .

فلمس تشيتشيكوف الجرو راغباً في عدم اثارة محدثه ، وقال «ستكون له في يوم من الأيام حاسة شم جيدة» .

«نعم ، أليس كذلك ؟ انه الانف المناسب لذلك . لقد كانت بي رغبة منذ امد طويل الى جرو كهذا . بورفيري ، ارجعه ثانية» .

فرفع بورفيري الجرو من جنبه وحمله الى العربة .

واستانف نوزدريف الحديث قائلا «اسمع يا تشيتشيكوف ، يجب عليك ان تأتي الى منزلي . انه يقع على بعد خمسة فرستات فقط ونستطيع ان نذهب الى هناك بسرعة الريح ، وتستطيع ان تزور سوباكيفيتش فيما بعد» .

فاخذت نفس تشيتشيكوف تساوره – «ااذهب الى منزل نوزدريف ام لا ؟ وهل في الامكان ان يكون فيه خير اكثر من الباقين ؟ ان فيه على الاقل من الامل مثل ما فيهم . لقد خسر في المقامرة مخاسر جلى ولم يابه لها . انه يفعل ما يحلو له ولا يبالي . وقد يعطيني ما اريد دون مقابل» . واضاف بصوت عال «حسن جداً ،

سآتي معك ، ولكن لن نبقى طويلا لان وقتي ثمين جداً» .

فصاح نوزدريف «عظيم ! عظيم ! سنذهب ثلاثتنا ، دعني اقبلك على هذه الفكرة العظيمة» . ورمى بنفسه على عنق تشيتشيكوف .

فتدخل الرجل ذو الشعر الاشقر وقال «اما انا فارجو ان تعفيني من الذهاب ، لأن عليّ ان اعود الى بيتي» .

«كلام فارغ ! كلام فارغ ! لن أسمح لك» .

«ولكن زوجتي ستثور عليّ . وعليكم ان تسافروا في عربة السيد . .»

«قلت لك أن الأمر لا يحتاج الى التفكير . هيا بنا ، هيا بنا» .

كان الرجل ذو الشعر الاشقر من الناس الذين تلمح في شخصيتهم لأول نظرة شيئاً من الجد والرزانة بحيث تجدهم على استعداد لمناقشة كلمات المرء حتى قبل ان يلفظها . انهم يعترضون على كل شيء يمكن ان يتعارض مع رايهم الخاص . فهم يرفضون مثلاً ، ان تسمى الحماقة حكمة ، ويرفضون الرقص على أي نغم غير نغمهم الذي يعزفون عليه . مهما يكن من امر ، ففي شخصيتهم تظهر دائماً نقطة من الضعف ، بحيث يقبلون آخر الأمر ما رفضوه في اوّله ويصفون ما هو احمق بانه معقول ثم يرقصون احسن مما يفعل الآخرون ، على نغم لحّنه غيرهم . باختصار ، هم يبدأون على العموم صوابا وينتهون دائماً على اسوا ما يرام .

وقال نوزدريف جواباً على اعتراض آخر لصهره «كلام فارغ !»

وبالتأكيد لم يكد نوزدريف يخبط قبعته على رأسه حتى بدأ الرجل ذو الشعر الاشقر يتبعه وزميله .

فانبرت العجوز قائلة «ولكن السيد لم يدفع ثمن الفودكا» .

«أجل ، أيتها الأم الطيبة . اسمع يا صهرى ، ادفع لها اذا سمحت . فليس فى جيبى كوبيك واحد» .

فسألها الصهر «كم تريدين ؟»

«ثمانين كوبيكا من فضلك» .

«هذا كثير ! أعطها نصف روبل ، فيه الكفاية» .

فاحتجت السيدة قائلة «قليل يا سيدى» ، ولكنها أخذت النقود بامتنان وركضت الى الباب لتفتحه للسادة . ولم تخسر شيئاً فى حقيقة الأمر ، فقد تقاضت أربع مرات زيادة عما تستحق الفودكا من ثمن .

ومن ثم استقر المسافرون فى مقاعدهم . وقد كان فى امكان الرجال الثلاثة أن يتجاذبوا أطراف الحديث اثناء سيرهم ، لأن عربة تشيتشيكوف كانت تسير محاذية للعربة التى جلس فيها نوزدريف وصهره . وكانت عربة نوزدريف الصغيرة تسير خلفهم متأخرة دائما بخيولها العجفاء ، وبورفيرى والجرو .

وبما ان الحديث الذى جرى بين المسافرين لا يعنى القارئ فى شيء ، فمن الافضل ان أتحدث عن نوزدريف شيئاً ولو قليلا ، لا سيما وهو سيلعب دورا غير بسيط فى قصتنا .

سيكون وجه نوزدريف مألوفاً للقارئ ، فمما لا شك فيه ان كل انسان قد قابل مثيلا له . والناس من هذا القبيل ، حتى فى الصبا وأيام المدرسة يشتهرون بأنهم رفاق طيبون (وهم مع ذلك يتلقون ضربات قوية) لأن وجوههم تبدي عنصراً من الصراحة والاستقامة والاقدام مما يشجعهم بسرعة على خلق الصداقات ، فيبدأون بمخاطبتك بالضمير المفرد الثانى قبل أن يرتدّ اليك طرفك . الاّ أنهم بينما هم يوطدون صداقات أبدية كهذه اثناء النهار ، تجدهم دائما يبدأون بالشجار فى الليلة نفسها ، لأنهم طيلة الوقت قوم رغّائون مشتتون محبّون للظهور ذوو معنويات عالية . وفي الحقيقة كان نوزدريف وهو فى الخامسة والثلاثين مثله تماماً وهو فى الثامنة عشرة أو فى العشرين — كان مثله تماماً فى دعارته وانهماكه فى الملذات . ولم يغيّره زواجه بحال من الأحوال ، وقلّ أثر ذلك عنده عندما تركته زوجه الى الدنيا الأخرى وتركت خلفها طفلين لم تكن له بهما رغبة ولهذا عهد بهما الى مربّية جميلة . ولم يكن يستطيع مطلقاً ان يبقى فى بيته أكثر من يوم واحد لأن حاسّة الشم عنده كانت تتعدى فرستات عديدة وتكتشف الاسواق الموسمية التى ينتظر فيها الحفلات الراقصة والتجمعات البشرية . وبناء على ذلك يكون هناك فى لمح البصر ، مشاجراً خالقاً البلبلة على مائدة القمار (فهو كمن هم على شاكلته ، ذو ميل كبير للورق) . ولم يكن لعبه بالقذر جداً ولا بالنظيف جداً . ومع انه كان ارعن طائشا الا انه كان فى الوقت نفسه

قديراً على القيام بسرقات خفية ووسائل محظورة أخرى . وكانت اللعبة تنتهى عادة بنوع آخر من التسلية مختلف تماماً . أى انه اما ان يتلقى ضربات بالحذاء لا بأس بها ، او ان يسحب احد جانبى لحيته الجزلة الرائعة الجمال . وتكون نتيجة ذلك ان يعود الى بيته فى بعض الاحيان ، واحد جانبى لحيته منتوف بكل تاكيد . الا ان خديه الممتلئين بالصحة والعافية كانا يتدفقان بالشباب والحيوية حتى ان الجانب المنتوف يبدأ حالا بالنمو محل القديم بل يفوق سابقه . وبالاضافة الى ذلك (وهذه ظاهرة خاصة بروسيا) ما يكاد ينقضى وقت قصير حتى يعود الى اصحابه القدامى الذين صفعوه منذ أمد قريب ، وينخرط معهم كان لم يكن بينهم شىء مطلقاً ، ولا يشير الى الموضوع اية اشارة ، ويلوذون هم بالصمت ايضاً .

باختصار ، كان نوزدريف رجل شغب ومشاكل . فلم يحضر اجتماعاً دون ان يثير فيه البلبلة ، وتكون النتيجة اما ان تستدعى الشرطة لطرده من المكان او ان يقذف به اصدقاؤه الى الشارع . على اية حال ، فاذا لم يحدث احد هذين الامرين يكون قد قام بعمل لا يحدث لغيره . كان يسكر فى الحفلات بحيث يعجز ، الا عن الضحك ، او يكذب بشكل فظ يجعله يخجل من نفسه فى بعض الاحيان . وبالاضافة الى ذلك ، فان الرجل يكذب دون اى داع الى ذلك الكذب . فيبدأ مثلا بسرد قصة طويلة ينتهى فيها الى انه يمتلك حصانا ذا لون احمر او ازرق ، حتى تجد مستمعيه فى النهاية

مضطرين الى تركه قائلين «ان قصتك جميلة أيها الشيخ !» وبالاضافة الى ذلك فان رجالا من أمثال نوزدريف بهم رغبة فى اهانة القريبين منهم دون سبب يدعو الى ذلك (وفيما يتعلّق بهذا الشأن ، فانك تجد رجلا ذا مركز عال ومظهر محترم – رجلا ذا نجمة على صدره مثلا ، يتقدم اليك ذات يوم ضاغطا على يدك ويبدأ بالحديث معك فى مواضيع تستحق التفكير ، الا ان هذا الرجل يبدأ يشتُمك فى وجهك بأسلوب يليق بكاتب بسيط لا برجل تحلّى النجمة صدره . كل ما يستطيع المرء ان يفعله فى هذه الحالة هو ان يهز كتفيه هزة استغراب . وقد كان عند نوزدريف مثل هذا الضعف تماماً . فكلما ازدادت صداقته مع انسان أسرع فى توجيه الاهانة اليه واصبح على استعداد لنشر الشائعات التى تمس سمعته وتؤدى الى تخريب حفلات الزفاف والصفقات التجارية المربحة . مع ذلك فهو يعتبر نفسه دائماً صديقاً للرجل المهان ، واذا ما قابله مرة أخرى حيّاه بالطف أسلوب مستطاع وقال له «لماذا انقطعت عن زيارتى ايها السافل !» وهكذا ، فاننا اذا نظرنا الى نوزدريف من جميع الوجوه نجده شخصاً متعدد المظاهر ومتعدد الامكانيات . ففى مقولة واحدة وفى نفس المقولة يقترح عليك أن يذهب معك الى حيث تريد «حتى الى أبعد اطراف الدنيا لو اردت» او ان يشترك معك فى اى مشروع من المشاريع او ان يبادلك اى سلعة باى سلعة اخرى ذكرتها . فالبنادق والخيول والكلاب كلها قابلة للمقايضة ليست للربح

منك . وهذه الخصال تكون فى الغالب نتيجة ثورة فى مزاجه ، وتظهر جلية اذا ما قابل انساناً ساذجاً بسيطاً فى سوق موسمية وسلبه ، فانه يأخذ عندئذ بشراء أول ما تقع عليه يداه من اشياء – لجم الخيل ، وولاعات السجائر ، وملابس لمربية أطفاله ، ومهر الخيل والزبيب والاباريق والقماش الهولاندى والحنطة والتبغ والمسدسات والسمك المجفف والصور والمشاحذ الحجرية والأوانى الخزفية والأحذية وما الى ذلك حتى يستهلك آخر قطعة من النقود فى جيبه . الا ان هذه الاغراض نادراً ما كانت تصل الى بيته . اذ انه كان دائماً يخسرها فى اليوم نفسه اذا ما قابل مقامراً ابرع ، ويخسر زيادة عليها غليونه والكيس الذى يحفظ التبغ فيه ومبسمه وعربته بخيولها الاربعة وسائق العربة . وتكون النتيجة ، وقد جرّد من كل شىء ، أن يستدين من أحد الاصدقاء أجرة عربة يعود فيها . هكذا كان نوزدريف . وقد يقول البعض أن شخصيات كهذه قد انعدمت ، وان لم يعد وجود لامثال نوزدريف فى يومنا هذا . يا للأسف ! ان قولا كهذا هو عين الخطأ ، لأن اياماً عديدة سوف تنقضى قبل أن يختفى امثال نوزدريف عن أبصارنا . انهم فى كل مكان بيننا ، والفرق بين القديم منهم والجديد هو الفرق فى اللباس فقط . ويكاد ذوو النظرات السطحية ان يعتبروا الرجل الذى غيّر معطفه رجلاً آخر يختلف عمّا كان عليه .

ولنكمل الحديث . لقد درجت العربات الثلاث حتى

اعتاب بيت نوزدريف ونزل راكبوها . ولم يكن البيت على استعداد لاستقبال الضيوف ، وقد وقف فلاحان على مصعدين خشبيين فى منتصف قاعة الطعام يدهنان جدرانها بالجير ويسترسلان فى اغنية لا نهاية لها ، بينما هما يلطخان الارض بالجير الذى يدهنان به . فامرهما نوزدريف ان يذهبا بمصعدهما بسرعة وذهب الى غرفة مجاورة ليلقى أوامر أخرى . وسمع المدعوون رنين صوته واضحاً جداً وهو يأمر باعداد الطعام حتى ان تشيتشيكوف – وكان قد بدأ يحس بالجوع مرة اخرى – استطاع ان يقدر ان اعداد اى نوع من الانواع التى يطلبها لن يتم قبل الساعة الخامسة . وعند رجوع نوزدريف دعا صديقيه لمشاهدة ما فى قريته . فرّجهما على كل شىء حتى لم يبق ما يستحق الفرجة فى قريته . وبدأت الرحلة بالقاء نظرة على الاسطبلات ، حيث كانت فرسان احداهما رمادية والاخرى سمراء ، وحصان كميت . وقال نوزدريف ان الحيوان الاخير – مع بعده الشاسع عن الجمال – قد كلّفه عشرة آلاف روبل .

فقال صهره متعجباً «انك لم تدفع عشرة آلاف روبل فى هذه الدابّة . انها لا تساوى حتى الألف» .

فأكد نوزدريف حديثه بقوله «قسماً بالله لقد دفعت عشرة آلاف !»

فقال الآخر «لك ان تقسم ما تشاء» .

فسأله نوزدريف «أتراهن اننى لم افعل ؟» ولكن الصهر رفض العرض .

ومن ثم أخذ نوزدريف ضيفيه الى ناحية من الاسطبل

واراهما مرابط فارغة ادّعى ان قد كان فيها خيول جميلة منذ امد وجيز . ورأيا ايضا تيساً ما لا تزال الخرافة القديمة تعتبر وجوده ضرورياً فى محلات كهذه مع انه لا نفع فيه ولا عمل له الاّ التبختر جيئة وذهاباً امام الخيول كما لو كان سيد المحلّ . ومن ثم اخذ المضيف ضيفيه لمشاهدة ذئب صغير مقيّد بالسلاسل ، وقال موضحاً ، «اننا لا نطعمه سوى اللحم النيء . لأنني اريده على اشرس ما يرام» . ثم ذهبت الزمرة لرؤية بركة قال نوزدريف ان فيها سمكاً بحجم ضخم جداً فلا يستطيع حمل السمكة الواحدة منه الا رجلان قويان يتعاونان فى هذه المهمة . واستقبل الصهر هذه المعلومات باستهجان جديد . ولكن نوزدريف لم يعبأ بذلك ، وراح يقول «دعنى الآن يا تشيتشيكوف أريك زوجا من الكلاب فخماً حقاً . صوفهما كالابر وصلابة عضلاتهما سوف تدهشك» .

وقادهما وهو يقول ذلك الى سقيفة صغيرة ، لكنها حسنة البناء ، تحيط بها اسيجة عالية من جميع نواحيها . وشاهد الزائران لما دخلاها عددا من الكلاب من جميع الألوان والحجوم والانواع والاسماء . وبدا نوزدريف بينها كرب بيت بين عائلته . وبصبصت الحيوانات اذنابها — او «اصولها» كما يسمّيها هواة الكلاب . والقى عدد منها مخالبه على كتفى تشيتشيكوف . وقد دفعت الصداقة احد الكلاب فى الواقع ، الى ان يقف على رجليه الخلفيتين ويلعق شفتى تشيتشيكوف مما اضطره الى البصاق . وبعد ان

تم ذلك شاهد الزائران زوج الكلاب الذى سبق ذكره وابديا دهشتهما من متانة العضلات . وقد كانا فى الحقيقة حيوانين جميلين . وبالتالى رات الزمرة الكلبة القرمية • التى كما يقول نوزدريف — رغم عماها واشرافها على الفناء — كانت كلبة رائعة حقا منذ سنتين لا غير ، وعند فحصهم لها تبين انها عمياء بالفعل . ثم القيا نظرة على طاحونة الماء التى ينقصها موضع حجر الرحى اللولبى الذى كان يجب ان يدور فيه الحجر العلوى «مرفرفا» — حسب التعبير الظريف الذى يصفه به الفلاحون الروس . وقال نوزدريف «لا عليكم من هذا ، ولنذهب الى محل الحدادة» . والى ذلك المكان سارت الزمرة . ولما اصبح المحل تحت انظارهم اشار نوزدريف الى حقل امامه وقال :

— فى هذا الحقل رايت عدداً من الارانب البرية غطى وجه الارض بحيث اخفاها عن البصر . والواقع اننى امسكت ذات يوم ارنبا بيدى من رجليه الخلفيتين .

فعلّق صهره قائلا «تمسك ارنباً بيديك من رجليه الخلفيتين ؟ انك لم تفعل ذلك مطلقا» .

واكد نوزرديف كلامه قائلا «ولكنى فعلت . مهما يكن من امر» والتفت الى تشيتشيكوف وقال «اريك الحد الذى تنتهى عنده ارضى» .

وبدأ يقود ضيوفه وهو يقول ذلك ، عبر حقل يتكوّن

• نسبة الى شبه جزيرة القرم . **الناشر** .

غالبه من نتوءات حيث بدأت الزمرة تنتقى مواضع اقدامها بين أخاديد محروثة من الارض وأخاديد مغطاة بالعشب الزحّاف . وابتدأ تشيتشيكوف يحس بالتعب لأن الأرض كانت منخفضة جداً حتى كان يُسْمَعُ صوت الماء يخفق تحت أقدامهم فى مواقع عديدة . ومع ان الزائرَيْنِ ظلا برهة من الزمن وهما يراقبان مواطىء الاقدام وينقلان الخطى بحذر شديد ، الا انهما ادركا وشيكاً ان عملا كهذا لن يجدى ، فانكفأ كل منهما على وجهه دون ان يختار او يتجنب المواقع التى قد يكون الوحل فيها عميقاً او ضحلاً . وبعد لأي ، اى بعد ان قطع الجمع مسافة غير قليلة ، وقعت انظارهم على صارية الحدود وخندق ضيّق .

وقال نوزدريف «هذه هى الحدود . وكل ما تريان على هذه الناحية من الصارية هو لى ، بما فى ذلك الغابة التى تقع على الناحية الاخرى وما وراء الغابة» .

فسأله صهره «متى أصبحت هذه الغابة لك ؟ يظهر انك اشتريتها حديثاً جداً ، لأنها لم تكن لك من قبل اطلاقاً» .

فقال نوزدريف «نعم ، لم يمر على شرائى لها أمد طويل» .

«متى لحقت أن تشتريها بهذه السرعة ؟»

«متى ! لقد اشتريتها منذ ثلاثة ايام ، والشيطان يعرف انى دفعت فيها ثمناً باهظاً» .

«حقاً ؟ لكنك منذ ثلاثة أيام كنت فى السوق ؟»

«يا للغباء ! الا يستطيع المرء ان يكون فى السوق

وان يشترى ارضا فى الوقت نفسه ؟ أجل ، كنت فى السوق واشترى مأمورى الارض فى غيابى» .

فقال صهره وقد لاح الشك فى محيّاه وهز راسه «ايه ! مأمورك اشتراها !»

وعاد القوم من الطريق الواعرة التى جاءوا منها . وبعد ان وصلوا البيت قادهما الى مكتبه الذى لم يكن فيه اثر لما يوجد عادة فى غرف كهذه – كالكتب والورق . بل على العكس ، فالادوات الوحيدة الموجودة فيها كانت سيفاً وبندقيتين احداهما تبلغ قيمتها ثلاثمائة روبل والأخرى حوالى ثمانمائة . وتفحص الصهر الادوات المذكورة وهز راسه كالعادة . ثم شاهد الزائران خناجر تركية اصلية . حُفر على احدها النقش التالى خطأ «الصانع سافيلى سيبيرياكوف – سكّان *» . وجاءت بعد ذلك ارغن يدوية بدأ نوزدريف يلعب عليها احد الانغام . ولبرهة من الزمن لم تكن الانغام كثيرة الازعاج ، لكن ظهر فجأة نوع من خطأ ، فصدرت نغمة «المازوركا» تلتها نغمة «مالبورغ ذهب الى الحرب» ثم تبع هذه نغمة «فالس» معروفة قديمة . وزيادة على ذلك ، فقد كان احد انابيب الآلة ذا صوت حاد غير منسجم مع بقية الانابيب أثناء العزف فراح يصدر صفيراً جامحاً حسب ما شاء له الهوى حتى بعد ان أوقف نوزدريف ادارة المقبض بمدة طويلة . وتلا ذلك عرض غلايين التبغ – غلايين من الفخار ومن الخشب ومن طين

* صانع السكاكين . **المترجم** .

الخفان ، غلايين مستعملة وغير مستعملة ، غلايين ملفوفة بجلد الشموا وغير ملفوفة ، ثم شبوق ومبسمه من الكهرمان (وهو صفقة ربحها حديثاً فى الورق) وكيس للتبغ (ادعى ان كونتيسه وقعت فى حبه فى محطة قد شغلته له ، وكانت يداها كما يؤكد نوزدريف «الفيض السامى» – تعبير فى القاموس النوزدريفي يدل على ذروة الاتقان) . واخيراً ، بعد ان اكلوا بعض الكوامخ من ظهور السمك ، واشرفت الساعة على الخامسة ، جلسوا الى المائدة . ولم يكن الطعام بأى حال من الاحوال من الاشياء الرئيسية فى حياة نوزدريف ، ولم يهتم بالطبخ نظراً الى ان بعض الاطباق كانت مطبوخة اكثر من النضوج وبعضها الآخر يبدو وكأنه لم يطبخ اصلاً . وكان من الواضح ان صانع الطعام كان يثق اكثر ما يثق بالايحاء – فكان يمسك بأول شيء تقع يداه عليه ، فلو كان الفلفل اقرب شيء اليه فانه يضيف الفلفل بغير حساب . ولو حدث ان وقعت يداه على قطعة من كرنب لحشرها بين اصناف الطعام . والشيء نفسه يقال عن اللبن ولحم الخنزير والفاصوليا . باختصار ، كان شعاره «أعمل طبقا ساخناً من اى نوع كان ، فلا بد ان يكون له طعم هو اى طعم كان» . اما فيما عدا ذلك ، فقد انكبّ نوزدريف بشدة على احتساء الخمر . حتى قبل ان يقدّم الحساء كان قد صب لكل ضيف كاساً من النبيذ واتبعها بكاس اخرى من شراب السوترن المفتخر (لم يكن شراب السوترن العادى يوجد فى الاقاليم) . ثم طلب زجاجة من نبيذ

الماديرا – («اروع ما سكر به مارشال فى الجيش») . ولكن كل ما فعلته الماديرا هو ان لذعت الحلوق ، وذلك لأن صانعيها لمعرفتهم بأذواق سادتنا الملاكين (الذين يتعشقون الماديرا الطيبة) يطعّمونها دائماً اثناء صنعها بكميات كبيرة من الروم والفودكا القيصرية • ، املاً فى ان تتحمله المعد الروسية وبعد هذه الزجاجة جاء نوزدريف بزجاجة من صنف «خاص جداً» ادعى انه يتكون من خليط من البرغاندى والشمبانيا . وراح يصب كميات وفيرة منها فى كاسي تشيتشيكوف وصهره اللذين جلس احدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وقد لاحظ تشيتشيكوف أن نوزدريف صب لنفسه فى كأسه نزراً يسيراً من الخليط فعزم بطلنا ان يكون على حذر ، ولهذا كان يغتنم كل فرصة كان فيها نوزدريف يصب كأس صهره ويتحدث معه ، فيقلب كأسه (أى كأس تشيتشيكوف) بما فيها فى طبقه . ومن ثم احضرت الى المائدة قارورة نبيذ من حبوب غبيراء ادّعى رب البيت أن طعمه يقارب طعم القشطة ، لكن – من الغريب ان طعمه فى الواقع كان اقرب الى طعم الفودكا المصنوع فى البيت . وبالتالى التهم الجمع نوعاً من المشروب غاب عنى الآن اسمه الحقيقى ، الا ان المضيف ذكر اسما آخر فى الفرصة التالية التى أعيد فيها ذكره مرة أخرى . وبعد ان انتهت

• الفودكا القيصرية – خليط من بعض الحوامض المركزة يستعمل فى الكيمياء . **الناشر** .

وجبات الطعام وجربت انواع الخمور ظل الضيـــوف جالسين فى اماكنهـم – وهـو امر سبب الارتبـــاك لتشيتشيكوف نظراً الى انه لم يكـن يرد أن يعرض مشروعه الأثير امام صهر نوزدريف الذى كان غريباً تماماً بالنسبة اليه . فهذا الموضوع يستدعى حديثاً ودياً خاصاً . ومع ذلك فقـــد لاح ان وجود الصهر لا ينذر بخطر كبير لأنه كان قد تمادى فى السكر وبدأ يغفو على مقعده . وادرك الصهر بنفسه بعد لأى انه ليس فى وضع امين ابدا ، فنهض وبدأ يطلب الاذن بالرجوع الى البيت بنغمة الناعس الوسنـــان حتى كاد ينطبق عليه المثل الروسى القائل «يشد الطوق عـــلى الحصان بالكلابة» .

فصاح نوزدريف «لا ، لا ! لن ادعك تذهب» .

فاجاب الصهر «لكن يجب ان اذهب . لا تحاول ان تمنعنى . انك تزعجنى جداً» .

«كلام فارغ ! سوف نلعب لعبة المصرف» .

«لا ، لا ، يجب أن تلعبا دونى أيها الصديقان . ان زوجتى تنتظرنى فى البيت . يجب ان اذهب واحدثها بكل شىء عن السوق . يجب أن أذهب اذا كنت سأحافظ على رضاها . فلا تحاول ابقائى» .

«زوجتك ؟ لكن هل هنالك فى الحقيقة شأن هام بينك وبينها ؟»

«لا ، لا ، أيها الصديق . فالسبب الحقيقى هو انها امرأة طيبة امينة تضحى كثيراً فى سبيلى . ان الدموع تثب الى عينيّ كلما فكرت فى اخلاصها . فـــلا تحاول

ابقائى . اننى أقول لك قولة الرجل الشريف – يجب ان اذهب . وعليك أن تتأكد من صفاء نيتى» .

فتدخل تشيتشيكوف بهدوء يقول «ايه ، دعـــه يذهب . فما الفائدة فى بقائه ؟»

فقال نوزدريف «أجل ، اجل ، لعنة الله على الذيـن يفقدون عقولهم» ثم التفت الى صهره وقال «اذهب يـا فيتوك * . الى الشيطان بك وبزوجتك وباحاديـــث النساء» .

فقال الصهر «لا داعى الى الاهانات توجهها لي بلقـب فيتوك . فانى ادين لها بحياتى ، وهى عزيزة عليّ ، اثيرة عندي ، اغدقت عليّ من عطفها الشيء الكثير – عطفاً لا اكاد اذكره حتـى تغرورق عيناي بالدموع . وهى ستسألنى عما رايت فى السوق وعليّ ان اخبرها بكل شىء ، لأنها غالية جداً ، عزيزة جداً» .

«اذن اذهب اليها بجعبة كذبك . اليك قبعتك» .

«لا يا أيها الصديـق الطيـــب ، لا تذكرها على هذا النحو . انك تسىء لي كثيراً بعملك هذا – فهى غالية جداً ، عزيزة جداً» .

«اذن هيّا اليها ركضاً» .

«نعم ، ها انا ذاهب . فاعذرانى لأنى لا استطيـع البقاء . كان بودي ان اظل معكما ، ولكنى لا استطيع» .

واستمر الصهر يردد معاذيره المرة تلو الاخرى دون

* فيتوك – كلمة روسية يقصد بها الاهانة ، لأن الحرف الاول منها يرمز الى كلمة اخرى شائنة . **المترجم** .

ان يلاحظ انه جلس في العربة وانها اجتازت به الباب وانه اصبح في الطريق العام . ويمكننا ان نفترض تجاوزاً ان زوجته استطاعت ان تلتقط منه نتفاً من الانباء عن السوق .

وقال نوزدريف وهو واقف في الشباك يرقب العربة الراحلة «يا له من دنيء ! الا أن حصانه الجانبي لا بأس به . منذ امد طويل وانا اريد الحصول عليه . لكن ذلك مستحيل من هذا الرجل . نعم ، انه فيتوك ، فيتوك بكل ما في الكلمة من معنى» .

وبهذا عادا الى الصالة حيث وجدا بورفيري يشعل الانوار ، ورأى تشيتشيكوف مضيفه يعد رزمة من الورق .

وراح نوزدريف يضغط على جوانب الرزمة ويثنيها قليلا حتى غدت تفرقع وطارت منها ورقة ، وقال «ما رايك في ان اكون امين اللعبة بثلاثمائة ؟»

فتظاهر تشيتشيكوف بانه لم يسمعه ، ولكنه قال بلهجة الذي يتذكر شيئاً كان قد نسيه – «لقد غاب عن بالي ان لي طلباً اليك» .

«وما هو الطلب ؟»

«عدني اولاً ان تلبيه» .

«ما هو اذن ؟ تكلّم» .

«اذن انت تعدني باعطائه ؟»

«بكل تاكيد» .

«اتقسم بشرفك ؟»

«أقسم بشرفي» .

«اذن هذا هو طلبي – اظن ان لديك عدداً كبيراً من الاقنان الموتى الذين لم تشطب اسماؤهم من لوائح الاحصاء الاخيرة ؟»

«اجل لديّ ، ولكن لماذا تسأل عنهم ؟»

«لانني اريد منك ان تحولهم على اسمي» .

«وما حاجتك بهم ؟»

«لا عليك . فلي مأرب فيهم» .

«وما هو ذلك المأرب ؟»

«أمر يخصّني وحدي . موجز القول اني بحاجة اليهم» .

«يظهر ان عقلك قد تمخّض عن مشروع لطيف جداً . اليّ به الآن ! ارني ما في جعبتك» .

«وكيف اتمخض عن مشروع كالذي تقول ؟ ان تفاهات كهذه لا تكون مصدر ايحاء للمشاريع العظيمة» .

«اذن لماذا تريد الاقنان ؟»

«ما هذا الفضول يا رجل ! أراك لا تكتفي بتلمس الشيء انما تودّ ان تحشر انفك فيه» .

«ما الذي يمنعك من ان تكشف عن مشروعك اذن ؟»

«وما جدوى معرفتك به ؟ انها مجرد نزوة تستولي عليّ» .

«واذا لم تخبرني برأيك لن احولهم الى اسمك» .

«هذا كل ما في الأمر . وانت لست على حق فيما تفعل الآن . فقد وعدتني بشرفك ، وها انت تحاول ان تنقض الوعد» .

«هذا ما تريد انت . وساظل على رفضي حتى اعرف ماربك» .
وراح تشيتشيكوف يفكر . «ما الذى ساقوله لهذا الانسان ؟» . وبعد فترة قصيرة من الزمن اخذ يقول له بأن هدفه من وراء الحصول على الانفس الميتة هو ان يرفع من مركزه فى المجتمع لأنه فى الوقت الحاضر لا يمتلك اراضى واسعة ولذلك فهو يحتاج الى حفنة صغيرة من العبيد لا غير .

ولكن نوزدريف – حتى قبل ان يتم كلامه – قاطعه قائلا «انك تكذب ، نعم ، انك تكذب ايها الصديق المحترم» .

فادرك تشيتشيكوف ان دليله كان ضعيفاً وحجته كانت واهية . فاستجمع افكاره واضاف بصوت عال يقول لنوزدريف «ساطلعك على الحقيقة على ان لا تطلع عليها احداً . كل ما فى الامر هو اننى عازم على الزواج . ومن سوء حظى ان والد خطيبتي ووالدتها قوم اخذت منهم الغطرسة ماخذها فهم يشترطون ان يكون العريس مالكاً لثلاثمائة نفس على الاقل ، وليس فى حوزتى غير مائة وخمسين ، وهو عدد غير كاف كما ترى» .

«انك تكذب ايضاً» .

«اسمع يا هذا . اننى الآن لم اكذب حتى الى هذا الحد» . واشار بقسم ضئيل من طرف اصبعه الاصغر .

«ومع ذلك فاننى اراهن على راسى بانك كنت تكذب فى كل كلمة قلتها» .

«كفى ! كفى ! هذا غير لائق منك . ولماذا اكذب ؟»

«لأنى اعرفك ، واعرف انك وغد اصيل . اقول لك هذا بدافع الصداقة . ولو كانت لي سلطة عليك ، لشنقتك على اقرب شجرة» .

واستاء تشيتشيكوف من هذا القول . فقد كان يكره التعابير النابية التى تجرح الكرامة ، ولم يكن يسمح لأي إمرئ – باستثناء اصحاب النفوذ والمراكز العالية – ان يسلكوا معه سلوك الالفة التى تتجاوز الحدود . ولهذا بلغ استياؤه فى تلك اللحظة اشده .

وراح نوزدريف يكرر كلامه ويقول «اى والله ، كان يجب ان اشنقك . وانا اقول لك هذا لا رغبة فى الاساءة اليك انما للصراحة التى فطرت عليها ، الصراحة التى يجب ان تكون بين الصديق والصديق» .

فاجاب تشيتشيكوف بجفاف «ان لكل شيء حداً ، واذا كنت تنوى ان تستعمل هذه التعابير فمن الافضل لك ان تعود الى ثكنات المعسكر» .

وسادت بينهما فترة من الصمت . تابع تشيتشيكوف بعدها قوله «اذا كنت لا تريد أن تهدينى العبيد فلماذا لا تبيعهم لي ؟»

«أبيعهم ؟ انى اعرفك ايها السافل ! انك لن تدفع فيهم شيئاً يستحق الذكر . أليس كذلك ؟»

«امر ظريف حقاً ! اصغ لي يا هذا . ما هى قيمتهم عندك . جواهر نفيسة على ما اظن ؟»

«هذا ما كنت اقدّر . الم اقل لك انى اعرفك ؟»

«ايه يا اخى ، هذه التطلعات اليهودية ، كان يتوجب عليك ان تهديهم لي» .

«على العكس مما تظن ، فليس فى نيتى ان استغلك ، ولكى اثبت لك ذلك فسوف لا اطلب حتى كوبيكا واحدا مقابلهم . كل ما اطلب هو ان تشترى المهر الذى رايت وساعطيك العبيد فوق الصفقة دون مقابل» .

فقال تشيتشيكوف مندهشاً جداًللاقتراح «لكن ما حاجتى الى مهرك ؟»

«ما حاجتك له ؟ مه . لقد اشتريته بعشرة آلاف روبل وانى على استعداد لكى اعطيك إياه بأربعة آلاف فقط» .

«دعنى اكرر سؤالى مرة اخرى – اى فائدة يمكن ان اجنيها من المهر ؟ انا لا اقتنى الجياد ولا احتفظ بأسطبل لها» .

«يبدو انك لم تفهمنى . دعنى اهوّن الامر عليك . ادفع الآن مقدماً من الثمن ثلاثة آلاف روبل ، ولنؤجّل الألف الأخرى الى ما بعد» .

«ولكنى قلت لك لا اريد ان اشترى ذلك المهر ، الله يحفظه» .

«اذن فاشتر المهرة الشقراء» .

«لا ، حتى ولا هذه» .

«اذن اشتر المهرة الشقراء والجواد الرمادى اللذين رايتهما فى الاسطبل بالفي روبل فقط» .

«لا حاجة بي للخيول مطلقاً» .

«ولكنك تستطيع ان تبيعها مرة اخرى . وباستطاعتك ان تحصل على ثلاثة اضعاف الثمن فى اول سوق تنعقد» .

«اذن بعها بنفسك ما دمت واثقاً هذه الثقة من هذا الربح العظيم» .

«أجل ، سأبيعها فى أسرع وقت ، انما كنت اريدك انت ان تستفيد من هذه الصفقة» .

فشكر تشيتشيكوف محادثه شكراً جزيلاً ، ولكنه صمم على رفض الحصان الرمادى والمهرة الشقراء .

ثم قال نوزدريف «اذن فاشتر بعض الكلاب . ساعطيك زوجاً منها ناعمة الاهاب منتصبة الآذان ممتلئة الصدر والأرداف لم تقع على مثلها عين انسان من قبل . لها مخالب متجمعة اذا سارت عليها تحسبها لا تكاد تمس الارض» .

«وما فائدة الكلاب لي ، لست صياداً» .

«لكننى اريد ان تكون من هواة تربية الكلاب . لا ، اذا كنت لا تريد الكلاب ففى امكانك ان تشترى الآلة الموسيقية . انها آلة فخمة حقاً . اقسم لك بشرفى اننى اشتريتها عندما كانت جديدة بالف وخمسمائة روبل . خذها بتسعمائة» .

«مه ! مه ! وما الذى اعمله بها ؟ لست المانيا حتى احملها على كتفى واتجول بها فى الشوارع لكى استجدى بها الكوبيكات» .

«ولكن هذه آلة تختلف عن تلك التى يتجوّل بها الالمان . انها أرغن اصيل . اذهب وافحصها بنفسك . انها مصنوعة من اجود انواع الخشب . هيّا معي لتلقي عليها نظرة اخرى» .

وامسك بيد تشيتشيكوف وسحبه الى الغرفة الأخرى

حيث اضطر الأخير – على الرغم من تأكيده لنوزدريف انه على علم بجودة الأرغن – الى الاستماع مرة أخرى الى كيفية ذهاب مالبروغ الى الحرب .

ثم راح نوزدريف يقول «اذا كنت لا تريد أن تعطيني نقوداً ، فاستمع الى هذا الاقتراح . سوف أعطيك الآلة الموسيقية وكل ما لدي من الانفس الميتة وتعطيني مقابل ذلك عربتك وثلاثمائة روبل أخرى» .

«استمعوا للرجل ! وما الذى يبقى لي للانتقال من مكان الى آخر ؟»

«ايه ! سأعطيك عربة أخرى . تعال معي الى المرأب وسوف اريك التى أعنى . انها لا تحتاج الاّ الى الدهان لكى تصبح فاخرة جداً» .

«يا للشيطان الهائج غير مكبوح العنان» . قال هذا تشيتشيكوف لنفسه التى صمم فى قرارتها ان يتخلّص من صفقات العربات والآلات الموسيقية وكل انواع الكلاب مهما كانت ممتلئة الصدور والارداف او متجمّعة المخالب ومنتصبة الآذان .

واعاد نوزدريف يقول «وستأخذ بدلاً منها هذه العربة والآلة الموسيقية وكل الانفس الميتة» .

فقال تشيتشيكوف «كلا ، لا اريد» .

«ولماذا ؟»

«لانني لا اريد ، هذا كل ما فى الامر» .

«انني أعرف انك وغد سافل لا تعرف كيف تسير الامور بين الاصدقاء . ها انى أرى انك رجل مزدوج» .

«ماذا تعني هل أنا مجنون ؟ فكّر فى الامر بنفسك . كيف اشترى اشياء لا حاجة لي بها ؟»

«كفى ! كفى ! من فضلك . لقد عرفتك على حقيقتك . انك وبش أصيل . ولكن استمع اليّ ، هل تلعب الورق ؟ انني على استعداد للمقامرة بالانفس الميتة والآلة الموسيقية اذا احببت» .

«لا ، فاللعب بالورق معناه ان يسلّم الانسان نفسه للمجهول» كان يقول تشيتشيكوف واخذ ينظر من طرف خفى الى رزمة الورق التى كانت فى يد نوزدريف . وقد خامره شيء من الشك عندما راى الطريقة التى كان زميله يقطع الرزمة بها .

وسأله نوزدريف «وماذا تعنى بالمجهول ؟ ليس هناك شيء اسمه المجهول . اذا حالفك الحظ فستربح ما لا يعلمه الاّ الشيطان . أيه ! يا للحظ ! يا للحظ ! انظر . ها هى وحدها . تلك التسعة الملعونة التى خسرت بسببها كل شيء فى تلك الليلة . لقد احسست عندئذ انها ستخدعني ولكني قلت لنفسي – هيّا ، ارنى خيانتك . وليأخذك الشيطان» .

وبينما كان نوزدريف يتكلم ويلعب بالورق ، دخل بورفيري يحمل زجاجة شراب أخرى . ولكن تشيتشيكوف رفض أن يشرب ويلعب .

فسأله نوزدريف «ولماذا ترفض اللعب ؟»

«لانى لا احس بالرغبة فيه . وبالاضافة الى ذلك فانا لا احب اللعب» .

«ولماذا لا تحبه ؟»

فهز تشيتشيكوف كتفيه ، وقال «لانني لا أحبه» .
«انك لا تجيد شيئاً من الاشياء على ما أظن» .
«وما العمل اذا كان الله خلقني هكذا ؟»
«انك فى الحقيقة فيتوك ، ولا شيء غير ذلك . لقد حسبتك انسانا محترماً من قبل ، ولكنني ارى انـك لا تفهم اصول اللياقة ولا تعرف الآداب . ان المـرء لا يستطيع ان يعتبرك صديقاً ولا ان يتكلم معك على هذا الاساس لأنك عديم الصراحة ، عديم الاخلاص . انـك سوباكيفيتش حقيقي بالنس» .
«لأي سبب تطلق لسانك عليّ بالشتم والمسبات ؟ هل هناك من خطأ اذا ما رفضت لعب الورق ؟ بعني الانفس وحدها اذا شئت ان تكون دقيقاً فى تصرفك» .
«ليأخذك الشيطان الاحمق ! كنت ساعطيك هذه الانفس بلا مقابل ، ولكني لن اعطيكها الآن اطلاقاً ، ولو اعطيتني ثلاث ممالك بدلاً منها . لم تعد اي رابطة تربطني بك ، ايها النذل القذر ! بورفيري ، اذهب واخبر السائس ان لا يضع لخيول السيد شوفاناً ولا شعيراً ، تبنا فقط» .
لم يكن تشيتشيكوف يتوقع ان تتطور الامور الى هذا الحد .
واكمل نوزدريف يقول «وانت ، اغرب عن وجهي» .
وعلى الرغم من ذلك كله فقد تناولا العشاء معاً – ولكن الخمور ذات الاسماء الرفيعة لم تكن تزيّن المائدة هذه المرة . كان كل ما هنالك زجاجة واحدة من النبيذ العادى جداً يشبه الخل اكثر مما يشبه النبيذ . وبعد

العشاء قاد نوزدريف تشيتشيكوف الى غرفة جانبية أعدّ له فيها الفراش وقال له «هنا ستنام ، ولا رغبة بي فى ان اتمنى لك ليلة سعيدة» .
واحسّ تشيتشيكوف ، بعد ان تركه نوزدريف ، انه فى حالة نفسانية لا يحسد عليها . فاخذ يلوم نفسه بمرارة ، وهو يغلي حنقاً ، على مجيئه لرؤية هذا الرجل وصرف وقته الثمين سدى . ولكنه لام نفسه اكثر من ذلك لأنه اطلعه على مشروعه ، فتصرف بذلك تصرف الاطفال والمجانين . فالمشروع بكل تاكيد ، ليس مما يُسَرّ به لامثال نوزدريف الشخص التافه الذى قد يخلق الاكاذيب حوله ، ويزيد عليها الحواشى ، وينشر قصصاً لا يعلم الاّ الله مدى الفضائح التى تترتب عليها . واخذ يقول لنفسه «انه امر سيىء حقاً ! ويا لي من غبى !» وقضى بناء على ذلك ليلة مؤرقة مضنية . وقد كان ضغثاً على ابّالة انْ انطلقت عليه اعداد غفيرة من حشرات لاذعة صغيرة تناولته باللذع والقرص حتى لم يكن يستطيع ان يعمل شيئا الاّ ان يحكّ مواضعها ويقول «ليأخذك الشيطان انت ونوزدريف !» واستيقظ فى الصباح الباكر ، وكان اول عمل قام به (بعد ان لبس خفه ورداءه) ان اجتاز حظيرة البيت الى الاسطبل لكي يأمر سيليفان باعداد العربة . وبينما كان راجعاً من مهمته تلك ، تقابل مع نوزدريف مرتدياً رداءه وممسكاً بغليونه بين اسنانه .
وحيّا رب البيت ضيفه كما يفعل الاصدقاء ، وسأله كيف كان نومه .

فاجاب تشيتشيكوف برنة عليها مسحة من جفاف «لا بأس به» .

فقال نوزدريف «اما انا ياأخى فاية افكار لعينة مقيتة للغاية ظلت تدور فى راسى طوال الليل . وفى فمي طعم كريه من شراب البارحة . وكنت احس من اثر ما عملناه فى الليلة الماضية وكان فرقة من الجنود تعسكر على صدرى حتى أننى حلمت بأننى أجلد . ايه ! ومَنْ تظن ذلك الذى حلمت بانه يجلدنى ؟ لا اظنك ستعرف . انه الضابط بوتسيلويف وكوفشينيكوف !»

فقال تشيتشيكوف لنفسه «ليت هذا الجلد كان حقيقة لا حلماً» .

واستمر نوزدريف يقول «وقد شعرت أننى مريض جداً . وما كدت أنام حتى جاء شيء ولسعنى . قد تكون البراغيث هى التى فعلت ذلك . والآن اذهب وارتد ملابسك وسأكون عندك حالا . عليَّ اولا ان اذهب الى المأمور السافل وازجره» .

وذهب تشيتشيكوف الى غرفته ليغسل وجهه ويرتدى ملابسه . وما ان أتم هاتين العمليتين حتى دخل الى غرفة الطعام فوجد على المائدة معدات الشاى وزجاجة روم . كان من الجلى أن مكنسة لم تمس المكان بعد ، فقد ظلت آثار الليلة السابقة من غداء وعشاء ماثلة على شكل فتات منتشرة على الارض ورماد تبغ على ملاءة المائدة . حتى رب البيت ، عندما دخل ، كان لا يزال يرتدى الرداء البيتى الذى كان يكشف عن صدر اشعَر . وعندما جلس ممسكاً غليونه فى يده ، يشرب

الشاى من قدح فى اليد الأخرى كان نموذجاً صالحاً للرسامين الذين يحبون رسم غير المتأنقين ويكرهون رسم الرجال الذين يذهبون الى الحلاق ليمسّد لهم شعرهم بالمشط والفرشاة ويضع عليه مختلف الروائح والعطور .

وبعد فترة من الصمت اخذ نوزدريف يقول «ما رايك الآن ؟ الا تحب ان تلعب معي على تلك النفوس ؟»

«لقد قلت لك أننى لا العب الورق أبداً . فاذا كانت النفوس للبيع فانى ساشتريها» .

«اننى اربأ بنفسى ان ابيعها . فهذا شيء لا يليق بين الاصدقاء . اما اذا لعبنا عليها لعبة فان وجه المسألة سيتغير . دعنى اقطع الورق» .

«لقد قلت لك أننى لن العب» .

«الا توافق على المبادلة ايضاً ؟»

«كلا» .

«اذن اصغ لي . ما رايك فى ان نلعب الداما ؟ اذا ربحت فالانفس لك . ان هناك كثيراً منها فى اللائحة اريد شطبه . بورفيري ، احضر رقعة الداما» .

«انك تضيع وقتك . فلن العب الداما ايضاً» .

«ولكن لعب الداما يختلف اختلافاً كبيراً عن لعب الورق . فليس فيه مجال لا للحظ ولا للغش . ان كل شيء فيه يعتمد على المهارة . وعليَّ ان ابلغك منذ الآن اننى لن استطيع ان اجاريك فى اللعب الاّ اذا سمحت لي بحركة او حركتين اسبقك بهما» .

وراح تشيتشيكوف يفكر . «ولِمَ لا العب معه . لقد

كنت فى وقت من الاوقات لاعباً ماهراً فى الداما . وليس فى هذه اللعبة فرصة للخديعة» .

واضاف بصوت عال يقول «حسناً ، هيّا بنا الى الداما» .

فقال نوزدريف «وستكون النفوس مقابل مئة روبل ؟»

«هذا كثير ! خمسون روبلا تكفى» .

«لا ، وما نفع الخمسين . ولكنى ساضيف مقابل الروبلات المئة جرو كلب لا بأس به . . او الافضل من ذلك سلسلة ذهبية لساعتك» .

فوافق تشيتشيكوف قائلا «حسن جداً» .

«اذن بكم حركة ستسمح لي أن اسبقك ؟»

«ولماذا ؟ طبعاً لن اسمح بشىء» .

«اسمح لى بحركتين على الاقل» .

«لا ، لن اسمح بشىء . فانا ضعيف فيها» .

فقال نوزدريف وهو يحرّك قطعة منها «انى اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

فأجاب تشيتشيكوف وهو يحرّك قطعة اخرى «منذ مدة طويلة لم تلمس يدى قطعة داما» .

فكرر نوزدريف وهو يحرّك قطعة أيضاً «ايه ، انى اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

فحرّك تشيتشيكوف بدوره قطعة وقال «اجل ، منذ مدة طويلة لم تلمس يدى قطعة داما» .

فقال نوزدريف للمرة الثالثة وهو يحرّك القطعة الثالثة . «ايه ، انى اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

وفى الوقت نفسه ، بينما كان يقول ذلك كان كم قميصه يحرك قطعة اخرى من موضعها .

بينما كان تشيتشيكوف يقول «اجل منذ مدة طويلة لم . . . هه ! ما هذا ؟ ارجع القطعة الى موضعها !»

«اية قطعة ؟»

«هذه» .

واشار الى القطعة التى هى موضع الجدل ، ولكنه وجد فى الوقت نفسه ان هناك قطعة اخرى غيرها قد طلعت داما ، ولا يعلم الا الله ما الذى جاء بالقطعة الجديدة الى موضعها ذلك .

فنهض تشيتشيكوف عن المنضدة وهو يصيح «لا ، لا ، من المستحيل أن يلعب المرء مع رجل مثلك . فالناس لا يحركون ثلاث قطع دفعة واحدة» .

«كيف ، ثلاث قطع ! إنه مجرد خطأ بسيط ، فقد تحركت احدى قطعي بالصدفة . واذا شئت ساعيدها الى حيث كانت» .

«ومن أين جاءت القطعة الثالثة ؟»

«اية قطعة تعني ؟»

«تلك التى طلعت داما» .

«هل نسيت حركة هذه ؟»

«لا ، لا ، يا صديقى . لقد حسبت كل حركة واستطيع أن اذكرها لك واحدة واحدة . وتلك القطعة قد اضيفت حديثاً الى الرقعة . هيّا ارجعها الى مكانها» .

«مكانها ؟ وما هو مكانها ؟ — واحمرّ وجهه احمراراً شديداً — اراك ملفقاً كبيراً !»

«لا ، لا أيها الأخ العزيز . انك أنت الملفق ، ولكنك ملفق فاشل كما أرى» .
«ما الذى تعتقده فيّ إذن ؟ انني اغشك ؟ أليس كذلك ؟»
«أنا لا أعتقد فيك شيئاً . وكل ما أقول هو أنني لن ألعب معك» .
فاشتعلت ثورة نوزدريف وقال «ولكنك لا تستطيع ان تفعل . فاللعبة قد ابتدأت» .
«ومع كل هذا ، فلي الحق أن أترك اللعب ما دمت لا تلعب لعباً شريفاً» .
«انك تكذب ، وكيف تجرؤ على هذا القول ؟»
«أنت الذى يكذب» .
«انا لم اغش . وبناء على ذلك لا تستطيع أن تترك . وعليك أن تكمل اللعبة الى نهايتها» .
فقال تشيتشيكوف ببرود «انك لا تستطيع ان ترغمني على اللعب» . والتفت الى رقعة الداما ومر بيده عليها وخلط بين قطعها .
فاقترب نوزدريف من تشيتشيكوف وعلى محياه امارات الوعيد بحيث تراجع الاخير خطوتين الى الوراء .
وقال نوزدريف «سوف أرغمك على اللعب . ان خلط رقعة الداما لن يجديك شيئا ، لأنني أتذكر كل حركة من الحركات . سوف نعيد القطع الى مواضعها كما كانت» .
«لا ، لا ، يا صديقي . لقد انتهت اللعبة ، ولن ألعب معك بعد» .
«تقول انك لن تلعب ؟»

«نعم . فأنت ترى بنفسك أن أمراً كهذا أصبح مستحيلا» .
«اأنت مصمم على هذا ؟ هيا قل مرة ثانية انك ترفض اللعب معي» . وتقدم نوزدريف عند قوله هذا من تشيتشيكوف خطوة الى الامام .
فقال تشيتشيكوف «أجل ، لا أريد» . وفى الوقت نفسه رفع يديه دفاعاً امام وجهه ، لأن سير الامور أصبح حامياً . والواقع ان عمله هذا كان له ما يبرره ، لأن نوزدريف هجم عليه رافعاً قبضته . وكان من المحتمل أن يتلقى بطلنا على خدّه الممتلئ النضير لكمة لا تنسى لو لم يتجنّبها بأن هجم على ذراعي نوزدريف الذى كان يلوّح بهما ، وامسك بهما بين يديه .
وأخذ نوزدريف يصيح بجنون وهو يتهالك على تخليص يديه «بورفيرى ! بافلوشكا !»
وعندما سمع تشيتشيكوف هذا الصياح ترك يدي نوزدريف . وقد أفلتهما فى الواقع لسببين — أولهما انه لم يحب أن يرى الخدم هذا المنظر الذى لا يشرف أحداً ، وثانيهما ان الامساك بيدى نوزدريف لم تعد فيه جدوى . وما كاد يفعل ، حتى دخل الغرفة بورفيرى ومعه بافلوشكا — عملاق من الاوباش ليس التعرّض له من الحكمة فى شىء .
فقال نوزدريف «هل تريد أو لا تريد أن تكمل اللعبة ؟ أعطني الجواب حالا» .
فأجاب تشيتشيكوف وهو ينظر من النافذة «لا ، ليس

انهاء اللعبة بالمستطاع» . ورأى ان العربة جاهزة فى انتظار اشارة ، وسيليفان على اهبة الاستعداد ليتقدم بها الى سلّم البيت . ولكن لم يكن من الغرفة مناص لأن الخادمين العملاقين ماثلان بالباب .

واعاد نوزدريف قوله وقد احمرّ وجهه كالنار «اذن انت لا تريد انهاء اللعبة ؟ أليس كذلك ؟»

«كنت أودّ انهاءها لو لعبت لعباً شريفاً ، اما والحالة هذه فكلاّ» .

«انك لن تستطيع ايها الوغد ! انك تترك اللعب لمّا وجدت نفسك مغلوباً على امرك ، وعرفت ان الحظ قد تخلّى عنك ! اضرباه يا شباب !» وجه الجملة الاخيرة الى بورفيرى وبافلوشكا ، وسحب بنفسه قصبة من خشب الكرز . اما تشيتشيكوف فأصبح لونه كالملاءة البيضاء . كان يحاول ان يقول شيئاً ما الا انّ شفتيه كانتا ترتعشان دون ان تصدرا صوتا .

وصاح نوزدريف للمرة الثانية «هيا اضرباه !» واندفع هاجماً وهو يتصبب عرقا وقد اجتاحته نوبة عاصفة من الحماس تليق بالفارس المغوار عندما يهجم على حصن حصين . وصاح مرة أخرى «اضرباه !» بصوت الضابط المتهوّر الذى يبعث الحماس فى جنوده للهجوم على الهدف المعين بقوله «الى الامام أيها الرفاق !» لما عرف عنه رؤساؤه من تهور وطيش فصمموا على كف يده عن العمل اذا ما عاد الى طيشه وتهوره . مهما يكن من امر ، فان رأس الضابط – وقد اجتاحته حمية المعركة ، – يأخذ باللف والدوران ، وتلوح أمام عينيه صورة

البطل سوفوروف* . فيتقدم الجنود ويصيح بصوت مسعور «الى الامام أيها الشجعان !» غير حاسب للنتائج حساباً ، وغير مفكر فيما اذا كان عمله هذا سوف يخرب خطة الهجوم العام ، وغير عابئ فيما اذا كانت فوهات ملايين البنادق مصوبة من كوى فى السور فى انتظار الصيد المرقوب ، وغير مقدر ان يذهب هجومه ادراج الرياح وان تكون فى تلك اللحظة قد صدرت من فوهة احدى البنادق الرصاصة التى كتب لها فى اللوح المحفوظ أن تطبق على حنجرته فتسكتها الى الابد . على اية حال ، فاذا كان نوزدريف يشبه ذلك الضابط اليائس العنيد الذى رسمناه هاجماً على الحصن الحصين ، فقد كان الحصن فى قصتنا بعيداً عن ان يكون حصيناً ولا يمت للحصن الذى سبق وصفه بأية صلة . وواقع الامر ان الرعب والهلع استوليا على حصننا فهوت روحه الى حذائه . قبل كل شيء ما كاد تشيتشيكوف (الحصن الذى نتكلم عنه) يمسك بكرسيّ لكى يدافع به عن نفسه حتى انتزعه من قبضته أحد العبيد ، ومن ثم اطبق اجفانه ، وهو يحس بأنه اقرب الى الموت منه الى الحياة ، ليتلقىّ ضربة من عصا مضيفه . ولا يعلم الا الله ما الذى كان سيحدث لكتفيه وخصره وظهره لو لم يتدخل القدر لانقاذه بمعجزة من المعجزات . فعلى حين غرة ، ودون ان يتوقع ذلك احد ، سمع صوت رنين

---

* سوفوروف – قائد روسى عظيم حاز على شهرة كبيرة فى حرب السنوات السبع . **الناشر** .

أجراس عربة وقرقعة عجلات تقترب من مدخل البيت ، وما ان وقفت حتى سمع صوت لهاث الخيول ونخيرها ، وكأن هذه الاصوات قد هبطت من السماء . فنظر الكل دون ارادة من النافذة ورأوا رجلا ذا شوارب يلبس معطفاً عسكريا وهو نازل من العربة . وبعد أن القى سؤالاً او سؤالين فى القاعة دخل الى غرفة الطعام فى اللحظة التى كان فيها تشيتشيكوف يكاد يغشى عليه من الهلع ، ويجد نفسه يمر فى أحرج المواقف التى يمر بها انسان فان .

القى الرجل المجهول نظرة حائرة على الرجلين — نوزدريف (وهو لا يزال رافعاً عصاه فى يده) وتشيتشيكوف (الذى كان قد بدأ يستجمع نفسه من الفعل التعيس) وتساءل قائلا «أرجوكما أن تخبرانى أيكما هو السيد نوزدريف» .

فتقدم نوزدريف الى الضابط وقال له «ارجو ان تخبرنى من تكون» .

«أنا رئيس شرطة الريف» .

«وماذا تريد ؟»

«جئت اؤدى مهمة كلّفت بها . وهى ان ابلغك عن وضعك تحت الحراسة الى ان تقرر المحكمة مصير قضيتك» .

«هراء ! هراء ! وأى قضية هذه ؟»

«أنت متهم بأنك اعتديت وأنت فى حالة السكر وباستعمال قضيب على الملاك ماكسيموف وأحدثت فى جسمه أضراراً بليغة» .

«انك تكذب ! انى اقول لك فى وجهك ! طوال حياتى لم تقع عيناي على الملاك ماكسيموف» .

«سيدى المحترم ، اسمح لي ان اذكرك بأننى موظف حكومة . وهذا النمط من الكلام تستطيع ان توجهه لخدمك ، لا لي» .

وعند الكلمة الاخيرة سحب تشيتشيكوف قبعته ، ودون أن ينتظر جواب نوزدريف ، زلق من وراء ظهر الضابط ، واندفع الى المدخل ، وقفز فى العربة ، وامر سيليفان ان يسوق العربة بسرعة الريح .

الفصل الخامس

ارتعب تشيتشيكوف بالتأكيد بكل ما فى الكلمة من معنى . فمع أن العربة كانت مندفعة فى سيرها لا تلوى على شيء حتى اختفى بيت نوزدريف خلف الروابى والاسيجة الا ان بطلنا ظلّ يتلفت وراءه بعصبية وانفعال كما لو كان ينتظر أن يرى خلفه مطاردة عنيفة بين الفينة والاخرى . كان يتنفّس بصعوبة ولمّا وضع يده على قلبه شعر به يخفق كأنه طائر السلوى عندما يقع فى الشباك . وراح يخاطب نفسه ويقول «أى ضنى أورثنى هذا المخلوق» . بينما تخامر رأسه نزعات عارمة طاغية . وكانت التعابير التى فاه بها فى الواقع أبعد ما يمكن أن تكون عن الكياسة . ولكن ما العمل ؟ لقد كان روسياً وعلاوة على ذلك خرج عن طوره . ولم يكن الامر بعد ذلك كله هزلاً . وخطر بباله : لو لا

رئيس الشرطة ما بقيت لي عينان تنظران ما خلق الله من ضوء النهار ولتلاشى وجودى كفقاعة فى غدير ، وما تركت اثراً او ذرية او ملكاً او اسماً شريفاً يرثه احفادي (ويظهر ان بطلنا كان حريصاً جداً على ترك ذرية تخلفه) .

اما سيليفان فقد سرح فكره وهو يسوق العربة ، وانشأ يقول «اىّ سيد سافل هذا ! لم ار فى حياتى سيداً مثله ! كم كنت اتمنى لو بصقت فى وجهه . اترك الرجل للجوع أفضل من ان تحرم حصانه الطعام الذى يليق به . الحصان بحاجة الى شوفانه مثلما يحتاج الانسان الى طعامه والضرورة تقضى ان تقدم له ذلك دائماً» .

وقد ظهر ان الجياد كانت تشاطر سيليفان رايه الخاص فى نوزدريف . فلم يكن الكميت والمستشار وحدهما يعربان عن استيائهما وحسب ، بل كان الارقط ايضاً يتقمّص روح الاشمئزاز . حقاً ، ان الارقط لم يكن يجد فى البيت علفا غير اردا انواع الشوفان ، ولم يكن يعلفه سيليفان دون أن ينعته بالسافل ، لكن علفه على الاقل كان شوفاناً لا تبناً - كان مادة يستطيع ان يمضغها بشىء من اللذة . وهناك حقيقة اخرى أيضاً ، فقد كانت تسنح له بعض الاحيان فرصة يمد فيها بوزه الطويل الى مِذْوَدَيْ زميليه (خاصة عندما يكون سيليفان غائباً عن الاسطبل) ويتذوق علفهما . ولكن فى بيت نوزدريف لم يكن هناك غير التبن ! وهذا ليس من العدالة فى شىء . واحست

الخيول الثلاثة باستياء شديد .

ولكن تاملات الساخطين انقطعت فجاة بشكل عنيف لم يكن فى الحسبان . لقد اعادهم الى الواقع اصطدامهم اصطداماً شديداً بعربة تجرها ستة خيول ، بينما انهالت على رؤوسهم صرخات سيدات داخل العربة وعاصفة من الشتائم والمسبّات من سائقها . وصاح السائق قائلا «ما الذي جرى لك ايها المجنون اللعين ! لقد صحت عليك بأعلى صوت ! ابتعد يا غراب الشؤم ، والزم يمينك هل انت سكران ؟» وادرك سيليفان انه كان السببَ لأنه كان عديم الاكتراث ، ولكن لأن الروسى لا يقبل الاعتراف بخطائه بحضور الاغراب ، ردّ عليه بكبرياء «لماذا دخلت علينا ؟ هل تركت عينيك خلفك فى آخر حانة وقفت فيها ؟» وبذلك بدا يسحب العربة الى الخلف بغية ان يخلّصها من اطواق العربة الاخرى . ولكن ذلك لم يكن بالامكان ، لان العربتين كانتا قد اشتبكتا اشتباكاً لا رجاء فيه . وراح الارقط آنذاك يتشمم باستغراب معارفه الجدد الذين تسمروا على جانبيه . بينما راحت سيدتان كانتا داخل العربة تتطلّعان الى منظر الاصطدام وعلى وجهيهما سيماء الرعب والفزع . كانت احداهما عجوزاً والاخرى فتاة فى نحو السادسة عشرة . وسقطت خصلة من شعر الفتاة الذهبى برقة واناقة عن راسها الصغير وانحدرت على الوجه البيضاوى الجميل . كان وجهها كالبيضة لا فى الانسجام وحسب ، بل فى لونها الابيض الشفاف الذى تراه ربة البيت حين تمسك بيديها بيضةً وُضِعَت

حديثاً وتضعها على عينها لترى أشعة الشمس وهي
تتخلل قشرتها . وكانت المسحة نفسها تطغى على اذنيها
اللتين كانتا توهّجان تحت نور الشمس . باختصار ،
وبما ترقرق فى عينيها الواسعتين الآسرتين من دموع
بدت صورة فاتنة جذابة جداً ، حتى أن بطلنا القى عليها
نظرة أكثر من عابرة قبل ان ينتبه الى الجلبة التى كانت
قائمة بين الجياد والسائقين . وصاح السائق الغريب
«ارجع الى الخلف يا غراب البيْن !» فشد سيليفان
الأعنة ، وحذا الآخر حذوه ، فتقهقرت الخيول قليلاً الى
الوراء ولكنها عادت لتشتبك مرة ثانية . وقد بدا فى
الواقع ان الأرقط كان مسروراً جداً بأصدقائه الجدد
حتى أنه رفض ان يتحرك من مكانه الذى رماه فيه حظ
خفى مشكور . والقى بخطمه تحبباً على عنق احد معارفه
الجدد ، وبدا كأنه يهمس شيئاً فى أذن ذلك الصديق –
شيئاً على ما يبدو كان كله سخفاً وهراء لأن المهموس
فى اذنه راح يحرك أذنيه إستخفافاً .

وعلى حين غرة تجمع فلاحون من قرية مجاورة للحادث
واندمجوا فى الورطة القائمة . وبما أن منظراً كهذا
المنظر عند الفلاحين الروس ممتع كصحيفة أخبارية او
كاجتماع فى ناد عند الالمان فسرعان ما أصبحت
العربتان مركزاً لتجمّع جمهور غفير ، وغدت القرية
خلواً إلاّ من النساء والاطفال . وانفصل العمودان
المتشابكان آخر الأمر ، وكانت بضع صفعات على أنف
الأرقط كافية لتجعله يتراجع الى الخلف . وبعد ذلك
رُتبت فرق الخيول وفصلت بعضها عن بعض . ومع

ذلك كله فقد رفضت الفرقة الغريبة أن تحرّك ساقاً من
موضعها رفضاً باتاً ، وقد يكون ذلك لمجرد العناد ، أو
قد يكون اسفاً على فراق الاصدقاء الجدد . فساطها
سائقها ولكنها ظلت واقفة كما لو كانت مسمّرة فى
الارض . وبعد لأى ، ارتفعت جهود الفلاحين المشتركة
الى درجة من الحماس لم يسبق لها مثيل . فبدأوا
يصيحون جوقات ، بأوامر كالتالية «اسحب يا اندروشكا
راس الحصان الأمامى الى اليمين ، بينما يركب العم
متياي الحصان الاوسط . انهض يا عم متياي» . وعلى
ذلك نهض العم متياى وهو نحيل طويل أحمر اللحية
وركب الحصان الاوسط وظهر فى وضعه الجديد كأنه
برج القرية او دولاب الناعورة . وساط السائق الجياد
مرة اخرى . وثبت أن العم متياي كان عديم الجدوى .
وصاح الفلاحون ثانية «توقف ، توقف» . «اركب يا عم
متياي الحصان الأمامى وليركب العم منياي الحصان
الأوسط» . «واسرع العم منياى ، وهو فلاّح ذو كتفين
عريضين ولحية سوداء كالفحم وبطن كالسماور الضخم
الذى يخمّر فيه شاى العسل للتجار المحليين أيام
السوق – اسرع بامتطاء الجواد الاوسط ، وكاد الأخير
ان يهوى الى الارض تحت ثقله . وصرخ الفلاحون
«سيسيرون الآن سيراً حسناً ! أضربه حامياً ! اضربه
حامياً ! اعط ذلك الحصان الاشقر ضربة سوط ، ودعه
يتلوى كالافعى *» ومع هذا ، فلم تتقدم الامور بحال

* فى الاصل «كما تتلوى الكورامورا» وهى حشرة
كالبعوض طويلة الجسم نسبيا كثيرة التلوى . المترجم .

من الاحوال . عندئذ وقد تبين أن لا فائدة من السوط ، لجأ القوم الى اسلوب آخر . فامتطى العمان متياى ومنياى الاشقر وجلس اندروشكا على ظهر الحصان الامامى ، وجدَّ القوم فى العمل دون جدوى . بعد هذا كله فقد السائق الصبر ، فصرف العمّين فى سبيلهما لأنه ادرك قبل فوات الأوان أن الخيول تلهث لهاثاً شديداً وكأنها قطعت شوطين دون استراحة . فاعطى الخيول برهة تستريح فيها . وما تمّ ذلك حتى تحركت بمحض اختيارها . وكان تشيتشيكوف طوال ذلك الوقت يحدّق فى الفتاة المجهولة بانتباه شديد ، حتى أنه جرّب مرة او مرتين أن يدخل معها فى حديث ، لكن محاولته ذهبت ادراج الرياح . وعند ذهاب السيدتين كان فى الواقع كأنه فى حُلُم ساهمَ البصرِ فى وجود الفتاة الانيس وتقاطيع وجهها الانيقة وقدّها النحيل وهى تختفى عن انظاره . كان كأنه فى حلم اذ عاد لا يرى امامه سوى نفسه والطريق والعربة والخيول الثلاثة وسيليفان والحقول الخالية الخاوية . فى كل أرجاء الحياة – من ابسط مراتب المجتمع واقذرها ، الى اعلى المراتب واوجهها – يقع الانسان على ظاهرة تختلف اختلافاً كلّيا عن كل ما عهده فى حياته ، وتظهر فيه احاسيس تختلف اختلافاً كلياً عن كل احساس مرّ به حتى ذلك الحين . وفى كل مكان من هذا الوجود ، من خلال خيوط البؤس التى نسجت منها حياتنا ، قد يشعّ فجاة خيط لامع براق من الفرح والسرور . مَثَلُ ذلك مَثَلُ شارع قرية مسكينة بائسة اخنى عليها الدهر بكلكله ، لا تمر به إلاّ عربة المزرعة البالية ، تظهر فيه فجاة عربة فخمة لماعة الدهان انيقة الخيول براقة الزجاج ، يقف الفلاحون لها فاغرى الافواه ساهمى الابصار وينسون ان يعيدوا قبعاتهم الى رؤوسهم الا بعد ان يتوارى الموكب عن انظارهم بزمن طويل . وهكذا ، فقد كان ظهور الفتاة ذات الشعر الذهبى فى قصتنا على غير انتظار ، كما كان اختفاؤها على غير انتظار ايضاً . ولو لم يكن صاحب الشأن تشيتشيكوف ، وكان فتى ذا عشرين ربيعاً – فارساً او تلميذاً او اى رجل آخر فى ربيع الحياة – فأىّ فكر كان سيدور فى ذهنه وينبثق من نفسه وينطق فى اعماقه ؟ ولأى مدى من الزمن كان سيقف ذاهلاً محدّقاً فى الآفاق ، ناسياً دواعى رحلته وما عليه من واجبات واحتمال ما يسببه التباطؤ من خسران ، ناسياً نفسه ومركزه والعالم وكل ما فيه ؟

اما فى حالتنا هذه فقد كان البطل متوسط العمر ذا مزاج صلب على قدر من الحرص شديد . أجل ، فقد أمعن النظر فى الامر امعاناً شديداً ولكن بشكل اكثر رزانة مما يفعل الشباب . فلم تكن تأملاته بالطائشة ولا بالرعناء . وفتح علبة السعوط ونشق منها وانشأ يقول لنفسه «كانت آنسة جميلة ، انما الأهم من ذلك ، هل هى آنسة لطيفة ايضاً ؟ هناك شىء واحد ظاهر من حسناتها ، اذ يبدو عليها انها قد تركت المدرسة حديثاً ولم يكن لها من الوقت ما تصبح به امراة بالمعنى السيىء . انها الآن كالطفل . كل شىء فيها ساذج بسيط . فهى تقول ما تفكر فيه وتضحك اذا احسّت

انها بحاجة الى الضحك . آنسة كهذه يستطيع المرء ان يصوغها فى القالب الذى يشاء ، قد تغدو اعجوبة او تغدو تافهة مبتذلة لا قيمة لها . وا'رجّح الحالة الاخيرة ان كان لها أم ولوعة بها ورهط من العمّات والخالات ومن لفّ لفّهن – نسوة فى مدى سنة واحدة يملان نفسها بأفكار النساء وخيالهنّ حتى لا يعود والدها يعرفها . وسوف يضفن الى ذلك كله أصول التصنّع وقواعد الكبرياء . وستبدأ بمراعاة القوانين المتّبعة ، وتجهد فكرها فى كيف تتكلّم وكم ولمن ومتى وما اشبه ذلك . وستجدها فى كل لحظة متهيبة مبلبلة خشية ان تكثر من الحديث . واخيراً تتطور فتصبح مراوغة حاذقة طوال حياتها وتنتهى الى ما لا يعلمه غير الشيطان !» وصمت هنيهة ثم استمر يقول «إلاّ اننى مع هذا كله أود ان اعرف من هى ، ومن أبوها وفيما اذا كان ملاكاً غنياً ذا مركز مرموق او مجرد وجيه نال ثروة من خدمة الحكومة . وهل سيمنحها عند زواجها مهراً ، ولنفرض مائتى ألف روبل ؟ انها ستكون صيداً ثميناً فى الواقع . وسيكون فى امكانها عندئذ ان تُسْعِدَ حقاً اى رجل أصيل» . وقد كانت فكرة مائتى ألف روبل فى الحقيقة جذّابة جداً ، وبدأت ترقص فى مخيّلته ، وشعر بوخزة من اللوم فى قرارة نفسه لأنه لم يسأل السائق اثناء الجلبة عن المسافرات . ولكن رؤية بيت سوباكيفيتش الريفى شتتت أفكاره واضطرته الى العودة الى موضوع تفكيره المستديم .

كانت قرية سوباكيفيتش ذات اتّساع لا بأس به

وقد قامت على جانبيها مساحات من أشجار الصنوبر والبتولا الخضراء . كانت البناية الخشبية نفسها ذات جدران رمادية دكناء، وسقف هرمى احمر لأنها كانت من ذلك النوع من المساكن التى تبنيها روسيا عادة لرجال الجيش المتوطنين وللالمان المستعمرين . وكانت تبدو هناك ظاهرة جلية واضحة وهى ان ذوق المهندس كان يختلف اختلافاً واضحاً عن ذوق صاحب المِلْك . اذ كان الاول متحذلقاً فى الانسجام ، راغباً فيه . بينما كان الاخير يطلب راحته فقط . وعلى ذلك فقد اغلق (اى صاحب المِلْك) كل النوافذ التى كانت فى احد جانبى العمارة ، وعمل بدلا منها كوة صغيرة قصد منها بلا شكّ انارة مخزن كان سيكون مُظْلِماً لولاها . وبالمثل فقد فشلت جهود المهندس القوية فى جعل قمة الهرم فوق مركز البناية لأن المالك ازال أحد اعمدتها الاربعة الاساسية . من الجلى ان المتانة كانت موضع الاهتمام فى كل شىء . فالساحة كانت مُحاطة بسور خشبى متين عال جداً ، وكلا الاسطبلين ومراب العربات والمطابخ كانت تقوم على دعائم تكفل بقاءها قرونا طويلة – وحتى اكواخ الفلاحين الخشبية كانت مدهشة فى متانتها ، فلم يكن فيها جدار واحد املس ، وليس عليها اى رسم محفور او اية زخرفة اخرى . كان كل شىء على ما يرام . حتى ان بئر المنزل كان بابها من خشب البلّوط الذى نعرف انه يستعمل عادة للسفن والمطاحن . وباختصار ، فحيثما وقعت عينا تشيتشيكوف كانتا تريان كل شىء خلوا من الرثاثة مرتباً بمهارة

وعناية . واذ اقترب من سلّم المدخل وقع نظره على وجهين يحدقان من نافذة . كان احدهما وجه امراة بقبعة وتقاطيع كالخيارة استطالة وضيقاً . اما الآخر فكان وجه رجل ذى تقاطيع عريضة جداً قصيرة جداً كالقرعة المولدافية (المسماة غورليانكى) التى تصنع منها البالالايكا – وهى نوع من الآلات الموسيقية الخفيفة ذات وترين تكون مصدراً للسرور والكبرياء لفتى مراح فى العشرين من عمره حين يجلس غامزاً مبتسماً لفتيات بيض الاعناق بيض الصدور وقد تجمعن حوله يتسمعن الى رنين صوته الشجى . وما القى هذه النظرة الفاحصة حتى انسحب الوجهان وظهر على سلمّ المدخل مأمور يرتدى سترة رمادية بياقة صلبة زرقاء أدخل تشيتشيكوف الى القاعة حيث قابله سيد البيت نفسه وسار به الى داخل البناية .

نظرة خفية على سوباكيفيتش تبين منها بطلنا ان مضيفه يشبه دباً متوسط الحجم شبهاً شديداً . واستكمالاً للمشابهة ، كان معطف سوباكيفيتش الطويل وسراويله المعبعبة بلون إهاب الدب بالضبط ، بينما تعمل ساقاه حركة تقاطع اذا ما دلف ماشياً على الارض . وله بالاضافة الى ذلك عادة لا تتغير ابداً وهى ان يدوس على قدم مرافقه . اما وجهه فكانت عليه تلك المسحة من الحمية والحرارة التى تجدها على البياتاك • . اشخاص من هذا القبيل – اشخاص لم

• عملة نحاسية قيمتها خمسة كوبيكات . **الناشر** .

تخصص الطبيعة قسماً كافياً من فكرها لصياغتهم ، ولم تستعمل فى هندسة اشكالهم آلات دقيقة كالمثقب والمبرد وما الى ذلك – ليسوا بالقليل الوجود . اشخاص كهؤلاء تنحتهم الطبيعة نحتاً سريعاً لا صقل فيه . ضربة بالبلطة واذا هناك انف ، وضربة أخرى بالمطرقة واذا هناك شفتان ، وغرزتان بالمثقب واذا هناك عينان . واخيراً تصدر هذا الانسان للعالم قائلة دون ان تكمل انجازه : «ليكن !» كان سوباكيفيتش على هذا القدر من الهلهلة ، ذا شكل خلط بعضه خلطاً . على ان المثال السابق ينطبق على نصفه العلوى اكثر مما ينطبق على نصفه السفلى . وكنتيجة طبيعية لهذا التكوين ، كان نادراً ما يدير راسه لينظر الى من يحادثه ، بل كان فى الغالب يصوّب عينيه الى زاوية الموقد ، او الى الباب مثلاً . صوّب تشيتشيكوف نظرة اخرى الى زميله عندما كان الضيف والمضيف يجتازان غرفة الطعام ، وقال لنفسه «انه الدب بعينه ولا يمكن ان يكون شيئاً آخر غير الدب» . ولم يكن فى الواقع مناص من هذه المقارنة الغريبة . ومن عجيب الصدف ان الاسم الاول لسوباكيفيتش كان ميخائيل سيميونوفيتش • . وقد اخذ تشيتشيكوف الحذر الشديد من عادته فى الدوس على اقدام الآخرين . ولهذا اخذ يحسب موضع قدمه ويترك مضيفه يمشى امامه دائماً . وقد تبين فى الواقع ان سوباكيفيتش نفسه

• الروس يسمون الدب العم ميخائيل . **المترجم** .

كان شاعراً بهذه المثلبة ، اذ كان يقول بين الفترة والاخرى «ارجو أن لا أكون آلمتك ؟» فيجيبه تشيتشيكوف مع كلمة شكر بانه لم يصبه أذى بعد .

وصلا قاعة الاستقبال بعد لأى ، فاشار سوباكيفيتش الى كرسيّ كبير دعا ضيفه الى الجلوس عليه . وأخذ تشيتشيكوف يحدّق باهتمام فى الجدران والصور . كانت كلها رسوماً لشباب أصحاء وهم لجنرالات يونانيين أمثال مافروجورداتو (مرتديا بدلة رسمية وسراويل حمراء) وميائولس وكنارس * . وآخرين . وقد رسم كل هؤلاء الابطال بجبروت فى الهيكل وغزارة فى الشوارب تجعل الناظر اليهم يرتعش خوفاً . وقد حشرت بين هذه الصور – لسبب غير معروف وتنظيم غير معروف – صورتان . أولاهما صورة الامير باجراتيون ** ، وهو طويل نحيف رسمت تحته مجموعة من الاعلام الصغيرة والمدافع ، وحشر كل ذلك ضمن اطار الصورة الضيق . وثانيتهما صورة البطلة اليونانية بوبيلينا التى بدت بساقين ضخمتين جداً – أضخم من أجسام جميع متانقى الصالونات فى يومنا هذا . كان جلياً ان رب البيت ذا الصحة والعافية لم

* مافروجورداتو – رجل السياسة اليونانى الذى وضع دوستور سنة ١٨٢٢ . اما ميائولس وكنارس فهما قائدان من قادة الثورة اليونانية ضد الاتراك . **الناشر** .

** الامير باجراتيون – احد الابطال الروس فى معركة بورودينو ضد نابليون ، واستشهد فى المعركة فى عام ١٨١٢ . **الناشر** .

يكن يحب أن يزين غرفاته إلاّ برجال فى قوته وضخامته . وأخيراً ، كان قرب الشباك قفص معلق حذاء بوبيلينا ، الكتف بالكتف ، وكان يطل منه على فترات شحرور أبيض الترقيط . كان ككل شيء فى الغرفة ، شديد الشبه بسوباكيفيتش . وعندما كان الضيف ورب البيت قد بدآ الحديث مدة دقيقة او دقيقتين دخلت ربة البيت ، وهى سيدة طويلة بقبعة مزينة بشرائط بيتية التلوين والصنع . دخلت بترو ورفعت رأساً مستقيماً كجذع النخيل .

وقال سوباكيفيتش «هذه زوجتى فيودوليا ايفانوفنا» .

فاقترب تشيتشيكوف منها وصافحها . ولما رفعت يدها الى مستوى شفتيه ادرك انها قد شطفتهما ساعتئذ بزيت الخيار المخلل .

واضاف سوباكيفيتش «عزيزتى ، اسمحى لي ان اقدم لك بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف . لقد كان لنا شرف التعرف عليه عند حاكم الولاية وعند مدير البريد» .

وعلى ذلك طلبت فيودوليا ايفانوفنا من ضيفها ان يجلس ، وارفقت هذه الدعوة بانحناءة من النوع الذى تفعله الممثلات اللواتى يلعبن أدوار الملكات . وبالتالى اخذت مجلسها على الصوفا وسحبت عليها شالها المصنوع من صوف المارينو * ومكثت كذلك دون ان

* الماعز الاسبانى . **المترجم** .

تحرك ساكناً . اما تشيتشيكوف فرفع بصره ورأى للمرة الثانية كنارس بفخذيه الغليظين وشاربيه اللذين لا حد لهما وبوبيلينا والشحرور الاسود . وخيّم الصمت على الجميع خمس دقائق كاملة لم يكن يسمع فيها غير صوت منقار الطير وهو يقرع أرض القفص الخشبية اذ يحاول ان يلتقط حب القمح منها . وفى هذه الآونة تفحص تشيتشيكوف الغرفة للمرة الثالثة ، فرأى ان كل شىء فيها ضخم اخرق فى اعلى درجات الضخامة والخرق ، وان كل شىء منسجم مع رب البيت انسجاماً غريباً . كان فى زاوية من زوايا الغرفة مثلا ، مكتب من خشب البندق بارز البطن واقف على اربع ارجل ضخمة – صورة ناطقة عن الدب . وكانت الاخونة والكراسى على القدر نفسه من النشوز والغلظ . كانت كل اداة فى الغرفة كانها تصيح قائلة «انا ايضا سوباكيفيتش !» او «اننى نسخة طبق الاصل عن سوباكيفيتش !»

ولما رأى تشيتشيكوف ان احداً لم يفكر فى البدء بالحديث قال «لقد مر ذكرك ذات يوم حينما كنت أزور رئيس المجلس المحلى . كان ذلك يوم الخميس الماضى . وكانت ليلة بهيجة حقاً» .

فاجاب سوباكيفيتش «نعم . فلم اكن هناك فى تلك المناسبة» .

«كم هو لطيف هذا الرجل !»

فتساءل سوباكيفيتش وهو ينظر الى زاوية الموقد «من ذاك ؟»

«رئيس المجلس المحلى» .

«وهل هذا هو رأيك فيه ؟ ان هذا هو مظهره فقط ، اما فى الحقيقة ، فعلى الرغم من كونه ماسونياً إلا ان العالم لم يشهد له فى الغباء مثيلا» .

فاجفل تشيتشيكوف قليلاً لهذا الانتقاد اللاذع القتالى ، ولكنه تمالك نفسه ثانية واستمر يقول : «بالطبع لكل رجل نقاط ضعف . إلا ان حاكم الولاية انسان ممتاز» .

«حاكم الولاية ممتاز ؟»

«نعم . أليس هذا رأيك فيه ايضاً ؟»

«لا ، انه اكبر محتال على وجه البسيطة» .

«حاكم الولاية ؟ محتال ؟» وغدا تشيتشيكوف فى حيرة من امره . اذ كيف يمكن ان يعتبر الموظف المذكور فى عداد اللصوص . واكمل يقول «لم اكن اتصور ذلك مطلقاً . واسمح لى ان اقول بان سلوكه لا يكاد يحتمل رأيك فيه . انه يبدو فى الواقع لطيفاً جداً» . وذكر برهاناً على ذلك المحفظات التى حاكها حاكم الولاية واطنب فى الحديث عن لطافة ملامحه .

فقال سوباكيفيتش «ان له وجه اللص . ولو اعطيته سكيناً وافلتّه لحزّ عنقك بكوبيك . والشىء نفسه يذكر عن مساعده . انهما يا جوج وماجوج» .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «يلوح انه على غير وفاق معهما . من الافضل ان انتقل الى الحديث عن رئيس الشرطة ، فقد يكون معه على وئام» . واضاف بصوت عال بناء على حدسه هذا ، يقول «اما من ناحيتى الخاصة فانى افضل رئيس الشرطة . يا لطبيعته الصريحة

الفصيحة ! ويا لعنصر البساطة الذى يبدو فى ملامحه !»
فأجاب سوباكيفيتش «انه وضيع فى صميمه . يبيعك ويغشك وياكل على مائدتك . نعم ، اعرفهم كلهم واعرف أن كل فرد منهم لص مختلس . والمدينة وكر لسفلة مشغولين بسلب بعضهم بعضاً . وليس فيهم رجل الا وهو مستعد لبيع المسيح . لكن ، رويدك قليلا ، هناك انسان محترم واحد – هو المدعى العام . ومع ذلك ، فحتى هو ، اذا أردنا أن نقول الحقيقة ، لا يفضل الخنزير إلاّ قليلا» .
بعد هذا الاسهاب فى التقريظ والكيل فى المديح ، لم ير تشيتشيكوف فائدة من تكملة قائمة الموظفين ، لا سيما وقد رأى بأم عينه ان سوباكيفيتش لم يذكر حتى صديقه بالخير .
وتدخلت فيودوليا ايفانوفنا قائلة لزوجها «لنذهب الى الغداء يا عزيزى» .
وقال سوباكيفيتش «أرجوك ، تفضل» .
وتقدم الجمع أول الامر الى مائدة وضعت عليها الفودكا وبعض المشهيات . واحتسى الضيف والمضيف كاسى الفودكا وتناولا من اطايب المشهيات المختلفة التى توضع عادة لفتح الشهية فى المدينة والقرية وفى جميع انحاء الامبراطورية الروسية الواسعة . ومن ثم دلفا الى غرفة الطعام تحت قيادة المضيفة التى كانت تبحر امامهما كأنها أوزة تسبح فى عرض البحيرة . كانت مائدة الطعام الصغيرة معدة لاربعة اشخاص . وكانت تجلس فى الكرسى الرابع انثى فى الثلاثين من عمرها ،

بدون قلنسوة وعلى كتفيها لفاع مبرقش وكان من الصعب التكهن بشخصيتها ومعرفة ما اذا كانت فتاة او امراة متزوجة او قريبة او خادمة او اى طفيلية أخرى . ان بعض الناس يعيشون فى هذا الوجود لا كشخصيات مستقلة قائمة بذاتها بل كالبقع واللطخ على شخصيات الآخرين . فتجدهم دائماً فى الوضع نفسه ، جالسين فى المحل نفسه ، رافعين رؤوسهم بزاوية معينة لا تتغير ، حتى ليكاد المرء يحسبهم جزءاً من الاثاث ، ويتصور انهم منذ أن خلقوا لم ينبسوا ببنت شفة ، بينما هم فى حجرة الوصيفات او فى حجرة المؤونة صنف آخر تماماً .
والتهم سوباكيفيتش حصته من «التشى» وقال «ان حساء الكرنب اليوم فاخر يا عزيزتى» ووضع فى طبقه كمية كبيرة من «النيانيا» – ويتكون من معدة الماعز المحشوة بالثريد والمخ والتوابل ، واضاف قائلاً «اى نيانيا هذه ! لن تستطيع الحصول على مثلها فى المدينة حيث لا يعلم ما يقدم للمرء إلاّ الشيطان !»
فقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فان مائدة حاكم الولاية لا باس بها» .
فغمغم سوباكيفيتش قائلا «نعم . لكن هل تعلم مم يصنع طعامه ؟ انك لو علمت لما مَسَسْتَه» .
«لست بالطبع فى وضع يمكننى من ان اقول كيف يحضّر ، ولكن شرائح الخنزير والسمك المسلوق على الاقل كانت عظيمة» .
«ايه ! لك أن تظن ذلك . إلاّ اننى اعرف الطريقة

التى تشترى بها هذه الاشياء من السوق . يشتريها وغد يسمى طباخاً علمه رجل فرنسى أن يسلخ السنور ويقدّمه على انه ارنب» .

فتدخلت السيدة قائلة «أوف ! ما هذه الفظاعة التى تقول ؟»

«أجل يا عزيزتى ، هكذا تجرى الامور ، وليس الخطأ خطأي ان كانت كذلك . وزيادة على ذلك ، فكل ما ترميه خادمتنا اكولكا ، كل ما تقذفه (وارجو العفو لذكر ذلك) فى سطل الاوساخ ، يستعمله هؤلاء الناس فى صنع الحساء» .

فاعترضت شريكة حياته قائلة «انك على المائدة دائماً تبدأ بهذا الحديث» .

فقال سوباكيفيتش «بالطبع ، يا روحى ، فلو كنت أنا الذى صنعت هذا . ولكننى اقول لك بصراحة – إننى لن آكل هذه القذارة . فمهما وضعت من السكر على الضفدع فلن اقدر ان امرّ به على شفتيّ . ولن التهم محاراً لأنى اعرف ما الذى يشبهه المحار . لكن . . . تناول بعض لحم الخروف أيها الصديق تشيتشيكوف . انها كتف الخروف ، وهى تختلف جداً عن اللحم الذى يطبخ فى مطابخ النبلاء – لحم كان يتارجح فى الاسواق اربعة أيام او يزيد . كل هذه الانواع من الطبائخ هى من اختراع الاطباء الفرنسيين والالمان . كم كنت أتمنى لو اشنقهم كلهم جزاء عملهم هذا . فهم لا ينفكون يصفون الاغذية والعلاج بالصيام كان ما يناسب أعضاءهم الالمانية المترهّلة يناسب المعدة الروسية .

لا ، لا ، ان هذه الوسائل لا خير فيها . . .» وهنا هزّ راسه علامة الاستياء . «واشخاص على هذه الشاكلة يتكلمون عن المدنية والتقدم . كما لو كان امر كهذا من المدنية فى شىء ! أوف ! وربما كانت صيحة التعجب الاخيرة التى لفظتها اقوى من ذلك لو لم اكن جالساً الى المائدة . اما من ناحيتى فلن اذوق شيئا كهذا أبداً . فعندما اريد ان آكل لحم الخنزير فى طعامي يجب ان يقدّم لي الخنزير كله ، وان كان لحم خروف فالخروف كله ، او لحم الاوز فالطير كله . طبقان افضل من الف اذا استطاع المرء أن يأكل منهما قدر ما يشتهى» .

وراح يضع النظرية موضع التطبيق بأن اخذ نصف كتف الخروف ووضعه فى طبقه وراح يلتهمه حتى آخر قطعة من الغضروف والعظم .

اما تشيتشيكوف فاخذ ينظر اليه ويقول فى نفسه «قسماً ان للرجل لطاقة جبارة !»

وقال سوباكيفيتش وهو يمسح يديه بالفوطة «طبعاً ، اننى لن ارضى ان تكون حياتى كحياة ذلك الشخص المدعو بلوشكين الذى يمتلك ثمانمائة نفس بينما يأكل اسوأ مما يأكل الراعى عندى» .

فتساءل تشيتشيكوف «ومن بلوشكين هذا ؟»

«انسان بخيل ، بخيل لدرجة لا تستطيع ان تتصورها . حتى المساجين فى غياهب السجون يحيون حياة افضل من حياته . انه يعيش هو وخدمه يتضوّرون جوعاً» .

فصاح تشيتشيكوف باهتمام كبير «حقيقة ؟ هل تمنى اذن أن الموت 'يفقده' الكثير من فلاحيه ؟»

«بالتاكيد . فلا ينفكون يموتون كالذباب» .

«وعلى اى بعد يقطن من هنا ؟»

«حوالي خمسة فرستات» .

فقال تشيتشيكوف متعجباً وهو يحس قلبه يخفق فرحاً «خمسة فرستات فقط ؟ وهل على المرء عندما يترك باب بيتك أن يتجه الى اليمين او الى الشمال ؟»

فقال سوباكيفيتش «إننى آسف اذ ادلك على بيت انسان خسيس كهذا الانسان . من الافضل جداً للمرء أن يذهب الى جهنم من أن يذهب الى بلوشكين» .

فأجاب تشيتشيكوف «تماماً كذلك . انما السبب الوحيد الذى سألتك من اجله عنه هو اننى احب ان اتعرف على اى نوع وعلى كل نوع فى هذه النواحى» .

وتبع كتف الخروف فطائر كل واحدة منها اكبر من طبق ، وديك رومى محشوّ ببيض وأرز ومعاليق وحجمه حجم العجل الصغير . وكل هذا اتخم معدة تشيتشيكوف أشد الاتخام حتى لما قام بعد انتهاء الغداء شعر وكان فى بطنه أربعين رطلا من الطعام . وفى غرفة الاستقبال ينتظره صحن مربى صغير من الفواكه المجهولة فلا هى بالاجاص ولا بالخوخ ولا باى فاكهة اخرى وكلها لم يمسسها ضيف ولا رب البيت ، اما ربته فخرجت لتضع المربى فى صحون صغيرة أخرى . واغتنم تشيتشيكوف فرصة غيابها فالتفت الى سوباكيفيتش (وكان هذا منبطحاً على كرسىّ ذى متكا ، ولم يعد فى استطاعته

بعد غدائه الثقيل إلا أن يتجشأ ويزفر أنفاسه ، وكان يرسم اشارة الصليب ويضع يده على فمه كلما فعل ذلك) واسرّ اليه رغبته فى التحدث معه حديثاً خاصاً قصيراً فى شأن من الشؤون . وفى تلك اللحظة عادت ربة البيت .

وقالت «اليكما بعض الحلويات الاخرى ، تفضلا وتناولا شيئا من الفجل المنقوع بالعسل» .

فأجاب سوباكيفيتش «فيما بعد ، فيما بعد . لو تذهبين الى غرفتك ، اذ أود أنا وبافيل ايفانوفيتش أن نخلع معطفينا ونغفو قليلا» .

وابدت السيدة عندئذ استعدادها لارسال فراش ووسائد من الريش ، ولكن زوجها قال إنه يفضل النوم على كرسىّ ذى متكا ، وبهذا غادرت الغرفة . وما كادت تفعل ذلك حتى أحنى سوباكيفيتش راسه استعداداً للاستماع الى مهمة ضيفه .

وابتدأ بطلنا الحديث بأسلوب مفكك ، بادئاً أول الامر بالاشادة بالامبراطورية الروسية ومدى ضخامتها قائلاً بأن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت أقل منها اتساعاً . بينما كان سوباكيفيتش يجلس مطاطئ الراس وكله آذان صاغية . وبعد ذلك تطرق تشيتشيكوف الى القول بأن من قوانين الامبراطورية الروسية (التى لا فخر فيها لأحد) أن الفلاحين الذين فارقوا الحياة تبقى اسماؤهم مسجلة حتى وقت الاحصاء الجديد فى اللوائح الجديدة كما لو كانوا أحياء ، وهذا يضمن اراحة المكاتب الحكومية من هذه التفاهات فهى

تعقد ميكانيكية الدولة التى فيها الكفاية من التعقيد . وقال تشيتشيكوف بان هذا القانون مهما حاولنا ان نعزو العدالة له ، فانه مجحف بالملاكين فعلاً لأنه يضطرهم الى دفع الضريبة عن الانفس التى لا وجود لها كما يدفعونها عن الانفس الحية الاخرى . وبناء على ذلك (وهذا هو بيت القصيد) ، فانه (اى تشيتشيكوف) نظراً للاحترام الشخصى الذى يكنه لسوباكيفيتش على استعداد لأن يخفف عنه العبء المشار اليه . ومن الواجب علينا ان نذكر ان تشيتشيكوف فى حديثه هذا كان يتكلم بمنتهى اللباقة وفى غاية الحذر . فلم يكن يستعمل كلمة الانفس الميتة بل كان يقول الانفس التى لا وجود لها .

كان سوباكيفيتش اثناء ذلك حانى الرأس الى الامام منصتاً كل الانصات ، إلاّ ان المرء لا يستطيع ان يلمح فى وجهه اثراً لاستجابة او انفعال . كان جسمه الساكن يبدو خالياً من الروح ، أو اذا كانت له روح فيبدو انه كان يحتفظ بها فى محل آخر لا حيث يجب ان تكون ، بل كانت مدفونة تحت الجبال او مغلفة فى بروج مشيدة لن تحدث حركتها فى الاعماق اى رجة على الاديم .

وقال تشيتشيكوف بصوت لا يخلو من رعشة التهيب للاجابة المنتظرة «والآن ؟»

فقال سوباكيفيتش بكل بساطة ودون أن يبدو فى صوته اى اثر للدهشة ، وكانه يتحدث حديثاً عادياً عن الحنطة ، «إذن انت تجرى وراء الانفس الميتة ؟»

فأجاب تشيتشيكوف «نعم» ثم قال بصوت أكثر نعومة «الانفس التى لا وجود لها» .

فقال سوباكيفيتش «انها موجودة ، ولِمَ لا ؟»

«اذن ستكون مسروراً طبعاً بالخلاص مما قد يكون لديك منها ؟»

«نعم ، فلا مانع لديّ أن أبيعها» . ورفع رأسه قليلاً ، اذ خطر بباله أن الشارى لا بد أن تكون له مصلحة من ورائها بكل تأكيد .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «يا للشيطان ! انه يبيعها كأية بضاعة عادية حتى قبل أن يكون لي مجال أتكلم فيه كلمة واحدة» واضاف بصوت عال «وكم سيكون الثمن ؟ فهذه الاشياء ليست مما يعتدّ بها» .

فقال سوباكيفيتش «لن أطلب غالياً ، هل يناسبك مائة روبل للرأس ؟»

«ماذا ؟ مائة روبل للرأس ؟» وحملق تشيتشيكوف فى مضيفه فاتحاً فمه مستريباً فيما اذا كان صحيحاً ما سمع او أن لسان سوباكيفيتش البطىء الحركة قد استعاض سهواً كلمة باخرى .

ولكن سوباكيفيتش بادره بالقول «نعم ، هل هذا كثير ؟» ثم اضاف «ما هو سعرك ؟»

«سعرى ؟ أظن اننا لا نتفاهم الآن ، اذ لا شك أنك نسيت ماهية البضاعة . اننى ويدي على قلبي اقول بأن ثمانين كوبيكاً لكل نفس ستكون سعراً مناسباً ، جداً» .

«ماذا ؟ ثمانون كوبيكا ؟»

فى رايى ان عرضاً اعلى من هذا سيكون مستحيلا» .
«ولكننى لست بائع احذية» .
«لا ، ولكنك نفسك توافق على ان هذه الانفس ليست مخلوقات حية» .
«اظن انك تنتظر ان تجد مجنوناً مستعداً لبيعك انفساً مسجلة فى لوائح الاحصاء ، كل نفس بثمانين كوبيكاً ؟»
«ارجو عفوك . ولكن لماذا تجعل من تسجيلها فى لوائح الاحصاء ميزة ترفع من سعرها ؟ فالأنفس نفسها قد صَعَدَت الى بارئها ولم تخلف وراءها غير اسمائها فقط . ولكي لا اجعل للجدل المزعج مكاناً فانى ادفع روبلاً ونصف الروبل لا اكثر» .
«يجب ان تخجل من ذكر سعر كهذا . فما دمت تتعامل فى هذه البضائع اذكر لي سعراً معقولاً» .
«لا استطيع يا ميخائيل سيميونوفيتش . صدقنى اننى لا استطيع . وما لا يستطيع المرء ان يفعله فليس هو بفاعله» . واستمر الحديث بينهما الى ان زاد تشيتشيكوف نصف روبل اخرى للراس .
وقال سوباكيفيتش «ولكن لماذا تحرص كل هذا الحرص على نقودك ؟ فلست اطلب فى الحقيقة منك شيئاً كثيراً . قد يخدعك سافل غيري بان يبيعك انفسا قديمة بالية بدل الطيب الاصيل منها ، بينما انا على استعداد لأعطائك احسن ما لديّ . انظر مثلا الى صانع العجلات ميخيف . لم يوجد مثله انسان فى تركيب لوالب العربات . ولم يكن عمل يديه كما هو الحال

عندكم فى موسكو – اى ما يصلح لساعة فقط ، لا فقد كان يعمل كل شىء بنفسه ، حتى الطلاء» .
وفتح تشيتشيكوف فمه ليذكر بان ميخيف المذكور ، مع كل هذا ، قد فارق الحياة منذ امد طويل ، إلاّ ان طلاقة لسان سوباكيفيتش كانت شديدة فى اندفاعها بحيث لم تكن تسمح بالمقاطعة .
واستمر رب البيت يقول «وانظر ايضاً الى بروبكا ستيبان النجار . اننى اراهن براسى انك لن تجد عاملاً مثله اينما فتشت . اى رجل قوى كان ! لو دخل الجندية لا يعلم إلاّ الله ماذا كان مصيره فيها . كان طوله يزيد على ثلاثة ارشينات *» .
وحاول تشيتشيكوف ان يذكره بان بروبكا ميت ولكن لسان سوباكيفيتش كان مندفعاً فى تيار من الثرثرة لم تكن له من حيلة امامها الاّ ان يستمع .
«وميلوشكين البناء ! كان يستطيع ان يبنى موقداً فى اى بيت شئت ! وماكسيم تيلياتنيكوف الحذّاء ! يصنع احذية ونعم الاحذية مع انه لا يذوق الخمرة خلافاً لعادة الحذائين . ثم إريمي سوركوبليخين ، ايضاً ! كان احسن المجموعة كلها ، وكان يشتغل فى موسكو بتجارته الخاصة حيث كان يدفع خمسمائة روبل ضريبة . اجل فهناك تشكيلة من العبيد لك ! تشكيلة تختلف اختلافاً كبيراً عمّا سيبيعه لك بلوشكين !»
وقد ذهل تشيتشيكوف لهذا الطوفان العارم من

* ارشين – ٧١ سنتمتراً تقريبا . **الناشر** .

الثرثرة التى بدت بلا نهاية ، فقاطعه بسرعة يقول «لكن إسمح لي ، إسمح لي ان اتساءل عمّا يحدوك الى تعداد هذه المواهب فى جماعة موتى . وما داموا كلهم موتى فلا معنى لهذا التعداد . والمثل يقول – لا يصلح الجسد الميت إلاّ لدعم السياج» .

فأجاب سوباكيفيتش «بالطبع هم ميتون» . وكأنّ هذه الفكرة لم تخطر بباله إلاّ تلك اللحظة ، ولكنها أذكت من تفكيره فى ناحية أخرى فقال «لكن قل لي الآن فما هى الفائدة حتى الفلاحين الباقين أحياء وكأنهم ذباب لا بشر» .

فقال تشيتشيكوف «أجل ولكن هم أحياء أما الانفس الميتة فانها خيال لا غير» .

«لكن لا ، لا يمكن ان تكون خيالا . فلن تجد حيثما ذهبت عاملاً قديراً مثل ميخيف . وكان عملاقاً وقوته قوة الحصان فى ساعديه . وأين وجدتَ خيالاً مثله» .

وبهذه الكلمات التفت سوباكيفيتش تعزيزاً لكلامه الى صورة باجراتيون وكولوكوتروني ، كما يحدث عادة بين فريقين فى حمية الجدال حين يلجأ أحدهما الى الاستشهاد بشخص غريب ليس مجهولا لديه وحسب ، بل لا علاقة له بموضوع الجدل اطلاقا . وتكون النتيجة أن يتردد الخصم في ان يجيب أو يخلي له المكان .

وقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فلن أستطيع ان أعطيك أكثر من روبلين للراس الواحد» .

«حسناً ، بما أنني لا اريد منك ان تقول عني انني طلبت غالياً ، وبما انني لا اودّ ان اقابلك في منتصف

الطريق ، فما رايك – لأجل الصداقة – أن تدفع خمسة وسبعين روبلا ورقاً ؟»

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يا للسماوات ! هل يعتبرني هذا الرجل غبياً ؟» واضاف بصوت عال «ان الامر ليبدو لي غريبا كما لو كنتَ تمثل كوميدياً على مسرح . وما من تفسير آخر لهذا . لكنك تبدو رجلاً عاقلاً وعلى قسط من الثقافة . فالامر بسيط جداً . والسؤال الآن هو – ما قيمة الانفس الميتة ؟ وهل فيها فائدة لأيّ انسان ؟»

«فيها فائدة لك ، والاّ لما كنت تشتريها .»

فعضّ تشيتشيكوف على شفتيه واسقط في يده أن يجيب . وجرّب أن يقول شيئاً عن العائلة والامور البيتية التى دعته الى شراء الانفس الميتة ، ولكن سوباكيفيتش قاطعه قائلا «لا رغبة لي في معرفة شؤونك الخاصّة ، ولا احبّ ان احشر نفسي في هذه الامور . كل ما اعرفه هو أنك بحاجة الى الانفس الميتة وانا على استعداد لبيعها . واظن انك ستندم إنْ لم تشترها» .

فاعاد تشيتشيكوف قوله «سعري روبلان» .

«مه ! مه ! لقد ذكرت هذا السعر من قبل ، وها انت تعود الى ذكره من جديد . هيّا قل سعراً لا غَبْنَ فيه» .

وقال تشيتشيكوف لنفسه «ليأخذه الشيطان ! على اية حال ، سأزيده نصف روبل» . وفعل .

فقال سوباكيفيتش «حقيقة ؟ حسنا ، كلمتي الأخيرة

هي خمسون روبلا ورقاً . وهذا يعنى مجرد خسارة لي ، لأنك لا تستطيع أن تحصل في العالم كله على أنفس احسن مما لديّ» .

وقال تشيتشيكوف لنفسه «يا للعجوز الجشع !» ثم أضاف بصوت منفعل «اصغ اليّ ، فكان الامر مهم بالفعل . ان أيّ انسان غيرك سيكون شاكراً للتخلص من هذه الانفس . ولن يتمسّك بها ، ويدفع الضرائب عنها غير غبي» .

«نعم ، لكن عليك ان تذكر (واقول هذا بمحض الصداقة) أن صفقات من هذا القبيل ممنوعة في العادة وان الناس سيقولون عمّن يتعاطى هذه الامور ان له قصداً يدعو الى الارتياب» .

فقال تشيتشيكوف لنفسه «الوغد يريد تخويفي» ثم أضاف بعدم اكتراث بالغ «أنا لا اشتريها لأربح منها كما تحسب انت ، بل ارضاء لأفكار تعنّ عليّ . روبلان ونصف هو اكثر ما استطيع ان ادفعه» .

وفكر سوباكيفيتش : «انه لا يغير رأيه !» وقال : «أعطنى على الاقل ثلاثين روبلا ورقاً ، وخذ الجميع» .

«لا ، أرى أنك لا تنوى البيع ، وعليّ ان اقرئك السلام» .

فقال سوباكيفيتش متلهفاً «انتظر لحظة ! انتظر لحظة !» وتشبث بيد ضيفه ، وداس في الوقت نفسه على قدمه بشدة جعلت تشيتشيكوف يشهق ويرقص من الألم .

فقال سوباكيفيتش بسرعة «أرجو عفوك ، من الجلي

انني آلمتك ، فارجو ان تجلس مرة اخرى» . وفي هذه اللحظة اجلسه على كرسي بحذاقة الدب الذى تدرب على مختلف الالعاب في السيرك .

«لا ، فاني أضيع وقتي لا غير . يجب ان اذهب» .

«اوه ! اجلس لحظة اخرى فقط . لديّ قول يسرك» .

واقترب من ضيفه وهمس في اذنه كما لو كان يبوح له بسرّ وقال «ما رأيك في خمسة وعشرين روبلا ؟»

فقال تشيتشيكوف متعجبا «لا ، لا ، لا ! لن أعطيك حتى ربع هذا المبلغ ! لن ازيد كوبيكاً واحداً» .

وظلّ سوباكيفيتش صامتاً برهة من الزمن ، وتشيتشيكوف ايضاً . ودامت هذه الحال مدة دقيقتين كان فيهما انف باجراتيون الاقنى مطلاً من على الحائط كما لو كان يتتبّع المساومة .

وقال سوباكيفيتش فجاة «ما هو آخر سعر لديك ؟»

«روبلان ونصف» .

«يظهر انك تقدر النفس البشرية بسعر قطعة اللّفت المغلية . اعطنى على الاقل ثلاث روبلات» .

«لا ، لا استطيع» .

«ارجو عفوك . يظهر انك رجل صعب المعاملة جداً . مهما يكن من امر ، ومع ان هذا يعني خسارة فادحة لي ومع انك لم تظهر روحاً طيبة في هذا الشأن ، الاّ انني لا أستطيع الاّ أن أرضى صديقي . فمن الافضل أن نتخذ اجراءات البيع لكي نضع الامور في نصابها» .

«طبعاً» .

«اذن يجب علينا لهذا الغرض ان نذهب الى المدينة» .

وانتهى أمرهما الى الاتفاق على الذهاب الى المدينة في اليوم التالي لتدبير صفقة البيع . وبالتالي طلب تشيتشيكوف قائمة بالفلاحين ، فوافق سوباكيفيتش عليها فوراً . وذهب في الحقيقة الى مكتبه حيث بدأ يسجل قائمة لا بأسماء الفلاحين وحسب ، بل بمؤهلاتهم أيضاً .

ولما لم يكن لدى تشيتشيكوف ما يعمل فوقف ينظر في تلك الاثناء الى هيكل مضيفه الضخم . ولما حدق في ظهره العريض كظهر الحصان وفي ساقيه الضخمتين كالاعمدة الحديدية التى تقوم على جوانب الطرقات ، لم يتمالك ان هتف في نفسه ، «حقاً لقد حباك الله بالكثير ! مع انه حرمك اللطافة الا انه في اقوى صورة ما شاء ركّبك ! واني لأعجب منك إنْ كنت قد وُلِدت دبًا بالوراثة أو اكتسبت ذلك من خلال حياتك البالية بما فيها من فلاحة الحبوب والمتاجرة مع الفلاحين ! لكن ، لا أعتقد انك حتى ولو كانت لديك الثقافة المناسبة وكنت مندمجاً في المجتمع عشت في بطرسبورج لبقيت ذلك الكولاك * الذى هو انت . والفرق الظاهر في الحالين هو انك تستطيع هنا ان تزين مائدتك بكتف خروف ، اما في بطرسبورج فكنت ستأكل الكفتة بالصلصة . والفرق في الحالين أيضاً ان لك هنا عدداً من الفلاحين تحت إمرتك تعاملهم معاملة

* الفلاح الغنى . المترجم .

حسنة لأنهم ملكك وطوع بنانك ، اما في الحالة الاخرى فسيكون تحت إمرتك صغار الموظفين الذين كنت ستستبدّ بهم لأنهم ليسوا ملكك . وكنت ستنهب خزينة الدولة أيضا ، لأن الكولاك دائماً نهاب للنقود . واذا علمت الكولاك شيئاً فسيزداد الأمر سوءاً . واذا حاولت ان تزيده شيئاً من العلم أو ترفع مقامه رايته يضطهد المتبحرين بالعلوم حقاً ، ويصدر امراً يجعل اوضاعهم اسوأ . تلك هي طبيعة الكولاك !

وقال سوباكيفيتش ملتفتاً «القائمة جاهزة» .

«حقاً ؟ دعني أرها من فضلك» . والقى تشيتشيكوف نظرة على الوثيقة ولم يتمالك الا ان يندهش من ترتيبها ودقتها . فقد سجّل فيها ، بالاضافة الى اسم الفلاح ، عمره ومهنته ونسبه وملاحظات على هامش الصفحة بشأن سلوكه واخلاقه . لقد كان النظر اليها متعة تسرّ النفس .

قال سوباكيفيتش «هل تسمح الآن وتعطينى عربوناً مقدماً ؟»

«نعم . ولكن لماذا تريد ذلك ؟ باستطاعتك تسلّم المبلغ دفعة واحدة حالما تصل الى المدينة» .

«ولكنها العادة دائما ، كما تعرف» .

«لن استطيع اتباعها الآن لانني لا احمل نقوداً . على اية حال اليك عشرة روبلات» .

«عشرة روبلات فقط ؟ كان عليك على الاقل أن تعطيني خمسين» .

وبدأ تشيتشيكوف مرة أخرى ينكر انه يحمل

نقوداً ، ولكن سوباكيفيتش الحّ عليه بشدّة واكد له أن الامر غير ذلك (أى انه يكذب في انكاره النقود) حتى سحب الضيف خمسة عشر روبلا اخرى واضافها للعشرة الاولى .

وقال «ارجو ان تعطيني وصلا بالنقود» .

«وصلا ؟ ولِمَ أعطيك وصلا ؟»

«ذلك أفضل حتى نتحاشى الاخطاء» .

«حسن جداً ، لكن سلّمنى النقود اولا» .

«النقود ؟ ها هي معي . اكتب الوصل فتصير النقود لك» .

«ارجو عفوك ، ولكن كيف اكتب الوصل قبل ان اراها ؟»

فوضع تشيتشيكوف الاوراق المالية في يد سوباكيفيتش ، حينئذ اقترب المضيف من المكتبة واضاف الى قائمة الاقنان حاشية يقول فيها انه تسلّم لقاء الفلاحين المذكورين في القائمة مبلغ خمسة وعشرين روبلا كمقدمة . وما كتب ذلك حتى اخذ يعدّ النقود مرّة اخرى .

وامسك ورقة منها في الضوء وقال «هذه ورقة قديمة جداً ، وهي ممزقة أيضاً . على كل حال ، في الصفقات بين الاصدقاء لا يجوز التشدد كثيراً» .

ففكر تشيتشيكوف في محادثه وقال لنفسه «اى كولاك هذا ؟ واىّ مخلوق وحشى هو ؟»

وتساءل سوباكيفيتش «الا تريد انفساً من النساء ؟»

«اشكرك ، لا» .

«اقدر ان اعطيك بعضها بسعر رخيص – ولنقل بيننا كاصدقاء – روبلا للراس ؟»

«لا ، لا حاجة لي بها» .

«اذا كان كذلك فليس لدىّ ما اقوله . لكل انسان ذوقه الخاص ، والمثل يقول «واحد يحب الكاهن وآخر يحب زوجة الكاهن» .

ونهض تشيتشيكوف مستأذناً بالذهاب وقال «أطلب اليك مرة اخرى ان يظل الامر بيننا» .

«طبعاً ، طبعاً . فما يجرى بين الاصدقاء يظل كما يجب ، ما دامت الصداقة متبادلة . مع السلامة . اشكر لك زيارتك وارجو ان تحضر الى الغداء معنا كلما كان لديك متسع من الوقت . فقد نستطيع ان نقدم لك خدمة اخرى» .

وما إن ركب تشيتشيكوف العربة حتى اخذ يناجى نفسه قائلا «ما كنت قد جئت لو عرفت ! ما كنت قد جئت لو عرفت ان هذا الكولاك الوحش سيعتصر منى روبلين ونصف الروبل على النفس الواحدة !»

لقد شعر بعدم الارتياح والامتعاض من سلوك سوباكيفيتش . فمع ان الرجل صديق وقد التقيا عند حاكم الولاية وعند رئيس الشرطة الاّ انه سلك سلوك الغريب ، فاخذ النقود مقابل تفاهات لا قيمة لها .

واذ كانت العربة تترك الحظيرة تلفّت تشيتشيكوف وراءه فلمح سوباكيفيتش لا يزال واقفاً في الشرفة . من الجلي انه وقف يراقب الطريق التى ستسلكها عربة الضيف .

وتمتم تشيتشيكوف بين أسنانه «يا للوغد العجوز ! لا يزال واقفاً يراقب» . ثم امر سيليفان ان يسير بالعربة بحيث تختفي عن رؤية صاحب البيت . وحقيقة الامر انه كان يهدف الى زيارة بلوشكين (الذى كانت اقنانه على حدّ تعبير سوباكيفيتش تموت عادة كالذباب) ولم يكن يريد من مضيفه ان يعرف مرماه .

وبناء على ذلك ، لم يكد يصل الى طرف القرية الاقصى حتى حيّا اول فلاح قابله ، وكان يحمل على كتفيه جذع شجرة ضخماً ليسير به الى كوخه كما تسير النملة بحملها الى عش النمل ، وقال له :

«ايه ! كيف يمكنني ان أصل الى بيت المالك بلوشكين دون ان امرّ من امام المنزل الذى هناك ؟»

فوقف الفلاح مرتبكاً امام السؤال .

وتساءل تشيتشيكوف «الا تعرف ؟»

فأجاب الفلاح «لا أيها السيد» .

«ماذا ؟ الا تعرف بلوشكين البخيل الذى يجيع اقنانه ؟»

فقال الرجل «طبعاً اعرفه» . واضاف الى تعبيره هذا تعبيراً بذيئاً لا يستعمل عادة في مجتمع مهذب . ولنا ان نقدّر ان التعبير كان ظريفاً لأن تشيتشيكوف ظل يضحك في العربة حتى بعد أن اختفى الرجل عن انظاره بوقت طويل . ولغة الشعب الروسي في الواقع دائماً عنيفة في تعابيرها . فاذا ما خلع لقب على انسان ، فانه سيظل ملتصقاً به طوال حياته وينتقل الى خَلَفه ، وسيظل يجرجره في الخدمة ، وعند التقاعد ، وفي بطرسبورج ،

وفي آخر العالم . ومهما سيحاول فيما بعد التحايل واضفاء النبل على لقبه ، وحتى لو جعل الكتبة يرجعونه لقاء اجر معلوم ، إلى سلالة اميرية قديمة ، فلن ينفعه شيء . فان هذا اللقب سينعق بكل عقيرته كاشفاً عن نفسه ، ويوضح بجلاء من أين طار الطير . فان الكلمة المنطوقة النابتة في موقعها كالكلمة المكتوبة لا يمكن ان تبتر بفاس . وما ارسخ كل ما يخرج من اعماق روسيا ، حيث لا يوجد المان ولا فنلنديون ، ولا اي قبيلة اجنبية أخرى ، بل كل شيء اصيل ، حي ، وعقل روسي ثاقب ، حيث لا تعوزه حكمة ، ولا يقعد عليها ، كما تقعد الدجاجات على بيضها ، بل ينحتها رأساً لتصير كالهوية طوال العمر ، وما من حاجة بعد ذلك الى ان يصف اي انف لك او شفتين فبضربة واحدة رسمك من راسك الى قدميك .

ومثلما يوجد عدد لا يحصى من الكنائس والاديرة بقبابها ورؤوسها وصلبانها متناثرة في انحاء روسيا المقدسة التقية يوجد أيضاً عدد لا يحصى من القبائل والاجيال والشعوب تتزاحم زاهية الالوان وتنطلق على وجه البسيطة . وكل شعب ينطوي على ضمان القوة ، ويمتلئ بقدرات الروح الخلاقة ، وخاصيته اللامعة وهبات الرب الأخرى ، يتميز عن كل شعب آخر في طريقته الخاصة بكلمته التي تعكس ، لدى تعبيره عن اي موضوع ، جزءاً من خلقه . إن كلمة يقولها بريطاني تفصح عن بصيرة قلب ومعرفة حكيمة في الحياة . وعبارة الفرنسي القصيرة الأجل تلمع مثل غندور خفيف

الدم ، تختفي . والالماني يبتكر بحذاقة الكلمة الهزيلة
بذكائها وغير مفهومة لكل انسان أيضاً . ولكن ما من
كلمة طاغية ذربة ، نابعـــة من القلب ، جياشة زاخرة
بالحياة تضاهي الكلمة التي ينطقها روسي .

الفصل السادس

في زمن بعيد ، في سني صباي ، في سني طفولتي
التي مرت خطفاً بلا عودة ، كنت أشعر بالفرح حين
اقبل على مكان غريب لا اعرفه من قبل ، سواء أكان
ذلك قرية صغيرة ، أو بلدة بائسة هي مركز قضاء ،
او دسكرة او حاضرة . فقد كان بصري الطفولي
الفضولي يكتشف فيها الكثير من الاشياء الممتعة . فان
كل مبنى ، كل شيء يحمل خاصية تلفت النظر ، كل
شيء كان يجعلني أتوقف وانبهر . وسواء أكان ذلك
مبنى حكومياً حجرياً ، ذا معمار معروف ، ونصف واجهته
مغطاة بنوافذ زائفة ، يقف بمفرده وسط بيوت صغيرة
ذات طابق واحد من الروافد الخشبية غير المسحوجة ،
او قبة مدوّرة منسّقة ، مصفحة كلها بصفائح حديدية
بيضاء ، سامقة فوق كنيسة جديدة ناصعة البياض
كالثلج ، أو سوقاً ريفية ، او غندوراً ريفياً كان
يتمشى وسط البلدة ، وما من شيء كان يفلت من
انتباهي المرهف الغض ، فقد كنت أخرج أنفي من
عربتي السائرة ، واتطلع الى فتحة سترة لم تقع
عليها عيني من قبل ، والى الصناديق الخشبية التي

تحتوي على المسامير أو الكبريت الاصفر الذي كنت
المحه من بعيد ، والزبيب والصابون ، وكل ذلك كنت
المحه خطفاً من باب حانوت خضروات مع علب الملبّسات
الموسكوفية الناشفة ، واتطلع الى ضابط مشاة يسير
في ناحية ، والله وحده يعرف من أية ولاية جاء الى
هذه البلدة الريفية المضجرة ، والى تاجر لاح بمعطفه
السيبيري في عربة صغيرة ، فتحملني افكاري وراءهم
الى حياتهم البائسة . وما إن يمر بي موظف من موظفي
الاقاليم حتى آخذ افكر الى أين ذاهب الآن ، لقضاء
امسية مع رجال من صنفه ، أو إلى بيته ليجلس عند
مدخل البيت نصف ساعة ، حتى يشتد ظلام المساء ،
ويقعد ليتناول عشاء مبكراً مع امه وزوجته واخت
زوجته وكل العائلة ، وعمّ سيجري الحديث بينهم ،
عندما تجلب الخادمة بقلادتها من قطع النقود المعدنية او
الخادم بسترته السميكة شمعة على شمعدان قديم ، بعد
الحساء . وحين كنت اقترب من قرية أحد ملاكي الاراضي
كنت أنظر بحب استطلاع إلى برج الناقوس الخشبي
العالي النحيل ، او الى الكنيسة الخشبية القديمة
العريضة المظلمة . من بعيد كان يلوح لي في اغراء ومن
خلال خضرة الاشجار بيت الضيعة بسقفه الأحمر ومداخنه
البيضاء ، فكنت انتظر بنفاد صبر حدائقه تنداح
متراجعة على كلا الجانبين . وينهض البيت بكل مظهره
الذي لم يكن رغم تصوري مبتذلا أبداً ، واحاول ان
احدس منه أي مالك ارض هو مالكه ، وهل هو سمين ،
وهل له أولاد ، أم بنات ست لهن ضحك صبوي رنان ،

لحديقة خضروات أو حقل كرنب محاط بسياج واطيء محطم في بعض الاماكن . وتلك القلعة الغريبة ، الطويلة طولاً هائلاً كانت تبدو مثل مريض مقعد ، وكانت من طابق واحد في بعض الاماكن ، ومن طابقين في أماكن أخرى . وعلى سطحها القاتم الذي تخلى القدم عن حمايته في بعض المواضع برز مبنيان أحدهما يقابل الآخر ، وكلاهما متداع أيضاً ، انسلخ عنه الطلاء الذي كان يغطيه . وكانت جدران البيت قد سقط عنها الملاط في بعض الاماكن ، ولاحت التشبيكة التي اضرها كما يبدو ، مختلف أنواع سوء الطقس ، والامطار ، والعواصف والانقلابات الخريفية . وكان ثمة نافذتان مفتوحتان ، من بين كل النوافذ التي احكمت عليها صفّاقاتها بل وسمرت بالالواح . وحتى هاتان النافذتان كانتا ، من ناحيتهما ، نصف مغلقتين ألصق على احداهما مثلث من ورق السكر الازرق .

كان البستان القديم الواسع يمتد خلف البيت ، الى ما وراء القرية ، حتى يتصل في الحقل بعد ذلك ، وقد نما فيه العشب ، وظهر عليه الاهمال ، يضفي لوحده نضارة على هذه القرية الواسعة ، وكان وحده الشيء البهيج حقاً في رحابته الجميلة . وكانت ذرى الاشجار المتشابكة الممتدة في حرية تبدو مثل غيوم خضر وقباب شعث مهتزة الاوراق على خلفية السماء . وقد برز من هذه الخضرة الكثيفة جذع شجرة بتولا ضخم أبيض ، بلا قمة ، وقد حطمته عاصفة أو زوبعة ووقف في الهواء مثل عمود مرمري مدوَّر متناسق لمّاع . وكان راسه

المائل المنتهي به بمثابة تاج يلوح أسود ازاء بياضه الناصع ، وكأنه قبعة أو طائر أسود . والحشائش التي كانت تغطي على أجمات البلسان ورماد الجبل وشجر البندق في الاسفل ، ترتقي بعد ذلك على قمة سياج الاوتاد وتتسلق اخيراً الى الأعلى ، وتلتف حتى منتصف شجرة البتولا المقطوعة الراس . وبعد ذلك تتدلى من هناك الى الأسفل ، وتأخذ بالتشبث بقمم اشجار أخرى او تتدلى في الهواء ، وتلتف لولبياتها الرقيقة المتشبثة لتصير حلقات يؤرجحها الهواء قليلا .
وكانت الكثافة الخضراء المضاءة بالشمس تنفرج هنا وهناك ، ويظهر التجويف بينهما عميقاً مثل شدق قاتم . والظل يسربله كله ، لا يكاد يلوح في قعره الداكن درب ضيق يختفي في مكان ما ، وأسيجة محطمة ، وتعريشة صيف متداعية ، وجذع صفصافة متفسخة وأجمة هرمة تخرج كثاء من وراء الصفصافة عساليجها اللدنة الكثيفة أوراقها ، وتتشربك وتلتف ، وتذبل بسبب حياتها الحمقاء الفظيعة في هذا المكان ، وأخيراً غصن غض لشجرة قيقب تمد من جانب أوراقها الخضراء ولا أحد يعرف كيف تسرب ضوء الشمس تحت واحدة منها وحوّلها إلى شفافة وهّاجة تتالق بأعجوبة في ذلك الظلام الكثيف . وفي ناحية ، في احد طرفي البستان ، كانت بعض اشجار الحور العالية بشكل لا يناسب ارتفاع الاشجار الأخرى تحمل على ذراعها المتمايلة أوكار غربان ضخمة . وكانت لأشجار أخرى اغصان مكسورة لم تنفصل بعد فكانت تتدلى الى الاسفل

مع أوراقها اليابسة . وباختصار كان كل شيء بديعاً لا تستطيع الطبيعة ان تبتدعه ولا الفن ، ولا يمكن ان يكون إلاّ حين يتحدان سوية ، حين تمرر الطبيعة إزميلها في لمسة نهائية على عمل الانسان المتراكم في غير نفع غالباً . وتخفف الكتل الضخمة ، وتقضي على التماثل المحسوس بشكل فظ ، والثغرات البائسة التي يلوح من خلالها المخطط عارياً لا يخفى ، وتمنح الدفء الرائع لكل ما خلق في النقاء الموزون والدقة .

بعد ان انعطفت العربة مرة او مرتين وجد بطلنا نفسه أمام البيت الذي بدا الآن أشد بؤساً . كان الطحلب الاخضر يغطي خشب الحظيرة والرتاج البالي . وكان على جنبات الحظيرة عدد من المباني المهجورة الخربة التى كانت على الارجح في يوم من الايام مساكن للخدم والمخازن . كانت المظاهر تدل على أن حياة فخمة كانت تحفل في هذا المنزل في سالف الازمان ، اما في الآونة الحاضرة فكانت تبدو عليه مظاهر البؤس والتعاسة . لم يكن ثمة شيء يبهج النظر ، فلا أبواب مفتوحة ولا خدم يطلعون من مكان ما ، ولا امارات تدل على مشاغل البيت . كان الرتاج مفتوحا لأن عربة محملة كانت تخرج منه . ورأى تشيتشيكوف فجأة شخصاً غريباً كان على ما يبدو يتشاجر مع سائق العربة . ولم يستطع لفترة غير قصيرة ان يعرف هل ان الشخص رجل أم امرأة . كان يرتدي ملابس لا يستطيع المرء أن يعرف منها جنس هذا الشخص . الصوت وحده بدا له قوياً قليلاً بالنسبة لصوت امرأة . «آه ! إنها

امرأة» – فكر مع نفسه ، واضاف راساً «لا ، لا يمكن !» واخيراً قال وقد تمعن أكثر «صوت امرأة بالطبع» . كما انها من جانبها امعنت النظر فيه . وبدا وكان الضيف ، بالنسبة لها ، ظاهرة عجيبة ، لأنها لم تجيل البصر فيه وحده ، بل في سيليفان ، وفي الخيول من الذيل حتى البوز . ومن المفاتيح التي كانت وراء حزامها ، وشتمها الفلاح بكلمات مقذعة بما فيه الكفاية رجّح تشيتشيكوف ان تكون خازنة المنزل . فتقدم اليها يسألها عن ربّ البيت .

ولكن قبل ان يتم تشيتشيكوف سؤاله اجابته قائلة «غير موجود» . واخذت تنظر اليه بحذر شديد ، ثم اكملت كلامها تقول «وماذا تريد منه ؟»

«بعض الاعمال» .

«اذن اتبعني» .

وادارت المرأة ظهرها فبدا معطفها البالي مشقوقا من أسفله ملطخاً بالطحين من اسفله واعلاه . فتبعها الى قاعة كبيرة مظلمة باردة كالقبر ومنها الى غرفة مماثلة في الاظلام لا ينيّرها الاّ ما يتسرب من أشعة الضوء من تحت الباب . ولما فتح الباب ودخل المزيد من الضوء ذهل تشيتشيكوف من الفوضى التى كانت تسود الغرفة . كان يبدو ان ارض الغرفة كانت تغسل ، وأن الغرفة نفسها كانت مستودعاً لكل ما يمكن ان يخطر ببال مخلوق . فعلى منضدة وضعت بقايا كرسي مكسور وساعة لا بندول لها ، وكل ذلك مغطّى بنسيج العنكبوت . وبالقرب من الحائط كان خوان مليء

بالاواني الفضية القديمة والزجاجية والصينيّ . وكان هناك منضدة للكتابة مرصعة بالصدف انتزع معظمه وترك موضعه فتحات صفراء قاتمة محشوة بالطين . وفوق المنضدة كانت رزمةٌ من أوراق الكتابة ، وحاملة ختم من الرخام الذى استحال لونه الى الخضرة ، وكتاب بغلاف من جلد أحمر الاطراف ، وحبّة من الليمون جفّت وانكمشت قشرتها واصبحت بحجم حبة اللّوزة ورجل كرسي مكسورة ، وقدح فيه حثالة من سائل وذبابات ثلاث (والكلّ مغطى بقطعة من الورق) ، وكومة من خرق بالية وقطعة من شمع الخطم وريشتان جافتان ملطختان بالحبر ومسواك للاسنان وصفاره يدل على أن صاحبه قد استعمله على الاقل قبل مجيء نابليون الى موسكو .

اما الجدران فقد علق عليها خليط من الصور . كان من بينها صورة طويلة محفورة على الخشب ظهر فيها جنود بقبّعات مثلثة الزوايا وهم يصيحون وطبول ضخمة وخيول غارقة وكانت الصورة عديمة الزجاج موضوعة في اطار برونزيّ على زواياه حلقات برونزية . وقد علقت بجانبها صورة زيتية كئيبة بدت فيها بعض الزهور والفواكه ونصف بطيخة وراس خنزير والبطة الميتة المتدلّية . وقد تدلت من السقف ثريّا بغطاء هرميّ علاه الغبار حتى تكاد تحسب الثريا دودة الحرير تخرج من شرنقتها . واخيراً ، في زاوية من زوايا الغرفة كانت كومة كبيرة من الادوات يبدو وكان لم يكن لها موضع على المنضدة . اما محتويات هذه الكومة فيصعب

التكهن به ، لأن ايّ يد تمتد اليها ستخرج وكأنها لابسة قفازاً لما على الكومة من غبار . ولكن برز من الكومة شيئان بروزا جلّيا ، احدهما عصا مجرفة والآخر اخمص حذاء اثريّ . ولم يكن يمر ببال انسان ان هذه الغرفة يدخلها احد لو لا قبعة بيتية كانت موضوعة على طرف المنضدة . وبينما كان تشيتشيكوف يجيل البصر في هذه الفوضى الغريبة ، فُتِحَ باب جانبيّ ودخلت منه الخازنة التى قادته اول الامر الى هذه الغرفة . ولكن تشيتشيكوف راى الآن أن هذه السيدة كانت رجلا لا امراة ، فليس للنساء لحىً ، ولكن الشعر قد نبت على خدى هذه وذقنها بشكل اصبحت فيه كالمحسة التى تستعمل في تنظيف الخيول . فوقف تشيتشيكوف وقفة المتسائل ينتظر ما يمكن ان يقوله الشخص الواقف امامه . ولكن الخازن فعل الشيء نفسه . ولما اندهش تشيتشيكوف من سوء التفاهم تساءل بعد لأي يقول .

«هل رب البيت موجود ؟»

«نعم» .

«اين هو اذن ؟»

«هل أنت اعمى يا سيدى ؟ أنا ربّ البيت» .

عندئذ لم يتمالك تشيتشيكوف الآن أن يتراجع الى الوراء واخذ يحدّق فيه . كان بطلنا رحّالةً واخا سفر وقد راى اصنافا عديدة متنوعة من الرجال لم تتح رؤيتها لا للكاتب ولا للقارئ ، ولكن البطل لم تقع عيناه على هذا النوع الغريب الجديد من قبل . لم تكن

في وجه الرجل العجوز اية علامة مميزة . كان يعلوه
الذبول كوجه ايَ عجوز متهرّئ . كانت ذقنه بارزة
جدا الى الامام فكان مضطرا اذا ما تكلم ان يمسحها
بمنديل مخافة ان يسيل لعابه عليها ، وعيناه
الصغيرتيان اللتان لم يتطرق اليهما الغباء بعد ، كانتا
تبرقان تحت حاجبيه البارزين بريق عيون الفيران
عندما تطلّ برأسها من الجحر بأذنين منتصبتين
وشاربين حسّاسين لترى فيما اذا كان هناك قط او
صبي يعبث في الجوار ويتشممان الهواء بارتياب . لا ،
ان مظهره المميز كان في ملابسه فقط . فلم تكن هناك
من وسيلة لمعرفة نوع القماش الذى صنع منه معطفه
لأن اطراف المعطف واكمامه كانت متمزّقة متسخة
على صورة تتحدّى كل وصف ، وبدلا من ان يكون في
خلفه شق واحد يقسم ظهره الى قسمين ، كان هناك
شقان اضافيان يقسمان مؤخرته الى اربعة اقسام
تتدلّ من تحتها قصاصة جريدة ممزّقة . وحول عنقه
يلتف شيء قد يكون جوربا او لفافة ساق او لفافة
بطن ولكنه ليس ربطة عنق بكل تأكيد . وخلاصة
القول ، ان تشيتشيكوف لو رآه امام باب الكنيسة
لم يتردّد في الاحسان عليه بكوبيك (فلكي ننصف
بطلنا يجب ان نقول انه كان ذا قلب رحيم ولم يكن
يتوانى في اعطاء الصدقات للمساكين) ، لكنه في
حالتنا هذه لم يكن امام سائل شحاذ ؛ بل كان امام
ملاك – ملاك يملك الف نفس بالتمام والكمال يفوق كل
جيرانه الملاكين الآخرين بما لديه من حنطة وطحين وما

تضمّه جدران المستودعات من اقمشة كتانية مغزولة
وجلود الماعز التى دبغت ولم تلبس والاسماك المجففة
وكل نتاج يستطيع ان يدركه العقل . فلو القى شخص
نظرة إلى فنائه الشغّيل ، حيث أعدت للاحتياط
مختلف المصنوعات الخشبية وآنية لم تستخدم قط
لتوهم انه في سوق الخردوات في موسكو ، حيث كل
يوم الحموات والكنات الحاذقات تتبعهن طباخاتهن
لشراء ما يحتجن اليه من الادوات المنزلية ، وحيث
تتكدس اكوام من مختلف الاخشاب المسحوجة والمسمرة
والمفرّاة كالبراميل والاجانات والطناجر الخشبية
باغطيتها ، والجفان الخشبية ، والاواني الخشبية ،
والسلال من الخوص ، والسلال الخشبية التي توضع
فيها الاشياء المملحة وكل ما تستخدمه روسيا الغنية
والفقيرة . فما الذي احوج بلوشكين الى كل هذه الكمية
الهائلة من المصنوعات ؟ لا اظنه سيحتاج الى استعمالها
حتى لو كانت له ضيعتان من مثل ضيعته . ولكن حتى
هذا بدا قليلاً عليه . فكان يجوب شوارع قريته
كل يوم في غير رضى يبصبص تحت الجسور وتحت
الواح الارصفة ، ويأخذ كل ما يصادفه ، سواء اكان
ذلك نعالاً قديماً ، او خرقة من سمل إمراة ، ومسماراً
حديدياً ، او قحف آنية خزفية ، ويحمل كل ذلك إلى
بيته ليضمه الى الكومة التي لاحظها تشيتشيكوف في
ركن في غرفته . وكان الفلاحون يقولون حين يرونه
خارجاً للقنص «ها هو الصياد قد خرج ثانية للاصطياد» .
وبالفعل لم تكن هناك حاجة لكنس الشارع بعد خروجه .

فاذا ما صادف أن أضاع ضابط عابر سبيل مهمازه ، فان هذا المهماز سيجد طريقه في الحال الى تلك الكومة اياها . وإذا ما نسيت إمرأة جردلها وهي تهوّم عند البئر ، فإنه سيستل الجردل منها . وعلى العموم ، إذا ظفر به فلاح ، متلبساً بذلك ، فان بلوشكين لن يحاججه ، ويتخلى له عن الشيء الذي استولى عليه ، ولكن حين ينضم هذا الشيء الى تلك الكومة في حجرته فإن مسألته قد أنتهت . فان بلوشكين سيقسم بأن هذا الشيء ملكه ، اشتراه في التاريخ الفلاني ، من الشخص الفلاني ، أو تركه له جده . وفي حجرته كان يرفع من الأرض كل ما يجده هناك ، قطعة شمع ، قصاصة ورق ، ريشة ، ويضعها كلها على مكتبه ، أو على افريز النافذة .

ذلك لأن حيناً من الزمن مرّ كان فيه بلوشكين مديراً حريصاً على أمور ضيعته ! كان متزوجاً وصاحب عائلة ، يقصده أحد جيرانه ليتناول الغداء معه ، ويستمع اليه ، ويتعلم منه إدارة الأمور ، والاقتصاد الحكيم . وكان كل شيء يسير نشيطاً ، ويتم بطريقة موزونة . كانت طواحينه في حركة ، وكانت معامل الاجواخ ، والنجارة ، والغزل ، تعمل . وكانت عين صاحب العمل الثاقبة في كل مكان تراقب كل شيء . مثل عنكبوت مجتهد كان يجري مشغولاً ولكن بكفاءة في أرجاء شبكته العاملة . وكانت المشاعر القوية جداً لا تنعكس على ملامح وجهه ، ولكن الحصافة كانت تطل من عينيه . وكان كلامه مشبعاً بالخبرة ومعرفة الدنيا .

فكان الجار يرتاح حين يسمعه . وكانت زوجته المحتفية المحبة للكلام معروفة بحسن الضيافة . وكانت ابنتاه ، وكلتاهما شقراء نضرة كوردة ، تخرجان لاستقبال الضيوف . كما كان يخرج إبنه ، وهو خفيف الحركة نشيط ، ويقبّل الجميع ، دون أن يلتفت كثيراً إلى أن ذلك يرضي الضيف أو لا يرضيه . وكانت النوافذ مفتوحة في البيت كله . وكانت حجرات الطابق العلوي مسكناً للمعلم الفرنسي الذي كان يحلق وجهه بشكل رائع ، ويجيد الرماية بروعة . فكان دائما يجلب دجاجة ارض او وزاً برياً للغداء ، ولكنه في بعض الاحيان لا يأتي بغير بيض العصافير ، حيث يطلب أن يقلى له ، لأنه الوحيد الذي كان يأكل ذلك من بين أهل البيت جميعاً . وكانت تسكن معه في نفس الطابق ابنة وطنه ، مربية الابنتين . وكان رب البيت يأتي الى الغداء في سترة فراك لطيفة الشكل ، وإن كانت مستهلكة بعض الشيء ، غير أن الكوعين كانا سالمين خاليين من اية رقعة . ولكن ربة البيت الطيبة وافاها الأجل ، فانتقل الى رب البيت قسم من المفاتيح ، ومعه مشاغل صغيرة . وصار بلوشكين اكثر قلقاً ، واكثر ارتياباً وبخلا ، مثل جميع الأرامل . ولم يكن في امكانه أن يعتمد على ابنته الكبرى الكسندرا ستيبانوفنا في كل شيء ، وكان محقاً في ذلك لأن الكسندرا ستيبانوفنا هربت بعد وقت قصير مع ملازم أول في فوج فرسان غير معروف ، وسرعان ما عقدت قرانها عليه في كنيسة قروية ، وهي تعلم أن اباها لا يحب فصيلة الضباط لاعتقاده القديم

بأن جميع العسكريين مقامرون ومبذرون . أرسل الأب اللعنات ، في أثرها ، ولكنه لم يتعب نفسه في ملاحقتها .

وصار البيت اكثر خواء . وصار البخل يظهر على المالك اكثر من ذي قبل ، ومعه الشيب المصاحب الوفي للبخل ، صار يتلألأ في شعره ، وساعد على زيادة بخله . واعفي المعلم الفرنسي من وظيفته ، لأن الابن وصل الى سن الوظيفة ، وطردت الفرنسية ايضاً لانها لم تكن مبراة من مسالة هروب الكسندرا ستيبانوفنا . وارسل الابن إلى المدينة مركز الولاية ليحتل وظيفة في دائرة العدل التي هي حسب راى أبيه ، خدمة حقيقية ، ولكنه بدلاً من ذلك الحق في وظيفة في فوج ، وكتب الى أبيه يخبره عن تعيينه ، طالباً النقود لحوائجه وملابسه . وطبيعي انه تلقى على ذلك ما يسمى بالتعبير الدارج علقة . واخيراً ماتت ابنته الاخيرة التي بقيت معه في البيت ، ووجد العجوز نفسه الحارس والحافظ والمالك الوحيد لثرواته . واعطت حياة الوحدة زاداً دسماً للبخل الذي طُبع عليه ، حسب ما هو معروف ، جوع الذئب ، وكلما التهم اكثر صار لا يشبع . والعواطف الانسانية التي لم تكن في الاصل عميقة في نفس صاحبنا صارت تضحل كل دقيقة ، فكان يتهاوى في كل يوم شيء فى هذه الشخصية المحطمة . وفي مثل هذا الوقت حدث ، وكان ذلك تاكيداً متعمداً لارائه في العسكريين ، أن ابنه خسر فلوسه في القمار ، فبعث اليه من صميم قلبه لعنته الأبوية ، ولم يعد يهتم بأن

يعرف هل أن ابنه في الوجود ام لا . وفي كل عام كانت تسمَّر نوافذ في بيته ، حتى لم يبق أخيراً غير نافذتين ، احداها ، ألصق عليها الورق ، كما يعرف القارئ الآن ، وفي كل عام كان المزيد والمزيد من الاقسام المهمة في ضيعته تفلت من بصره ، حتى صار بصره الضئيل لا يرى غير قصاصات الورق والريشات التى كان يجمعها في غرفته ، واخذ يزداد تصلباً مع المشترين الذين كانوا ياتون اليه لشراء منتجاته . كان المشترون يماكسون ويماكسون الى أن يتخلوا عنه اخيراً قائلين ان هذا شيطان ، وليس انساناً . فكان التبن والحبوب تتعفن والمستودعات والشون تتحول إلى روث تماماً لا يصلح الا لتسميد الكرنب ، وكان الطحين في الاقبية يتصلب كالحجارة فلا بد أن يكسر . وكان من الفظاعة أن تمس الاجواخ والانسجة القطنية والمواد المنزلية ، فانها ستتحول في الايدي إلى رفات . وكان هو نفسه قد نسي كم كان له من هذا الشيء أو ذاك . ولم يعد يتذكر إلا موضع قارورة النقيع في الدولاب وقد علَّم بنفسه على ما تبقى منه ، حتى لا يشرب منه أحد بطريقة لصوصية ، اضافة الى موضع الشمع والريشة . وخلال ذلك كان الدخل من المزرعة يجمع كما في السابق . الفلاح ياتي باللزمة ، وكل إمراة ريفية تجلب الحصة المعتادة من الجوز ، وكل إمراة تعمل نساجة تجلب القدر المخصص من منسوجها . وكان كل ذلك يُرمى في المستودعات ، ويتفسخ ويمتلىء بالثقوب ، والمالك نفسه قد تحوّل أخيراً الى

ثقب في جسم الانسانية . جاءت ألكسندرا ستيبانوفنا لرؤية أبيها مرة أو مرتين ومعها ابنها الصغير وهي تحاول ان تحصل من أبيها على شيء ما . والظاهر ان حياة التجوال مع زوجها ضابط الفرسان لم تكن جذابة كما بدت عند الزفاف . وغفر لها بلوشكين ، على كل حال ، بل وسمح لحفيده الصغير بأن يلعب بزر كان ملقى على الطاولة ، ولكنه لم يعطها اي شيء من النقود . وفي مرة اخرى جاءت الكسندرا ستيبانوفنا مع طفلين ، وجلبت لأبيها كعكاً ليؤكل مع الشاي ، وروباً جديداً ، لأن الروب الذي كان يلبسه بلوشكين كان مخجلاً بل ومعيباً . داعب بلوشكين حفيديه كليهما ، وأجلس أحدهما على ركبته اليمنى والثاني على اليسرى ، وهزهما ، وكأنهما على صهوة حصان . وقبل الكعك والروب ، ولكنه لم يعط لابنته اي شيء البتة . وبذلك عادت ألكسندرا ستيبانوفنا من حيث أتت .

ذلك هو المالك الذي وقف أمام تشيتشيكوف ! ويجدر القول أن مثل هذه الظاهرة نادرة في روسيا حيث يحب الجميع أن يفردوا انفسهم اكثر من ان ينكمشوا ، ومما يزيد الدهشة أنك يمكن أن تصادف بجوارك مالكاً ينفق ممتلكاته على ما تشتهي النفس الروسية من مباذل وقصف ومجون ، ويؤجج لهب الحياة على حد التعبير السائر . ان المسافر غير المجرب سيقف في دهشة من أمره ، حين يرى منزله ، ويسائل نفسه في حيرة من ذلك الأمير بالوراثة الذي وجد نفسه فجاة وسط هؤلاء المالكين الصغار الغامضين . فان بيوته الحجرية

البيضاء بمداخنها التي لا تحصى ، والبلفيدرات ، والمراوح التي تحدد اتجاه الريح ، والأجنحة الملحقة بالبيت ومختلف المباني للضيوف الوافدين تبدو قصوراً بالنسبة لما حولها من البيوت . ماذا يعوزه ؟ المسارح ، حفلات الرقص . الحديقة المنسقة مضاءة طوال الليل تتلألأ بالانوار والمسارج ، وتمتلىء بهدير الموسيقى . نصف سكان الولاية هنا في قشيب الثياب ، يتنزهون في مرح تحت الاشجار وما من أحد سيجد ما يثير استهجانه وخوفه ، في هذه الاضاءة الباهرة ، حين يطلع من كثافة الاشجار ، وبشكل مسرحي ، غصن مضاء بضوء اصطناعي ، وقد تخلت عنه خضرته الساطعة . والسماء الليلية في الأعلى اكثر قتاماً ، وجفاء ، واخطر بمائة مرة ، والاشجار التي ترفرف أوراقها في الأعلى ، تتراجع أعمق فأعمق في الظلام الحالك ، معبرة عن استيائها من هذا اللألاء المبهرج الذي يضيء جذورها في الاسفل .

وظل بلوشكين مطبقاً فاه دقائق عديدة بينما كان تشيتشيكوف مذهولا من مظهره ومن كل شيء آخر في الغرفة ، فلم يعد قادراً على البدء في الحديث ، بل راح يفكر في الكلمات المناسبة التى يفسّر فيها الغاية من زيارته . كان يفكر فيما اذا كان من المناسب ان يقول له انه سمع الكثير عن كرمه ومزاياه فراى من واجبه ان يقوم بهذه الزيارة لتقديم واجبات الاحترام . لكن حتى تشيتشيكوف راى ان في هذا القول من المبالغة ما لا يحتمل . بعد ان القى نظرة أخرى على رب البيت

وعلى الغرفة ، وبناء على ذلك بدّل جملته هذه الى جملة اخرى يتحدث فيها عن اقتصاده وحسن ادارته . وبعد ان اعدّ الجملة في عقله قال له انه سمع الكثير عن مواهبه الحازمة في ادارة املاكه وفي تنظيمه لسير الامور فيها ورأى من الواجب عليه أن يتعرّفَ عليه وأن يهنّئه بنفسه على ذلك . (ولا حاجة بي الى القول بان تشيتشيكوف كان يستطيع ان يجد سبباً آخر اوجه من هذا الذى ذكر ، ولكن قريحته في تلك اللحظة لم تلد شيئاً آخر)

فردّ بلوشكين على ذلك من بين شفتيه لخلو فمه من الاسنان بتمتمة لم يفهم المقصود منها بالضبط الا ان آخرها كان يترك الحرية للشيطان لكي يأخذ تشيتشيكوف وتهانيه . على اية حال ، فان قواعد الضيافة الروسية لا تسمح حتى لتعيس بائس أن يخترقها ، ولذلك فان بلوشكين اضاف الى ما سبق دعوة ترحيب يطلب فيها من الضيف أن يجلس .

وراح يقول «منذ وقت طويل لم استقبل زائراً ما ، ولكنى يجب ان اقول انني لا أشعر بفائدة من زيارتهم . فاذا ما بدأتْ عادة الزيارات اللّعينة واخذ الناس يترددون على بيت فان ادارة الاملاك ستؤول الى الدمار ويضطر صاحب الملك الى علْفِ خيوله بالتبن وحده . منذ مدة طويلة – طويلة جداً تناولت وجبة طعام مع ان مطبخي في حالة لا يحمد عليها ، لأن المدخنة أصبحت في وضع اذا احميت فيه زيادة عما تحتمل فانها سوف تشتعل كلها دفعة واحدة» .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «يا للوحش ! لقد كنت حسن الحظ فقد تناولت كتف الخروف وطيبات الاكل عند سوباكيفيتش !»

واستمرّ بلوشكين يقول «وبالاضافة الى ذلك ، فاني اشعر بالخجل اذ اقول لك ان ليس في بيتى حفنة واحدة من العلف . ولكن كيف يمكنني ان احصل على العلف ؟ فاراضيّ صغيرة والفلاحون كسالى يكرهون العمل ولا يفكرون الا في الحانة . وستكون نهايتي بناء على ذلك ان اقضي بقية عمرى ضارباً في انحاء الارض لا أجد المأوى» .

فقال تشيتشيكوف «ولكنهم اخبروني انك تمتلك الف عبد أو يزيد» .

«ومن قال لك ذلك ؟ ليكن من كان ، ولكن كان عليك أن تقول له انه يكذب . لا شكّ انه كان مهرّجاً يريد أن يضحك منك . الف نفس ! احسب لنفسك الضرائب التى تدفع عنهم وما الذى يتبقى من وراء ذلك ! كانت الحمى الملعونة في السنوات الثلاث الاخيرة تقتل اقناني بالجملة» .

فتساءل تشيتشيكوف باهتمام كبير «تقول بالجملة ؟»

فاجاب الرجل «اجل ، بالجملة» .

«اتسمح لى اذن ان اسالك عن الرقم الصحيح ؟»

«ثمانون بالتمام والكمال» .

«حقيقة ؟»

«هذا هو الواقع» .

«هل لي ان أسالك أيضاً ما اذا كان رقمك هذا منذ الاحصاء الأخير ؟»

«أجل منذ ذلك الاحصاء ، لعنة الله عليه ! ومنذ ذلك التاريخ والضرائب تستنزف دمي عن مائة وعشرين نفسا .»

«حقيقة ؟ عن مائة وعشرين نفسا ؟» وبدا تشيتشيكوف في حالة من الدهشة والزهو حتى ظل بعد قوله هذا فاتحاً فاه .

«نعم يا سيدى . اننى طاعن في السنّ فلا اكذب عليك . فلقد تجاوزت السبعين منذ أمد وجيز» .

مهما يكن من امر ، فقد شعر المضيف بالامتعاض لملامح الفرحة التى بدت على تشيتشيكوف . ولكن الاخير تدارك الامر بان أرسل تنهدة عميقة واخبره بانه يشعر بأن كل عواطفه معه في مصائبه تلك .

«ولكن العواطف ليست شيئاً يوضع في الجيب يا سيدي . انها لاتسمن ولا تغني من جوع . لي قريب مثلا وهو نقيب يقضّ مضجعي باستمرار بامور كهذه . انه ضابط في الجيش ، لعنة الله عليه ، وليس له عمل طوال يومه الاّ ان يناديني «أيها العمّ العزيز» وينكبّ على يدى مقبلا ويغمرني بسيل من عواطفه حتى أجدني مجبراً على اغلاق اذنيّ . وجهه احمر تماماً وولعه بشرب الخمر شديد . اعتقد انه بعزق أمواله اثناء خدمته في الجيش وجن جنونه باحدى الممثلات . ولا همّ له الآن الاّ أن يغرقني بعواطفه الفياضة !»

فسارع تشيتشيكوف الى القول بان عواطفه تختلف

اختلافاً أساسياً عن عواطف الضابط ، فهو لا يكتفي بكلمات طنانة وحسب ، وانما بالعمل الملموس . وهو مستعد – اثباتا لما يقول ، وقطعا للأخذ والرد ، ووضعا للامور في نصابها – ان يتحمل منذ اللحظة عبء دفع الضرائب عن الاقنان المذكورين الذى وافاها الاجل المنكود فنقلها الى العالم الآخر . ولقد وقع هذا الاقتراح على بلوشكين وقوع الصاعقة ، ففغر فاه محملقا بعينيه ، ولكنه تمالك نفسه بعد لأى وتساءل قائلا ، «هل كان سيدى العزيز ضابطا في الجيش في يوم من الايام ؟»

«لا ، ولكننى كنت في خدمة الحكومة» .

فبدأ بلوشكين يحرك شفتيه كما لو كان يمضغ شيئاً ، ثم قال «أيه ! في خدمة الحكومة ؟ وهل تعنى ان تنفذ الاقتراح الذى قلت ؟ اى هل انت على استعداد لتحمل الخسارة التى تترتب عليه ؟»

«نعم ، اذا كنت أعلم أني بذلك سأدخل السرور الى قلبك» .

وصاح بلوشكين بسرور : «آه يا سيدى العزيز ، يا وليّ نعمتي ! أىّ سلوى وضعتها في قلب شيخ عجوز !» ولم ينتبه الى سقوط قطعة سعوط من انفه وكان السعوط يشبه حثالة القهوة ، وان معطفه قد انفرج من المقدمة عن ثياب داخلية لا تسرّ النظر . «أىّ سلوى وضعتها في قلب شيخ عجوز ! والله على ما اقول شهيد !» ومضت هنيهة لم يكن يستطيع أن يقول فيها شيئاً . ولكن لم تكد تمر دقيقة واحدة حتى اختفت فجأة من ملامحه الخشبية تلك المشاعر الفياضة –

اختفت بالفجاءة التى تجلّت بها . وعاد الى وجهه تعبير الضنى ، حتى انه مسح وجهه بمنديله ثم لف المنديل على شكل كرة واخذ يروح به ويغدو على شفته العليا . ثم قال «ارجو ان لا ازعجك اذ اطلب منك أن تعيد الاقتراح مرة اخرى . هل تعنى انك على استعداد لدفع الضريبة المستحقة على هذه الانفس ، وان تقوم بدفع النقود لى او للخزينة ؟»

«أجل ، هذا هو ما ساعمل . سنكتب عقد بيع كما لو كانت هذه النفوس ما تزال حية وقمت ببيعها لي» .

فانغمس بلوشكين في أفكاره وراح يحرك شفتيه حركة المضغ ، وقال «اذن هكذا . عقد بيع . ولكن عملا كهذا سيجرّ نفقات ومصروفات معينة والمحامون لا ضمير لهم ! وهم في الواقع شرهون جشعون ، كانوا يطلبون من قبل نصف روبل وكيساً من الطحين اما الآن فحمولة عربة من الطعام اضافة الى النقود ، يا لهم من حب الفضة . من الغريب أن أحداً من الكهنة لم يلتفت الى ظلم هذا النظام . موعظة على الاقل ، اذ لايمكن الوقوف ضد كلمة الرب مهما يكن من شيء» .

ففكر تشيتشيكوف مع نفسه «أظنك ستقف ضدها» . عندئذ بيّن له تشيتشيكوف انه نظرا للاحترام الشديد الذى يكنه للمضيف سيقوم بتحمّل نفقات البيع بنفسه .

وهذا ما أدى ببلوشكين ان يعتبره غبيا لا ضمير له يدّعي انه كان في خدمة الحكومة لكنه في الحقيقة كان ضابطا في الجيش يجرى وراء الممثلات ، وبناء على ذلك

لم يعد هناك داع لأخفاء سروره بل راح يصبّ دعوات الرحمة على تشيتشيكوف وعلى ابنائه (ولم يكن قد سأل تشيتشيكوف فيما اذا كان متزوجاً وله أبناء) . ومن ثم اسرع الى النافذة وقرع على لوح زجاجها وهو ينادى «بروشكا !» وسمع صوت اقدام تركض في القاعة وهي تخبط الارض خبطا ودخل شخص الى الغرفة . وكان الداخل بروشكا – فتى في الثالثة عشرة من العمر غاطس في حذاء واسع الابعاد يكاد يبتلع ساقه حتى الركبة اذا ما دلف ماشياً فيه . وسبب دخوله في هذا الحذاء هو ان بلوشكين كان قد خصّص حذاء واحداً لجميع الخدم . كان هذا الحذاء العالميّ راسيا دائما في القاعة ، فاذا ما استدعي خادم الى المنزل كان عليه أن يتهادى في طين الساحة حافي القدمين وينتعله ، حتى اذا قام بمهمته التى طلب اليها ، خلعه ووضعه في موضعه المعروف وخرج الى الساحة على طبيعته الحافية السابقة . ولو اتيح لانسان في يوم خريفي ان يلقي نظرة على الساحة ورأى خدم بلوشكين وهم يسيرون فيها لعرف انهم يقومون برقصات تزحلقية رائعة لا يكاد يجاريهم فيها الراقصون المحترفون .

وقال بلوشكين لتشيتشيكوف وهو يشير الى بروشكا «انظر الى وجه هذا الغلام ! ان فيه الكفاية من الغباء . انما ضع شيئاً من الاشياء على ناحية فستجده قد سرقه في لمح البصر . ايه ايها الشاب ، ماذا تريد ؟»

وصمت لحظة او لحظتين ولكن بروشكا لم يحر جواباً .

واستمرّ الرجل العجوز يقول «هيّا ! هيّا جهّز السماور ، ثم اعط مافرا مفتاح غرفة المخزن ، اليك هو ، وقل لها ان تحضر شيئاً من الكعك الذى جلبته الكساندرا ستيبانوفنا مع الشاى . ما بك أيها المجنون ، انتظر لحظة اخرى . هل يدغدغ الشيطان قدميك حتى تريد أن تفرّ هارباً ؟ استمع الى ما سأقوله اليك . قل لمافرا ان اطراف الكعك قد اصابها بعض التلف ، وعليها ان تنزع القسم التالف بقشره بالسكين ، وقل لها أن لا ترمي القشر بل تضعه للدجاج . ويجب أن تفهم انك لن تدخل الغرفة والاّ ضربتك ضرباً لا تنساه . جرب أن تدخلها ، وسترى ما الذى سيحدث لك . سوف أراقبك من هذه النافذة . واضاف موجهاً كلامه الى تشيتشيكوف «ان المرء لا يستطيع ان يأمن الى هذه الاشكال» .

وما كاد الحذاء وبروشكا يغادران الغرفة حتى اخذ بلوشكين يحدّق في ضيفه تحديق المستريب . كان كرم تشيتشيكوف غريبا يدعو للتساؤل . واخذ يقول لنفسه «ومن يكون الرجل بعد ذلك كله . لعله لص من اللصوص . يمنّيك بالآمال الجسام لكي تنعم عليه بقدح من الشاى» . وانتهى بعد مناجاته هذه لنفسه بأن قال لتشيتشيكوف بانه يفضّل أن تجرى عملية بيع الانفس حالا ، فلا يجب أن يثق الانسان كثيراً بالآخرين ، ولا يدرى من يعيش اليوم ان كان غدا سيموت .

فوافق تشيتشيكوف على هذا الرأى بملء رغبته ، انما طلب اولا تزويده بلائحة الاسماء . وهذا ما اعاد

الطمأنينة الى قلب بلوشكين عن نية ضيفه فاخرج مفاتيحه واقترب من خزان وفتح بابه واخذ يفتش بين ما فيه من كؤوس واكواب ثم قال :

«لا اظن أننى ساجدها الآن ، لكن كانت لدىّ زجاجة مشروب فاخرة . وربما شربها الخدم ، فهم لصوص اصيلون . لا ، وربما كانت هذا !»

فرفع تشيتشيكوف بصره ورأى بلوشكين يسحب دورقاً مغطى بالغبار .

واستمر الشيخ العجوز يقول «كانت زوجتى المرحومة هي التي صنعت المشروب . لكن هذه الخازنة السافلة رمت قسما منه ، حتى دون ان ترجع غطاء الدورق الى موضعه . فدخل فيه بسبب ذلك بعض البق والحشرات الكريهة الاخرى . ولكني نظّفته ، وارجوك أن تتناول منه كاساً» .

كانت فكرة الشرب من اناء كهذا اكبر من أن يقبلها تشيتشيكوف فاعتذر بحجة أنه صائم عن تناول الغداء .

فقال بلوشكين «اذن فانت الآن صائم عن الغداء ؟ هكذا يتكشف للانسان ان في العالم رجالا محترمين . ان الشخص المحترم لا يأكل شيئا اطلاقاً ويقول دائماً بأنه سبق واكل . وأسلوبه يختلف اختلافاً واضحاً عن اساليب الانذال الذين مهما أطعمتهم لا يكتفون . والضابط مثلا ، لا يزال يرجوني ان اطعمه ، يقول «يا عمي ، اعطني شيئاً آكله» وتسميته لي عمي لا تختلف عن تسميتي له جدى . وكما هو الواقع ، لا يكون في بيته لقمة من شيء فيزور البيوت الاخرى . ولكن كنت

تسألني عن لائحة الانفس التافهة ، كان لدىّ لائحة رائعة اعددتها للاحصاء القادم» .

ومن ثم وضع بلوشكين نظارتــه على عينيه وراح ينبش الاوراق فى الخزان والغبــار يتطاير اثناء جمع الاوراق مع بعضهـا حتى ان ضيفه انفجر عاطساً . وانتزع آخر الامر ورقة كتب عليهـا اسماء الفلاحين الموتى بخط صغير محشور فوق بعضه حشراً كانه غمامة من بعوض ؛ فقد كان فيها مائة وعشرون اسماً . فهمهم تشيتشيكوف فرحـا لرؤية هذه المجموعـة . ثم دسّ الورقة في جيبه قائلا ان اتمام الصفقـة يستوجـب الذهاب الى المدينة .

فقال بلوشكين «الى المدينـة ؟ ولماذا ؟ وكيـف أستطيع أن أترك المنزل ما دام خدمي مـا بين لص ووغد ؟ انهم يسرقون كل يوم شيئاً ، ولن يمضى طويل وقت حتى لا أجد معطفاً اضعه على كتفي» .

«فهل لك اذن معارف في المدينة ؟»

«معارف ؟ لا . فكل الذين اعرفهم امـا تركوني او ماتوا . لكن ، انتظر لحظة . اني أعرف رئيس المجلس المحليّ . حتى في شيخوختي جاء مرة أو مرتيـن يزورني . فقد كنت واياه زميلين في المدرسة وكنا نتسلق الجدران معاً . أجل ، إياه أعرف . هل اكتب له كتاباً ؟»

«بلا ريب» .

«نعم ، إياه أعرف معرفة جيدة ، فقد كنا أصدقاء في المدرسة» .

واشرق من ملامح بلوشكين الخشبية شعاع مـن الدفء – شعاع ان لم يكن يعبر عن شعور فهو على الاقل صورة شاحبة لذلك الشعور . ظاهرة كهذه يمكـن أن يراها المرء في لحظة خاطفة عندما يرى الغريق يبرز على صفحة ماء النهر فجاة ، وتصدر من حناجر الجماهيـر المصطفة على الشاطئين صيحة الامل راجية ان تمتدّ يدا الغريق اللتان اجهدهما الاعياء وتلتقطان الحبـل الذى رموا به اليه – تلتقطانه قبل أن يعود السكون الازليّ المرعب الى سطح المادّة الجارية . ولكن الامل يحيـا لحظة خاطفة واليدان تختفيان . ويصمت كل شيء . وبعد ذلك يضير السطح الهادئ ارهب واكثر إقفاراً . مثل هذا لاح في وجه بلوشكين ، فبعد أن أشرقت على وجهه بوادر الاحساس هنيهة اختفت سريعاً وعاد الى وضاعته وتبلّده اكثر من ذى قبل .

واخذ يقول «لقد كان على المنضدة ورقة نظيفـة للكتابة ، ولكن أين راحت ؟ لست ادرى . كل هذا من الخدم ، فيا لهم من أوغاد !»

وبهذا اخذ يبحث تحت المنضدة ويصيح «مافـرا ، مافرا !» ولبّت النداء بعد برهة امراة تحمل بين يديهـا طبقاً من الحلوى التى سبق ذكرها . وبدا عندئذ الحوار التالي :

«ما الذى عملته بورقة الكتابة التى كانت هنا ، ايتها السارقة ؟»

«اقسم انني لم ار الورق هنا الاّ القطعة التى كنت تغطى الدورق بها» .

«ان وجهك ينطق بانك أنت التى اخذتها» .

«ولماذا آخذها ؟ انها ليست بذات فائدة لي . فانا لا أعرف القراءة ولا الكتابة» .

«إنك لتكذبين ! لقد اخذتها الى القندلفت ليعبث بها» .

«اذا اراد القندلفت ورقاً ففي امكانه الحصول عليه بنفسه . ولكن ورقتك لم تقع عليها عيناى ولا عينا القندلفت» .

«ان الله يمهل ولا يهمل ، ولسوف يشويك الشياطين يوم الحساب على سفافيد من حديد . هذا هو مصيرك» .

«ولكن لماذا يشووننى وانا لم المس ورقتك ؟ قد اتهم بنقيصة نسائية أخرى اكثر مما اتهم بالسرقة» .

«ان الشياطين سيشوونك بلا ريب ، وسيقولون لك «يا عجوز السوء ، لماذا كنت تسرقين سيدك ؟ ويزيدون النار اواراً» .

«ولكننى مع ذلك ساظل اقول لهم «حرام ما تصنعون ، فانا لم اسرق في حياتي شيئاً» ولكن .. . ها هي هناك على المنضدة ! لقد كنت تتهمني ظلماً وعدواناً !» والواقع ان الورقة كانت ملقاة امام عيني بلوشكين . فاخذ يمضغ شفتيه في هدوء ، ثم قال :

«ولماذا تفتعلين هذه الضجة ؟ اذا قال لك المرء كلمة واحدة أجبته بعشر . اذهبي واحضرى شمعة اختم بها كتاباً . واحترسى أن تحضرى الشمعة المصنوعة من الشحم ، واحضرى علبة ثقاب» .

ولمّا انصرفت مافرا جلس بلوشكين واخذ ريشة

وراح يقلّب الورقة على وجهيها المرة تلو الاخرى كما لوكان يفكر في ان يقتطع منها جزءاً . ورای آخر الامر ان من المستحيل ان يفعل ذلك ، فغمس الريشة في المزيج المكوّن من الحبر والذباب الذى تحتويه المحبرة ، واخذ يكتب بحروف ظاهرة جداً كانها الرموز الموسيقية ، بينما كان بين الآونة والاخرى ينظر الى سرعة يده لئلا تندفع فتاخذ الكثير من الورقة ، ويزحف من سطر الى سطر زحفا فعل النادم على ترك بعض الفراغ في الصفحة .

ولكن الى هذا الدرك من التفاهة والحقارة والوضاعة يمكن ان ينحط الانسان ويتغيّر بهذا القدر ! وهل لذلك شبه بما يجري في الحقيقة ؟ نعم ، إنه كذلك ، كل شيء يمكن ان يحصل للانسان . إن شاباً ملتهباً من شباب اليوم سيتراجع رعباً لو ان احداً عرض له صورته ، وهو في شيخوخته . خذوا معكم اذن ، حين تنتقلون من أعوام الصبا الناعمة ، إلى الرجولة المتقسية الصارمة ، خذوا في رحلتكم هذه كل المشاعر الانسانية ، ولا تتركوها في عرض الطريق ، فانكم لن تسترجعوها بعد هذا ! فان الشيخوخة الرهيبة المريعة التي تهددكم في المستقبل لن تعيد لكم شيئاً اخذته ! والقبر ارق قلباً منها ! فهم يكتبون عليه «هنا يرقد انسان!» ولكن لا شيء يمكن ان يقرأ في الملامح الباردة الخالية من العاطفة لشيخوخة غير انسانية .

ولما انتهى منها طواها ، وسأل قائلا «هل تعرف أحداً بحاجة الى عبيد آبقين ؟»

فشهق تشيتشيكوف باهتمام كبيـــر وقال «ماذا ؟ عندك عبيد آبقون ايضا ؟»

«بلا شكّ . وقد ذهب صهرى وقدم الشكوى ضدهم الى الدوائر المختصة ، ولكنه يقول بان ملاحقتهم اصبحت فاترة . على اية حال فهو رجل عسكريّ ايضاً ولا يصلح الاّ لركوب الخيل ، ولا نفع منه في تقديم قضية الى محكمة» .

«وكم عبداً هارباً لديك ؟»

«قرابة السبعين» .

«صحيح ؟» .

«نعم بكل اسف . لا تمر سنة واحدة دون ان يفرّ عدد منهم . وهم مع ذلك جشعون كسالى ، لا عمل لهم الاّ الاكل وتكاد تنفجر بطونهم منه ، بينما انا نفسي لا اكاد اجد شيئاً يقيم الأود . ساقبل ايّ سعر تعرضه عليّ لقاءهم . اخبر اصدقاءك ومعارفك عنهم فاذا ما وجدت بعضهم فستتلقى تعويضاً حسناً ، لأن ثمن العبد الحيّ في لائحة الاحصاء في هذه الايام يبلغ خمسمائة روبل» .

فقال تشيتشيكوف في نفسه «ربما كان ذلك ، ولكنني لن ادع شخصاً يدسّ في هذا الشان اصبعه» وقال لبلوشكين بان اصدقاء ومعارف من هذا النوع لا وجود لهم ، والمصاريف القانونية التى تتطلبها هذه العملية سوف تجعله يبيع معطفه قبل أن يتخلص من المحامين .

واضاف تشيتشيكوف يقول «ومع ذلك ، وبما انك في حاجة شديدة الى النقود ، وبما اننى شديد الاهتمام

بمصلحتك ، فانني اشعر بدافع يدعوني الى ان ادفع لك ثمناً رمزياً تافهاً لا يستحق الذكر» .

فراحت يدا بلوشكين ترتعشان كقطرة الزئبق ، وقال موافقاً «وكم سيكون ؟»

«خمسة وعشرون كوبيكا لكل نفس» .

«ماذا ؟ وهل ستدفعها فوراً ؟»

«نعم ، فوراً» .

«ومع ذلك ، ارجوك أن تنظر الى فقرى الذى انا فيه وتجعلها أربعين» .

«سيدى المحترم لو كان في استطاعتى ان ادفع لك لا اربعين كوبيكاً بل خمسمائة روبل لفعلت ، ولدفعت هذه القيمة بكل سرور . فلقد عرفت انك شيخ عجوز محترم يعاني الكثير بسبب قلبه الطيب» .

فرفع بلوشكين راسه وحركه ببطء من جهة الى اخرى وقال «اى والله ، هذا هو الصحيح ، هذا هو الصحيح . وكل ما عملت في حياتي كان صادراً عن رقة القلب» .

«ها انت ترى كيف عرفت طبيعتك حالاً ! فيجب ان يكون واضحاً لديك الآن لماذا لا اقدر ان ادفع لك خمسمائة روبل للراس الهارب . ولا بد انك قد ادركت الآن اننى لست على قدر كبير من الغنى . ومع ذلك كله فانا على استعداد لزيادة خمسة كوبيكات ، بحيث يكلّفني كل عبد آبق في آخر الأمر ثلاثين كوبيكاً» .

«كما تشاء يا سيدى . لكن مطهّا قليلا وزد كوبيكين آخرين» .

«تفضل . قلت كم عبداً لديك ؟ سبعون ؟»

«لا ، ثمانية وسبعون» .

«ثمانية وسبعون ، كل واحد سيكلّف ثلاثين كوبيكاً ، فيصبح المجموع» — ووقف بطلنا لحظة قصيرة فقط لأنه كان قوياً في الرياضيات ، ثم قال «فيصبح المجموع اربعة وعشرين روبلا وستة وتسعين كوبيكا *» .

ثم طلب من بلوشكين ان يكتب له وصلا وسلمّه النقود . فتسلّمها بلوشكين بكلتا يديه ، وحملها الى خوان قريب بحذر شديد جداً كما لو كان يحمل بين يديه سائلا يخشى كل لحظة ان يترشّش فى وجهه ، ووصل الى الخوان ونظر حوله مرة أخرى ، وحشا النقود في أحد الاكياس الخاصّة بذلك ، حيث قدّر لها بلا شك ان تظل مدفونة هناك الى ان تاتي الساعة التي يقوم بها الأب كارب والأب بوليكارب (الكاهنان الموكلان بالقرية) بعملية دفنه وسط نشوة السرور الكبرى التي تجتاح ابنته وصهره (وربما «ابن اخيه» الضابط ايضاً) . وبعد أن قام بلوشكين بمهمة اخفاء النقود ، رجع وجلس على كرسيّ ذى مسند مرة أخرى وبدا في حيرة من أمره لا يجد موضوعاً جديداً لحديث . ورأى

* ومع ذلك فقد أخطا تشيتشيكوف الحساب . فالمبلغ الحقيقي هو ثلاثة وعشرون روبلا واربعون كوبيكا . وعلى هذا يكون تشيتشيكوف قد غشّ نفسه بروبل وستة وخمسين كوبيكا . **المترجم** .

تشيتشيكوف يتحرك حركة بسيطة في موضعه ، ومع انها كانت لمجرد اخراج منديل من جيبه الاّ انه قال «هل تنوى الذهاب ؟» وكان سؤاله هذا كافياً لتذكير تشيتشيكوف بأن لم يعد هناك مبرر للتباطؤ .

فاخذ قبعته وقال «نعم ، عليّ ان اذهب» .

«والشاى ؟»

«شكراً ، ساتناول شيئاً منه في زيارتي القادمة» .

«ماذا ؟ مع انني قد طلبت اعداد السماور ؟ انا نفسي لا اهتم كثيراً بالشاى ، واعتقد انه مشروب غال . وزيادة على ذلك فان سعر السكر قد ارتفع هذه الايام ارتفاعاً فاحشاً» . ثم نادى بصوت عال «بروشكا ، لا حاجة بنا الى السماور ، ارجع السكر الى مارفا وقل لها ان ترجعه الى موضعه مرة اخرى . لكن ، لا . هات السكر هنا وسأعيده بنفسي الى موضعه» . ثم وجّه الخطاب الى تشيتشيكوف يقول «وداعاً يا سيدى العزيز ، وليباركك الربّ . اعط الكتاب الى رئيس المجلس المحليّ ، ودعه يقراه . فهو صديق قديم ، عرفنا بعضنا منذ ايام المدرسة» .

وبهذا القول ، سارت هذه الظاهرة الغريبة ، سار هذا الشيخ العجوز الذابل لمرافقة ضيفه الى رتاج الساحة ، وبعد ان انصرف الضيف امر باقفال الرتاج ودار دورة حول البناية ليتاكد من ان الحرس العديدين في مراكزهم الموجودين في كل زاوية يضربون بالعصي البراميل الفارغة بدلاً من قطع الحديد واطل برأسه في المطبخ (ودخله متظاهراً بالاشراف على طعام الخدم

ليكون كافيا ولكنه بهذه الحجة عمل لنفسه عشاء خفيفا من حساء الكرنب والثريد) وراح يشتم الخدم بلسانه البذيء شتما قاسيا لسرقاتهم وسوء سلوكهم ، ثم عاد الى غرفته . وجلس في وحدانيته يفكر في كرم ضيفه الذى لا حدّ له ، وكيف يمكن ان يجزيه على ذلك وقال في فكره «سوف اهديه ساعة فضية جيدة الصنع ، وليست كالساعات الاخرى المصنوعة من المعادن الرخيصة . ومع أن فيها بعض العطب الاّ انه يستطيع اصلاحها بسهولة . والشباب بحاجة دائما الى ساعات يبرزونها لخطيباتهم» . وبعد تفكير أعمق مما سبق قال لنفسه «لا ، سوف اترك له الساعة في وصيتي كذكرى» .

اما بطلنا فقد كان اثناء ذلك يدرج على الطريق بمعنويات عالية . كانت غنيمته من الانفس الميتة ومن العبيد الآبقين كهدية مرسلة من السماء وكلها بالمجموع لا تزيد عن مائتي نفس الا قليلا . وحتى قبل أن يصل الى قرية بلوشكين كان يتوقع ان يكون موفقاً في مهمته ، ولكن لم يكن يتوقع التوفيق الذى حصل عليه في الواقع . وما إن تقدّمت العربة قليلا في سيرها حتى اخذ يصفر ، ثم وضع يده على فمه على شكل بوق وانطلق يغنّي اغنية تسترعي الانتباه ، حتى ان سيليفان بعد ان استمع اليها برهة من الزمن طاطا راسه وقال «يا آلهي ! سيدى يجيد الغناء» .

وفي الوقت الذى وصل فيه الركب الى المدينة كان الظلام قد ارخى سدوله وتغيرت طبيعة المناظر التى

كانت تمرّ أمام العين . كان الحاجز المخطط قد فقد لونه المحدد ؛ شاربا الجندي الذي في الحراسة لاحا وكانهما على جبينه واعلى بكثير من عينيه ، اما انفه فبدا وكانه غير موجود البتة . وكانت القرقعة والنطات توحي بان العربة كانت تسير على درب مرصوف . مصابيح الشوارع لم توقد بعد ، ونوافذ البيوت وحدها كانت تنار هنا وهناك بينما كانت الأزقة والشوارع الخلفية مسرحاً لمشاهد واحاديث لا تختلف عما يجري في مثل هذا الوقت ، في كل المدن التي يوجد فيها العديد من الجنود ، والحوذية ، والشغيلة ، والاصناف المعينة من المخلوقات على شكل سيدات في لفاعات حمر ، وأحذية بلا جوارب ، يمرقن كالخفافيش في مفارق الطرق . لم يلحظهم تشيتشيكوف ، بل ولم يلحظ مثل هذه الكثرة من الموظفين ذوي العصوات الذين كانوا ، على الارجح ، يتنزهون وراء المدينة ، وهم الآن في طريقهم الى بيوتهم . ومن حين الى آخر كان يصل الى سمعه هتافات بأصوات نسائية ، كما يبدو : «هذا السكير ، يكذب ، وانا لم اسمع له قط أن يرتكب مثل هذه الفظاظة !» او «لا تضربني ، يا جلف ، تعال الى القسم بشرف ، وهناك سأعرف كيف اثبت لك !» وباختصار إنها نفس الكلمات التي تسمط شاباً حالماً في العشرين من العمر عائداً من مسرح ، يتخيل شارعاً في اسبانيا ، ليلاً ، وامرأة رائعة ذات خصلات تحمل قيثارها . وما اكثر ما يتخيل هذا الشاب ، وهو محلق في السماوات ، عائداً من زيارة لشيللر ، واذا بمثل

هذه الكلمات المنحوسة تصدر فوق رأسه ، فيجد نفسه وقد عاد الى أرض الواقع ، وحتى الى ساحة مدينته ، بل وقريباً من حانة ، والحياة تسرى امامه من جديد في ثيابها الاعتيادية .

بدأت العربة تتراقص على بلاط الطريق الحجرىّ ، ثم انعطفت بعد لأى ودخلت ساحة النزل ، حيث كان بتروشكا في الاستقبال . وقد ساعد سيده على النزول من العربة وهو يضمّ طرفي معطفه باحدى يديه (فقد كان يكره ان يرى طرفي المعطف متباعدين) . وهرول خادم النزل وهو يحمل في يده مصباحاً ويضع على كتفه فوطة . ومن المستحيل أن نقول فيما اذا كان بتروشكا مسروراً بعودة سيده ، أو غير مسرور لكنه على أية حال تبادل غمزة عين مع سيليفان واشرق مؤقتاً مظهره الكئيب المألوف .

وقال خادم النزل وهو يضيء السلّم «اذن كنت في سفر بعيد يا سيدى» .

«نعم ، وهل حدث شيء في هذه الآونة ؟»

فأجاب الخادم منحنياً «لا شيء يا سيدى ، انما وصل الليلة السابقة ضابط ملازم ونزل في الغرفة رقم ستة عشرة» .

«ملازم ؟»

«نعم . جاء من ريازان ، بعربة ذات ثلاثة خيول لونها كميت» .

وقال تشيتشيكوف لخادم النزل :

«حسناً ، تصرّف كذلك فى المستقبل» . وعندما

دخل تشيتشيكوف الى الغرفة وضع يديه على انفه وسأل تابعه لماذا لم يفتح النوافذ قط . أجابه بتروشكا «ولكنى فتحتها بالفعل» . ومع ذلك فقد كانت هذه كذبة ، كما كان تشيتشيكوف يقدّر ، الاّ انه لم يفتح باب الجدل لأن تعبه كان شديداً . وبعد ان طلب عشاء خفيفاً من لحم الخنزير الرضيع واكله ، نضا ثيابه ، واندسّ في الفراش وغرق في نوم عميق لا يتمتع به الاّ المحظوظون الذين لا يقلقهم الباسور ولا البرغيث ولا عمل الفكر الشديد .

الفصل السابع

سعيد ذلك المسافر الذي يرى ، بعد سفر طويل مضجر ببرودته ووحولته وحمئه ، ومدراء محطات تبديل الخيول الناعسين وجلجلة اجراسه ، وتصليحات عربته ، وتبادل الشتائم ، والحوذية ، والحدادين واوغاد الطريق على مختلف أنواعهم ، يرى أخيراً السطح الذي يعرفه ، والاضواء المقبلة عليه ، وتظهر امامه الحجرات المألوفة له ، والصيحة الفرحة للراكضين الى لقائه ، وضجيج وتراكض الاولاد ، والكلمات الخافتة المهدئة التي تتخللها القبلات الحارة القادرة على محو كل ما هو منغص من ذاكرته . سعيد رب العائلة الذي له مثل هذا المأوى ، ولكن الويل للأعزب !

سعيد ذلك الكاتب الذي يتعرف ، دون الالتزام بالشخصيات المضجرة المنفرة التي يصعقنا واقعها

المؤسي ، على شخصيات تعكس كرامة الانسان الرفيعة ويختار من الدوامة العظيمة للشخصيات المتتابعة امامه كل يوم بعض الاستثناءات ، دون أن يخلّ ، ولو مرة واحدة ، بالنسق السامي لقيثارته ، ولا ينزل من عليائه إلى اخوانه في القلم البائسين التافهين ، وينغمس ، دون أن يمس الأرض ، في صوره المنتقاة المرتفعة عنها كثيراً . إن قدره الرائع هذا محسود حسداً مضاعفاً : فهو بينهم كائنا بين اهله ، بينما مجده يطوّف في الآفاق عالي الصدى . فقد غشى عينيه الانسانيتين ببخور نشوان ، وتألق بهما با عجاز ، مغطياً على ما هو محزن في الحياة مظهراً بهما الانسان الرائع . كل الممجدين يلاحقونه ويندفعون وراء عربته المنتصرة . وينعتونه بالشاعر العالمي الكبير ، المحلق عالياً فوق جميع عباقرة العالم الآخرين ، تحليق النسر فوق جميع الطيور المحلقة الأخرى . إن مجرد ذكر اسمه يبث الرعشة في القلوب المشبوبة الفتية ، ويدر دموع الاستجابة من كل العيون . . . انه منقطع النظير في قوته . إنه آله ! إلا ان ثمة قدراً مختلفاً ، ومصيراً آخر للكاتب الذي تجرأ على أن يكشف كل ما يظهر في كل لحظة امام الأبصار ، ولا تراه العيون اللاابالية ، كل الطفح المريع المذهل للصغائر التي تحيط بحياتنا ، كل عمق الشخصيات الباردة المهشمة التي نراها كل يوم ، والتي يحفل بها طريقنا الدنيوي ، المرير المضجر في اغلب الاحيان ، الكاتب الذى اقدم بما لإزميله الذي لا يهادن من قوة صلبه على ان يظهر هذه الشخصيات

بارزة ساطعة أمام انظار الشعب كله . إنه محروم من كسب اطراءات الناس ورؤية دموع الامتنان ، والبهجة الشاملة تعم نفوسهم التي أثّر فيها . ولن تندفع نحوه فتاة في السادسة عشرة دّوارة الراس ، بطولية الحماس ، ولن يغيب في السحر الحلو للاصوات التي حركها ، كما لن يتخلص أخيراً ، من محاكمة معاصريه ، محاكمة معاصريه النفاقية الخالية من التعاطف ، والتي تدمغ مخلوقاته المدللة من قبله بالتفاهة والوضاعة ، وتفرد له ركناً محتقراً في صف الكتاب الذين يهينون الانسانية ، وتخلع عليها صفات الأبطال التي صورها ، وتنزع منه القلب والروح ولهب الموهبة الالهي . لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن الزجاج الذي تُرى من خلاله الشموس عجيب بمقدار ما هو عجيب الزجاج الذي ترى من خلاله حركات حشرات مجهرية ؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن تصوير الحياة الوضيعة وتحويله الى لؤلؤة ابداع يحتاج الى عمق الشعور ودخيلة النفس ؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بان الضحك البهيج الرفيع جدير بأن يقف على صعيد واحد مع العاطفة الشاعرية الرفيعة ، وان هناك هوة شاسعة بين هذا الضحك والضحك التهريجي الرخيص ! إن محكمة معاصريه لا تعترف بذلك ، وتحول كل شيء الى تقريع وهزء بالكاتب غير المعترف به . وسيبقى وحده على قارعة الطريق بلا مشاركة ، ولا استجابة ، ولا تعاطف ، كالصعلوك المتشرد . إن مهنته لشاقة ، ووحدته لمريرة .

ولزمن طويل آخر كتبت عليّ سلطة عجيبة ان أسير

يدأ بيد مع ابطالي الغريبين ، وأن استعرض الحيـاة المندفعة بكل جسامتها ، أن استعرضها خلال الضحك المرئي للعالم ، والدموع غير المنظورة وغير المرئية لهذا العالم . وما يزال بعيداً ذلك الزمن الذي سترتفع فيه زوبعة الإلهام المريعة بدفق آخر من رأس محاط بالألق والرعب المقدس ويشعر الناس بالهدير الجليل للكلمات الأخرى ، وهم في رعدة الارتباك .

فالى السفر ! الى السفر ! وسحقاً للغضون التي حفرت جباهنا ، وللظل الجهم المرتمي على الوجه ! ولننغمر في الحياة ، فجأة ودفعة واحدة بكل قرقعتها المكتومة ورنين اجراسها ولنر ما سيفعله تشيتشيكوف .

لما استيقظ تشيتشيكوف تمطّى فاستيقن أنه نام نوماً هنيئاً . واضطجع على ظهره لحظة او لحظتين ومن ثمّ صفق بيديه فجأة اذ تذكرّ أنه اصبح الآن مالكاً لحوالي اربعمائة نفس . وقفز حالا من الفراش ولم يذهب الى المرآة ليرى نفسه فيها ، اى انه خرق القاعدة التى لم يكن في غير هذا اليوم يمدّ اليها يد العبث . فقد كان دائماً شديد الاهتمام بقسمات وجهه ، وخاصةً بالذقن التى كان يزيد اهتمامه بها اذا ما كان في جمع من الاصحاب ؛ واكثر من ذلك اذا ما دخل عليه شخص وهو مشغول بحلاقتها . كانت الجملة التى يستعملها في هذه المناسبة هي ان يقول «اُنظرْ ما اشد استدارة ذقنى !» أما في الحالة الراهنة ، على اية حال ، فلم ينظر الى ذقنه ولا الى اية قسمة اخرى ، انما انتعل نعله المطرّز بالزهور والمصنوع من الجلد المراكشي

(والفضل فى ذلك لحب الروس حياة الراحة وقضاء معظم الوقت في الملابس البيتية فقد اصبحت مدينة تورجوك تقوم بصناعة ضخمة من هذه النعال) ، وارتدى قميصاً قصيراً لا غير على نمط الاسكتلنديين ونسي كبر سنّه وكبرياءه وقفز قفزتين ماسكا ظهره بكعبه . ولم يبدأ بعمله الاّ بعد ان أجرى كل ذلك . ومن ثمّ غرس نفسه امام صندوق المراسلات وفرك يديه ببعضهما البعض دلالةً على الرضى العميق ، كما يفعل القاضي الريفيّ الذى لا شائبة تشوب سمعته حينما يؤجل جلسة المحكمة اذ يحلّ موعد الغداء . ومن ثمّ انتزع من الصندوق رزمة من الورق . وقرّر ان لا يودع أوراقه هذه الى محام بغية الاسراع في الامور والتوفير في النفقات وراح بنفسه يرتّب وينسخ كل المعلومات الضرورية في صفقات كهذه . ولما كانت لديه الخبرة الكافية في هذا الشأن فقد أخذ يكتب التاريخ بحروف كبيرة ، ثم اسمه ورتبته بحروف أصغر . وفي الساعة الثانية كان كل شيء ناجزاً . وما إن نظر الى الاسماء التى تدلّ على فلاحين غابرين كانوا قد حرثوا واشتغلوا اشغالاً حرفية متنوعة وخدعوا اسيادهم وجلبوا وحملوا وسكروا (مع أن بعضهم قد يكون سلك سلوكاً حسناً) حتى طغى عليه احساس غريب لا تفسير له . وبدا لعينيه ان كل قائمة من قوائم الاسماء هذه ذات طابع خاص بها . حتى الفلاحون فيها كافراد ، كانوا يبدون وكانهم اتّسموا بصفات خاصة بهم . فان مدام كوروبوتشكا مثلا ، كانت تلحق باسماء معظم اقنانها

القاباً واضافات اخرى . وكانت قائمة بلوشكين تتميز بالدقة في الايضاح بحيث أن بعض الاقنان لا يستدلّ عليها الاّ بالاسم الاول واللقب ونقطتين وراءهما . وكانت قائمة سوباكيفيتش مدهشةً في اتّساعها ودقة تفاصيلها ، بحيث لم تترك ميزة خاصة لأى فلاح دون أن تذكرها : كان تقول عن الفلاح الفقيد انه كان «رائعاً في فن التخشيب» أو «رزين وشديد الانتباه الى عمله» . وفي قائمة سوباكيفيتش ايضاً سجّلت ملاحظات عن والد الميت ووالدته وكيف كان سلوكهما . فمن واحد فقط يدعى فيودوتوف سجّل بالقرب منه ما يلي «الأب مجهول ، الأم الخادم كابيتولينا . الاخلاق والامانة جيدتان» . هذه التفاصيل القت على الوثيقة روحاً من الجدّة تشعر بان الفلاحين المذكورين كانوا احياء الى الامس فقط . واذ تفحص تشيتشيكوف القائمة طغت على روحه موجة ناعمة من الحنان فتنهد وقال :

«ايه ايها الاصدقاء ! اىّ جمع منكم هنا ! وكيف قضيتم حياتكم يا اخواني ، وكيف غادرتم هذا العالم ؟»

واذ كان يتكلم وقعت عيناه على اسم معين — هو بيتر سافيلييف غير المحترِم للطست ، الذى كان في يوم من الايام ملكاً لمدام كوروبوتشكا . فلم يتمالك ان يصيح متعجباً :

«اىّ سلسلة من الالقاب هذا ! انها تحتلّ سطراً كاملاً ! بيتر سافيلييف ، اني لأعجب منك ان كنت حرفياً او فلاحاً عادياً . واني لأعجب ايضاً كيف لقيت حتفك . في حانة أم عندما ذهبت لتنام في قارعة

الطريق فداستك قافلة من عربات الشحن . واني لأرى ايضاً اسم بروبكا ستيبان ، نجّار ، وقور جداً . يجب ان يكون هذا هو البطل الذى يتمنّى الحرس ان يخدم فيه . اني لأراه جيداً وهو يجوب فى خلاء منطقته كلها وحذاؤه فوق كتفيه يعيش طوال يومه على ما يساوى بضعة كوبيكات من الخبز والسمك المجفف ، ثم يعود الى بيته حاملا في محفظته قطعة من فئة المائة روبل ، اما قطعة الالف روبل فيخيطها في سراويله أو يخبئها في حذائه ! على اى شكل وصلت اليك نهايتك يا بروبكا ستيبان ؟ أكنت سعيا وراء الرزق تعلو سقالةً عند قبّة كنيسة القرية فجربت ان تتسلق على القبّة فزلّت قدمك عن لوح الخشب فوقعت تهوى الى الارض ، ولم يشهد هذه الكارثة غير العمّ ميخاي — ذلك العمّ الطيّب الذى حكّ قفاه وتمتم قائلاً «آه يا فانيا ، لقد كنت ماهراً جداً !» وثم ربط نفسه بحبل وانتقل الى المحلّ الذى وقعت فيه حالا ؟ . . . ماكسيم تلياتنيكوف ، اسكاف . أحقاً أنت اسكاف ؟ يقول المثل «سكير كاسكاف» . اني لأعرف على اية شاكلة كنت ايها الصديق . واذا شئت انبأتك بقصّتك كلها . لقد التحقت بسيد الماني اطعمك واطعم رَبعَكَ على مائدة واحدة ، وضربك بالسوط وسجنك كلما اتيت خطأ ، وتكلم عنك لزوجته واصدقائه بأقوال لا تحسد عليها . واخيراً ، لما انتهت مدّة التعاقد بينك وبينه قلت لنفسك «انني سأنشىء نفسي بنفسي منذ الآن ، ولن

أجمع كوبيكاً من هنا وكوبيكاً من هناك كما يفعل الالماني ، ولكنني ساغتني بسرعة» .

ومن ثم استأجرت دكانا بأجرة مرتفعة ، واستحضرت بضاعة كثيرة وشرعت في العمل – تشترى الجلد المتعفّن الذى تصنع منه زوج احذية بربح مضاعف . ولكن زوج الاحذية تفلّع في اسبوعين ، وجرّ على رأسك سيلاً عارماً من اللعنات . وكانت نتيجة ذلك أن خلا محلّك من الزبائن تدريجياً ، فانطلقت تتجوّل في الطرقات صائحاً «ان الدنيا لبائسة حقاً ! لا يستطيع الروسي أن يعيش والالمانى ينافسه» . حسناً ، حسناً . . . اليزابيتا فوروبي ! لكن هذا اسم امرأة ! كيف تسنىّ لها أن تكون فى القائمة ؟ لا بدّ أن يكون النذل سوباكيفيتش قد حشرها خلسة دون علمى» . كان تشيتشيكوف على حق . كانت إمراة بالفعل ولا أحد يعرف كيف جاءت الى هنا . ولكن اسمها قد كتب ببراعة ، بحيث كان الممكن من بعيد أن تعتبر رجلاً . ومع ذلك فان تشيتشيكوف لم ينظر الى ذلك بعين الاحترام . فشطب اسمها .

واستمرّ يقول «جريجورى رُحْ ولن تجئ» . عجباً ! ما أغرب اسمه ! اى نوع من الرجال كنت ؟ هل كنت حمّالا فاستطعت ان تعدّ عربة ذات مظلّة بفرقة من ثلاثة خيول ، ثم تركت بلدك ومسكنك المتواضع الى الابد ورحت تشتغل في نقل بضائع التجار ؟ هل كنت سائراً على الدرب حين اسلمت روحك الى بارئها ، او كنت قبل ذلك قد وقعت فى حب زوجة احد الجنود وكانت

فتاة سمينة محمرّة الوجه وقتلوك نتيجة ذلك ؟ وهل استهوت عربتك احد قطاع الطرق لما راى فرقتها من الخيول المخشوشنة الممتلئة الاكفال ؟ أم كنت مضطجعاً على فراشك المتواضع تفكر في امور الدنيا وتوسعها تفكيراً حتى رايت ان من الواجب عليك طوعاً اوكرهاً أن تلجأ الى الحانة تخبط فيها خبط عشواء ؟ ايه يا فلاحنا الروسيّ ! انك لن ترحّب بالموت الطبيعي أبداً !»

ثم التفت الى الورقة التى سجّل فيها اقنان بلوشكين الفارين ، واخذ يقول «وأنتم يا اصدقائي ! انكم لا تزالون احياء ، ولكن اية فائدة ترجى منكم ؟ انكم عملياً ميتون . واني لأعجب اين القت بكم عصا الترحال ؟ هل كنتم عند بلوشكين تتألّمون من شظف العيش فآثرتم الفرار او أن طبيعة اهوائكم قادتكم الى تفضيل التجوال في البرارى والقفار وسلب من يعترضكم من المسافرين ؟ وهل انتم الساعة في السجون او تحرثون ارض اسياد آخرين ؟ ايرمي كارياكين ، نيكيتا فولوكيتا ، وانطون فولوكيتا (ابن السابق) اذا حكمنا عليكم بالقابكم فسوف تكونون ذوى اصل جوّال . بوبوف خادم في البيت . من المحتمل ان تكون رجلا مثقفاً أيها الطيّب بوبوف ، فتروح تسرق بأدب ولباقة تتميّز عن ذلك النوع الوحشيّ من السرقة الذى يصحبه حزّ الحلاقيم . اني لأتصوّرك بأم عينى ورئيس شرطة الريف يتحدّاك لانك لا تحمل جواز سفر فتلقي كلّ ما في جعبتك دفعة واحدة . ويسألك الرئيس من

سيدك ؟ وقد يضيف الى سؤاله هذا كلمة قاسية اخرى . فتقول عارما «الملاك الفلاني او الفلانيّ» ويستمر الرئيس سائلا «وماذا تعمل هنا ؟» فيكون جوابك السهل السياب ان تقول «لقد اخذت اذناً بالذهاب لاجمع ضريبتي» «اذن اين جواز سفرك ؟» – «عند المواطن بيمينوف ». – «بيمينوف ؟ لنستدع بيمينوف الى هنا ! اذن انت بيمينوف نفسه ؟» «نعم ، انا بيمينوف نفسه» . – «هل اعطاك جواز سفره ؟» – «لا ، لم يعطنى جواز سفره» . فيصيح الرئيس عالياً «ما هذا ؟ ما هذا ؟ انك تكذب» . فيكون جوابك المستكلب «لا ، لا اكذب ، لم استطع الليلة الماضية ان اعيد اليه جوازه لأنني رجعت الى البيت متاخراً ، وعلى ذلك فقد سلّمته الى انتيب بروخوروف ، قارع الاجراس ليحفظه له» . – «قارع الاجراس ؟ حقاً ! هل هو الذى اعطاك جوازاً ؟» «لا ، لم يعطني اى جواز» وهنا يضيف الرئيس مسبة اخرى ، ويقول «ماذا ؟ كيف تجرؤ على الاستمرار في الكذب ؟ اين جوازك الشخصى ؟» فتجيب بخبث «لقد كان لي جواز ويظهر انه سقط منى في الطريق عندما كنت آتياً» ويضيف الرئيس كلاماً وقحاً ويقول «وما قضية معطف الجندىّ ؟ من اين حصلت عليه ؟ وما قولك في خزنة الراهب والنقود النحاسية ؟» فتجيب مستكلبا «لا علم لى بهذه الاشياء ، ولم ارتكب في حياتي جريمة سرقة ابداً» – «اذن كيف تفسّر وجود المعطف عندك ؟» – «لا اعرف ! فمن المحتمل ان يكون قد وضعه انسان هناك» . فيصيح الرئيس هازّاً راسه

ورافعاً قبضته عليه «أيها السافل ! أيها السافل ! قيدوه بالحديد وخذوه الى السجن» فتجيب «بكل سرور» وتخرج علبة السعوط من جيبك وتقدّم منها للجنديين اللذين يصفدانك ، وتروح تسألهما عن الوقت الذى سُرّحا فيه من الجيش وفي اي الحروب اشتركا . وتظل في السجن حتى ينظر في قضيتك . عندئذ يصدر القضاء امره بنقلك من تساريفكوكشايسك الى سجن كيت وكيت . ثم يصدر قضاء آخر اوامر اخرى بنقلك الى (فيسيجونسك) او الى محل غيره . وتروح متنقلا من سجن الى سجن ، وتقول كل مرة اذ ترى السجن الجديد «كان السجن السابق انظف من هذا بكثير ، وكان باستطاعة المرء هناك ان يلعب «البابكي» * وان يمدّ رجله وان يرى جمعاً من الناس» .

وبعد صمت قليل استمر يقول «اباكوم فيروف ، ما شانك ايها الأخ ؟ اين تلهو الآن وباى عزم تلهو ؟ هل ذهبت الى شواطىء الفولجا فاطبقت عليك حياة الحرية فانضممت الى المراكبية ؟»

وهنا امسك تشيتشيكوف فجاة عن الكلام واستغرق في تاملاته الصامتة . ما الذى كان يدور في فكره آنذاك ؟ هل كان يفكر فيما جرى لأباكوم فيروف ام كان يفكر كما يفكر كل روسىّ اذا ما انصرف ذهنه الى حياة التحرّر والانعتاق ؟ وبالفعل اين فيروف الآن ؟ انه يتخطر مرحاً صخّاباً في رصيف الجبوب ، يماكس

---

* لعبة الكعاب . **المترجم** .

التجار . إن جماعة المراكبية كلها تمرح والزهور
والاشرطة على رؤوسها تودى معشوقاتها وزوجاتها
الطويلات الممشوقات ، يتحلين بالقلائد من قطع النقود
والاشرطة ! رقصات واغان ، الساحة كلها تمور
بالحياة ، والحمالون في غضون ذلك ، ووسط الصيحات
والشتائم والعجلة ، يغرزون خطاطيفهم في حمولة
تسعة بودات ويحملونها فوق ظهورهم ، ويدلقون الحمص
والقمح بصخب في بطون المراكب العميقة ، او يكومون
اكياس الشعير والذرة ، حتى أن اكوام الاكياس ترى
بعيداً في ارجاء الساحة ، مصفوفة في هرم مثل قنابل
المدافع ، وترسانة الحبوب كلها تبدو هائلة حتى تنقل
الى بطون المراكب على نهر سورا ، ويتحرك الاسطول
الهائل من المراكب مع اناسه المرحين ! عندئذ سيكون
امامكم عمل كبير ، يا مراكبيّة ! ومثلما كنتم تمرحون
وتصخبون مجتمعين ، ستشمرون للعمل والعرق ساحبين
المراكب على إيقاع اغنية واحدة لا نهاية لها كروسيا
نفسها .

ثم نظر الى ساعته وتنهد وقال «ايه ! لقد بلغت
الساعة الآن الثانية عشرة . لماذا نسيت نفسى هكذا ؟
لا يزال عليّ الكثير من العمل وانا منزو هنا مطلقا
لتفكيرى العنان ! ايّ غبى انا !»

قال ذلك ونهض فابدل زيّه الاسكتلندىّ (الذى
يتكوّن من قميص واحد فقط) بزىّ ذى طابع اوروبىّ .
ثم شد الصّدار على معدته الممتلئة ورشّ على نفسه
ماء الكولونيا وزمّ اوراقه تحت ذراعه واخذ قبعته ذات

الفرو وانطلق شطر مكاتب البلدية بغية اتمام تسجيل
النفوس . ولم يكن اسراعه في الذهاب خوفاً من
تاخره ، فهذا أمر لا يكترث اليه فتيلا (لأن رئيس
المجلس المحلّى صديق حميم ، وباستطاعته كأىّ
موظف كبير آخر ان ينجز الامر بسرعة شديدة او ان
يطيل فيه كما يشاء ، كما كان يفعل زيوس الذى جعله
هوميروس قادراً على تقصير الليل والنهار او تطويلهما
اذا اصبح من الضرورى ان يضع حداً لقتال ابطاله
المحبوبين او ان يترك لهم المتّسع من الوقت لأكمال
المعركة) ، لكنه كان يحسّ بأن عليه ان ينجز الامر
باسرع ما في الامكان نظراً لأن الأمر كان شاقاً مقلقاً
من بدايته الى نهايته . وبالاضافة الى ذلك ، لم يستطع
ان يتخلص من فكرة يحملها وهي أن نفوسه شيء غير
مادّى . بناء على ذلك كان يفضل في هذه الظروف ان
يزيح هذا العبء عن كاهله دون ايّ تاخير . ولبس
معطفه القرفيّ اللون المخطط كجلد الدبّ وخرج . ولم
يكد يخطو الى الشارع مستغرقا في التفكير حتى اصطدم
بسيد يرتدى معطفاً وقبعة من الفرو لها عذبتان فوق
الأذنين . عندئذ صاح الرجل صيحة تعجب . واذا به
مانيلوف . طوت الصديقين ضمة عنيفة وظلاّ ملتحمين
على هذا الشكل خمس دقائق كاملة . وقد كانت القبلات
التى تبادلاها في الواقع شديدة جداً حتى أنهما ظلاّ
يشكوان من ألم اسنانهما مدة كبيرة من ذلك اليوم .
وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان سرور مانيلوف في الأوج
حتى لم يعد يظهر من وجهه غير الانف والشفتين ،

واختفت عيناه اختفاء تاماً . وقضى بعد ذلك ربع ساعة وهو ممسك بيد تشيتشيكوف يفركها بشدّة . واخيراً ، اخذ يبوح لصديقه ، بافخر التعابير الممكنة واروعها ، بأنه كان في طريقه الى معانقة بافيل ايفانوفيتش . وتبع ذلك اطراء من النوع الذى يليق أن تخاطب به سيدة عندما يدعوها زميل لتشاركه في الرقص . وفتح تشيتشيكوف فمه للاجابة – لكنه شعر (حتى هو) بأنه ضائع لا يدرى كيف يجيب على ما قيل ، الى ان انقذه مانيلوف بأن اخرج من تحت معطفه رزمة من الورق مربوطة بشريط أحمر .

وتساءل تشيتشيكوف «وما تلك ؟»

«قائمة نفوس» .

«ايه !» وفتح تشيتشيكوف الوثائق ومرّر نظره عليها ، ولم يستطع الاّ ان يندهش لتلك الاناقة الرائعة التى كتبت بها .

وقال «ان الخط رائع جداً . ولا حاجة في الواقع الى نسخها . ولها هامش على الاطراف ! من عمل هذا الهامش الرائع ؟»

فقال مانيلوف «لا تسألنى» .

«هل عملته انت ؟»

«لا ، زوجتى» .

«يا الهي ! يا الهي ! لم اكن اتصور ان ازعجها الى هذا الحدّ» .

«لا شيء يمكن ان يكون ازعاجاً اذا كان من أجل بافيل ايفانوفيتش» .

فانحنى تشيتشيكوف شكراناً . وبالتالي ، لما علم مانيلوف أنه كان في طريقه الى دوائر البلدية لانجاز عملية النقل أبدى استعداده لمرافقته . فاشتبك الاثنان ذراعاً بذراع وانطلقا . وكان مانيلوف اثناء سيرهما اذا ما قابلا نتوءا طفيفا من الارض – حتى أقلّ تعرّج او اختلاف في المستوى – يسند تشيتشيكوف بقوّة تكاد ترفعه من قدميه ، ويرفق جميل صنعه هذا بابتسامة مضمونها انه لو لا مساعدته لكان وقوع بافيل ايفانوفيتش او انزلاقه أمراً حتمياً . ومع ذلك فقد بدا هذا السلوك يحرج تشيتشيكوف إما لأنه لم يجد الكلمات المناسبة لاعترافه بالجميل او لأنه وجد هذا التصرف أمراً متعباً . ولهذا أحسّ بالراحة اذ اطلّ على ساحة مكاتب البلدية – حيث تقوم بناية مؤلّفة من ثلاثة طوابق بيضاء كالطباشير ، قد ترمز بذلك الى طهر النفوس التى تقيم فيها . ولم يكن في الساحة أية بناية اخرى تضاهيها حجماً ، لأن المباني الاخرى كانت تتكون فقط من مظلة للحارس ومأوى لسائق او سائقين ولوحة طويلة للاعلانات تزيّنها النشرات المألوفة والبيانات وتشبيجات اخرى بالطباشير والفحم . ولم يكن ثمة من شيء آخر في هذه الساحة المعزولة أو الجميلة ، كما توصف عندنا . ومن نوافذ الطابقين الثاني والثالث كانت تطلّ بين الفينة والاخرى رؤوس كهنة تيميس • . النزيهة – تطل بسرعة وتنسحب بالسرعة

• تيميس (او طاميس) الهة العدل والقسطاس . **المترجم** .

نفسها ، وقد يكون سبب ذلك ان موظفاً كبيراً دخل الغرفة آنذاك . وكان الصديقان في هذه الآونة يصعدان السلّم ، لا بل يكادان يطيران ، لأن تشيتشيكوف كان يسرع الخطى لكي يتخلص من ذراع مانيلوف التي تسنده ابداً ، ومانيلوف يندفع الى الامام حتى يقي صاحبه اىّ زلة قد تزلها قدماه وعلى هذا ، ما كادا يصلان اول دهليز حتى كادت تتقطع منهما الانفاس . ويمكن ان نذكر – عابرين – ان لا الدهليز ولا الغرف ابدت من النظافة والنقاء ما ابداه ظاهر العمارة ، لأن سجايا كهذه لا تسترعي الاهتمام فى الداخل وكلّ ما كان متسخا ظل على ما كان عليه ، ولم يكن يتخذ مظهر الاحترام . كان كما لو ان تيميس تستقبل زائريها باهمال وهي ترتدى رداء البيت . وكان بودّ المؤلف ان يصف المكاتب المختلفة التى مر بها بطلنا لو لم يكن يخشى (اى المؤلف) الملاحقات القانونية . وحتى اذا صادف وان وجدها في المع واحشم مظهر ، بارضيات ومناضد مصقولة ، فقد كان يحاول ان يمر بها باسرع ما يمكن ، غاضاً ومخفضاً بصره الى الأرض بوداعة ، ولهذا السبب لا يعرف كلياً كيف اتخذت هذا المظهر اللامع الزاهر . إن ابطالنا رأوا العديد من الاوراق مكتوبة وبيضاء ، والرؤوس المحنية على المناضد ، والاقفية العريضة ، وستر الفراك ، والجاكتات من النمط الاقليمي ، وحتى جاكتة بسيطة رمادية فاتحة كانت العين تلتقطها بوضوح شديد ، وقد مالت الرأس الى جانب ، وكادت تمس الورق ، وهي تستنسخ بنشاط

وطريقة تلفت النظر محضراً عن اراض منزوعة الملكية او جرد ضيعة استولى عليها ملاك وديع ليقضي فيها بقية حياته بهدوء ، وبينما تكون القضية معروضة في المحاكم ، يكون هو قد خلّف الاولاد والاحفاد اثناء المحاكمة . ومن حين لآخر كانت تسمع عبارات مقتضبة منقطعة يطلقها صوت اجش «لو تتكرم ، وتعطيني الاضبارة رقم ٣٦٨ ، يا فيدوسي فيدوسيفيتش» – «دائماً انت تحشر غطاء قارورة حبر الدائرة في مكان ما !» واحياناً يصدر صوت اكثر مهابة ، هو ، بدون ريب ، صوت احد الرؤوساء ، قائلاً بلهجة آمرة «هاك . استنسخ . وإلا جعلتك تخلع جزمتك وابقيتك هنا ستة ايام بلا طعام» . كان صريف الريش عالياً ، وكان عدة عربات محملة بالاغصان المقطوعة تمر في غابة تراكمت على ارضها اوراق الشجر اليابسة بعمق ذراع .

واقترب تشيتشيكوف ومانيلوف من اول مكتب صادفه ورأى موظفين شابين كانا يجلسان خلفه ، وطلبا اليهما ان يتلطفا فيدلا ، اين تتم عملية نقل الاقنان .

فالتفتا اليهما الشابان الموظفان وقالا «ما هو نوع العمل الذى تريد ، بالضبط ؟»

«اريد ان اقدّم طلباً» .

«بخصوص الشراء ؟»

«لكني اريد ان اعرف قبل كل شيء المكتب المختص بنقل الاقنان . هل هو هنا او في محل آخر ؟»

«يجب ان تخبرنا اوّلا عن الشيء الذى اشتريته ،

وعن سعره ، وعندئذ يسرّنا ان نعطيك ما تبغى من معلومات» .

وادرك تشيتشيكوف ان ما دفع الموظفين الى ذلك كان مجرد الفضول كما يحصل دائماً مع صغار الموظفين الذين يريدون ان يظهروا بشخصية اكبر اهمية واكثر وقعاً مما هم عليه .

فقال «اسمعا يا سيديّ . اننى اعرف ان نقل الاقنان مهما اختلفت قيمتها تجرى فى مكتب واحد . وبناء على ذلك اطلب اليكما ان تدلاني على ذلك المكتب . واذا لم تعرفا عملكما فاني ساسال غيركما بكل سهولة طبعاً» .

ولم يجب الموظفان على هذا باكثر من اشارة الى احدى زوايا الغرفة حيث كان رجل عجوز مشغولا في تصنيف بعض الاوراق ، فانسلّ تشيتشيكوف ومانيلوف من بين المكاتب اليه . وازداد العجوز عندئذ انشغالا .

فسأله تشيتشيكوف منحنيا «هل تتفضل فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الاقنان ؟»

فرفع العجوز عينيه وقال بخشونة «لا ليس هذا مكتب شؤون الاقنان» .

«أين هو اذن ؟»

«في دائرة الاقنان» .

«وأين تكون دائرة الاقنان هذه ؟»

«في عهدة ايفان انطونوفيتش» .

«وأين ايفان انطونوفيتش ؟»

فاشار الرجل العجوز الى زاوية من زوايا القاعة ، واليها وجّه مانيلوف وتشيتشيكوف الخطى . واذ تقدّما

الى ايفان انطونوفيتش التفت الى الوراء ثم نظر اليهما متسائلا ثم عاود الكتابة بحمية متجددة .

وسأله تشيتشيكوف منحنياً «هل تسمح فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الاقنان ؟» بدا وكأن ايفان انطونوفيتش لم يسمع شيئاً ولهذا دفن راسه كليةّ بين اوراقه ولم يحر جواباً . وقد اتضح لهما من مظهره فوراً انه كان على الاقل في سنّ الوقار وليس من اولئك الثرثارين الفارغين الطائشين . ومع ان شعره كان اسود كثيفاً الاّ انه قد تخطىّ الاربعين منذ امد بعيد . كان كل وجهه منحرفاً باتجاه انفه ، اى ما يشبّه عادةً بالجرّة .

وكرّر تشيتشيكوف كلامه قائلا «هل تسمح فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختصّ بالاقنان ؟»

فقال ايفان انطونوفيتش «هذا هو» . واحنى راسه الذى يشبه الجرة مرة اخرى ، وعاود الكتابة .

«اذن اريد ان اجرى معاملة ، فقد اشتريت من ملاكين مختلفين في هذه المقاطعة عدداً من الفلاحين واريد ان انقلهم الى اسمى . هذه لائحة المشتريات ولا تحتاج الاّ الى التسجيل» .

«هل البائعون معك هنا ؟»

«بعضهم معي ، ومعي توكيل من الباقين» .

«وهل لديك نص الطلب ؟»

«نعم ، انما اريد ان أسرع في اجراء المعاملة ، لأمر ضروريّ لي . هل يمكن انجازها كلها خلال هذا اليوم ؟»

«اليوم ؟ لا يا عزيزى ! قبل اجراء ذلك يجب ان تقدم

لي ما يثبت أن لا اعتراضات على هذه المعاملة» .

«اذن ، عليّ أن اخبرك ان ايفان جريجوريفيتش صديق حميم لي ، فارجو السرعة» .

فقال ايفان أنطونوفيتش دون حماس «من المحتمل ، ولكن ايفان جريجوريفيتش ليس وحده مسؤولا ، فهناك آخرون أيضاً» .

«نعم ، ولكن الآخرين لن يشعروا بالظلم . لقد كنت نفسي في الخدمة واعرف كيف تسير الامور» .

فأجاب ايفان أنطونوفيتش بلهجة اكثر لطفاً «من الافضل أن تذهب وتقابل ايفان جريجوريفيتش . دعه يعطى امراً لمن يهمه الامر فباستطاعتنا ان ننجز المهمة» .

عندئذ سحب تشيتشيكوف من جيبه ورقة نقدية والقاها أمام ايفان أنطونوفيتش ، فرفع الاخير كتاباً بسرعة ووضعه فوقها . وحاول تشيتشيكوف أن يريها له مرة ثانية ولكن ايفان أنطونوفيتش هزّ رأسه دلالة على أن هذا غير ضروري .

واضاف قائلا «سيوصلك أحد الموظفين الى غرفة ايفان جريجوريفيتش» .

عندئذ تقدم منهم أحد الكادحين في خدمة تيميس – متعصّب ، قدّم لها تضحيات من صميم الفؤاد جعلت معطفه ينشقّ عند كوعيه وتنتثر بطانته – واوصل صديقينا (كما أوصل فرجيل دانتي ذات مرة) الى ديوان الحضرة الربانية . في هذا المكان المقدس انتصبت بضعة كراسي من ذوات المتكأ ومنضدة عليها كتابان

سميكان ومرآة كبيرة . وأخيراً كان الرئيس يجلس الى المنضدة كالشمس في وحدانيتها ، على ما تدل عليه الظواهر . وما وصل فرجيلنا الجديد الى باب الغرفة حتى بدا كان الرعب استحوذ عليه ، فقفل راجعاً دون أن يجرؤ على ادخال قدمه داخل الباب ، وبعمله هذا عرض ظهراً لامعاً كالحصير علقت به ريشة طير في احدى نواحيه . وحالما دخل الصديقان الى الحضرة الربانية ادركا ان الرئيس لم يكن وحيداً بل كان يجلس الى جواره سوباكيفيتش الذى اختبأ هيكله حتى تلك الساعة وراء المرآة المعترضة . اما دخولهما فقد اثار عاصفة من صيحات مختلفة وتسبب في اندفاع كرسيين من كراسي الحكومة الى الوراء بينما كان سوباكيفيتش ذو الاردان المعبعبة يقف بارزاً خلف المرآة . وتناول الرئيس تشيتشيكوف بالعناق ، ودوت الحضرة العلوية برهة من الزمن برنين القبلات واخذا يتبادلان الاسئلة عن صحة بعضهما البعض . وقد تبيّن أن الاثنين كانا يعانيان من تلك المسّة من الالم التى تصيب الانسان في أسفل الخصر والتى تسببها حياة الخمول . وقد تبين ايضاً ان الحديث بين الرئيس وسوباكيفيتش كان حول بيع النفوس اذ تقدم الآن يهنىء تشيتشيكوف على ذلك – وهو أمر كان محرجاً لبطلنا احراجاً شديداً لأن اثنين من البائعين مانيلوف وسوباكيفيتش ، ساوم كل واحد منهما في منتهى الكتمان ، كانا يقفان الآن أمام بعضهما وجهاً لوجه . ومهما يكن من أمر ، فقد شكر

تشيتشيكـــوف الرئيس شكـراً جميلا ثم التفـت الى سوباكيفيتش وساله عن صحته .

فاجاب سوباكيفيتش «الحمد لله ، لست اشكو من شيء» . وقد اصاب كبد الحقيقة بقوله هذا ، لان قطعة من الحديد قد تصاب بالبرد والعطاس قبل ان يصاب هذا الانسان الجلف .

وتدخل الرئيس قائلا «كان لك دائماً صحة جيدة ، اليس كذلك ؟ ووالدك المرحوم كان في قوتك ايضا» .

فاجاب سوباكيفيتش «نعم ، حتى انه كان يخـــرج لصيد الدببة وحيداً» .

فاستانف الحاكم يقول «اظن انـك تقهر الدب ان خضت معه نزالاً ؟»

فقال سوباكيفيتش «اوه ، لا ، فقد كان والدي اقوى منى – وهنا تنهد ثم اكمل يقول – لكن هذه الأيام خلو من امثاله من الرجال . حتى حياة كحياتى ، ما قيمتها ؟»

فصاح الرئيس «اذن انت غير راض عنها ؟»

فاستانف سوباكيفيتش هازاً راسه يقـــول «لا ، فالراحة بعيدة عنى . ولك ان تحكم بنفسك على ذلك يا ايفان جريجوريفتش . انا الآن في الخمسين من عمري ، ولم اصب في حياتي بمرض قط حتى ولا بدمل او بثرة عرضيين . وهذه علامة غير محمودة ، اذ يجب ان ادفع الحساب على ذلك ان عاجلا او آجلا» وطفت عليـــه مسحة من الكآبة .

اما الرئيس وتشيتشيكوف فقد راحا يقولان فـــي

نفسيهما «استمعوا لهذا المخلوق ! من اى شيء يشكـو في حياته !»

ثم صاح تشيتشيكوف قائلا «ان لك معي كتاباً يـا ايفان جريجوريفيتش» . واخرج من جيبه رسالـــة بلوشكين .

وتساءل الرئيس صائحاً وهو يفض ختم الرسالـــة «ممن ؟ ايه انها من بلوشكين ! انه لا يزال حياً ! اى عالم غريب هذا ، لقــد كان انساناً لطيفــاً ، موسراً والآن . . .»

فاكمل سوباكيفيتش قائلا «الآن هو انسان خسيس ، بخيل يجيع اقنانه حتى الموت» .

فقال الرئيس «اسمحوا لي لحظة» وقرا الكتاب . ولما اكمله راح يقول «نعم ، انا على استعداد تام لكي اكون وكيل بلوشكين . متى تريد ان تسجل عقد البيع يـــا سيدى تشيتشيكوف ؟ الآن او فيما بعد ؟»

فاجاب تشيتشيكوف «الآن اذا سمحت . واني لأرجوك في الواقع انجاز المعاملة اليوم اذا كان ذلـــك فـــي الامكان ، لأني سأترك المدينة غداً . وقد احضرت معي نماذج العقود ونص الطلب» .

«حسن جداً ، الاّ اننا مع هذا لن نتركك تغادرنـــا بهذه السرعة . ستكمل العقود اليوم ، انما يجب عليك ان تمدّد اقامتك عندنا . سأصدر الاوامـر الضروريـــة الآن» .

قال ذلك وفتح باب المكتب العام حيث ظهر الكتبة

كأنهم اسراب النحل حول قرص من عسل (اذا صحّ لي ان اشبّه اعمال الحكومة بهذه المادة) .

وسأل الرئيس «هل ايفان انطونوفيتش هنا ؟»

فأجاب صوت من الداخل «نعم» .

«اذن ارسله إليّ» .

وعلى ذلك ظهر في الممر ايفان انطونوفيتش ذو الوجه الجرّة ، وانحنى .

فقال الرئيس «خذ هذه العقود يا ايفان انطونوفيتش ، وليكن لديك علم بأن . . .» فقاطعه سوباكيفيتش يقول «ارجوكم ان تذكروا اولا ان الشهود يجب ان يكونوا حاضرين ، لا اقلّ من شاهدين عن كل فريق . ولنرسل اولا الى المدعي العام الذى ليس لديه ما يعمله الا القليل ، حتى هذا القليل يقوم به رئيس كتبته زولوتوخا وهو اكبر مرتش فى العالم . ومفتش دائرة الصحة ايضاً رجل خال من الاعمال ، ومن المحتمل ان يكون في البيت ان لم يكن قد ذهب الى حفلة للعب الورق . وهناك كثير من الرجال الذين يثقلون الارض عبثاً ومنهم تروخاتشيفسكي وباغوشكين» .

فقال الرئيس موافقاً «تماماً كذلك ، تماماً كذلك» وسرعان ما ارسل كاتباً يستدعي الاشخاص المذكورين .

وطلب تشيتشيكوف قائلا «يسرّني لو ارسلت في طلب ممثل مفوّض عن ملاكة لي معها معاملة ، وهو ابن الاب كيريل وهو موظف في مكاتبكم» .

فأجاب الرئيس «سندعوه بكل تأكيد ، سنعمل كل شيء حسب رغبتك . انما امنعك ان تقدم اى منحة

لموظفينا . هذا طلب خاص اطلبه منك . فليس من اصدقائي من يدفع درهماً واحداً» .

وبهذا اعطى ايفان انطونوفيتش التعليمات الضرورية . ومع ان هذه التعليمات لم تكد تحوز تأييد هذا الموظف ، الاّ ان الوثائق اثرت في الرئيس كثيراً على ما يظهر وزاد ذلك لما رأى المجموع الكليّ يقارب المائة الف روبل . فحدق في عينيي تشيتشيكوف لحظة او لحظتين وعلى وجهه امارات الرضى العميق ، ثم قال «احسنت يا بافيل ايفانوفيتش ! انها صفقة رائعة حقاً !»

فأجاب تشيتشيكوف «انها لكذلك» .

«عمل عظيم ، اجل ، عمل عظيم !»

«انني ادرك في الحقيقة ان لم يكن في قدرتي ان اعمل عملا احسن منه . ان اهداف المرء من حياته لا تصبح واضحة المعالم والحدود حتى يشيد هيكل حياته تلك على اسس متينة بدلا من اوهام الشباب العابرة» .

وانطلق تشيتشيكوف من هذه البداية يلقي التهم الضافية على الشباب الحديث وليبيراليتهم . الاّ ان نوعاً من فقدان الثقة كان يكمن وراء كلماته . كان يبدو وكأن نفسه تقول له «يا سيدى الفاضل ، انك تتكلم هراء محضاً ولا شيء غير الهراء» . حتى انه لم يجرؤ على النظر الى مانيلوف وسوباكيفيتش . فكأنه غير متأكد مما سيراه في ملامحهما . وما كان عليه في الحقيقة ان يخشى شيئاً . فوجه سوباكيفيتش لم تتحرك فيه عضلة واحدة ، اما مانيلوف فكان تحت تأثير فصاحة تشيتشيكوف بحيث لم يكن يستطيع ان يفعل

شيئا الاّ ان يهزّ برأسه مطأطئا بين اللحظة والاخرى تأييداً له – مَثَله في ذلك مَثَلُ عشاق الموسيقى وهم يستمعون الى مغنية يصحب صوتها كمان وينافسه ، حين تصدر نغماً فيه من الحدة ما يفوق طاقة طائر السمّان المغرّد .

وسأل سوباكيفيتش تشيتشيكوف «ولكن لماذا لا تخبر ايفان جريجوريفيتش عما اشتريت بالضبط ؟ ولماذا يا ايفان جريجوريفيتش لم تسأل تشيتشيكوف بالضبط مم تتكوّن مشترياته ؟ اى جمع عظيم من الاقنان ، بالتأكيد . أنا نفسي قد بعته صانع العجلات ميخيف» .

فصاح الرئيس «ماذا ؟ بعته ميخيف ؟ اني اعرفه جيداً . انه رجل رائع ، وقد عمل لي في فترة من الفترات دروزكى * . لكن . . . لكن . . أجل ، الم تخبرني مؤخراً انه مات ؟»

فردد سوباكيفيتش وهو يضحك «ميخيف مات ؟ ايه ، لا يا عزيزى . كان ذلك أخوه . أما ميخيف نفسه فهو حيّ . جداً حتى ان صحته احسن مما كانت عليه . ومنذ عدة ايام صنع عربة لا يمكن صنعها حتى في موسكو . على اية حال ، جدير بأن يتفرغ للعمل عند القيصر وحده» .

فقال الرئيس «انه صانع ماهر حقاً . الاّ ان الذى استغرب منه هو كيف استطعت التخلي عنه» .

* نوع منخفض من العربات ذو اربعة عجلات . **المترجم** .

«هل تظن ان ميخيف هو القن الوحيد الذى تخليت عنه ؟ لقد تخليت أيضاً عن بروبكا ستيبان النجار ، وميلوشكين البناء، وتليايتنيكوف الحذاء . نعم لقد بعت كل هؤلاء» .

ولما سأله الرئيس لِمَ فعل ذلك مع ان هؤلاء القوم كلهم من العمال الماهرين الذين لا غنى عنهم ، أجاب سوباكيفيتش بأن ذلك كان مجرد نزوة طغت عليه جعلته يفعل ما فعل ، وهكذاً فان اصل هذا التصرف كله هو نعرة من نعرات الجنون . ثم رفع راسه فعل النادم على هذا العمل التهوّرى ، وقال .

«مع ان الشيب وخط رأسي الاّ انني لم اتعلم الحكمة بَعْدُ» .

ثم تساءل الرئيس «ولكن كيف حدث يا بافيل ايفانوفيتش ان تشترى الاقنان دون الارض ؟ هل تنوى أن تنقلهم الى مكان آخر ؟»

«نعم» .

«حسن جداً . اذن هذه مسألة اخرى . الى اية جهة ؟»

«الى مقاطعة خارسون» .

«حقاً ؟ ان هذه المنطقة كلها اراض رائعة» واخذ يسهب في وصف مراعي خارسون .

ثم سأل يقول «وهل لك ارض كبيرة هناك ؟»

«نعم ، تكفي للاقنان الذين اشتريت .»

«وهل هناك نهر أو بحيرة في تلك الولاية ؟»

«كلاهما» .

وبعد هذه الاجابة القى تشيتشيكوف نظرة لا ارادية

على سوباكيفيتش . ومع أن وجه هذا الانسان كان جامداً كعادته أبداً ، الا ان تشيتشيكوف قرأ في وجهه انه يقول «أيها الكذاب ! تقول ان لك نهرا وبحيرة ، وارضاً أيضاً» .

كان الشهود في تلك الاثناء يتوافدون الواحد بعد الآخر . فوصل المدعي العام ، الذى يغمز أبداً ، ومفتش دائرة الصحة ، وتروخاتشيفسكى وباغوشكين وآخرون - وكلّ منهم على حدّ تعبير سوباكيفيتش من الذين يثقلون على الارض عبثاً . ومهما يكن من امر فقد كان تشيتشيكوف يجهل بعضهم جهلاً تاماً لا سيما وقد كانت المعاملة تستدعي ادخال وكلاء واشخاص آخرين لإكمال العدد المقرر ، وهذا ما فعلوه بادخال الموظفين الثانويين . وتلبية للدعوة لم يصل ابن الاب كيريل وحسب بل وصل الاب كيريل نفسه . واضاف كل واحد من هؤلاء الشهود الى امضائه سلسلة من المميزات والمؤهلات . اضافها أحدهم باحرف مطبعية وآخر بالاحرف الدارجة وآخر بخط مقلوب رأساً على عقب لم يعهد مثله من قبل في الابجدية الروسية . وكان صاحبنا ايفان أنطونوفيتش اثناء ذلك يستعمل ما يليق من عبارات المخاطبة . وبعد أن امضيت العقود وحفظت وسجّلت دعي تشيتشيكوف الى دفع مبلغ تافه جداً ، وهو النسبة المئوية التى تتقاضاها الحكومة واجرة اعلان الصفقة في الجريدة الرسمية . وكان السبب في ذلك ان الرئيس قد امر ان تؤخذ نصف الرسوم فقط من المشترى الحالى ، وسجّل النصف الآخر بشكل من

الاشكال في حساب انسان آخر من طالبى تسجيل الاقنان .

وبعد ان اكمل كل شيء ، قال ايفان جريجوريفيتش «والآن لم يبق علينا الا الحلوان» .

فاجاب تشيتشيكوف «وانا على استعداد لهذا ايضا ، وما علكيم الاّ ان تعينوا الساعة . وسأكون ضنينا حقاً ان لم ادع اغطية زجاجات الشمبانيا تتطاير في الهواء لقاء رفقتكم الطيبة» .

«ولكننا لن نتركك تغرم شيئاً ، مهما كان ذلك الشيء . فعلينا احضار الشمبانيا لأنك ضيفنا ، وعلينا نحن ان نكرمك - انه واجبنا ، انه الفرض الواجب علينا . اصغوا اليّ أيها السادة - هيّا بنا الى بيت رئيس الشرطة ، فهو الساحر الذى ما عليه الاّ ان يغمز بائع السمك او تاجر الخمر اثناء سيره ، ولن نتمتع بطيّب الاكل في بيته وحسب ، بل سنلعب الوست ايضاً» .

ولم يثر هذا الاقتراح أىّ اعتراض ، لأن ذكر السمك فتح شهية الحضور . وبناء على ذلك ، ما كادوا يسمعون به حتى حدث هجوم على القلانس والقبعات . واذ كانت الزمرة تمر من قاعة المكاتب العامة همس ايفان انطونوفيتش في اذن تشيتشيكوف بانحناءة لطيفة من وجهه الشبيه بالجرة قائلا «لقد دفعت مئة الف روبل للاقنان ، ولكنك لم تدفع لي مقابل تعبي الاّ شيئاً زهيداً جداً » .

فاجابه تشيتشيكوف بهمسة مماثلة «نعم ، ولكن اىّ

نوع من الاقنان تظنهم ؟ انهم طائفة ضعفاء لا نفع فيهم ، ولا يساوون حتى نصف هذه القيمة» .

وفهم ايفان انطونوفيتش من هذا ان الرجل ذو شخصية قوية – رجل لا ينتظر منه ان يدفع اكثر مما فعل .

وهمس سوباكيفيتش في اذن تشيتشيكوف «وباي ثمن اشتريت انفسا من بلوشكين ؟»

فتمتم تشيتشيكوف قائلا «ولماذا اضفت المراة فوروبي الى قائمتك ؟»

«فوروبي ؟ من فوروبي هذه ؟»

«المراة اليزابيت فوروبي – اليزابيت وليس اليزابيتا» .

«لم اضف اسماً كهذا» . وانضم سوباكيفيتش الى الضيوف الآخرين .

ووصلت الزمرة اخيراً الى بيت رئيس الشرطة . واثبت الاخير أنه رجل ساحر حقاً ، اذ لم يكد يعلم بحقيقة الامر حتى دعا شرطيا شابا نشيطا وهمس في اذنه بشيء ما ، ثم اضاف بصوت عال يقول «لقد فهمت ، أليس كذلك ؟» ثم رتّب الامر بحيث جلس الضيوف في غرفة جانبية يلعبون الوست ، بينما راحت مائدة الطعام تزخر بسمك الحفش والكافيار والسالمون والزجر والجبن واللسان المدخن والبطارخ الطازج والمعلّب – كلها قد احضرت من السوق المحلية واضيفت اليها اصناف من بيت المضيف نفسه من اطباق مطبخة فطيرة محشوه بالغضاريف ، ووجنات سمكة سلمون

ضخمة ، وفطيرة اخرى محشوة بالفطر وضفائر . كان رئيس الشرطة المحترم في الحقيقة ، في مركزه ذاك كانه اب لأهل المدينة او وليّ نعمتهم ، فكان يسير بين المواطنين كما يسير المرء بين اهله وذويه ويحدّق في الاسواق والحوانيت كان هذه مستودعات خاصة له . وقد كان يقوم بواجباته على ما يرام حتى يتعذر علينا ان نقول فيما اذا كان هو الذى يصلح لمنصبه ذاك او ان منصبه هو الذى يصلح له . وقد استطاع ان يسوّى اموره تسوية مرضية بحيث لم يفقد مرة حب مواطنيه مع ان دخله قد اربى على ضعفي دخل سابقيه . وقد احبه التجار على الاخص حبا جمّاً ، لأنه لم يتعالَ عن ان يكون لهم كما يكون الاب لاطفاله ولم يتكبّر ان ياكل الطعام على موائدهم . وكانت له في الحقيقة خلافات في الراى معهم – وخلافات خطيرة في هذا الخصوص . لكنه كان دائماً يعدّلها بأن يخبط المستاء منهم على كتفه ويشرب معه قدحاً من الشاي ويعده بزيارة في بيته ولعب الشطرنج معه . وكان يسال عن شؤون التاجر الخاصة واذا علم ان له ابناً مريضاً وصف له العلاج اللازم . بالاختصار ، كان يتمتع بسمعة طيبة جداً . وحين يستقل عربته ، ليتفقد الأمور ، لا يفوته في الوقت ذاته ان يلقى جملة لهذا او لذاك «طيب ، يا ميخييتش ! لا بد ان نتم دورة لعبتنا في وقت ما» . فيرد هذا خالعاً قبعته : «صحيح ، يا الكسي ايفانوفيتش ، لا بد» . – «طيب ، يا أخ ايفان بارامونيتش ، زرني والق نظرة على حصاني السبّاق .

أنا واثق أنه سيسبق حصانك ، ولا تنس ايضاً أن تعد
حصانك للسباق . لنجرب» . فيستدر ذلـــك من هذا
التاجر المفتون بالخيـــول العداة ابتسامة مخصوصة ،
ويقول برحابة صدر ، كما يقال ، ممسداً لحيتـــه
«لنجرب ، يا الكسي ايفانوفيتش !» وحتى الباعـة في
الحوانيت الذين كانوا يقفون عادة في مثل هذا الوقت
وقبعاتهم بايديهم فقد كانوا جميعاً يتبادلون النظرات
فيما بينهم بارتياح ، ولسان حالهم يقول «الكســـي
ايفانوفيتش رجل معتبر !» وباختصار استطاع ان يحظى
بشعبية تامة ، وكان راى التجار ان الكسي ايفانوفيتش
«على رغم حبه للرشوة ، لن يشي بك ابداً» .

وما ان رأى رب البيت ان المائدة مهيّأة حتى اقترح
على ضيوفه ان يؤجلوا لعبة الوست الى ما بعد الغداء ،
ودعوا كلهم الى غرفة الطعام حيث كانت منذ زمن غير
قليل تنبعث منها الى خياشيمهم رائحة شهية وحيث كان
سوباكيفيتش بالذات يوجّه انظاره الى سمكة حفش
ضخمة موضوعة على الخوان . وبعد ان تناول كل فرد
منهم كأسا من الفودكا الزيتية اللون – فودكا ذات لون
لا يرى الاّ في ذلك النوع من أحجار سيبيريـا الذى
تصنع منـــه الاختام – انكب القوم عـــلى الاشواك
والسكاكين ، وبعملهم هذا تجلت ميزاتهم واذواقهـــم
المختلفة . فقد استنكف سوباكيفيتش مثلا عن الزهيد
التافه من الطعام وتوجه الى سمكـة الحفش الكبيرة .
وبينما كان زملاؤه الضيوف يأكلون خفيف الطعـــام
ويشربون ويتحدّثون تمكن من ان يلتهـم معظـــم

السمكة . حتى ان رب البيت لما تذكر هذا المخلوقـــة
وتوجّه اليها وهو يحمل الشوكة في يده قائلا «ما رأيكم
ايها السادة في انتاج الطبيعة العجيب هذا ؟» تبيّن له
أن انتاج الطبيعة العجيب لم يبق منه الاّ ما يزيد قليلا
عن الذنب . هذا بينما كان سوباكيفيتش – واقلّ ما
يدلّ عليه مظهره انه لم يأكلها – كان معنيا بغرز
شوكته في سمكة اخرى اقل من سابقتها حجماً ، كانت
ملقاة في طبق قريب . وبعد أن هجر السمك لم يأكـل
ولم يشرب شيئاً آخر بل جلس على كرسيه ذى المتكأ
متجهّماً رامشاً .

وما كان رب البيت بالبخيل بالخمر ، لأن الانخاب
التي شربت كانت لا تحصى . جُرع أولها (كما قـد
يتصوّر القارئ) نخب مالك خارسون الجديد ، وثانيهما
نخب توفيقه في فلاحيه وتنقلهم بسلام ، وثالثهما نخب
جمال زوجته المقبلة – تحية جعلت شفتي بطلنا ترّفان
ابتساماً . واخيراً وجّه اليه الجمع دعوة حارّة اجماعية
بان يمدّد اقامته في المدينة اسبوعين آخرين على الاقل
وان يسمح في الوقت نفسه بالتفتيش عن زوجة له .

– لا ، يا بافيل ايفانوفيتش ! لك أن تقول ما تشاء ،
ولكن هذا بمثابة تبريد الجو . تصل الى العتبة ، ثم تعود
من حيث اتيت ! يجـب أن تمضي بعض الوقت معنا !
وسنزوجك ، اليس كذلك ، يا ايفان غريغوريفتش ،
نزوجه ؟

فوافق الرئيس قائلا «تماماً كذلك . اننا مصممون
على زواجك حتى لو قاتلتنا بالباع والذراع . لقد أوقعك

الحظ بيننا ولن تندم على ذلك ، واننا في الامـــر لجادّون» .

فقال تشيتشيكوف باسماً «لكن لماذا اقاتلكم بالباع والذراع ؟ ان الزواج لا يأتي عرضاً . لو كانت لـي خطيبة فقط . . .»

«اذن ستكون لك خطيبة . لم لا ؟ اننا سنعمل حسب رغبتك» .

فوافق تشيتشيكوف قائلا «حسن جداً» .

فصاحت الجماعة «لله درّك ! للـه درّك ! يعيش بافيل ايفانوفيتش . مرحى ! مرحى ! وبهذا ادنى كل واحد منهم كاسه الى كاسه ، وكان قرع الكؤوس ، واخذ هو يتلقى التحيات ، يتلقاها مرارا عديدة عـلى التوالي . وكان مرح الجماعة في الواقـــع يزداد بمرور الوقت ، حتى ان الرئيس (وهو رجل شديد اللطــف حين تسيطر عليه كاسه) عانق ضيف الساعة بالكلمات العاطفية التالية «يا اعزّ انسان ! يا اغلى صديق لدىّ ! لا ، بل راح يرقص حول الكرسي الذى جلس عليــه الضيف ويفرقع باصابعه ويغني مقاطع من اغنيـــة شعبية . وتبع الشمبانيا نبيذ هنغارى زاد في حيوية الجماعة والتهاب عواطفهم . عندئذ كان كل منهم قـد نسي لعبة الوست واستسلم للصياح والجدل . ولقد بحثوا كل المواضيع التى تقبل البحث بما في ذلـــك الشؤون السياسية والحربية . وقد أبدى الضيوف بهذا الخصوص آراء ركيكة تافهة لو سمعوها من أبنائهم في غير هذا الوقت لصفعوهم عليها صفعاً شديداً . وحللوا

العديد من القضايا المعقدة . وقد احسّ تشيتشيكوف كالبقية بمرح ليس له به عهد من قبل ، فتوهّم انـه صاحب خارسون بحقّ ، وراح يتكلم عــن اصلاحات زراعية مختلفة وعن النظام الثلاثي لاستغلال الارض * ، وعن الغبطة والسعادة في ائتلاف روحين متشابهين . وراح يروى شعراً لسوباكيفيتش الذى كان يرمش وهو يستمع لأن به رغبة شديدة للنوم . واخيـراً ، ادرك ضيف الساعة أن الامور قد وصلت حدّها فطلب ايصاله الى مقرّه ، وهيّئت عربة المدعى العام من نوع دروزكي لهذا الغرض . وكان سائق العربة لحسن الحظ رجلاً خبيراً في عمله ، اذ استطاع أن يمسك الاعنّة بيـد واحدة وأن يستند الى الخلف ويمسك تشيتشيكوف باليد الاخرى امساكة تقيه من الخوف . واستمرّ بطلنا يثرثر حول فتاة ذات شعر أشقر وشفتين ورديتيـن وغمّازة على خدّها الايمن وعن راس ماله وقراه فـي خارسون الى ان دخل النزل . وليس ذلك فقط ، بـل اصدر أوامر عاليه الى سيليفان ان يذهب ويجمـع الفلاحين الذين سينقلهم ويعدّ لائحة كاملة مفصلة عنهم . واستمع له سيليفان برهة وهو صامت ، ثم ترك الغرفة وذهب الى بتروشكا يطلب منه ان يساعد السيد في خلع ملابسه . وكما حصل ، فلم تكد تنزع نعـلا تشيتشيكوف حتى أكمل بقية المهمة بنفسـه دون

* الطريقة التى يزرع بها ثلثا الارض ويترك الثلث بورا . **الناشر** .

مساعدة ، وتدحرج على السرير (الذى صرف صريفاً مزعجاً عندئذ) وغرق في نوم عميق يليق من جميع الوجوه بملاك خارسون . بينما اخذ بتروشكا معطف السيد وسراويله العنّابية الى الممر حيث نشرهما على سرج حصان وراح يحسّهما بالفرجون ويملأ الممر كله غباراً . واذ كان يهمّ بارجاعهما الى غرفة سيده ، نظر عبر الرواق فرأى سيليفان راجعاً من الاسطبل . فتبودلت بينهما النظرات وتوصل الاثنان الى تفاهم غريزيّ – تفاهم على أن السيد نائم نوماً عميقاً وان من واجب المرء الآن ان يلتفت الى متعته الخاصّة . وبناء على ذلك ، أرجع بتروشكا المعطف والسراويل الى موضعيهما ونزل السلمّ ثم غادر النزل برفقة سيليفان . ولم تدر بينهما كلمة واحدة عن هدف مهمتهما بل على العكس راحا يتحادثان عن امور خارجية . الاّ ان مسيرهما لم يبتعد بهما كثيراً ، بل قادهما الى الناحية الاخرى من الشارع ثم الى بناية تقابل الفندق مباشرة ، واجتازا باباً زجاجياً ثم دخلا غرفة فيها بعض الزبائن الجالسين الى موائد خشبية صغيرة ملتحين وغير ملتحين ، بعضهم في معاطف فرائية والبعض الآخر في قمصان لا غير ، وآخرون في معاطف من النسيج الخشن . أما ماذا عمل سيليفان وبتروشكا بعد ذلك فهذا ما لا يعلمه الاّ الله . على اية حال فقد خرجا بعد ساعة من الزمن وهما صامتان صمتاً عميقاً وكل منهما يتأبّط ذراع الآخر ويتشبث به تشبثا غريبا ، وكل منهما على استعداد دائم لمساعدة أخيه عند مرورهما

بزاوية مظلمة . وصرفا ربع الساعة التالية في محاولة صعود سلمّ النزل ، وهما لا يزالان مشتبكين معا ولم يتركا بعضهما لحظة واحدة . واخيراً تمكنّا من الصعود وسارا في طريقهما . ووقف بتروشكا يفكر برهة أمام فراشه الصغير الحقير . كانت المشكلة أمامه هي كيف يمكن ان يضطجع عليه . وأخيراً ، اضطجع على وجهه ورجلاه ترفلان على الارض . ثم اضطجع سيليفان على الفراش نفسه أيضاً ورأسه على خصر بتروشكا وهو غافل كل الغفلة عن نومه هنا لا يجوز اطلاقاً بل يجب أن ينام في مكان الخدم أو في الاسطبل قرب الخيول . ولم تكد تمضى لحظة واحدة حتى غرق الاثنان في النوم وراحا يصدران شخيراً أجشّ أجاب عليه سيدهما من الباب المجاور بشخير أنفيّ ذى صفير . ولم يمض في الواقع وقت طويل حتى حذا حذوهما المريح كل من في النزل . وبدا الفندق وكأنه غارق في بحر الراحة العميقة . الاّ أن نوراً كان لا يزال منبعثاً من غرفة الملازم الذى وصل حديثاً من ريازان . كان جليّاً أنه مفتون بالاحذية لأنه اشترى اربعة ازواج وهويحاول الآن شراء الخامس . وقد اقترب مرّات عديدة من الفراش قاصداً أن يخلع الحذاء ويأوى الى مضجعه ، ولكنه فشل في كل مرة من هذه المرات لأن الحذاء كان مغرياً جداً بحيث لم يجد أمامه بدّاً من أن يرفع أولا احدى قدميه ثم الاخرى ليتأمل في حواشي الحذاء الانيقة .

الفصل الثامن

سرعان ما اصبحت مشتريـــات تشيتشيكوف حديث المدينة ، واختلفت الآراء فيما اذا كان مـــن الصواب شراء الاقنان من بلد ونقلهم الى بلد آخر . وفي الحقيقة كان اهتمام بعض المواطنين في الامر اهتماماً بالـــغ الشدة . وكان آخرون يقولون «بالطبع ، لا اعتراض لأحد على ذلك . فان الاراضي في الولايات الجنوبية جيدة وخصبة ، ولكن كيف سيدبر فلاحو تشيتشيكوف أمورهم بدون ماء ؟ وفي تلك المنطقة لا يوجد اي نهر» . – «لا يهم كثيراً ، اذا لا يوجد ماء ، لا بأس ، يـــا ستيبان دميتريفيتش ، ولكن توطينهم مسألة مشكوك فيها . انت تعرف الفلاح ، اذا استوطن ارضاً جديدة ، وتوجب عليه ان يحرثها ويزرعها علاوة على ذلك ، بينما هو لا يملك بيتاً ، ولا ملحقاته ، هروبه مؤكد مثل اثنين واثنين تساوي اربعة . سيهرب دون ان تجـــد له أثراً» . – «لا ، يا الكسي ايفانوفيتش ، وارجـــو المعذرة ، أنا لا اتفق معـــك . انت تقول فلاحـــو تشيتشيكوف سيهربون . الروسي يتلاءم مع كل شيء ، ويتعود على كل مناخ . ارسله الى كامتشاتكا ، واعطه قفازين دافئين ، وستراه يضرب كفيه ، ويمسك الفأس ، ويخرج ليقطع الأشجار ، ويصنع منها كوخـــاً جديداً له» . – «ولكنك ، يا ايفان غريغوريفيتش فاتك شيء مهم . انت لم تسأل اي فلاحين هم فلاحـــو تشيتشيكوف . ونسيت ان المالك لن يبيع شخصـــاً

معتبراً . انا مستعد ان اقطع راسي اذا لم يكونوا فلاحو تشيتشيكوف لصوصاً او سكيرين الى آخر درجة ، او تنابلة تماماً ، او شقاة مشاكسين» . – «بالضبط ، بالضبط . انا متفق معك ، صحيح لا احد يبيع ناســـاً معتبرين ، وفلاحو تشيتشيكوف هولاء سكيرون ، ولكن يجب الانتباه الى ان ذلك هو ما يسمى بالمعنوية . هنا تلعب المعنوية دورها . إن هؤلاء عاطلـــون الآن لا ينفعون لشيء ، ولكن حالما يستوطنون ارضاً جديدة حتى يمكن ان يصيروا رعايا ممتازين . وهناك امثلـــة غير قليلة على ذلك في عالمنا الراهن ، وفي التاريـــخ ايضاً» . – «مستحيل ، مستحيل ، – قال مدير المعامل الحكومية – صدقوني ، هذا لا يحصل ابداً . لأنـــه سيكون لفلاحي تشيتشيكوف الآن عدوان قويان . العدو الأول هو القرب من ولايات اوكرانيا ، حيث بيع الخمرة ، كما تعرفون ، بلا قيود . انا اؤكد لكم انهم خـــلال اسبوعين سيعبـــون جرادل من الفودكا ، ويصيرون سكارى طينة . والعدو الآخر هو التعـــود على حياة التصعلك التي لا بد ان تلحق بالفلاحين عند الانتقال . ويجب ان يكونوا دائماً تحت مراقبة تشيتشيكوف ، وان يمسكهم بيد من حديد ، ويعاقبهم على كل هفوة ، ولا يعتمد في ذلك على شخص آخر ، بل ان يلخمهم ويصفعهم على القفا بيديه هو وكما يجب» . – «ولماذا يكلـــف تشيتشيكوف نفسه ، ويصفعهم على القفا . يمكنه ان يحصل على مدير اعمال» . – «اي نعم ، وكيل اعمـــال . كلهم نصّابون !» – «نصابـــون ، لأن الأسياد لا

ينشغلون بأعمالهم» . أيّده كثيرون قائلين : «صحيح ، يجب أن يعرف السيد ، ولو قليلاً عن ادارة أعماله ، ويقدر أن يميّز بين الناس . وعند ذاك سيكون له دائماً وكيل أعمال جيد» . ولكن مدير الاعمال قال - بأقل من خمسة آلاف لا يمكن ايجاد مدير أعمال جيد . ولكن الرئيس قال - يمكن ايجاده وحتى بثلاثة آلاف . ولكن مدير الاعمال قال : «أين تجده ؟ تحت أنفك ؟» ولكن الرئيس قال : «لا ، ليس تحت أنفي ، ولكنه في هذا القضاء ولا أبعد منه . وبالذات بيتر بيتروفيتش ساموبلوف ، فهو مدير الأعمال اللازم لفلاحي تشيتشيكوف !» وتفهم الكثيرون وضع تشيتشيكوف بشكل جيد ، كما ارعبتهم للغاية صعوبة اعادة اسكان هذا العدد الغفير من الفلاحين ، فأخذوا يبدون مخاوفهم الشديدة من أن يحصل كل شيء ، وحتى العصيان ، بين أناس مشاغبين ، كفلاحي تشيتشيكوف . وبهذا الصدد لاحظ مدير الشرطة أن لا خوف من العصيان ، وان سلطة مأمور مركز ما وجدت إلا لقمع هذا العصيان ، وان مأمور هذا المركز ، وإن كان نفسه لا يخرج ، إلا أن سيرسل بدلاً منه قبعته الرسمية ، وهذه القبعة وحدها ستطارد الفلاحين الى حيث يقيمون . وعرض الكثيرون آراءهم بخصوص كيفية استئصال روح التمرد التي استولت على فلاحي تشيتشيكوف . وكانت الآراء من مختلف الاصناف ، ومن بينها كانت تفوح القسوة العسكرية والصرامة الزائدة تقريباً ، وبالمقابل ، كانت هناك آراء تنم عن روح التساهل . وذكر مدير البريد

ان واجباً رهبانياً سيواجه تشيتشيكوف ، وان في امكانه ان يكون بين فلاحيه بمثابة الأب لتطبيق حتى التعليم الاحساني وذكر بثناء كبير مدرسة للتعليم المتبادل في مدينة لانكاستر .

هكذا تكلموا في المدينة حتى انهم راحوا ينصحون المشتري باستصحاب الحرس الكافي لكي يؤمّن وصول القافلة الى مقرّها بسلام . ومع ان تشيتشيكوف شكر للناصحين نصيحتهم وقال بأنه سيكون مسروراً للجوء الى هذه الحيلة اذا اقتضى الامر ، الاّ انه أعلن أيضاً بأن ليس هناك من حاجة ماسّة للحراسة لأن الفلاحين الذين ابتاعهم قوم مسالمون كل المسالمة ، وبما أنهم موافقون في الاصل على فكرة النقل فمما لا ريب فيه أنهم سيسلسون القياد .

ومن النتائج الحميدة التي انبثقت عن هذه الدعاية لمشروعه ان أصبح يعدّ في عيون الناس من أصحاب الملايين لا اكثر من ذلك ولا أقلّ . وبناء على ذلك ، فاذا كان سكان المدينة قد أحبوا بطلنا لأول وهلة (كما مرّ بنا في الفصل الاول) ، فقد أحبوه الآن أكثر من أيّ وقت مضى . وقد كانوا في حقيقة الامر معشراً يتميّزون تميّزاً فريداً بالهدوء والطيبة وسلاسة المزاج وكانت احاديثهم على هذا الشكل البسيط الوديع «عزيزي الفاضل ، ايليا ايليتش» ، «اسمع ، يا أخ ، انتيباتور زخارافيتش !» ، «لفّقت يا عزيزي ايفان غرغوريفيتش» . وكانوا يضيفون دائماً لمدير البريد المدعو ايفان اندرييفيتش «شبريخين ذى دّيتش ، يا

ايفان أندريتش ؟» (أى «أ تتكلم بالالمانية ؟»)
وباختصار كانوا في جو عائلي ممتاز . وكان الكثيرون
منهم ليسوا بلا ثقافة تماماً . فرئيس المجلس المحلي
مثلا ، كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة «لودميلا»
للشاعر جوكوفسكي التى كانت آنذاك في أول ذيوعها
فاذا ما تلاها ووصل الى المقطع الذى يقول فيه «بأن
النوم خيّم على غابة الصنوبر ، والوادى في هدوء» وكلمة
«انصتوا» التى تلي ذلك ، فانه يضع في القائه من
الايقاع التأثيرى ما يجعل المرء يتصور أن النوم
والهدوء قد خيما على الغابة والوادى حقاً . ويبلغ
التأثير ذروته في الحقيقة بالطريقة التى يسبل فيها
اجفانه في تلك اللحظات . أما مدير البريد فقد كان
اتجاهه اتجاهاً فلسفياً فكان يواظب على قراءة كتب من
امثال «خواطر الليالي» للكاتب يونغ ، و«اسرار
الطبيعة» لايكارتسهاوزن ، وكان يستشهد من الاخير
بمقاطع عديدة لا يفهم سامعوه منها شيئاً . وفيما عدا
ذلك كان ذكياً فصيحاً مغرماً بتنميق الكلام وزخرفته ،
فيستعمل لهذا الغرض تعابير كالتالية – «يا سيدى
العزيز» ، «الله اعلم» ، «هل عرفت» ، «هل فهمت ؟» ،
«هل تتصوّر ؟» ، «نسبياً» ، «مثلا» ، «وبالاضافة الى
ذلك» ، «الخ ، الخ» – تعابير يستطيع أن يملأ منها
اكياساً . ويستطيع أن يزخرف كلامه أيضاً بطريقة
اخرى ، وهي أن يسبل احد اجفانه فتصبح عينه بين
الغمض والغمز – حيلة كانت تضفي على تعليقاته
الساخرة أثراً لاذعاً . ولم يكن زملاؤه اقل منه الماماً .

كان احدهم مثلا ، لا ينفكّ يقرأ مؤلفات كرامزين
التاريخية ، وآخر لا ينقطع عن تصفح «جريدة موسكو» ،
وثالث لم يفتح كتاباً أبداً . والبعض الآخر كان مما
يدعى بـ«البعوضة» اي ذلك الذي اذا اردت ان تنهضه
فلا بد أن تنغزه بشيء ما . والبعض الآخر كان تنبلا ،
قضى عمره كله مستلقياً على جنبه ، كما يقول المثل ،
بل ومن العبث ان تجرب وتنهضه من مكانه . فانه لن
يبارح مكانه في كل الاحوال . أما من حيث المظهر فهم ،
كما هو معروف ، اناس يعتمد عليهم ، ولن تجد اي
مسلول بينهم . ومع انهم في حياتهم الداخلية ينادون
من قبل نسائهم بالقاب مثل «ابو كرش» و«برميل»
و«فار» و«عزيزي» الا انهم كانوا في الواقع على قسط
كبير من حسن النية وطيبة القلب ذوى كرم حاتميّ
يفتحون قلوبهم لكل من شاطرهم الخبز والملح او قضى
معهم ليلة فى لعبة الورق ، وخصوصاً لتشيتشيكوف
الذى يعرف اسرار الفتنة بدقة واحكام . لهذه الخصائص
الطيبة التى كان يتحلّى بها اهل المدينة أصبح
تشيتشيكوف موضع الاعجاب والتقدير ، بحيث عاد من
الصعب عليه أن يترك البلد الذى اينما حل فيه طنّت
في أذنيه جملة واحدة لا تتغيّر وهي «ابق معنا اسبوعاً
آخر يا بافيل ايفانوفيتش» . باختصار ، اصبح يحسّ
بانه محاط بالقلوب وليس له من الحرية ما يستطيع
ان يفعل بها ما يشاء . ولكن الوقع المدهش حقاً (وهو
امر لا يخلو من الغرابة) هو ذلك الذى تركه
تشيتشيكوف في قلوب السيدات . ولكي أستطيع أن

أشرح هذه الظاهرة شرحاً وافياً عليّ ان أقول الكثير عن السيدات أنفسهن وان أصف علاقاتهن الاجتماعية ومميزاتهن الروحانية وصفاً جلياً في أوضح الالوان . ولكن أمراً كهذا سيكون شاقاً عسيراً عليّ لسببين - أولهما هو احترامي العميق لجميع نساء الموظفين المدنيين ، وثانيهما . . أجل . . ان الامر نفسه صعب حقاً . على أية حال فان نساء مدينة «ن» كنّ . . . لكن لا ، لا أستطيع . . . إنّ قلبي ليخذلني . ان نساء مدينة «ن» يتميّزن . . . لكن لا لا فائدة ، ان الريشة تأبى أن تتحرّك على الورقة وكأنها اثقلت بالحديد . وما دام الامر كذلك ، فسأكتفي بكلمة أو كلمتين عابرتين عن مزاياهنّ الطاغية وسماتهن البارزة ، وكلمة او كلمتين عن المظهر والمنظر ثم كلمة او كلمتين عن سطحيات الامور . كانت نساء «ن» يعتنين اكثر ما يعتنين بالوسامة . ويمكن اعتبارهن من هذه الناحية نموذجاً لنساء المدن الاخرى . اى انهنّ كن يمشين على أصول اللياقة ويتّبعن قواعد الزينة ويتابعن الطراز الحديث باهتمام كبير . وهنّ فيما يختصّ بهذا الشان يَبْزُزْنَ سيدات موسكو وبطرسبورج من حيث ان لهنّ ذوقاً رفيعاً في الملبس ولا يركبن في العربات الا اذا كانت على أحدث طراز واذا ما خرجن يصطحبن معهن الحارس الذى يرتدى البذلة المقصّبة . وهن يقدّمن بطاقات الزيارة - حتى لو كتبت لسبب من الاسباب على ورقة الآس الديناري أو الاثنين الاسباتي . كانت هذه الامور في موضع كبير من القداسة ، حتى ان صديقتين

حميمتين جداً كانت تربطهما اخوّة متينة منذ أمد بعيد ، اختلفتا مرة من المرات وانقطع بينهما حبل الوداد لأن احداهما لم تردّ الزيارة للاخرى ! ومع أن الازواج والاقارب تدخّلوا بين المتنازعتين لأصلاح ذات البين ، الاّ انهم ادركوا آخر الأمر ان كل شيء في هذا العالم يمكن ان يغتفر الاّ اهمال الزيارة . وهكذا بقيت كلتا السيدتين تتبادلان الجفاء على حد تعبير المجتمع المحلي . وكانت بين الحين والحين تظهر مشاهد حول الافضلية والاسبقية بين النساء - مشاهد من ذلك النوع الذى اثار فى قلوب الازواج مشاعر الفروسية والمغامرات حول الجنس اللطيف وحمايته . الاّ ان مبارزة لم تحدث بينهم قطّ ، وذلك لأن كل الازواج كانوا موظفين في خدمة الحكومة . الا أن الخصم كان يوقع بخصمه اذى شديداً كلما سنحت له الفرصة ، وهو امر قد يكون اكثر اضراراً بالخصم من المبارزة . اما فيما يختصّ بالاخلاق فقد كانت نساء «ن» محافظات جداً ، وكانت فضيلتهن تجعلهن يتميزون غيظاً اذا ما سمعن عن حادثة من حوادث الرذيلة . لا ، حتى انهن على مجرد اللين كن يسحبن سوطاً خالياً من الرحمة . اما من الناحية الاخرى ، فاذا مرّ ذكر من يسمّى عادة «بالشخص الغائب» في جلسة كنّ فيها ، فانه يمر بشكل لا يسترعى الانتباه وفي غاية الكتمان ، حتى الزوج الذى يمسّه هذا الكلام يبدو وكانه على اهبة الاستعداد ، فيما لو راى «الشخص الغائب» أو سمع عنه ، ان يقول بلطف وتعقّل «وما شان هؤلاء القوم بين الصديق

والصديق ؟» وبالاضافة الى ذلك ، يجب ان اقول بأن نساء مدينة «ن» يشبهن عالم النساء في مدينة بطرسبورج من حيث اغراقهن في استعمال التعابير الانيقة وحرصهن على اختيار الكلمات الرقيقة . فلم تكن سيدة منهن تقول «مخطت» او «عرقت» او «بصقت» . لا ، أبداً بل كانت تقول مثلا «زحت العبء عن أنفي باستعمال المنديل» أو ما شابه ذلك . وكان من المحظور أيضاً ان تقول «هذه الكأس او هذا الطبق ذو رائحة كريهة» . حتى الاشارة الى كلمة كهذه كانت لا تليق بتاتاً . ولكن التعبير المناسب في هذه الحالة هو ان تقول «ان هذه الكأس او هذا الطبق لا يبدو طيباً» – او اى تعبير آخر من هذا القبيل . وهنّ من أجل تهذيب اللغة الروسية تهذيباً كاملاً ، حذفن نصف كلماتها ، فكان عليهن والحالة هذه ان يلجأن الى اللغة الفرنسية ، لأن الكلمات نفسها اذا قيلت باللغة الفرنسية كانت شيئاً آخر مختلفاً اختلافاً كلياً ، ويستطيع المرء ان يستعمل كلمات اكثر فظاظة من تلك التى كانت موضع اعتراض في الاصل . واذا شئنا ان نحصر انفسنا في نطاق الملاحظات السطحية عن نساء مدينة «ن» ، ففيما قلناه الكفاية . ولا حاجة بنا الى القول بأن التعمق اكثر من ذلك سيكشف عن خفايا كثيرة أخرى . لكن التعمق في قلوب السيدات غير سليم العواقب . فلنلزم السطحيات اذن ولنكمل الحديث . كان السيدات ما قبل ذلك لا يعرن تشيتشيكوف اهتماماً خاصاً مع انهن يعترفن له بحسن السلوك ولطف المعشر . اما الآن وقد

سرت الشائعات القائله بأنه صاحب ملايين فقد اخذت تبرز له صفات أخرى . ولم تكن تسيطر على كل السيدات مصلحة ذاتية من وراء ذلك ، انما الواقع ان السبب هو لقب «صاحب الملايين» لا مميزات الشخص الذى يحمل اللقب فلرنين هذه الكلمة اثر بلا حدّود في نفوس العالم كله : المحترمين منهم والانذال ومن هم ليسوا بأولئك ولا بهؤلاء . وصاحب الملايين يعاني دائما من رؤية الوضاعة في كل مكان – الوضاعة الخالصة لوجه الله ، الخالية من المصلحة . فكثير من الناس يعلمون جيّداً انهم لن يستفيدوا منه قطميراً ، ولكنهم مع ذلك يلاحقونه بابتساماتهم ورفع قبعاتهم ويسعون جهدهم لحضور الولائم التى يعرفون انه ذاهب اليها بغية التشرّف بالمثول في حضرة صاحب الملايين . لا يمكن القول ان هذا النوع من الوضاعة استولى على سيدات مدينة «ن» بطبيعة الحال . ومع ذلك فانهن يتهامسن في صالات الاستقبال بأن تشيتشيكوف إن لم يكن آية في الجمال فهو على الاقل كما يجب ان يكون الرجل . ومن الاسوا لوكان اكثر سمنة او اكثر نحافة . وفي هذه المناسبة كانت تصدر تعليقات جارحة عن الازواج النحاف وتشبيهات تصفهم بأنهم يشبهون مسواك الاسنان اكثر مما يشبهون الرجال – وتشبيهات نسوية مماثلة أخرى . وأخذت السيدات يبدين اهتماماً خاصاً بملابسهن وزينتهن . فانطلقت جماهيرهن الى السوق حتى أصبحت مكتظة بهن مزدحمة ، واصطفت عرباتهن فيها في صفوف طويلة جداً كأنها في موكب

حافل . أما التجار فكانت لهم الفرحة الكبرى عندما رأوا ان البضائع النفيسة الغالية التى تكدست لديهم منذ امد طويل دون ان تجد شارياً يشتريها ، تصبح فجأة موضع الطلب وتنفد في لمح البصر . وحدث مرة ان ذهبت سيدة الى الصلاة بثوب منفوش يكاد يملأ قاعة الكنيسة بحيث اضطر ضابط الشرطة أن يطلب من عامة الناس التراجع الى المدخل مخافة أن يتلوث ثوب السيدة . حتى أن تشيتشيكوف نفسه لم يستطع بينه وبين نفسه الاّ أن يدرك الاهتمام العظيم الذى أثار . وقد رجع مرة الى النزل فوجد رسالة معنونة باسمه . ولم يجد سبيلا لمعرفة المصدر الذى جاءت منه أو معرفة الشخص الذى اوصلها ، لأن خادم النزل قال له بأن حامل الرسالة رفض ان يذكر شيئاً . كانت الرسالة تبتدئ راساً بالكلمات التالية «يجب أن أكتب اليك» ثم تستمر فتقول بأن هناك رباطاً روحياً وثيقاً يربط ما بين نفسين متماثلتين . ولتأكيد هذه الحقيقة وضعت بعدها نقطاً كثيرة جداً تملأ عدداً من السطور يكاد يقارب نصف سطور الرسالة . وتلا ذلك بعض التأملات الفكرية الصادقة جداً بحيث لا أجد بدّاً من أن اضعها للقارئ بنصها . قالت كاتبة الرسالة «واني لأتساءل ، ما هي حياتنا ؟ انها ليست غير وهدة من الثبور . واتساءل ايضاً ما هو العالم ؟ انه ليس الاّ جمهرة من البشر لا يفكرون» . ومن ثمّ تقول بأنها ذرفت دمعة غالية على ذكرى امها العزيزة التى توفيت قبل خمسة وعشرين عاماً ، ومن ثمّ فان الكاتبة (وهذا ما فرضناه في البدء)

تدعو تشيتشيكوف الى الانطلاق معها في البراري وترك المدينة الى الابد نظراً لكابوس الضوضاء والجوّ الخانق الذى لا يكاد المرء يستطيع فيه التقاط انفاسه . وفي نهاية الرسالة تكشف الكاتبة عن يأس عميق بالشعر التالي :

قمرية الوادى ستنبش اعظمى
وهديلها النواح يهتف قائلا

من قبرها يوما وسوف تراها
عني لقد ماتت لفرط وحدتها وأساها

اجل ، ان البيت الاخير مكسور ، ولكن لا اهمية لذلك اطلاقاً ، فالرباعيات التى نظم الشعر على أساسها هي آخر طراز من نظم الشعر في تلك الآونة . وكانت الرسالة خلوا من التوقيع والتاريخ ، ولكن الحقت بها حاشية تقول بأن قلب تشيتشيكوف سوف يدله على شخصية كاتبة الرسالة ، وانها بالاضافة الى ذلك سوف تحضر الحفلة الراقصة التى سيقيمها حاكم الولاية في منزله في الليلة القادمة .

كان اهتمام تشيتشيكوف بهذه الرسالة كبيراً جداً . فقد كان فيها في الحقيقة كثير من الغموض والغرابة مما جعله يعيد قراءتها مرة ثانية وثالثة ويقول اخيراً «كم كنت أتمنى لو أعرف من أرسلها» . خلاصة القول أنه اخذ ينظر الى القضية نظرة جادّة ، وراح يفكر فيها اكثر من ساعة . وبعد لأي من الشرود ، تمتم بضع كلمات

عن أسلوب الرسالة البراق ثم طواها ووضعها في صندوق المراسلات ومعها تذكرة للمسرح وبطاقة دعوة الى حفلة زواج كانت تقيم في هذا الموضع من هذا الصندوق منذ سبعة أعوام . وبعد هنيهة من الزمن وصلت دعوة الى حفلة حاكم الولاية للراقصة التى مرّ ذكرها . ويمكن أن نذكر على مجرى الكلام ان حفلات من هذا القبيل هي ظاهرة عامة في مدن الاقاليم ، فحيث يوجد حاكم الولاية لا بد أن تكون حفلات تبعث في قلوب النبلاء مشاعر الحب والاحترام .

ومنذ تلك اللحظة طرح تشيتشيكوف جانباً كل فكر آخر ، وجعل همّه الاستعداد للمناسبة المقبلة . أما هذه المناسبة المثيرة فقد جعلت تشيتشيكوف في الحقيقة يكرّس للعناية بهندامه وقتاً لم يكرسه انسان منذ بدء الخليقة . أضاع ساعة كاملة فى تأمل وجهه في المرآة عندما وقف أمامها يدرس ملامحه المختلفة في الانفعالات المختلفة بدأ اول الامر باسباغ امارات العظمة والاهمية ، على ملامحه ثم اسبغ عليها امارات التواضع الوقور المختلط بمسحة من التهكم ، ثم امارات الوقار الخالص الذى لا يخالطه شيء ، وبالتالى ، اخذ يقوم بسلسلة من الانحناءات تتلاءم مع نوع الملامح الظاهرة على وجهه ، ويتمتم بكلمات يقصد منها أن تشابه التعابير الفرنسية في وقعها في السمع (مع أن تشيتشيكوف لم يكن يعرف كلمة واحدة من تلك اللغة) . وأخيراً ، قام باجراء سلسلة أخرى مما يمكن أن نسميه «علامات الاستغراب» كضم الحاجبين وزمّ

الشفتين وتحريك اللسان حركات مختلفة شتىّ . وخلاصة القول ، انه عمل كل ما يحتمل أن يعمله انسان عندما يكون وحيداً وعندما يتأكد من أنه وسيم الهيئة ومن ان أحداً لا يتلصص عليه من ثقب من الثقوب . وفي النهاية ربّت بيده على ذقنه تربيتاً خفيفاً وقال «هكذا تكون الوجوه» . وعلى هذا المستوى من المعنويات العالية ظلّ أثناء ارتدائه ملابسه استعداداً للحفلة . فكان وهو يعدّل حاملة السراويل ويربط ربطة العنق يحرّك قدميه حركة لا نستطيع ان نقول عنها بثقة إنها الرقص ، ولكن يمكن أن نسميها حركة الاستعداد للرقص . ولم تكن لهذا العمل نتائج وخيمة جداً ، فكل ما حدث هو أن ضرب باب خزانة الثياب ضربة جعلتها توشك على الانقلاب وزلقت فرشاة من على المنضدة وانخبطت على الارض .

وكان لدخوله صالة الرقص فيما بعد ، اثر لا يبرزه اثر آخر . وهرع كل الحضور الى ملاقاته ، وبعضهم يحمل اوراق اللعب في يده ، حتى أن احد الرجال قطع حديثه عند نقطة هامّة جداً — عند النقطة التى كان يقول فيها إن «دائرة الاراضي المحلّية اجابةً على هذا . . .» فقد طرح المتكلم جواب دائرة الاراضي جانباً ورمى كلّ تفكير آخر في الهواء وهرول الى تحية بطلنا . «بافيل ايفانوفيتش ! آه ، يا رب ، بافيل ايفانوفيتش ! يا بافيل ايفانوفيتش الكريم ، بافيل ايفانوفيتش المبجّل ! يا روحي ، يا بافيل ايفانوفيتش . ها أنت هنا ، يا بافيل ايفانوفيتش ! ها هو ، عزيزنا

باڤل ايفانوفيتش ! اسمح لي ان احضنك ، يا باڤيل ايفانوفيتش . هاتوه هنا ، لأقبله لأقبل عزيزي باڤيل ايفانوفيتش قبلة حارة» . وانهالت كلمات الترحيب على تشيتشيكوف من كل حدب وصوب واحس بأنه غارق في بحر من العناق . فلم يكد ينتزع نفسه من ذراعي رئيس المجلس المحلي حتى وجد نفسه محتضناً بقوة بين ذراعي رئيس الشرطة الذى سلّمه بدوره الى مفتش دائرة الصحة وهذا بدوره سلمه الى مدير الجباة وهذا ايضا عهد به الى مهندس المدينة . حتى حاكم الولاية الذى كان واقفاً في تلك الآونة بين جمع من النساء ، يحمل في احدى يديه علبة من الحلوى وفي الاخرى كلباً صغيراً ،رمى من يديه فى تلك اللحظة علبة الحلوى والكلب الصغير (وقد صدر من الكلب تأوه لهذا العمل) واشترك في معانقة الضيف مع بقية الجمع . وفي الحقيقة ، لم يكن يبدو وجه واحد لم ترتسم عليه نشوة السرور ، او على الاقل انعكاس نشوة السرور الظاهرة على وجوه الآخرين . هذه النشوة نراها ايضاً في وجوه صغار الموظفين عندما يأتي اليهم المدير الجديد ويفرغ من تفتيشه الدقيق ويبداون ينتشلون انفسهم من وهدة الرعب التى لفّتهم اول الامر ، ويرون ان ما يوجب الثناء والمديح قد وجد وان باستطاعته الآن ان يلقى عليهم كلمات الدعابة ويمنحهم ابتسامة الرضى . عندئذ يستجيب كل موظف من هؤلاء بابتسامة لها قوة مضاعفة ، وقد يكون البعض منهم لم يسمع من المدير الجديد كلماته بشكل واضح ، حتى الحارس البعيد

الواقف بالباب – والذى ربما لم تمر على شفتيه ابتسامة قط ، فهو لا يتقن غير ضرب الجماهير وتوزيع اللكمات – حتى هذا الحارس يصدر قهقهة فاترة ، قهقهة اشبه بالشهيق الذى يصدر من الرجل عندما يوشك أن يعطس بعد ان يكون قد استنشق كمية غير قليلة من السعوط . واخذ تشيتشيكوف يوزّع الابتسامات والانحناءات وهو راض عن نفسه تمام الرضى . فانحنى رأسه مرة الى اليمين ومرة الى الشمال انحناءة جانبية كان مختصاً بها ولم تخب يوماً في فتنة من يراها . اما النساء فقد تجمعن حوله اسراباً مشرقة تعبق بالعطور من كل لون – الورد والخزامى وبنفسج الربيع . كانت الروائح العطرية كثيفة جداً حول تشيتشيكوف حتى انه بين الآونة والاخرى كان يرفع رأسه بغية استنشاق الهواء . اما ملابس السيدات فكانت تعرض خليطاً مختلفاً جداً من الانواع والاذواق : الموسلين والدمقس والشيفون من الالوان الباهتة العصرية التي لا يمكن حتى ان تجد لها صفة تنعتها بها (الى هذا الحد وصل الذوق الرهيف) . وكانت العُقَص والاشرطة وباقات الزهور ترفرف على الفساتين هنا وهناك في ازهى فوضى ، رغم ان الذهن المنظّم اشتغل كثيراً في خلق هذه الفوضى . وكان غطاء الرأس الخفيف لا يسنده غير الاذنين ، وبدا وكأنه يقول «آه ، سأطير ، ويؤسفني فقط ان لا ارفع معي هذه الحسناء» . وكانت الخصور مشدودة بمشدات قوية ، فتلوح للعيون في ابهى شكل . (يجب التنويه بأن سيدات بلدة «ن» كلهن

عموماً بدينات قليلاً ، ولكنهن كن يشددن أنفسهن بعنف كبير ، ويتخطرن بعذوبة كثيرة ، حتى يتعذر على المرء أن يفطن الى بدانتهن .) كان كل شيء فيهن مدروساً ومحسوباً بدراية فائقة ؛ كانت الرقاب والاكتاف مكشوفة الى الحد الضروري لا اكثر ولا اقل ، وكل واحدة قد عرّت ممتلكاتها ، بالقدر الذي كانت تشعر ، حسب اعتقادها ، بانه قادر على الفتك بالرجل . اما البقية فقد اخفتها كلها بذوق غير اعتيادي : رباط خفيف من الاشرطة ، او لفاع اخف من القشدة المحلاة المعروفة باسم «قبلة» ، كان يطوق العنق بشكل أثيري ، وقطع هُدابية صغيرة من نسيج الباتيسته النحيل معروفة باسم «المحتشمات» تطلع من تحت الكتفين ، من تحت الفساتين . وكانت هذه «المحتشمات» تغطي من الامام ومن الخلف ما لم يعد بمقدوره أن يهلك الرجل ، بينما كانت توحي بأن ما تغطيه هو بالذات الهلاك بعينه . ولم تكن القفازات الطويلة ملبوسة حتى الردن ، بل كانت تترك الاجزاء المثيرة في الذراعين الى الأعلى من الكوع عارية عن نية مقصودة ، وهذه الاجزاء لدى بعض السيدات على قدر من الامتلاء يُحسد عليه حتى ان قفازات جلد الجدى قد تفتقت على بعض الاذرع . وباختصار كان كل شيء ينطق بصوت عال : هذه العاصمة ، هذه باريس ، وليست ولاية من ولايات الاقاليم ! إلا انه في بعض الاماكن كانت تظهر فجأة قلنسوة لم تر الأرض مثلها شكلاً ، او ريشة كثيرة الشبه بريش الطاووس ، وذلك على الضد من كل

موضة ، وحسب ذوق لابستها لا اكثر . ولكن ذلك لا بد منه ، لأنه طبيعة سكان الاقاليم ، ولا بد ان تظهر بشكل من الاشكال . ولما وقف أمامهن تشيتشيكوف اخذ يسأل نفسه قائلا «أىّ هؤلاء الفاتنات هي كاتبة الرسالة ؟» ورفع راسه للمرة الثانية وشمّ الهواء ولكنه جوبه على مقربة من انفه بمجموعة طيبة من الاكواع وأزرار الأكمام واطراف الاشرطة والشالات المعطرة والفساتين . رقصة الغالوب المرحة في اوج احتدامها . الجميع نهضوا ، وانطلقوا يرقصون : زوجة مدير البريد ، ومامور المركز ، وسيدة تضع ريشة زرقاء ، وأخرى بريشة بيضاء ، والامير الجورجي تشيبخايخيليدزيف وموظف من بطرسبورج ، وآخر من موسكو ، والفرنسي كوكو ، وبيرخوبوفسكي وبيربيندوفسكي .

وقال تشيتشيكوف ، وهو يتراجع الى الخلف :

— ياه ! إدارة الولاية كلها منطلقة في عملها !

وعندما عادت السيدات الى مقاعدهن ، أخذ يحاول للمرة الثانية أن يعرف (من التعابير والنظرات) ايّهن هي الشاعرة المجهولة . ومع ان التعابير والنظرات في هذه الحالة كانت مضللة غير كاملة الوضوح . في كل مكان ثمة ما يشي بمكنون الصدور ، بشيء مراوغ لا يمسك . وحدّث تشيتشيكوف نفسه : «اوه ، مراوغ جداً . النساء موضوع . . . — واكتفى بهز ذراعه لإكمال الجملة — شيء واضح تماماً . حاول فقط أن تصف او تنقل مايرف على وجوههن ، كل تلك الايماضات

والتلميحات ، وستجد نفسك عاجزاً عن التعبير عنها بالكلمات . عيونهن وحدها دولة لا حدود لها ، إذا دخلها شخص ضاع وغرق ، ولن تستطيع أن تلتقطه بشص . حسناً ، حاول مثلا ، ان تصف بريق العيون وحده ، البليل ، المخملي ، السكري . والله يعلم اي شيء هو أيضاً ! قاس ، ناعم ، وحتى داكن للغاية ، أو كما يقول آخرون ، في رخاء أو بلا رخاء اسوأ من الرخاء – فهو يعتصر قلبك ، ويلعب بروحك كلها ، وكأنه قوس كمان . أكيد ، لا يمكنك أن تجد الكلمات . النصف الزيني من الجنس البشري ، وهذا كل ما تستطيع أن تقوله » .

أرجو المعذرة ! يبدو أن كلمة سوقية أفلتت من فم بطلنا . ولكن ما العمل ؟ هذا حال الكاتب في روسيا ! بالمناسبة إذا وقعت كلمة سوقية في كتاب ، فليس الذنب على الكاتب ، بل على القراء ، وقراء مجتمعنا الراقي قبل غيرهم ، لأنك لن تسمع منهم كلمة لائقة واحدة بالروسية ، بينما هم كما اعتقد ، يغرقونك بالكلمات الفرنسية والالمانية والانجليزية بحيث تضجر ، وهم ينطقون بها محافظين على كل طرائق النطق المتاحة : يخنون ويلثغون اذا تكلموا بالفرنسية ، ويغردون بالانجليزية كما يغرد الطير ، بل ويقلبون سحناتهم كما يفعل الطير لدى تغريده ، بل ويضحكون من الذين لا يجرأون على محاكاة سحنة الطير . ولكنهم لا يستطيعون ان يغردوا بأي شيء روسي ، إلا اذا استثنينا بناء بيت ريفي لهم على الذوق

الروسي . هؤلاء قراء المجتمع الراقي ، ومن خلفهم كل الذين يعتبرون أنفسهم من الفئة الراقية . ومع ذلك فما اطول باعهم في التزمت ! إنهم يصرّون على ان يكتب كل شيء بلغة ملتزمة للغاية منقاة رفيعة ، وباختصار العبارة يريدون ان تنزل اللغة الروسية بنفسها من السماء مصاغة كما تنبغي الصياغة ، وتحط على ألسنتهم ، بحيث لا يكون لهم الا ان يديروا أفواههم ، ويطلقونها . وطبيعي أن النصف اللطيف من الجنس البشري يصعب فهمه ، ولكن يجب الاعتراف بأن قراءنا المحترمين اكثر صعوبة على الفهم احياناً .

وخلال ذلك كان تشيتشيكوف في حيرة تامة من التأكد من صاحبة الرسالة . حاول أن يدقق النظر ، وراى من الجانب النسائي أيضاً ما يعبر في آن واحد عن الأمل والآلام العذبة لقلب إنسان فانٍ مسكين ، حتى انه قال أخيراً «مستحيل ان أحزر أبداً» . الا ان عقبة كهذه لم تكن تنقص من معنوياته العالية . وتبادل مع احداهنّ كلمات المباسطة الخفيفة بكل سهولة وقبول ، ثم اقترب من أخرى بخطوات متبخترة كتلك التى يقوم بها الغندور الطاعن فى السن الذى يتسكع قرب السيدات . وكان اذا ما دار – بغير قليل من الخفة والرشاقة – الى اليمين او الى الشمال ترك احدى ساقيه تجرّ قليلا وراء الاخرى ، كالفاصلة في الحروف او كالذيل الصغير . كانت هذه الحيلة موضع اعجاب السيدات . موجز القول ، انهن بدأن يرين فيه لا موضع اللطف والجاذبية وحسب ، بل أخذن يلمحن في وجهه

نوعاً من الهيبة العسكرية كتلك التى تبدو في وجه مارس اله الحرب – وهو شيء ، كما نعرف ، لا يخيب أبداً في ارضاء عيون النساء . وقد اخذ بعضهم يتنازعن عليه ، ولما راينه يقضى معظم وقته قرب الباب سارع بعضهن في احتلال اقرب الكراسى اليه . وفي الواقع ، كاد ينشب صدام بين سيدتين سبقت احداهما الاخرى اليه وكاد يحدث مشهد مؤسف جداً ، مشهد كان سيعتبر مثلا مفجعاً على الوقاحة وصفاقة الوجه فى نظر اللواتي كنّ يتمنين لو قمن انفسهن بالعمل نفسه .

وكان تشيتشيكوف غارقا في الحديث مع مطارداته الحسنوات ، او نستطيع ان نقول بان المطاردات الحسناوات كنّ قد اوقعن تشيتشيكوف في حبالهن وامسكن به بأن أخذن يلقين عليه عدداً لا نهاية له من الاحاجي العميقة التى جعلت قطرات العرق تتصبّب عن جبينه في محاولته حلّها ، بحيث نسي ان يؤدى فروض التحية وواجبات الاحترام الواجبة عليه قبل كل شيء لربة البيت . ولم يتذكر هذه الواجبات في الواقع الاّ عندما سمع زوجة حاكم الولاية التى كانت واقفة امامه منذ بضع دقائق تبدئه بالكلام . وقالت بصوت خافت لا يخلو من الخبث «ها نحن قد رايناك اخيراً يا بافيل ايفانوفيتش» . اما ما تلا ذلك من كلامها فلا أستطيع أن أنقله الى القارئ بالنص ، لأنه من نوع الخطاب الذى يدور بين الفرسان والسيدات في الطبقة الراقية والذى نجده مكتوباً في القصص الشهيرة التى كتبها كتّاب هم أبرع منى في وصف حياة الطبقات

الراقية واكثر اطلاعاً عليها . قالت زوجة الحاكم بأنها تامل أو ان لها وطيد الامل ، بان يكون قد بقي في حنايا قلب تشيتشيكوف زاوية – حتى ولو كانت زاوية صغيرة جداً – لأولائك الذين قد جار عليهم بالهجر والنسيان ، او ما هو بهذا المعنى . فالتفت اليها تشيتشيكوف لكي يرد عليها بجواب كان من المنتظر ان لا يقل بحال من الاحوال عن اجوبة الابطال الروائيين من امثال زفونسكي ولينسكى وليدين وهريمين في ظروف مماثلة ، ولكنه ما إن رفع عينيه حتى اطبقهما وكان صاعقة هوت على امّ راسه .

لم تكن ربة البيت وحدها التى تقف امامه انما كانت تمسك بفتاة . الشعر الذهبىّ ، والقسمات الانيقة الرقيقة ، والوجه البيضوىّ الساحر – الوجه الذى يجدر به ان يكون النموذج الصالح لمريم العذراء – والجمال الذى يندر ان يمرّ المرء بمثله في روسيا ، حيث كل شيء ، مهما يكن ، يتخذ ، كما يبدو ، ابعاداً كبيرة سواء أكان ذلك جبلاً ، او غابة او سهباً ، او وجهاً او شفة او قدماً ، ذلك الجمال الذى يكون كل جزء فيه من قمة الراس الى أخمص القدم في ذروة الاتقان ، هذا الجمال كله كان ما رآه في العربة اثناء الاصطدام عندما كان هارباً من نوزدريف حين اصطدمت عربتاهما بشكل غريب سواء اكان ذلك حماقة من السائقين او الخيول ، وتشربكت عدة الخيول وتبرع العم ميتياي والعم مينياي بفكها . وقد ارتفعت حرارة عواطفه الى درجة اصبح معها لا يستطيع ان يلفظ حرفا

واحداً ، وراح يتمتم بكلمات لا يفهم معناها غير الشيطان ، كلمات لا تصدر قطعاً عن شفتي بطل من ابطال القصص العظيمة .

وقالت ربة البيت «اظن انك لم تقابل ابنتى قبل الآن . فهي حديثة عهد فى التخرج من المدرسة» .

فاجاب بانه كان سعيداً ان قابلها من قبل في ظروف لم تكن متوقّعة ، وعندما حاول ان يضيف الى هذا الكلام شيئاً آخر خانه لسانه واطبق عليه . فقالت زوجة حاكم الولاية كلمة او كلمتين اخريين وسارت بابنتها لتحادث الضيوف الآخرين . ووقف تشيتشيكوف مسمّراً في مكانه ، كالرجل الذى يخرج من بيته مرحاً طروباً فيذكر فجاة انه نسي في البيت امراً خطيراً . واذ يقف في منتصف الطريق ليتذكر ما هو الامر الخطير تختفي من وجهه بشائر المرح وكان غشاوة تغطي عينيه فلا يعود يرى امامه شيئاً . وجاهد ان يتذكر ما نسيه . ربما المنديل ؟ ولكن المنديل في جيبه ، أو ربما النقود ؟ النقود أيضاً في الجيب ، كل شيء في مكانه كما يبدو ، ولكن روحاً غير مرئية تهمس في اذنه انه نسي شيئا . وها هو واقف ينظر بذهول وغبش الى الجمهور المتحرك امامه ، والعربات المنطلقة ، وإلى قبعات الفوج المار العسكرية وبنادقه ، والى لافتة ، دون ان يستطيع رؤية اي شيء بشكل جيد . وعلى هذا النمط اصبح تشيتشيكوف غائباً عن كل ما حوله . بيد ان السنة السيدات العذبة ما فتئت تصب في مسامعه من اسئلتها وغمزاتها ما لا عداد

له – اسئلة وغمزات توحيها الرغبة في الاستيلاء على قلبه . «هل لنا نحن المتطفّلات ان نجرؤ على السؤال عما تفكر فيه ؟» . «هل لك ان تتكرّم وتخبرنا عن الآفاق التي يجول فيها خيالك الآن ؟» «هل لنا أن نسأل عن اسم السعيدة الحظّ التى جعلتك تسبح في هذا الخيال اللطيف ؟» ولكنه كان يستقبل هذه الاسئلة باذن صماء ، وكأنها صيحة في واد . وقد وصلت جلافته في الواقع ذروتها عندما سحب نفسه من بينهنّ وسار يبحث عن المكان الذى استقرت فيه زوجة حاكم الولاية وابنتها . ولكن السيدات لم يكن ليتركنه بهذه السهولة . فاخذت كل واحدة منهن تبذل قصارى جهدها وتجهد بنات افكارها للابقاء عليه . ويجب أن نلاحظ ان لبعض النساء – وانا اقول لبعض النساء ، وهذا يعني ليس لكلهن – موطن ضعف صغيراً ، وهو انهن لو لاحظن فيهن شيئاً مميزاً في حسنهن ، اى جبهة ، او فماً او يدين ، يتصورون ان الجزء الأحسن في وجوههن هو اول من يلفت نظر الجميع فيهن ، ويأخذ هؤلاء يتحدثون فجاة في صوت واحد : «انظروا ، انظروا اي انف اغريقي رائع لها !» او «أي جبين متناسق فاتن !» ومن لها كتفان بديعتان تكون متاكدة مسبقاً بأن الشباب جميعاً سيكونون معجبين كلياً ، وكلما مرّت بهم سيكررون «آه ، ما أبدع كتفيها !» ولن يلقوا نظرة الى وجهها ، وشعرها ، وانفها وجبينها ، واذا نظروا فكأنهم ينظرون الى شيء لا يخصها . بهذا الشكل تفكر بعض النساء . وكل امراة قطعت على نفسها عهداً بأن تكون

أفتن ما يمكن في الرقص ، وتظهر كل ألق ما تعتبره تفوقاً فيها . فزوجة مدير البريد أمالت رأسها الى جانب ، حين كانت ترقص الفالس ، حتى لاح في حركتها هذه شيء لا يمت الى الأرض بصلة . لم تصطبر سيدة مهذبة جداً لم تأت لغرض الرقص مطلقاً بسبب ، ما وصفته «اينكومودينه» * على شكل مسمار في قدمها اليمنى جعلها تضطر الى لبس جزمة مسطحة ، وقامت ، رغم ذلك ، ببعض الدورات في جزمتها المسطحة ، حتى لا تغرق زوجة مدير البريد بالوهم اكثر من اللازم .

ولكن ذلك كله راح هباء لأن تشيتشيكوف لم يعرهنّ اذنا صاغية واخذ يقف . على أصابع قدميه – حتى حين ابتدأ الرقص – ويجول بعينيه في القاعة ليعرف مقرّ الفتاة الساحرة ذات الشعر الذهبيّ وينظر من فوق رؤوس جيرانه واكتافهم حتى رآها آخر الامر جالسة بجوار أمها التي كانت تضع على رأسها عمامة شرقية بريشة . وبدا عليه عندئذ أنه قد صمّم ان يجتاح هدفه اجتياحاً كما تفعل العاصفة العاتية ، فقد اندفع الى الامام اندفاعة شديدة بتصميم اليائس حتى ان كوعه ضرب مدير الجباة ضربة جعلته يترنحّ على قدميه وكان سينكفيء على الارض لا محالة لولا صف الضيوف الذي دعمه من المؤخرة . اما مدير البريد فقد سارع وأخلى له الطريق ، لكنه التفت اليه محدقا فيه بنظرة تهكم واندهاش . لكن ذلك كله لم يكن يسترعي

* بالفرنسية تلفظا ، وتعني هنا «اعتلال» . المترجم .

انتباه تشيتشيكوف ، فلم تكن ترى عيناه غير ذات الجمال الاشقر . كانت في تلك اللحظة تلبس في يديها قفازاً طويلا ، ومما لا ريب فيه انها كانت تتهيأ لخوض حلبة الرقص حيث كان قد اصبح فيها اربعة أزواج ينسجون خطوات المازوركا . وكان بين الراقصين بالذات ضابط باللباس العسكريّ منهمك روحاً وجسداً ويدين ورجلين ليقوم بأداء خطوات لا عهد لانسان بها من قبل حتى في الاحلام . مهما يكن من أمر ، فقد اجتاز تشيتشيكوف الراقصين وكاد أن يدوس على كعوبهم حتى اقترب من المكان الذي جلست فيه السيدة وابنتها . لكنه اقترب منهما بكثير من التحسّب خالياً كل الخلوّ من سالف التبختر والمرح . لا ، بل كان يضطرب حين كان يسير ، وكل حركة من حركاته تشير الى عظيم ارتباكه .

ومن الصعب علينا أن نقول فيما اذا كان الشعور الذي ثار في قلب بطلنا هو الحبّ . فمن الامور المختلف عليها هو أن يكون الرجال اصحاب هذه البنية – أي ليسوا بالسمان ولا بالنحاف – قادرين على الاحساس بشيء من هذا القبيل . ومع ذلك فان شعوراً غريباً جداً قد طغى عليه لم يستطع له تفسيراً . فقد لاح له أن قاعة الرقص بما فيها من لغط وضجيج قد اصبحت شيئا بعيداً جداً ، وأن الفرقة الموسيقية قد انسحبت الى ما وراء احدى التلال وأن المنظر كله أصبح مبهماً كالصورة التي رسمها الفنان بغير اعتناء . ومن خلال هذا المنظر المبهم يتألّق شيء واحد فقط هو وجه

الغادة الفاتنة : وجهها البيضوى المدوّر ، وقوامها الاهيف الرهيف التى تتميز به الفتيات خلال الأشهر الاولى من تخرجهن من المدرسة وثوبها الأبيض البسيط تقريباً المحبوك بخفة وبداعة على اطرافها الهيفاء الفتية في كل مواضعها ، حتى برزت بخطوطها النقية . ولا ادرى كيف صوّر له خاطره بأن قوامها الغالى شديد الشبه بدمية من العاج تبدو برّاقة بيضاء شفّافة وسط الزحام المبهم البليد .

نرى هنا ظاهرة ليست قليلة الوجود . الظاهرة التى يصبح فيها تشيتشيكوفات هذا العالم شعراء ولو الى حين ، ولكن كلمة «شاعر» ستكون مبالغة كبيرة . على اية حال ، فقد شعر تشيتشيكوفنا لفترة قصيرة من الزمن انه اصبح شاباً مرّة اخرى ، هذا اذا لم يكن ضابطاً في الجيش . وما إن راى كرسياً فارغاً بجوار الام وابنتها حتى سارع الى احتلاله . ومع ان الحديث ابتدا فاتراً بليداً ، الاّ ان الاحوال تحسنت بالتدريج واخذ يستعيد الثقة بالنفس شيئاً فشيئاً . عند هذه النقطة أجد نفسي متردداً في أن اتشعب في موضوع الحديث لأقول بأن الرجال ذوى المقام الكبير والمناصب العالية عندما يتحدثون الى النساء لا يكون لهم وزن ولا قيمة . بينما الضباط الصغار – اي مَنْ كانت رتبته اصغر من رتبة رئيس على الاقل – فهم دائماً اكثر نجاحاً . اما كيف يستطيعون ذلك ، فالله وحده أعلم . فاذا نطقوا بهنة فارغة تجد الفتاة التى تجلس بجوارهم تهتز ضحكاً . اما اذا دخل وجيه في الحديث مع سيدة وقال لها مثلا

بان الامبراطورية الروسية واسعة الارجاء ، أو قال لها مجاملة تدلّ على قسط كبير من الذكاء (مهما فاحت هذه المجاملة بروائح الكتب) ، فانها تقع موقعاً بارداً جداً . حتى النكتة اذا قالها فانه يضحك هو نفسه عليها اكثر مما تضحك السيدة المستمعة اليه . وقد حشرت هذا التعليق في حديثي هنا لكي افسرّ للقارئ السبب الذى من أجله – عندما بدا بطلنا الحديث اخذت الفتاة تتثاءب . لكنه على اية حال ، كان اعمى العينين عن هذه الحقيقة فانطلق يقص عليها مغامرات شتىّ وقعت له في بقاع مختلفة من العالم وبالتحديد في ولاية سيمبرسك في بيت سوفرون ايفانوفيتش بيسبتشني ، بحضور ابنته أديلايدا سوفرونوفنا ، وأخوات زوجها الثلاث ماريا غفريلوفنا ، والكسندرا غفريلوفنا ، واديلغيدا غفريلوفنا ، وفي ولاية ريزان في بيت فيدور فيدوروفيتش بيريكرويف ، وفي ولاية بينزا في بيت فرول فاسيليفيتش بوبيدونوسنى ، وفي بيت اخيه بيتر فاسيليفيتش بحضور اخت زوجته كاترينا ميخائيلوفنا وابنتي عم عمها روزا فيدوروفنا وأميليا فيدوروفنا ، وفي ولاية فياتسك في بيت بيتر فارسونوفيتش بحضور أخت زوجة ابنه بيلاغيا يغوروفنا وابنة اخيه صوفيا روستيسلافنا وابنتى زوجة ابيها صوفيا الكسندروفنا وماكلاتورا الكسندروفنا .

وغنيٌ عن الذكر ان بقية السيدات قد استان استياء عميقاً لهذا السلوك . وقد سارت احداهنّ متبخترة امامه لكي تشعره بهذه الحقيقة وفي الوقت نفسه مست

ابنة حاكم الولاية بكم فستانها وجعلت طرف اللفاع يلامس وجهها . اما السيدة التى كانت تجلس خلفهم فقد رمتهم بنفحة من البنفسج وبتعليق لاذع قتّال . ومع هذا ، فاما ان يكون قد صمّ عن سماع التعليق او تظاهر بانه لم يسمعه . ولم يكن هذا منه من الحكمة في شيء ، لأن اهمال آراء السيدات لا يليق ابداً. وقد شاء له القدر ان يتعلم هذا الحقيقة ، ولكن بعد ان سبق السيف العذل .

موجز القول ، ان الاستياء بدأ يعلو وجوهاً عديدة . فمهما كان تشيتشيكوف عالى المقام في المجتمع ، ومهما كان يملك من الملايين المقنطرة وكانت ملامحه تدلّ على العظمة التى لا حدّ لها والروح العسكرية المتوثبة ، الاّ أن هناك أموراً لا تستطيع أن تغتفرها سيدة مهما كان الرجل الذى صدرت عنه هذه الأمور . وهناك حالات تجد فيها المرأة ، وعلى رغم كل ما في طبيعتها من ضعف وعجز بالقياس الى الرجل ، تصير فجاة أشد قسوة ليس من الرجل فقط ، بل ومن كل شيء في الدنيا . والاستخفاف الذي أبداها تشيتشيكوف ، وهو استخفاف غير مقصود تقريباً ، أعاد بين النساء حتى الوفاق الذي كان من قبل على حافة الانهيار ، حين بدأ التنافس على المقعد الى جانبه . فقد وجدن لمزات لاذعة في كلماته الجافة الاعتيادية التي ألقاها عرضاً . ونحن نعرف عادة ان الحضور في حفلات حكام الولايات الراقصة يؤلفون أشعاراً ينتقدون الراقصين فيها ، اما في حالتنا هذه فقد نسبت الاشعار كلها الى تشيتشيكوف . خلاصة

القول ، أن الامتعاض أخذ يعم ويزداد حتى أصبح من المفهوم ضمنياً أن السيدات قد أصدرن مرسوم الاعدام بحق الاثنين ، بطلنا والفتاة الصغيرة المسكينة .

ولكن مفاجاة ألعن من هذه كانت في انتظار بطلنا . فبينما كانت الفتاة تتثاءب وتشيتشيكوف يقصّ عليها احدى مغامراته السالفة ، حتى ذكر اسم الفيلسوف اليونانى ديوجين أثناء الحديث ، اذ بباب غرفة مجاورة ينفتح ويظهر منه نوزدريف . ولا يعلم أحد فيما اذا كان قد جاء من المقصف او خرج من غرفة جانبية كان يدور فيها لعب القمار ، وهل خرج بمحض ارادته او قذف به اللاعبون مطروداً . لكنه على أية حال ، عندما دخل قاعة الرقص كان في نفسية عالية جداً ، وكان يتابّط ذراع المدّعي العام ، ويظهر انه كان يجرّه منذ امد بعيد لأن المسكين كان يتلفت من ناحية الى اخرى كما لو كان يفتش عن وسيلة تنقذه من هذه الرحلة البغيضة . ومما لا شكّ فيه انه كان في وضع لا يطاق لأنه ما كاد يحتسي نوزدريف كأسين من الشاى مع شيء من الرّوم ، حتى بدأ يكذب عليه دون شفقة أو رحمة . وما رآه تشيتشيكوف عن بعد حتى عزم على التضحية بنفسه . أى انه عزم على ترك وضعه الحالى الذى يحسد عليه وينسلّ على جناح السرعة ، لأنه ادرك أن لقاءه مع القادم الجديد امر لا تحمد عقباه . ولسوء حظه ان حاكم الولاية آنذاك أمسك به طالباً منه ان يكون حكماً بينه (أى بين حاكم الولاية) وبين سيدتين . كان

موضوع الخلاف هو هل ان حب المراة يدوم او لا يدوم . وفي اللحظة نفسها انقض نوزديف على بطلنا بحملته العنيفة . فابتسم ابتسامة جعلت خديه النضرين الاحمرين حمرة الورد يرتعشان ، واخذ يصيح قائلا «ايه يا ملاك خارسون العظيم ! هل مرّ عليك عهد طويل وانت تتاجر بالانفس التى انتقلت الى رحمة الله ؟» ثم التفت الى حاكم الولاية وقال «اظن ان سعادتك لا تعرف ان هذا الرجل يتعاطى شراء الانفس الميتة» . ثم الى تشيتشيكوف «اسمع يا تشيتشيكوف . اني اقولها لك بروح الصداقة المخلصة ، ان كل الموجودين هنا يحبونك – حتى سعادة حاكم الولاية . ولكن الامر لو كان بيدى لشنقتك ! اى والله ، اني لأفعل» .

وبلغت خيبة تشيتشيكوف اوجها .

واستمر نوزدريف يقول «وهل تصدقنى يا صاحب السعادة ؟ ان هذا الانسان قد طلب منى ان ابيعه ما لدىّ من الانفس الميتة . وقد كاد الضحك يقتلنى ويا للعجب ! ما اكاد اصل الى هذا البلد حتى اسمع انه اشترى انفساً بثلاثة ملايين روبل لكي ينقلها ! طبعاً لكي ينقلها ! لقد ساومنى على انفسي الميتة ! اسمع يا تشيتشيكوف . انك خنزير ! نعم والله انك خنزير صرف ! اليس كذلك يا صاحب السعادة ؟ اليس كذلك يا صديقي المدعى العام ؟»

ولكن الدهشة التى اعترت حاكم الولاية والمدعى العام وتشيتشيكوف كانت اكبر من ان تجعل احدهم ينطق ببنت شفة . اما نوزدريف النشوان فلم يكن ينتظر منهم

جواباً ، وانما راح مندفعاً في هذره ، يقول «ايه يا سيدى العظيم ! لن ادعك هذه المرة تفلت من بين يدى . لا ، الاّ اذا علمت ما هو معنى شراء النفوس الميتة هذا . استمع اليّ . يجب عليك أن تخجل من نفسك . نعم ، اقول هذا لأننى من اوفى الاصدقاء اليك» . ثم التفت الى حاكم الولاية وقال «هل تعلم يا صاحب السعادة اننى وهذا الرجل لم نكن نفترق ابدا . ولو جئت تسألنى يوماً وقلت «استحلفك بشرفك يا نوزدريف ان تخبرنى ايهما تحبّ اكثر اباك ام تشيتشيكوف» لقلت لك «تشيتشيكوف والله !» ثم قال «هيا ! هيّا ايها الصديق الحميم ! دعنى اطبع على خديك قبلة او قبلتين . انت تسمح لي طبعاً ان اقبّله يا صاحب السعادة . اليس كذلك ؟ لا ، لا تقاومنى يا عزيزي تشيتشيكوف دعني على الاقل اطبع قبلة واحدة على خدك الابيض» . ودفعه تشيتشيكوف عنه اثناء محاولاته لطبع القبلات عنوة على خده حتى كاد يقع نوزدريف بطوله على الارض . وانزوى بعد ذلك كل فرد الى ناحية واصم اذنيه عن سماع زيادة في الهراء . ولكن الكلمات التى وردت عن ابتياع الانفس الميتة كانت قد رنّت في ارجاء القاعة باعلى صوت كانت تصحبها قهقهة مدوّية اثارت انتباه من هم في اقصى اطراف القاعة ، الواقفين منهم والجالسين . كانت الفكرة غريبة جداً طريفة جداً بحيث وقف الجمع وليس على وجوههم غير امارات الدهشة المتجمدة الخرساء . بيد ان بعض السيدات (وهذا ما لاحظه تشيتشيكوف) اخذن

يتبادلن ابتسامات ساخرة وغمزات خبيثة ذات معان ، مما زاد في بلبلته . كان كل انسان بالطبع يعرف ان نوزدريف كذاب أشر ، ولن يدهش أحداً اذا انفجر انفجارته السخيفة الرعناء . ولكن الرجل الفاني يصعب ، في الحقيقة ، حتى أن تفهم من أي شيء مخلوق . اذ مهما يكن الخبر الذى يطلقه ، ولكن لكونه خبراً لا غير، لا بد أن ينقله الى فانٍ آخر ، على الأقل ليقول «انظر اي كذبة اطلقوا !» فيميل هذا الفاني الآخر أذنه اليه بارتياح على الأقل ليقول فيما بعد «نعم ، هذه كذبة رخيصة تماماً لا تستحق اي اهتمام !» وفي اثر ذلك ، وبنفس الساعة يتوجه ليبحث عن فانٍ ثالث ، ليحدثه بها ، وليهتف معه بعد ذلك بسخط نبيل : «اية كذبة رخيصة هذه !» وهكذا وبالتأكيد ستجوب الكذبة المدينة كلها . وسيتحدث بها جميع الفانين ، مهما تكن كثرتهم ، حتى يشبعوا منها لا محالة ، وبعد ذلك سيعترفون بأنها لا تستحق اي اهتمام ، ولا تساوي التحدث عنها .

وبطبيعة الحال بلغ الحنق من بطلنا اشده ، فمهما كانت الكلمات التى تصدر من لسان المجنون سخيفة ، فهي كافية لكي تزرع بذور الشك في عقول العاقلين . فاحس بطلنا احساس الرجل الذى ينتعل حذاء مدهوناً دهاناً فاخراً حين يجد نفسه فجاة يغوص في اقذر الاوحال . وقد حاول أن يطرح الامر جانباً وأن يبسط من نفسه وأن يستمتع مرة اخرى . لا ، بل حاول ان يشترك في لعبة الوست . ولكن ذلك كله كان عبثاً .

فقد ظلت أموره معوّجة ليس الى تعديلها من سبيل . وقد أخطأ في اللعب مرتين ، وأصبح رئيس المجلس المحليّ في حيرة شديدة من أمر صديقه بافيل ايفانوفيتش اللاعب الحاذق الماهر من قبل ، كيف يرتكب خطأ جسيماً ويرمي الملك البستونيّ الذى كان يعتمد عليه اعتماداً عظيماً، أو حسب تعبيره نفسه «كاعتماده على إله» . وطبيعي ان مدير البريد والرئيس وحتى رئيس الشرطة راحوا ، كما جرت العادة ، يتندرون مع بطلنا ويسألونه : هل هو عاشق ، ويقولون إنهم يعرفون أن قلبه مصاب ، ويعرفون التى اصابت قلبه بسهمها ، الاّ أن كل ذلك لم يسل عنه ، مهما ضحك وردّ مزاحهم بمزاح . وحتى عند تناول طعام العشاء كان كل شيء على غير ما يرام ، على الرغم من ان القوم الذين جلسوا معه الى المائدة كانوا من لطف المعشر على قسط كبير ، وعلى الرغم من ان نوزدريف كان قد أُبعد لأن السيدات قد وجدن سلوكه الفاضح لا يحتمل لا سيما وقد جلس آخر الامر على الارض واخذ ينتش ملابس الراقصين والراقصات . كان العشاء بهيجاً جداً ، وجميع الوجوه التي مرقت أمام الشمعدانات الثلاثية الرؤوس ، والزهور ، والحلويات والزجاجات متالقة بارتياح غاية في الطلاقة . جميع الضباط والسيدات وسترات الفراك وكل شيء صار مهذّباً الى حد الغثيان . كان الرجال يثبون من مقاعدهم ويهرعون ليأخذوا الاطباق من الخادم ، ويقدمونها للسيدات بخفة غير اعتيادية . قدّم ضابط برتبة عقيد لاحدى السيدات صحن الصلصة

على طرف سيفه المسلول . وكان الرجال ، كبار السن ، الذين كان تشيتشيكوف يجلس بينهم يتجادلون باصوات عالية ، مبتلعين كل كلمة ركينة مع قطعة من السمك او لحم البقر مبلّلة بالخردل بشكل لا يرحم ، ويتجادلون في مواضيع كان دائماً يشارك فيها ولكنه كان يبدو كرجل تعب هدّه سفر طويل ، ولا يدخل شيء في عقله ، ويعجز عن الاهتمام بأي شيء ، حتى وجد نفسه في وضع حرج جداً ، ولهذا وضع حدّاً له بأن ترك غرفة الطعام حتى قبل نهاية العشاء وعاد الى الفندق قبل موعده المعتاد بوقت طويل .

وفي غرفته الصغيرة ذات الباب المغطى بستار يفصلها عن الغرفة المجاورة ، وذات الزوايا التى تطلّ منها الجعلان السوداء بين الحين والآخر ، جلس على كرسيّ متخلخل مضطرب مثل أفكاره المتخلخلة المضطربة . كان قلبه ينبض بالكآبة المؤلمة وكان يجتاحه احساس من الغمّ والكدر ، ويشعر بفراغ خانق يكاد يطبق على أنفاسه .

واخذ يناجي نفسه قائلا «سحقاً لمن اخترع الحفلات الراقصة ! فاىّ انسان يمكن أن يشعر فيها بالبهجة الخالصة ؟ العوز والفاقة ماثلان في كل بقعة من هذه الولاية ، والناس يقيمون الحفلات الراقصة ! وهؤلاء النسوة السخيفات اللواتي يرتدين بأذخ الملبس ! ان كل واحدة منهن لا تحمل أقل من ألف روبل على كتفيها ، ألف روبل جاءت من عرق الفلاح المثقل عبؤه بالضرائب ، أو ما هو ألعن من ذلك ، على حساب

ضمير الجار . نعم ، فالكل يعرف لماذا تنتشر الرشوة ، ولماذا تلتوى نفوس الرجال : ليحصل الواحد منهم لزوجته على لفاع او أقمشة من مختلف الانواع لها أسماء لا يمكن ان تضبطها . فعلام كل هذا ؟ وما القصد من ورائه ؟ لكي لا تقول «صديقة» زوجته أن زوجة مدير البريد تلبس أحسن من ثوبها – ولذلك اضطر الرجل المسكين ان يدفع ألف روبل ثمناً لثوب جديد ! ان الصرخة التى تدّوى في هذه البلاد هي «السرور والحفلات الراقصة ، السرور والحفلات الراقصة !» والحفلات الراقصة ما هي الاّ جنون محض ! انها لا تتفق والروح الروسية او الاصالة الروسية ، ولا يعلم الاّ الشيطان سبب وجودها في هذه البلاد . فالكهل الناضج ذو المظهر الصلب والحلّة الرسمية السوداء ما يكاد يخطو الى الحلبة حتى يأخذ بهز قدميه ، ورجل آخر قد يكون منغمساً في الحديث مع زميل له حول شأن من شؤون الاعمال الخطيرة ما يكاد يخوضها حتى نجده يذهب تارة الى اليمين وتارة الى اليسار كالعنزة الخرقاء ! انه التقليد الاعمى ، ولا شيء غير التقليد الاعمى ! فاذا كان الفرنسيّ وهو في الاربعين مثله وهو في الخامسة عشرة ، اصبحنا نتصوّر أننا يجب أن نكون مثله . لا ، ان الحفلات الراقصة تترك دائماً في النفس شعوراً بارتكاب الخطيئة ، ولهذا لا يحب الانسان حتى أن يفكر فيها . انها تترك عقل المرء فارغاً كلياً ، تماماً كما يفعل التحدث الى ابن هذه الحياة . فابن الحياة كثير الثرثرة ، واذا تحدث فهو يطرق كل موضوع يخطر

على البال ، ويتكلم بأسلوب ناعم وجمل فصيحة اختارها من الكتب دون أن يعرف حقيقة معناها ، بينما اذا تحدثت الى رجل تاجر مثلا يلمّ بموضوع واحد الماماً صحيحاً نتيجة تجربته ومراسه فانك ستخرج منه بفائدة عظيمة تزيد عن تلك التى تخرج بها من ألف من الثرثارين . وما هي الفائدة التى يجنيها المرء من الحفلات الراقصة ؟ ولو حاول كاتب ما أن يصفها على حقيقتها ، فمما لا شكّ فيه أنها ستبدو سخيفة غير ذات معنى ، كالواقع الذى تقوم عليه في هذه الحياة . وهل هي من الاخلاق في شيء ؟ الشيطان وحده يعلم . وليس على المرء الاّ أن يغلق الكتاب باصقاً» .

بمثل هذه الافكار الساخطة كانت تعليقات تشيتشيكوف على الحفلات عموماً . وقد كان سخطه ، على أية حال ، ينبع من مصدر آخر . فلم تكن ضغينته الرئيسية ضد الحفلات عامّة كما كانت ضد تلك الحفلة الخاصّة بالذات التى افتضح فيها أمره وعرف الناس أنه يلعب لعبة غامضة غريبة . وبطبيعة الحال ، عندما أعاد النظر في هذه الحادثة المؤسفة على ضوء العقل السليم وجد أنها لن تضرّ شيئاً ، فبضع كلمات نابية لا قيمة لها ما دام الهدف الرئيسي قد تمّ بلوغه . ولكن الانسان مخلوق غريب . اذ أخذ الالم ينهش قلب تشيتشيكوف لهذا الاعراض الذى قوبل به من طائفة لا يكنّ لها اى احترام ، طائفة ادان هو نفسه غرورها وضحالة تفكيرها . وعندما اعاد النظر في الامر مرّة أخرى واوسعه تفكيراً زاد سخطه اذ وجد ان

السبب في هذه الكارثة يقع عليه جزئياً . ولكن ليطمئنّ القارئ بالا ، فلم يكن سخطه هذا على نفسه . لأن الكل منّا يكمن فيه هذا النقص البسيط ، الذى يتلخص في ان يستثني نفسه من ارتكاب الاخطاء وأن يبذل قصارى جهده دائما في التفتيش على مخلوق ينحي عليه باللائمة ويلقي عليه التبعة وقد يكون هذا المخلوق خادماً او موظفاً صغيراً او زوجة ، واخيراً على كرسي صادف أن طار في اللحظة غير المناسبة حتى ارتطم بالباب بعنف فانخلع عنه ذراعه وظهره وليعرف الى اي حد يصل الغيظ . وبالمثل ، فقد فتّش تشيتشيكوف على ضحية يلقي عليها تبعة ما اساءه . وكان كبش الفداء في حالتنا هذه نوزدريف . فقد صبّ عليه جام غضبه وشرع يضربه من كل حدب وصوب دون شفقة او رحمة كما يفعل النقيب او حتى الجنرال عندما يشتم عمدة القرية او الحوذى متجاوزاً أصول الشتائم الكلاسيكية المتعارف عليها ، ليضيف اليها قسطاً كبيراً جداً من بنات أفكاره . خلاصة القول ، ان نوزدريف قد وضع على المشرحة ودرس حسبه ونسبه ، فكان على اسوأ ما يكون انسان .

ولكن بينما كان تشيتشيكوف جالساً في كرسيه غير المبطّن تضنيه الافكار والأرق ، ويكيل بالصاع والذراع لنوزدريف ولكل أهله ، وشمعة الودك تشحب امامه ، لأن فتيلها قد تغطى بقبعة سخام سوداء مهدداً بين لحظة واخرى بالانطفاء ، والليل الأعمى القاتم يطل عليه من النافذة ، وهو يتهيأ للذوبان من الفجر

المقترب ، وفي البعيد تصايحت ديكة منفردة ، وفي
مكان ما من البلدة الهاجعة تماماً ربما سار رجل يخفق في
معطفه الخشن ، بائس من طبقة او رتبة مجهولة لا يعرف
(وا أسفاه !) غير الطريق التي دكته كثيراً اقدام
الصعاليك الروس — وفي هذه الآونة ، كان يدور في
طرف المدينة الآخر حادث قدّر له أن يزيد في كدر
بطلنا واحراج مركزه . ففي أزقة المدينة وشوارعها
كانت تقرقع عربة من الصعب أن نعطي لها اسماً ، فهي
من نوع خاص قائم بذاته تشبه اكثر ما تشبه بطيخة
كبيرة تكمشت قشرتها ، تحملها أربعة عجلات . وخدا
هذه البطيخة ، اقصد بابيها اللذين كانا يحملان آثار
طلاء أصفر ، كانا ينقلقان بشكل سيىء جداً بسبب سوء
حالة المقابض والاقفال التي كانت مشدودة بحبال في
بعض الاماكن والبطيخة نفسها كانت مملوءة بالنُنْضُد
من القطن على شكل اكياسى التبغ ، والمساند والمخدات
الاعتيادية ، ومحشوة باكياس الخبز ومختلف أشكال
الكعك المصنوع من العجين المسلوق وفطائر الدجاج
والمحشوة بالحنطة السوداء تطل حتى الى فوق . ومرقى
العربة الخلفي يحتله شخص ينتصب الى الخدم ويرتدى
سترة من نسيج يدوى زاهى اللون ، ووجهه غير حليق
وخطه الشيب ، وباختصار شخص يعرف عندنا باسم
«الصغير» . أيقظ الضجيج والزعيق اللذان ترسلهما
الكلاليب الحديدية والبراغى الصدئة شرطياً فى الطرف
الآخر من البلدة ، فرفع مِطرده ، وصاح بكل ما لديه
من قوة ، وهو بين النوم واليقظة «من القادم ؟» ولكنه

حين لم ير احداً قادماً ، ولم يسمع الا دربكة بعيدة ،
اصطاد على ياقته حيواناً مفترساً ، وتقدم من الفانوس ،
واعدمه بأن قصعه تحت اظفره . وبعد ذلك ترك المطرد
وغفا من جديد وفق ميثاق فروسيته . وكانت الخيول
تقع ، بين الحين والآخر ، على قوائمها الامامية ، لأن
حوافرها لم تكن ذات حذوات ، بالاضافة الى انها كانت
قليلة المعرفة بجادة البلدة المرصوفة الهادئة . سار هذا
الشيء العجاب من شارع الى آخر حتى انعطف اخيراً الى
زقاق مظلم ماراً بكنيسة القديس نيقولاى الصغيرة
وتوقف . عند باب بيت تسكن فيه زوجة كاهن هذه
الكنيسة وقفزت منه فتاة ترتدى سترة قصيرة ، وتضع
على رأسها شالا . واخذت تقرع الباب قرعاً شديداً
يحسده عليها اى رجل (فيما بعد سحب الصغير ذو
السترة الزاهية اللون من رجليه ، لانه كان يغط فى
نوم اهل الكهف) برهة غير قليلة من الزمن حتى أثارت
كلاب الحى نباحاً . وانفتح الباب أخيراً ليدخل فيه هذا
الشيء العجاب السمج الى فناء البيت الضيق المزحوم
بالاخشاب ، وخنن الدجاج ، ومختلف الاقفاص الصغيرة .
عندئذ نزلت من العربة السيدة الملاكة واذا بها مدام
كوروبوتشكا ! كان سبب قدومها المفاجئ هو انشغال
بالها على نزوة تشتيشيكوف فظلت بعد تركه ايّاها
ثلاث ليال متتالية لا يغمض لها جفن . وبناء على ذلك ،
وعلى الرغم من أن خيولها غير ذات حذاء ، انطلقت الى
المدينة لتسأل قبل كل شيء عن سعر النفس الميتة
الدارج فى تلك الآونة ، ولتعرف فيما اذا لم تكن قد

باعتها – لا سمح الله – بثلث الثمن الحقيقى مثلا . وسيعرف القارئ نتائج رحلتها من حديث دار بين سيدتين ، نحتفظ له به فى الفصل القادم .

الفصل التاسع

فى صبيحة اليوم التالى ، قبل موعد تبادل الزيارات المعتاد ، برزت سيدة بمعطف صوفى ثمين ، من رتاج بيت خشبى ، برتقالى اللون ذى مخزن علوى صغير وصف من الاعمدة الزرقاء . وبرز معها تابع بمعطف طويل متعدد الحواشى ذو قبعة لماعة مزينة بالاشرطة الذهبية . وبسرعة وكبرياء صعدت السيدة السلّم الذى أنزل اليها من عربة كانت واقفة امام المدخل . وما تمّ ذلك حتى أقفل التابع خلفها الباب ورفع السلّم الى موضعه وامسك بالنطاق الجلدى الموجود فى مؤخرة العربة وصاح بالسائق «هيّا انطلق» . وسبب هذا كله ، هو نتف من الاخبار كانت هذه السيدة تتحرّق شوقاً للافضاء بها الى صديقة لها . واخذت تنظر بين الفينة والاخرى من نافذة العربة فترى والحنق بالغ منها اشدّه انها لم تتجاوز منتصف الطريق بعد . بدا لها ان واجهات البيوت كانت أطول مما هى عليه فى العادة ، وعلى الاخصّ واجهة المستشفى الحجرى الابيض ذى صفوف النوافذ الضيقة فقد لاح أنها لا تكاد تنتهى . وصرخت السيدة بعد لأى تقول «أف لهذه البناية اللعينة ! انها عديمة النهاية قطعاً !» ثم رفعت من صوتها تحثّ السائق

قائلة «اسرع يا اندروشكا . فيم هذا التباطؤ الشديد فى مطلع النهار ؟» وتمّ البلوغ الى الهدف أخيراً ، ووقفت عربة أمام بيت خشبى من طابق واحد ، ذى لون رمادى غامق ونقوش بيضاء محفورة على الشبابيك ، وقام أمام الاخيرة سياج خشبىّ طويل وحديقة ضيّقة فيها بضع شجيرات تحلية بدت بحلّة بيضاء ناشزة اكتستها من غبار الطريق . وكان فى نوافذ البناية أيضاً بعض الاصص ذات الزهور وببغاء فى قفص ترقص على ارضه تارة وتتعلّق بمنقارها فى الحلقة المدلاة من سقفه تارة اخرى . وكان امام الباب أيضاً كلبان اليفان نائمان تحت اشعة الشمس . فى هذا البيت كانت تسكن صديقة السيدة الحميمة . والمؤلف يجد صعوبة فائقة فى أن يسمى كلتا السيدتين ، بشكل لا يسبب غضب الناس عليه مرة اخرى ، كما حدث من قبل ان اطلاق لقب عائلى مختلق عليهما شىء خطر . فان اى لقب تختلقه لا بد أن يكون له وجود حقيقى فى ركن من اركان دولتنا ، بسبب سعتها . وسيغضب حامل هذا اللقب حتماً غضباً يهون دونه الموت . وسيقول ان المؤلف جاء الى بلدته سراً وعن نية مقصودة ليعرف من هو ، وأى معطف يلبس ، ومن هى اغرافينا ايفانوفنا التى يزورها باستمرار ، وأى الاطعمة يحب . واذا سماهما برتبتهما ، فالعياذ بالله ، الامر أخطر . فان جميع الرتب والفئات عندنا الآن فى منتهى الحساسية ، بحيث يتصورون ان كل ما يضمه كتاب مطبوع يمسهم شخصياً . مثل هذا الموقف شائع ، كما يبدو . يكفيك ان تقول ان فى

البلدة الفلانية يوجد شخص أحمق ، حتى يقولوا : هذا يعنينى . فتفاجأ بأن يصرخ عليك شخص محترك الحياة «أنا أيضاً شخص ، اذاً أنا أحمق أيضاً» وباختصار يفطن الى حقيقة الامر . ولهذا السبب ، وحذراً من كل الملابسات سنسمى السيدة التى وصلت اليها الضيفة كما كان أهل مدينة «ن» يسمونها بالاجماع تقريباً : اى السيدة اللطيفة من كل النواحى . وقد اكتسبت هذه التسمية بطريقة شرعية ، لأنها بالفعل لم تكن تضن بشىء لتبدى اللطف فى أرقى درجاته ، ولو كانت تتسرب ، من خلال اللطف ، خفة نشطة من النوع الانثوى ! فقد كان يطل ، وان لم يكن دائماً ، طرف دبوس لاذع . والله يساعد المرأة التى ينغرز فى قلبها هذا الدبوس ، اذا بادرت فوقفت امامها بشىء ما ، وعلى نحوما . ولكن كل ذلك كان مغلفاً ، بأرهف آداب السلوك المتاحة لبلدة اقليمية . كانت كل حركة تقوم بها تنم عن ذوق ، بل وكانت تهوى الشعر ، واحياناً كانت تجيد حتى التطلع برأسها حالمة — وكان الجميع متفقين على أنها بالضبط سيدة لطيفة من كل النواحى . أما السيدة الاخرى ، اى الزائرة ، فلم يكن فى خلقها هذا التعدد فى النواحى ، ولهذا سنسميها : امرأة لطيفة فقط . أيقظ قدوم الزائرة كلبين ، صغيرين كانا نائمين فى الشمس وهما أديل الاشعث الذى كان يتشربك بشعره دائماً ، وبوبوري النحيل القوائم . واندفع كلاهما نابحاً ، وقد دوّر ذيله ، الى الرواق حيث كانت الزائرة تخلع عنها عباءة السفر ، وتطلع فى

فستان على الموضة فى نقشه ولونه ، وذيول طويلة تخرج من رقبتها . وامتلأت الحجرة كلها بعطر الياسمين . وحالما علمت الصديقة اللطيفة من كل النواحى المذكورة بقدوم الزائرة هرولت تركض الى القاعة واشتبكت السيدتان فى العناق والتقبيل . وزعقتا كما تزعق طالبتان تلتقيان بعد تخرجهما من مؤسسة تربوية بوقت قصير ، قبل أن تلحق أم احداهما أن تبلغ ابنتها بأن أبا صديقتها افقر واقل مرتبة من ابيها . كانت القبلة تصدر صدّاحة ، لان الكلبين عادا ينبحان من جديد ، وضربا بالمنديل جزاء على ذلك . وانسحبتا الصديقتان بعد ذلك الى غرفة الاستقبال الزرقاء بالطبع فيها أريكة ومنضدة وردية بيضوية ، بل وحاجز له ظليلة من اللبلاب . وجرى وراءهما اديل الاشعث يولول ، وبوبورى الطويل ذو القوائم النحيلة . قالت ربة البيت وهى تجلس ضيفتها فى ركن الاريكة «هنا ، تعالى هنا ، فى هذا الركن» وحشرت وراء ظهرها مخدة طرز عليها بالصوف فارساً ، بالشكل الذى يرسم فيه الفرسان دائماً على الطنافس : الانف بارز كالدرج ، والشفتان مربعتان . وقالت الصديقة اللطيفة من كل النواحى «كم أنا مسرورة لرؤيتك ! عندما سمعت صوت عربة قادمة عجبت ممّن قد يزورنى فى هذا الوقت المبكر . وقالت لى بَراشا ان الزائرة يجب ان تكون زوجة وكيل حاكم الولاية ، فهممت ان أبلغهم بان يقولوا لها اننى غير موجودة فى البيت لكى أتخلص من ازعاجها» .

وكان بود الضيفة أن تقوم بمهمتها بالافضاء بما لديها من اخبار ، الا أن صيحة استغراب مفاجئة من ربة البيت حوّلت مجرى الحديث مؤقتا الى ناحية أخرى .

صاحت وهى تنظر الى رداء الاخرى «ما الطف هذا القماش !»

فاجابت الزائرة «أجل انه لطيف ، ولكن براسكوفيا فيدروفنا تظن أن من الافضل لو أن المربعات أصغر ، والرصعات زرقاء سماوية ، لا بنية . وقد بعثوا لاختها قطعة من هذا القماش ساحرة جداً ، يستحيل وصفها بكلمات . تصوّرى : خطوط نحيلة جداً لا يستطيع أن يتمثلها الا الخيال البشرى . والخلفية سماوية اللون ، وبين خط وخط رصعات وحلزونات ، رصعات وحلزونات . . . باختصار ، من غير مثيل ! ويمكن القول بلا تردد : لم يشهد العالم لها مثيل» .

«يا عزيزتى ، هذه زركشة» .

«لا ، ليست زركشة» .

«آه ، زركشة !»

ويجب أن نذكر أن السيدة اللطيفة من كل النواحى كانت مادية بعض الشىء ، ميالة الى الرفض والشك ، وكانت ترفض أشياء كثيرة جداً فى الحياة .

وعند ذاك أوضحت السيدة اللطيفة فقط أن هذه ليست زركشة اطلاقاً ، وهتفت :

«ولكن ، اهنئك : بطلت كشكشات الفساتين من الموضة» .

«كيف بطلت ؟»

«حلت محلها الفسطونات» .

«أوى ، الفسطونات ليست جميلة» .

«نعم ، الفسطونات ، كلها فسطونات ، الوشاحات كلها من الفسطونات . وعلى الاكمام فسطونات ، والكتافيات من فسطونات . وفى الاسفل فسطونات . وفى كل موضع فسطونات» .

«غير لطيف ، يا صوفيا ايفانوفنا ، اذا كان كل شىء فسطونات» .

«لطيفة ، آنا غريغوريفنا ، الى آخر حد . تخاط بدرزتين . فتحات اكمام عريضة ومن فوق . . . ولكن لا بأس ، سترين وتندهلين ، وعند ذلك ستقولين انه . . . طيب ، تندهلين . تصوّرى . حمالات الصدر صارت أطول ، تلتقى فى المقدمة على شكل بروز ، والنتوء الامامى تجاوز كل حدود . والتنورة تدور كلها حول الجسم ، كما كان ذلك فى قبب التنورات القديمة ، بل ويضعون بعض القطن فى الخلف ، يجعلوك «بيل-فام» * كاملة» .

«أوه ، ذلك فوق كل حد» — قالت السيدة اللطيفة من كل النواحى ، وادتّ برأسها حركة احساس بالكرامة .

ردت السيدة اللطيفة فقط «بالضبط ، فوق كل حد» . «على كل حال ، لن تجدينى أحاكى هذه الموضة . ولك أن تقولى ما تشائين» .

* الحسناء . كلمة فرنسية كتبت فى الاصل بالحروف الروسية . المترجم .

«أنا أيضاً . . . الحقيقة ، الى أى حد تصل الموضة احياناً . . . أعجوبة لا مثيل لها ! طلبت من أختى ميلانيا ان ترسل لى تفصيلة لمجرد المزاح . وقد بدأت ميلانيا فى خياطته» .

«اذن ، عندكم تفصيلة ؟» – صاحت السيدة اللطيفة من كل النواحى ، وصوتها لا يخلو من انفعال» .

«بالطبع ، وارسلتها أختى لي» .

«يا روحي ، أعطيها لي بحق كل مقدس» .

«آه ، وعدت بها براسكوفيا فيدروفنا . الا اذا كان بعدها» .

«ومن سيلبسها بعد براسكوفيا فيدروفنا ؟ سيكون هذا مستغرباً جداً . من ناحيتك ، اذا كنت ستفضلين الغريبات على اقاربك» .

«ولكنها هى ايضاً من قريباتي» .

«قريباتك من بعيد طبعاً ، من جهة الزوج . لا ، ياصوفيا ايفانوفنا ، هذا لا استطيع حتى ان اسمعه منك . يعني تريدين أن تنزلى بى هذه الاهانة . . . الظاهر انني اضجرتك ، الظاهر انك تريدين ان تقطعى اية علاقة بي» .

ولم تعرف صوفيا ايفانوفنا المسكينة ماذا تفعل . وشعرت بين اية نارين شديدتين وضعت نفسها . هذه نتيجة فلتان اللسان ! وكانت مستعدة ان توخز لسانها الاحمق بالابر عقاباً على ذلك .

وخلال ذلك قالت السيدة اللطيفة من جميع النواحى :

«طيب ، كيف حال فاتنك ذاك ؟»

«وهل تعرفين ما الذى دفعنى الى المجىء هنا ؟» – قالت الزائرة واخذت تلهث انفاسها بسرعة شديدة وظهران مزيداً من الكلمات كانت تحوم فوق شفتيها كما تحوم الصقور استعداداً للانقضاض على الفريسة . ولا يطاوع انساناً قلبه على مقاطعتها وهى فى حالتها هذه الا الذى يخلو قلبه من الشعور الانسانى بوصفه «صديقا حميما» . وكانت ربة البيت صديقة من هذا النوع تماماً ، فبادرت حالا تقول :

«انى لأعجب كيف يستطيع المرء ان يمتدح هذا الرجل او يعجب به . وفى رايى انه سافل وضيع فى ادنى درجات السفالة والوضاعة . ولو رايته لقلت له هذا الكلام فى وجهه» .

«نعم ، لكن استمعى لما ساقوله لك» .

«أجل ، اني اعرف ان بعض الناس يرون فيه الجمال والسحر ولهذا يسمونه ساحراً . اما انا فاني ارى انه ليس من هذا فى شىء . الم ترى شكل انفه الغريب ؟»

«دعينى ، دعينى فقط ان احدثك ، يا روحى ، يا آنا غريغوريفنا ، اسمحى لي أن احدثك . انها حكاية ، فاضحة ، حكاية فاضحة ، «سكونابل استوار» – قالت الضيفة وفى سحنتها ما يشبه القنوط ، وصوتها ضارع تماماً . ولا ضير فى ان نذكر ان فى حديث كلتا السيدتين . الكثير من الكلمات الاجنبية ، والعبارات الفرنسية الطويلة جداً احياناً . ولكن مهما كان تقدير المؤلف للمنافع المنقذة التى تقدم اللغة الفرنسية لروسيا ، ومهما كان تقديره لعادة مجتمعنا الراقى

الحميدة في التعبير عن نفسه بهذه اللغة طيلة ساعات اليوم ، مدفوعاً ، طبعاً ، بشعور الحب العميق لوطنه ، فإنه رغم كل ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يدخل عبارة باية لغة اجنبية كانت الى قصيدته الروسية هذه . فلنتابع القول اذن ، باللغة الروسية .

«ما هي هذه الحكاية ؟»

«انك لا تستطيعين ان تتصوري حالتي النفسية ! فقد زارتني زوجة الاب كيريل هذا الصباح – أنت تعرفينها ، أليس كذلك ؟ وهل تعلمين حقيقة زائرنا الظريف ومن تبيّن ان يكون ؟»

«معقول أنك تريدين أن تقولي : اكان يغازل زوجة الكاهن كيريل ؟»

«اوه ، لا يا عزيزتي ! لو كان هذا كل ما في الامر لما كان شيئاً . اسمعي ما قالته لي زوجة الاب كيريل . قالت ان سيدة ملاكة اسمها مدام كوروبوتشكا وصلت الليلة السابقة الى بيت الكاهن . وصلت شاحبة اللون وهي ترتعش هلعاً وراحت تحدثها عن أشياء يقف لها شعر الانسان رعباً ! حوادث لا يستطيع المرء تصديقها بغير جهد جهيد ، وكانها من نسج الخيال ! ففي هداة الليل وبعد ان اوى الناس الى مضاجعهم ، سمعت دوى قرع مخيف على الباب ، وصوت انسان يصرخ قائلا «افتحوا الباب والا كسرناه» تصوري ! وكيف بعد هذا يستطيع المرء ان يقول عنه انه جذاب ؟»

«وما هو شان مدام كوروبوتشكا في الموضوع ؟ هل هي في مقتبل العمر أم على قدر من الجمال ؟»

«اوه ، لا يا عزيزتي ! انها عجوز بلغت من العمر عتياً» .

«يا للغرابة ! اذن هذه هي خطيبته ؟ ان اللعنة تحقّ على اذواق السيدات اللواتي وقعن في حبّه» .

«أجل ، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحدّ ، اتعرفين ؟ لقد دخل على هذه العجوز وهو مدجج بالسلاح من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، وقال لها بيعيني الانفس التي ماتت لديك اخيراً . وكان جواب مدام كوروبوتشكا بالطبع معقولاً جداً . فقد قالت له «كيف أبيعك هذه الانفس وقد فارقت الحياة ؟» ولكنه اجاب «لا ، لا انها ليست ميتة . هذا ما اقول لك . فانا الذي يعرف حقائق الامور . واقسم لك انها ما تزال حية» . خلاصة القول كان مشهداً غريباً جداً ، وتراكض اهل القرية وتعالى صراخ الاطفال وصياح الرجال ، ولم يفهم احد حتى الآن سبب ذلك كله . وما سمعت بنفسي هذا الكلام حتى كاد يغمى عليّ من الهلع ، ورحت ارتجف ارتجافاً لا تستطيعين تصوره . حتى أن وصيفتي ماشكا قالت لي «انظري الى وجهك في المرآة يا سيدتي العزيزة ، لترى كم هو شاحب» . فاجبتها «لا وقت لديّ لذلك اذ يجب ان اذهب الى صديقتي آنا غريغوريفنا واحمل اليها هذه الاخبار» . ولم أضيع لحظة واحدة في طلب العربة . غير أنني عندما جلست فيها وسالني السائق عن الجهة التي اتجه اليها لم أستطع النطق بكلمة واحدة ، ووقفت احدّق فيه ذاهلة ولا ريب انه ظن بي

مسّاً من جنون . ايه يا آنّا غريغوريفنا لو تعلمين مبلغ اضطرابى !»

فعلّقت ربة البيت تقول «اية قصة عجيبة هذا ! وماذا يعنى الرجل بالانفس الميتة ؟ ان هذه الكلمات تتعدّى ادراكي . ومن الغريب أن الحديث عن الانفس الميتة اخذ يدور بين الناس للمرة الثانية . كان زوجي يقول لي بان نوزدريف يكذب ولكن يجب ان يكون فى كذبه شيء من الحقيقة» .

«تصورى حالتي اذن عندما سمعت هذا كله وقد قالت كوروبوتشكا لزوجة الكاهن انها اصبحت ضائعة لا تدرى ماذا تفعل ، لان الرجل رمى لها خمسة عشر روبلا واجبرها أن توقع ورقة ما . تأمّلى المراة الضعيفة التى لا حول لها ولا قوة والتى لا تعرف شيئاً من شؤون الاعمال ، يرغمها هذا الانسان على بيع نفوسها الميتة ! تصورى مشاعري عندما أسمع ان قصصاً كهذه لا تزال تحدث فى هذه الايام ! تصورى . .»

«لا بد أن يكون هناك شيء اكثر من النفوس الميتة التى تبدو للعيان» .

فوافقت الاخرى قائلة «لا بدّ ان يكون كذلك» . ولكن ملاحظة صديقتها هذه وقعت فى نفسها موقع الدهشة والاستغراب وأثارت فيها حبّ الفضول . فارادت ان تعرف ما الذى يمكن ان تدل عليه كلمة «اكثر» . ولذلك راحت تقول «وما الذى تظنينه وراء هذا كله ؟»

«لا ، أخبرينى أولا ماذا تظنين أنت» .

«ماذا أظن ؟ اني حائرة لا أدرى من الامر شيئاً» .

«اذن أخبرينى بماذا تفكرين» .

واضطرت الزائرة ان تعترف بأنها مشتّتة الفكر لا تستطيع ان تعمل فكرها باتزان ، بل انها تخشى على نفسها مساً من الجنون ، ولذلك فهى بحاجة الى العطف والنصيحة .

فقالت ربة البيت «اذن ، اليك ما أعتقده بشأن النفوس الميتة» – فرفعت الضيفة اذنيها حالا ، (او بالاحرى ارتفعت الاذنان بنفسهما) وأجرت بعض التعديل على وضعها بحيث كادت تصبح جلستها نموذجية ، وعلى الرغم من انها ذات وزن لا يستهان به الا انها اتخذت مظهر الريشة الطائرة فى مهبّ الرياح .

تماما مثل سيد روسى متحمس للصيد والقنص ، اذ يقترب من غابة يتوقع ان يقفز منها بين لحظة وأخرى ارنب بري انهكته الكلاب المطاردة ، فيتحول كله مع حصانه وسوطه الطويل المرفوع الى لحظة جامدة ، الى بارود ، على وشك ان تقرّب النار منه . فغرز عينيه فى الهواء المضبب ، وهو يوشك أن يلحق قنصه ، ويشويه قبل أن يذبحه ، وغير خائف أن يثور ضده السهب الثلجى الشاسع كله ، وينثر نجومه الفضية على شفتيه ، وشاربيه ، وعينيه ، وحاجبيه ، وفى قبعته الفرائية .

وابتدات ربة البيت بالقول «النفوس الميتة . . .»

فتساءلت الضيفة بانفعال شديد : «هى ماذا ؟ هى ماذا ؟»

«هى ، هى . . .»

«تكلمي ، اخبريني بحق السماوات» .
«هي بدعة تخفي وراءها أمراً آخر . فغاية الرجل الحقيقية هي – هي أن يهرب بابنة حاكم الولاية» .
كان هذا الاستنتاج غريباً غير منتظر أبداً على الزائرة اللطيفة فغدت عند سماعه قطعة من الدهشة الاصيلة الشاحبة المتجمدة . وصرخت وهي تضرب يداً بيد – «يا الهي ! ليس في طاقتي ان أتصور هذا !»
«هذه هي الحقيقة . وقد عرفتها في الساعة التي فتحت فيها فمك بهذا الحديث» .
«اذن كفى البنات تعليماً في المدارس . ها هي ابنة حاكم الولاية قد تعلمت ، فانظري النتيجة !»
«أي والله ! وقد قيل لي انها تتلفّظ بكلمات اخجل من ان ارددها على مسامعك» .
«ان قلب المرء ليعتصر أسى عندما يرى التدهور الخلقي الذي وصلنا اليه في هذا الزمان» .
«وعلى الرغم من أن بعض الرجال اضاعوا عقولهم في هواها فهي تافهة في كل صفاتها لا تستحق الذكر ، وأزيدك علماً أن طباعها لا تحتمل» .
«آه ، يا حياتي ، يا آنا غريغوريفنا ، انها تمثال ، وجهها خال من أي تعبير» .
«أي نعم ، متصنعة ، ومتصنعة جداً ، يا ربي ، كم هي متصنعة ! لا أعرف من علمها ذلك ، ولكني لم ار اية امرأة لها مثل مباهاتها» .
«انها تمثال ، يا روحي ، وشاحبة كالموت» .

«أوه ، لا أعتقد ، يا صوفيا ايفانوفنا . تحمّر وجهها بشدة» .
«كيف هذا منك ، يا آنا غريغوريفنا . انها مبيّضة كالطبشورة ، تماماً كالطبشورة» .
«ذات مرة جلست قربي ، يا عزيزتي . الحمرة بسمك الاصبع ، وتتساقط من وجهها قطعاً كما يتساقط ملاط الجدران . أمها علمتها ، فهي نفسها غنجة ، ولكن ابنتها ستتفوق عليها» .
«طيب ، تفضلي . احلفي انت ما تشائين من يمين ، ولكنني مستعدة في هذه اللحظة ان أحرم من اولادي وزوجي وكل ضيعتي ، اذا كان لها ولو قطرة ، وحتى ذرة ، وحتى ظل من حمرة» .
«ما هذا الذي تقولينه ، يا صوفيا ايفانوفنا !» – قالت السيدة اللطيفة من كل النواحي ، وضربت كفاً بكف . فقالت السيدة اللطيفة «آه» ، انت تدهشينني حقاً ، يا آنا غريغوريفنا» – وضربت كفاً بكف أيضاً .
ولكن أرجو الا يستغرب القارئ من ان السيدتين كلتيهما لم تتفقا فيما بينهما على ما رآه كلتاهما في وقت واحد تقريباً . ففي العالم ، بالفعل ، اشياء كثيرة لها هذه الخاصية ، وهي اذا نظرت اليها سيدة لاحت بيضاء تماماً ، واذا نظرت اليها سيدة أخرى لاحت حمراء ، حمراء كالفراولة .
تابعت السيدة اللطيفة تقول :
«طيب ، اليك دليلا آخر على أنها شاحبة الوجه . أنا أتذكر ، وكأنما حدث ذلك الآن ، انني كنت جالسة قرب

مانيلوف ، فاقول له «انظر ، كم هي شاحبة !» صحيح يجب ان يكون الانسان ابله مثل رجالنا حتى يعجب بها . اما ظريفنا . . . اه ، كم يبدو لي مقرفاً ! لا يمكن ان تتصورى ، يا آنا غريغوريفنا ، الى اى درجة يبدو لي مقرفاً» .

«نعم ، ومع ذلك فهناك سيدات ابدين له بعض الاهتمام» .

«انا ، يا آنا غريغوريفنا ؟ لن يمكن ابداً ان تقولى ذلك عني . لن ، ولن ! . .»

«ولكنني لا اعنيك ، وكانما لم يكن احد غيرك» .

«لا ، ولن ! يا آنا غريغوريفنا ! اسمحى لي ان انبهك الى انني اعرف نفسي جيداً . الا اذا كان ذلك يخص بعض السيدات اللواتى يمثلن دور المحصنات» .

والآن ، اعذريني ، يا صوفيا ايفانوفنا ! واسمحى لي ان اقول لك لم تحصل معى مثل هذه الفضائح . مع الاخريات ممكن ، ولكن ليس معي . هذا ما ارجو ان اقوله لك» .

«ولماذا انزعجت بهذا الشكل ؟ فقد كانت هناك سيدات اخريات ، بل وكانت هناك مَنْ تدافعن لياخذن مقاعد قرب الباب ، ليجلسن اقرب اليه» .

وبعد هذه الكلمات التى تفوهت بها السيدة اللطيفة ، كان لا بد ان تعقبها عاصفة ، ولكن من الغرابة الشديدة ان كلتا السيدتين هدات فجاة ، ولم يعقب ذلك شيء . تذكرت السيدة اللطيفة من كل النواحى ان تفصيلة الفستان الجديد ليس فى حوزتها ، والسيدة اللطيفة

فقط فطنت الى انها لم تتعرف بعد على اية تفاصيل عن هذا الاكتشاف الذى جعلته صاحبة مخلصة ، ولهذا حلّ السلام بينهما بسرعة . وعلى العموم لا يجوز القول ان اياً من السيدتين كانت فى طبعتهما تميل الى ايذاء الناس ، وخلقهما ، بشكل عام ، خال من اى خبث ، بل مجرد ان رغبة صغيرة قد تولدت اثناء حديثهما لا شعورياً ومن تلقاء نفسها فى ان تلسع احداهما الاخرى . لمجرد ان اياً واحدة منهما تجد قليلا من المتعة حين تقول للاخرى كلمة جديدة لاذعة ، وكان تقول «هاك ، خذى ، تسلّمي ، كلي !» ذلك لأن رغبات من مختلف الاشكال تظهر فى قلوب الرجال والنساء على حد سواء .

«لكن اكثر ما يحيرنى هو كيف يمكن لرجل مثل تشيتشيكوف الطارئ على الولاية ان يتورّط فى عمل كهذا العمل . لا شك ان له شركاء فى الجريمة» — قالت السيدة اللطيفة فقط .

«هذا لا شك فيه ، واستطيع ان اقول ان نوزدريف هو احد هؤلاء الشركاء» .

«أكيد ؟»

«لا مراء فى ذلك . فقد عرفت عنه مرة انه جرب ان يبيع اباه ! او على الاقل فقد قامر عليه فى اللعب» .

«حقاً ما تقولين ؟ لقد اثرت كوامن استغرابي . لم اكن اتصور ان لنوزدريف دوراً فى هذه القضية» .

«اما انا فقد كنت دائماً اتنبا بهذا» .

«ولك ان تتصورى . صحيح ما اكثر الاشياء التى

تحصل فى هذا الدنيا ! ولكن هل كان من الممكن التنبؤ، عند ذاك ، انت تذكرين ، وتشيتشيكوف قد وصل الى بلدتنا لتوه ، بأن يحدث مثل هذه الضجة الغريبة فى مجتمعنا ؟ آه ، يا آنا غريغوريفنا ، ليتك تعرافين كم ارتعبت ! لو لا مودتنا وصداقتنا . . . لكنت . . . لكنت حقاً على حافة الهلاك . . . والى ايـن المهرب ؟ ماشكا ترانى شاحبة كالموت وتقول لى «مولاتى العزيزة ، انت شاحبة كالموت» . - فاقول «لم اعد اهتم بذلك الآن !» تلك كانت الحال . وما ان دخل نوزدريف ، اوه ، حتى لا ادرى ماذا اقول» .

كانت السيدة اللطيفة تود كثيراً ان تطلع على المزيد من التفاصيل عن الاختطاف ، فى اى ساعة حصل ، وما الى ذلك . ولكنى ما اكثر ما تود . اعلنـت السيدة اللطيفة من كل النواحى صراحة بأنها لا تعرف شيئاً . ولم تكن تجيد الكذب . شىء آخر ان تفترض ، ولكن حتى الافتراض ، فى مثل هذه الحال ، يجب ان يبنى على اقتناع داخلى . ولو كانت تشعر باقتناع داخلى فانها ستقدر أن تدافع عن نفسها ، وعندها ليجرب اى محام كبير مشهور بموهبته فى قهر آراء الاخرين ان يتبارى فى هذه القضية ، فسيعرف ما هو الاقتناع الداخلى .

وما اقتنعت به كلتا السيدتين اخيراً ، بشكل كلى ، فى ان ما كانت تفترضانه سابقاً لم يكن الا مجرد افتراض ، لم يكن شيئاً غير اعتيادى . ونحن ومَنْ على شاكلتنا ، من الناس الاذكياء ، كما نسمى انفسنا ، نتصرف بهذه الصورة تقريباً ، تعتبر جدالاتنا العلمية

دليل اثبات . فى البداية يعالجها العالم معالجة كرجل متزلف ، يبدأ بتهيب واعتدال يبدأ بسؤال فى غاية الوداعة : أليس من هناك ؟ ألم يأخذ هذا القطر اسمه من منطقة معينة ؟ أو الا تعود هذه الوثيقة الى عهد آخر اقدم ؟ أم هل نحن متأكدون من أنهم يعنون بهذا الشعب شعباً آخر مختلفاً ؟ وسرعان ما يستشهد بهؤلاء وغيرهم من الكتاب القدامى ، وما ان يرى اى تلميح او مجرد ما يراه تلميحاً حتى يمتطى صهوة جواده ، ويتشجع ويتناظر مع الكتّاب القدامى ببساطة ، ويطرح عليهم الاسئلة ، بل ويجيب هو نفسه عنها ناسياً كلياً انه بدأ بافتراض متهيب . فقد صار يتصور الآن أنه يراه ذلك ، وان ذلك واضح ، وينتهى النقاش بهذه الكلمات «هذا حصل بالشكل التالى ، والشعب الفلانى يجب أن يعنى الشعب الفلانى ، ومن وجهة النظر هذه يجب ان ينظر الى الموضوع !» وبعد ذلك يعلن على الملأ من على المنبر . وتذيع الحقيقة المكتشفة حديثاً فى العالم ، جامعة حولها المحققين والاتباع .

كانت السيدتان ما تزالان تتجادلان بحدة وصياح ، عندما دخل الغرفة عليهما المدعى العام - بحواجب كثة وعينين رامشتين وقسمات لا حراك فيها . فسارعتا فور المسارعة لأطلاعه على ما لديهما من أنباء ، بالاضافة الى تفاصيل وافية عن شراء الانفس الميتة وعن مشروع هروبه مع ابنة حاكم الولاية واربكتاه كليا ، بحيث أنه لم يستطع ان يفهم شيئاً ، مهما أطال وقفته فى مكانه لا بريم ، رامشاً بعينه اليسرى ، ضارباً لحيته بمنديله

ليزيح عنها ذرات التبغ . وبعد هذا انطلقنا الى المدينة
لتنوير أهلها . وكانتا بحاجة الى ما يزيد قليلا عن نصف
ساعة لتنفيذ هذه المهمة على الوجه الاكمل .

كانت البلدة فى هيجان شديد ، وكل شىء فى
فوران . ويا ليت أحداً استطاع أن يفهم شيئاً ما .
السيدات لم يكن قادرات الا على احداث البلبلة بين
الجميع ، ولا سيما بين الموظفين الذين ظلوا ذاهلين
مصعوقين لبعض الوقت . فغدا مَثَلُ كل فرد من طائفة
الموظفين كمثل تلميذ المدرسة ، وقد اغتنم الفرصة
رفاق له آخرون استيقظوا قبله ، فذرّوا فى عينيه
قبضة من السعوط وهو ما يزال نائماً . وعندما استنشق
السعوط متململاً بكل قوة انسان نائم ، استيقظ ، وثب
من سريره ، وحدق كالابله ، مبحلقاً عينيه فى كل
الجهات ، ولا يستطيع أن يفهم أين هو ، وماذا حصل
له ، ثم يتميز بعد ذلك الجدران المضاء بشعاع الشمس
المائل ، وضحك زملائه ، المختبئين فى الزوايا ،
والصباح الطالع المطل من النافذة ، بالغابة المستيقظة
الصداحة بالالوف من أصوات الطيور ، والجدول
المُشفّ المتألق بتعرجاته هنا وهناك بين القصب
النحيل ، المرقّط كلية باجساد الاولاد العراة الداعين الى
السباحة ، وبعد ذلك ، أخيراً ، يشعر بأن فى أنفه
سعوطاً . تلك بالضبط . كانت حالة اهالى البلدة
وموظفيها فى الوهلة الاولى . كان كل واحد منهم يتوقف
مبحلقاً عينيه كالخروف . كانت الانفس الميتة ، وابنة
حاكم الولاية وتشيتشيكوف يختلطون ويتشربكون فى

رؤوسهم بغرابة غير اعتيادية . وفيما بعد فقط ، بعد
الصعقة الاولى ، صاروا وكأنهم يميزون بينهم ،
وينفصلون بعضهم عن بعض ، واخذوا يطالبون بايضاح ،
ويغضبون ، وهم يرون الامر يَعزُّ على كل إيضاح . ما
هذا اللغز ، فى الحقيقة ؟ ما لغز هذه النفوس الميتة ؟
لا يوجد أى منطق فى النفوس الميتة ، تباع وتشرى .
واى أحمق سيشتريها ؟ وباى نقود ممسوحة سيشتريها ؟
ولأى غرض وفى اى عمل يمكن أن يحشر هذه النفوس
الميتة ؟ وما علاقة ابنة حاكم الولاية فى هذه القضية ؟
فاذا كان يريد أن يأخذها ، فما حاجته لشراء النفوس
الميتة ؟ واذا كان يريد شراء النفوس الميتة فما حاجته
لأخذ ابنة حاكم الولاية ؟ هل يريد أن يهدى لها هذه
النفوس الميتة ؟ وما هذه السخافة التى تسرى فى
البلدة ؟ واى ادارة هذه ، اذا كنت ما ان تلحق أن تدير
راسك ، حتى تجد شائعة قد شاعت . ويا ليت لو كان
لها معنى . . . ولكنها شاعت ، ومعنى ذلك كان هناك
موجب ؟ . . فما هو الموجب فى النفوس الميتة ؟ لا يمكن
ان يكون لها موجب . يعنى مجرد سخافات ، سفاسف ،
ثرثرات حمقى ! والله أعلم أى شىء آخر ! وباختصار
كلام فى كلام . واخذت المدينة كلها تتحدث عن النفوس
الميتة وابنة حاكم الولاية ، عن تشيتشيكوف والنفوس
الميتة ، وعن ابنة حاكم الولاية وتشيتشيكوف . وطلع
كل شىء الى الخارج . والبلدة التى كانت تبدو هاجعة
هاجت كالزوبعة . وخرج من مهاجعهم كل التنابلة
والكسالى الذين ظلوا عدة سنين منطرحين فى ارديتهم

المنزلية ، ملقين اللوم على الاسكاف الذى صنع لهم جزمات ضيقة لا يستطيعون السير فيها ، او على الخياط ، او على حوذيهم السكير . كل الذين قطعوا منذ زمان كل صحبة ، ولم يكونوا يعرفون غير صحبة المالك سرحان ، اذا صح التعبير ، والمالك نائم ، (وهما اسمان معروفان مشتقان من الفعلين «سرح» و«نام» الواسعى الانتشار عندنا فى روسيا ، مثلما تعنى عبارة «قام بزيارة السيد غافى والسيد شاخر» الغاط فى نومة اهل الكهف على جنبه او على قفاه وفى كل الاوضاع الاخرى المصحوبة بالشخير ونخير الانف واللوازم الاخرى) كل الذين لم يكن فى الامكان اغراؤهم بالخروج من البيت حتى فى دعوتهم الى مادبة حساء سمك الحفش النفيس الذى يكلف مائتى روبل ، مع شرائح من هذا السمك الدسم الضخم وكل انواع الفطائر التى تذوب فى الفم . وباختصار ظهر ان البلدة كثيرة السكان ، كبيرة ، ومأهولة بكل انواع الوافدين . ظهر شخص يدعى سيسوى بفنوتيفيتش وآخر باسم ماكدونالد كارلوفيتش ، وهما شخصان لم يسمع بهما احد من قبل ، وصار يتردد على غرف الضيوف رجل طويل جداً ، ذو ذراع مصابة ، اطول حتى من اى شخص رآته العين . وظهرت فى الشوارع مركبات مغلقة وعربات وحجلات من شتى الانواع . واختلط الحابل بالنابل . ان شائعات كهذه ربما ما كانت ستثير اى اهتمام ، اذا كانت قد وقعت فى وقت آخر وفى ظروف اخرى ، ولكن بلدة «ن» ، لم تكن قد تلقت اية اخبار ، منذ زمن بعيد ،

بل ولم يحصل فيها ، خلال ثلاثة اشهر ، ما يسمونه فى العواصم بـ«كوميراجيه» * وذلك ، كما هو معروف ، بمثابة وصول اغذية فى الوقت المناسب ، بالنسبة للبلدة . وظهر فى خضم تفسيرات البلدة رأيان مختلفان تماماً . وانقسمت المسائل الموضوعة على بساط البحث الى قسمين – مسألة الانفس الميتة ، ومسألة ابنة الحاكم . وتشكل تبعاً لذلك فريقان – فريق الرجال وفريق النساء . اما فريق الرجال ، وهو اقل الفريقين احساساً بلا جدال ، فقد حصر اهتمامه فى الانفس الميتة . بينما شغل فريق النساء نفسه فقط فى القضية المزعومة عن خطف ابنة الحاكم . ويمكن ان نذكر هنا (لصالح النساء) ان فريقهن كان ابرع خطة واشد حيطة من الفريق المنافس ، وقد يكون سبب ذلك انهماكهنّ الدائم فى ادارة البيوت وتدبير امورها . ولهذا سرعان ما اتخذت القضية عند السيدات شكلا محدداً واضحاً ، وتبلورت بجلاء لا يدحض ، وتبدّت لا يشوبها من الريب شائبة . وقال بعضهن ان تشيتشيكوف كان غارقاً فى حبّ الفتاة منذ امد طويل وان الاثنين كانا يلتقيان فى ضوء القمر ، وان حاكم الولاية كان على وشك القبول (لا سيما وقد رأى ان تشيتشيكوف غنيّ كيهودى) لولا عقبة اكتشفها فى الطريق وهى ان تشيتشيكوف كان قد هجر زوجة له (اما كيف توصلت السيدات المحترمات الى ان يعرفن انه كان متزوّجاً ، فهذا لا

---

* من الكلمة الفرنسية "Le commérage" اى الاقاويل .

يزال غامضاً حتى الآن) وأن السيدة المهجورة السالفة الذكر – وقد اضناها زوجها الخائن حباً – ارسلت كتاباً مؤثراً جداً لحاكم الولاية ، ولما راى تشيتشيكوف أن الاب والام سوف لا يمنحانه القبول صمم على اختطاف البنت . وفى حلقات أخرى كانت القصة تروى على شكل آخر . فقد اكد قسم منهن ان تشيتشيكوف لا زوجة له ، لكنه كرجل حنكة ودهاء راى ان يطلب يد الفتاة بأن يوقع امّها فى حبائله اولا ويوثق بينه وبينها عرى لا تنفصم ثم يتقدم بعد ذلك بطلبه المنشود . ولكن الام ، مخافة أن تقترف الخطيئة فى دينها واحساساً منها بوخز ضميرها ردّت على تشيتشيكوف برفض صريح . وبعد ذلك كله فكّر تشيتشيكوف بالخطف المزعوم . وقد اضيفت ، طبعاً ، حواشى مختلفة من البراهين والايضاحات تتناسب مع مدى ما وصلت اليه القصة فى ارجاء المدينة . ان المجتمعات الواطئة فى روسيا مغرمة جداً فى الحديث عن الفضائح التى كانت تحصل فى المجتمعات الراقية . ولهذا اخذت الاحاديث تجرى عن ذلك فى مساكن حقيرة لم يقع بصر اهلها على تشيتشيكوف ، ولم يعرفوه ، وحصلت اضافات وايضاحات اكثر . واخيراً ، وصل الخبر بما عليه من تعديلات الى اذن زوجة حاكم الولاية نفسها . وبطبيعة الحال بلغ استياؤها اشده لدى سماعها هذه القصص ، ولها الحق ان تنفعل بوصفها اماً لعائلة واول سيدة فى المدينة وربّة بيت لم يتطرق اليها الشك يوماً من الايام حول هذه الاشياء . وكان على

ابنتها الصغيرة المسكينة ، نتيجة ذلك ، ان تتحمّل – على براءتها – أقسى تقريع سمعته فتاة فى السادسة عشرة .

وانهمرت سيول كبيرة من الاسئلة والاستجوابات والتوبيخات ، والتهديدات ، والتعنيفات ، والاستمالات ، حتى أن الفتاة انفجرت تبكى ، وراحت تنتحب ولم تستطع ان تفهم اى كلمة ؛ بينما تلقى البواب امراً بأن لا يسمح لتشيتشيكوف مطلقاً بدخول البيت .

وبعد ان انهى فريق السيدات مهمته مع زوجة حاكم الولاية ، انهال على فريق الرجال بغية اقناعهم بوجهة نظرهن وكسبهم الى ناحيتهنّ ، مؤكدات ان النفوس الميتة ما هى الا اختراع لتحويل الانظار حتى تنجح مهمة الهروب بالفتاة . وقد تحول فى الواقع اكثر من رجل وانضم الى فريق النساء ، على الرغم من ان هؤلاء المنشقين قد تعرضوا لشتائم من رفاقهم السابقين مثل (ايتها العجوز الشمطاء) و(ايتها الانثى) والقاب أخرى مسيئة للرجال .

وبالاضافة الى ذلك ، فمهما حاول الرجال أن يسلّحوا انفسهم وأن يتقدموا الطليعة الى الميدان فانهم لا يستطيعون أن يضاهوا النساء فى التنظيم وترتيب الصفوف . وقد كان كل أمر عند الفريق الاول عتيقاً مشوّشاً غير منسجم لا معنى له او فى غير موضعه وعلى أسوأ ما يرام . ولم يكن يملأ رؤوسهم غير الخلافات والتفاهات والبلبلة والفوضى فى التفكير . خلاصة القول ، تجلّت عندهم كل خصائص الرجال عامّة

من خشونة وغلظة عاجزة عن تدبير البيت أو المبادرة الى
الاستنتاج ، طبيعة تظل دائماً وأبداً كسولا عديمة الثقة
مليئة بالشك والتهيّب الدائم . فقد أعلن فريق الرجال
مثلا بأن القصة هراء كلها وان هرب ابنة حاكم الولاية
هو اقرب ما يكون الى تأليف رجل آثم من رجال الجيش ،
وأن السيدات يكذبن عندما يتّهمن تشيتشيكوف بهذا
العمل ، وان النساء مثل كيس النقود يحتفظن بأى شيء
تضعه فيه ، وأن الموضوع الذى يستحق الاهتمام فى
الحقيقة هو النفوس الميتة – الشيء الذى لا يعلم معناه
الا الشيطان . الّا ان هناك شيئاً ما غير مألوف فى
طبيعة الامور . سبب واحد جعل فريق الرجال يتأكد
من أن النفوس الميتة هى شيء غير مألوف فى طبيعة
الامور – وهو انه كان قد تعيّن حديثاً حاكم عام . . .
حدث اثار القلق العظيم ، طبعاً ، فى نفوس الموظفين
المدنيين جميعهم لما يترتب على ذلك من تنقّلات واحكام
تأنيبية ، كما يترتب عليه من ولائم رسمية يتفضل
الحاكم العام عادة بتشريف موظفيه بالحضور اليها .
وكان يدور فى تفكير هؤلاء المواطنين ما يلى «يا
للهول ! انه لو علم بالوقائع التى تدور الاحاديث الآن
عنها فى المدينة فسيقيم الدنيا ويقعدها وينزل على
رؤوسنا البلوى التى لا نستطيع بعدها سماع نهاية هذه
الاحاديث» . وعلى الاخصّ ، مدير الدائرة الطبية ، فقد
شحب لونه اذ تصور أن الحاكم الجديد قد يظن ان
«النفوس الميتة» تدلّ على مرضى فى المستشفيات
المحلية قتلتهم الحمّى لقلّة العناية بهم . أليس من

المحتمل أن يكون تشيتشيكوف مندوباً للحاكم العام
لا اكثر ولا اقل ، ارسله ليقوم بتحقيقات سرّية ؟ وبناء
على ذلك ، أسرّ (اى مدير الدائرة الطبية) بظنّه هذا
الى رئيس المجلس المحلى الذى كان عازماً أول الامر ان
يقول «هراء» ، الّا انه شحب فجأة حينما فكر فى نفسه
يقول «وكيف فيما لو كانت النفوس التى اشتراها
تشيتشيكوف ميتة حقاً ؟» – تفكير مرعب ، لا سيما وقد
سمح بتسجيل البيع وقام بنفسه بدور الوكيل عن
بلوشكين ! ما الذى سيحدث اذا وصلت هذه الاخبار الى
اذنى الحاكم العام ؟ وذكر هذا لبعض أصدقائه الذين
انقلبوا بدورهم صفر الوجوه ، لأن الرعب أسرع انتشاراً
من الطاعون واشد منه فتكاً . وفجأة اكتشف الجميع
فى أنفسهم ذنوبا لا وجود لها . وكانت كلمة «نفوس
ميتة» تحمل اليهم أصداء غامضة ، حتى أخذوا يتصورون
انها تنطوى على ايماءات الى جثتين دفنتا على عجل نتيجة
حادثتين وقعتا فى وقت ليس بالبعيد . الحادثة الاولى
وقعت لبعض التجار من سولفيتشيغودسك وفدوا الى
البلدة للاشتراك فى سوقها ، وبعد ان باعوا بضائعهم
اقاموا مأدبة صغيرة لاصدقائهم تجار
ا'وستيسيسولسك ، مأدبة اقاموها على أساس روسى
بتحسينات المانية – شراب اللوز ، البونش ، البلزم
وغيرها . وانتهت المأدبة بعراك ، كما هى العادة .
اثخنوا السولفيتشيغودسكيون فى زملائهم
ا'وستيسيسولسكيين الى حد الموت ، ولكن دون ان
ينجوا هم من كدمات فى الضلوع والصدر دلت على

الحجوم الهائلة لقبضات الذين أسلموا الروح . بل ان احد المنتصرين تهشمّ «عرنينه» على حد تعبير المقاتلين ، اى أن أنفه قد سحق ، حتى لم يبق منه على وجه الا ّ ما يزيد عرضه عن نصف أصبع . واعترف التجار فى المحكمة بذنبهم ، موضحين أنهم أساءوا التصرف قليلا . وسرت شائعات بأنهم عرضوا أربعة آلاف روبل على كل راس مذنب . والقضية كلها ، بشكل عام غامضة جداً . وقد ظهر من كشوف التحقيقات الرسمية أن تجار اوستيسيسولسك قد توفوا بسبب غازات الفحم ، ولهذا دفنوا باعتبارهم محروقين . اما الحادثة الثانية التى حصلت قبل مدة قصيرة ، فكانت كالآتى : وجهت الى فلاحى الحكومة من قرية «أم القمل» بالتعاون مع نفس الفلاحين من قريتى «الخنزير المخصى» و«المشاكس» تهمة استئصال شأفة شرطة الريف ممثلة بالمختار دروبياجكين الذى اكثر التردد على قريتهم بشكل زائد ، وهو أمر كان أسوأ من الحمى الخبيثة فى بعض الأحيان . والسبب فى هذه الزيارات ، هو أن الشرطى الضعيف القلب ازاء الجنس الآخر كان يغازل نساء القرية وفتياتها . لا شيء مقطوع بصحته ، ولو أن الفلاحين فى افاداتهم ذكروا بوضوح ان هذا الشرطى كان فاجراً كهر ، وانهم حذروه مرات عديدة ، بل وطردوه ذات مرة عارياً من بيت تسلل اليه . وبالطبع كان الشرطى مستحقاً للعقاب على نزوات قلبه الضعيف ، ولكن لا يجوز فى نفس الوقت التسامح مع فلاحى «أم القمل» و«المشاكس»

على تصرفهم الكيفى ، اذا كانوا قد ساهموا ، فعلاً ، بالقتل . ولكن القضية كانت غامضة . وقد وجد الشرطى فى الطريق ، وسترته الرسمية أسوأ من خرقة . اما وجهه فقد تغير جداً ، بحيث لا يعرف به . وتنقّلت القضية بين المحاكم ، ووصلت أخيراً الى المحكمة العليا ، حيث قد اجمعت الاراء فى بادئ الامر على ما معناه : لما كان غير ثابت بالضبط من الذى اشترك من الفلاحين فى القتل ، والفلاحون كثيرون ، ودروبياجكين قد فارق الحياة الآن ، ولن ينتفع ، حتى ولو حكمت المحكمة لصالحه - بينما الفلاحون ما يزالون احياء ، ومعنى ذلك أن قرار المحكمة لصالحهم سيكون ذات اهمية كبيرة بالنسبة لهم ، فقد تقرر تبعاً لذلك : ان المختار دروبياجكين نفسه هو المسؤول ، بفرضه مضايقات مجحفة بحق فلاحى «أم القمل» و«المشاكس» ، وقد توفى اثر نوبة صرع ، وهو فى طريق العودة على زلاجة . وبدت القضية ، وكأنها قد سُدّت ، ولكن الموظفين ، لسبب مجهول ، أخذوا يتساءلون عما اذا كانت للنفوس الميتة الآن علاقة فى تلك القضية . ولزيادة متاعب الموظفين أيضاً ، حدث فى تلك الآونة بالذات أن وقع فى يد الحاكم المحلّى وثيقتان فى غاية الاهمية . كانت اولاهما تشير الى أن هناك فى تلك الولاية ، حسب الدلائل والتقارير ، مزيّف للنقود يتستّر تحت أسماء مختلفة ، ولهذا يجب البحث عنه بكل جدّ ونشاط . اما الوثيقة الاخرى فكانت كتاباً من حاكم ولاية مجاورة بشان شرير أثيم نشر الرعب فى تلك الولاية ، وفى

لهجة الكتاب ما يوحي بالتحذير بأنه اذا ظهر فى مقاطعة مدينة «ن» أى شخص مشتبه به لا يستطيع ابراز وثيقة أو جواز سفر ، فيجب القاء القبض عليه حالا ، وقد القت هاتان الوثيقتان الرعب والفزع فى قلب كل انسان ، لأنهما اثارتا كل الاحتمالات والتقديرات السابقة . وبالطبع لم يكن فى الامكان الافتراض بأن ذلك اشارة الى تشيتشيكوف على نحو ما ؛ وعندما استعرض كل منهم الوضع حسب وجهة نظره تذكر ان لا احد يعرف من هو تشيتشيكوف ، بينما كان كلام تشيتشيكوف عن نفسه وتعابيره الغامضة ، اجل . تعابيره الغامضة تدل على أنه قاسى كثيراً فى سبيل الحقيقة عندما كان فى خدمة الحكومة ، وان له اعداء يطلبون حياته . وكانت استعادة هذا الكلام غذاء لتفكير الموظفين . فربما كانت حياته حقيقة فى خطر ؟ وربما كان هناك حقيقة من يبحث عنه ؟ وربما كان قد قام حقيقة بعمل ما ؟ أمّا فى واقع الامر ، من هو ؟ لم يكن يبدو عليه أنه مزيف نقود ، بله لص ، لأن مظهره الخارجى كان فى أعلى درجات الاحترام . لكن من هو ؟ واخذ هؤلاء السادة الموظفون يطرحون على انفسهم هذا السؤال الذى كان يجب ان يوجهوه فى البداية ، اى فى الفصل الاول من قصيدتنا هذه . واخيراً ، صمم الموظفون على اجراء تحقيق مع أولئك الذين اشترى منهم النفوس حتى يتسنّى لهم الاطّلاع على الاقل على ماهية المشتريات وما وراءها وفيما اذا كان قد أوضح لأحدهم – عرضاً – عن مآربه الحقيقية أو اطلع احدهم على هويته . وكان اول من

قصدوه فى هذا الشأن – طبعاً – كوروبوتشكا . الاّ ان المعلومات التى أخذوها من هذا المصدر كانت ضئيلة جداً . كانت مجرّد رواية عن انه اشترى منها بعض النفوس بخمسة عشر روبلا ، ووعدها بأن يشترى منها كمية من الريش وبضائع اخرى فى المستقبل لأنه متعهد الشحوم للحكومة ، وهذا أمر يدل الى حد ما على ان الرجل سافل خاصة وأن هناك شخصاً آخر مماثلا اشترى كمية من الريش الاّ انه غشّ كل من عاملوه ، وغش زوجة الاب بالذات بمبلغ اكثر من مائة روبل . وما قالته فيما بعد كان تكراراً تقريباً لما قالته وكانت نتيجة التحقيق النهائية مع السيدة ان اقتنع الموظفون بانها عجوز غبية ثرثارة . اما مانيلوف فقد اجاب بانه يستطيع أن يتكلم عن تشيتشيكوف كما يتكلم عن نفسه وانه مستعد للتضحية بكل ثروته فى سبيل ان يحوز على عشر المواهب التى يحوزها بافيل ايفانوفيتش . واخيراً ، قطّب حاجبيه بحدة والقى خطاباً يمدح فيه تشيتشيكوف بأحسن التعابير الخلابة داعماً اقواله بمشاعر شتى من الصداقة والعواطف بوجه عام . وكان خطابه فى الحقيقة كافياً للدلالة على الاحاسيس العاطفية الجيّاشة فى قلب المتكلم ولكنه لم ينر السبيل أمام سائليه فى الموضوع الذى يبتغون . أما سوباكيفيتش فقد أجاب بأنه يعتبر تشيتشيكوف انساناً ممتازاً وان النفوس التى باعها له كانت حية بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولكنه لا يستطيع ان يجيب عما قد يحدث لها فى المستقبل ،

وان اى كارثة قد تحلّ بالنفوس اثناء نقلهم سوف لا تكون غلطته لأن الله سبحانه وتعالى هو رب الجميع وفى يده مقادير الامور ، وان الحميات والعوارض المميتة الاخرى كثيرة جداً فى هذا العالم ، وهناك امثلة على قرى هلكت برمتها بالأوبئة والامراض . وبعد هذا كله ، وجد الموظفون انفسهم مضطرين الى اتباع طريقة اخرى ، ومع انها لا تستساغ الا انها تستخدم غالباً - الا وهى ارسال خدم بكل هدوء كى يتصلوا بخدم الشخص الذى يطلبون المعلومات عنه ، وان يعرفوا منهم (اى من الخدم) بعض التفاصيل عن حياة سيدهم السابقة وماضيه . ولم يستطيعوا الحصول حتى من هذا المصدر الا على النزر اليسير لأن بتروشكا تكرم على سائليه فقط برائحة غرفته ، واقتصرت اجوبة سيليفان على ان سيده كان فى خدمة الدولة ، واشتغل ايضاً فى الجمارك . لهذه الطبقة من الناس عادة غريبة للغاية . اذا سالت احدهم سؤالا مباشراً عن شىء ما ، لم يتذكر شيئاً ، ولا يلم كل شىء فى ذهنه ، بل يكتفى بالرد انه لا يعرف ، واذا سالته عن شىء آخر اخذ ينسج ، ويتحدث بتفاصيل لا تريد ان تعرفها . باختصار ، كان المجموع الكلى للمعلومات التى حصل عليها الموظفون هو جهل هويّة تشيتشيكوف . لكنه يجب ان يكون انساناً ما . وعلى ذلك فقد تقرر ان يعقد اجتماع للبحث النهائى فيما يجب عمله ، وفيمن يمكن ان يكون تشيتشيكوف ، وفيما اذا كان شخصاً يخشى جانبه ويجب اعتقاله لأنه انسان لا يستحق الاحترام ،

او فيما اذا كان شخصاً يستطيع ان يرهبهم ويعتقلهم لانهم هم انفسهم الذين لا يستحقّون الاحترام . وقرّ الراى على عقد الاجتماع فى بيت رئيس الشرطة الذى يعرف عنه القراء انه اب وراع للمدينة .

الفصل العاشر

وما ان اجتمع الموظفون فى البيت الذى سبقت الاشارة اليه ، حتى راى كل واحد منهم ان الآخرين قد اصابهم الهزال فاصبحوا ارقّ عودا من جراء هذه المتاعب المثيرة . اجل ، فان تعيين الحاكم العام الجديد ، والاشاعات المندلعة ، ووصول الوثيقتين الخطيرتين السالفتين — كل هذه الامور تركت آثاراً جليّة على ملامح كل فرد من الحضور . واصبحت بعض المعاطف كبيرة على لابسيها ، وذوت بعض البُنَى مثل بنية رئيس المجلس المحلى ومدير الادارة الطبية والمدعى العام . حتى ان شخصاً باسم سيمون ايفانوفيتش (ولم يكن يدعى باسم عائلته ابداً لسبب ما ، انما كان يلبس فى الاصبع خاتماً اعتاد ان يبهر به ابصار صديقاته السيدات) صغر حجمه حتى كاد يسقط خاتمه من اصبعه . لكن كان هناك عدد من الافراد الوقحين — كما يحدث دائما فى شدائد كهذه — استطاعوا ان يحتفظوا بكامل قواهم الجسدية والعقلية ، وان كانت الاخيرة لا تزيد حجماً عن الذرة البسيطة . وكان مدير

البريد أحد هؤلاء . كان معتدل المزاج ، وفى مناسبة كهذه كان يقول «لقد عرفناكم أيهاالحكام الكبار ، فقد رأينا منكم ثلاثة او اربعة يأتون ويذهبون ، بينما نحن نجلس على هذه المقاعد منذ ثلاثين عاما» . وكان موظفون آخرون يردّون على ذلك عادة «وضعك جيد . شبريخن زى ديتش يا ايفان اندريتش . انت مسؤول عن البريد تتلقى وترسل الطرود . الا" اذا تتحايل فتغلق المكتب قبل الموعد بساعة ، او تأخذ رسماً اكثر على استلام رسالة من تاجر جاء متأخراً عن الموعـــد المقرر ، او ترسل طرداً ممنوعاً – وبالطبع ، كل انسان هنا سيكون قديساً . ولكن قد يتردد عليك كل يوم شيطان لا يفتأ يدسّ فى يدك شيئاً ، وانت لا تريد ان تأخذه ، ولكنه يدسه لك . بالطبع لست مثقلا بالاعباء ، فأنت والد ابن واحد . ولكن هناك ، يا اخ ، هذا وذاك مـن الناس ، يمنّ الله عليهم كل سنة بابن او ابنة . ونغمته تختلف عن نغمتك» . بهذا الشكل كان يتكلم الموظفون . ولكن ليس من شأن المؤلف ان يحكم فيما اذا يجب أن يقف الانسان ضد اغراءات الشيطان ام لا . الا" ان الميزة الطاغية فى هذا الاجتماع كانت غياب مـــا يعرف عادة «بالذوق» . ونحن الروس ، بوجه عام ، لا نظهر بالمظهر اللائق فى الاجتماعات الجادة ابتداء من اجتماعات الفلاحين فى القرى الى مختلف أنواع اللجان العلمية وغيرها لاننا مالم نجد قائداً ذا سلطة معنوية يسيطر بها على الباقين فان الامور دائماً تنقلب الى فوضى . لماذا يجب ان يكون ذلك كذلك ؟ لا يستطيع امرؤ ان يجيب . على اية حال ،

نجاحاتنا تتجلى فى الاجتماعات التى يكون موضوعهـــا الولائم والحفلات – أى الاجتماعات التى تعقد فى النوادى والمطاعم ذات الادارة الالمانية . ولكننا مستعدون ، على ما اظن ، لكل شيء ، فى كل لحظة . ومثل هبة الريح ننشر فجأة الجمعيات الخيرية والتشجيعية ، وما نشاء من الجمعيات . وقد تكون الغاية نبيلة ، ولكن لن تثمر شيئاً أبداً . ولعل مرجع ذلك أننا نشعر بالرضى عـن انفسنا فجأة ، ومنذ البداية ، ونعتبر كل شيء قـــد انجز . فمثلا ننشىء جمعيـــة خيرية للفقراء ، ونتبرع بمبالغ كبيرة ، ونقوم على الفور تكريماً لهذه المكرمـة بمادبة غداء لجميع الموظفين الكبار فى المدينة ، ننفـق فيها ، بالطبع ، نصف مجموع المبالغ التى تبرعنا بها . ونصرف النصف الآخر على استئجار مقر فاخر للجنـــة الجمعية ، فيه تدفئة وحراس ، وبعد ذلك لا يبقـــى للفقراء من كل المبالغ غير خمسة روبلات ونصف ، وحتى هذا المبلغ لا يتفق جميع أعضاء اللجنة على وجـــوه انفاقه ، ويأخذ كل عضو بتزكية احد أقاربه . مهمـا يكن من امر ، فان اجتماعنا الحالى لـــم يكن من هذا النوع ، انما هو اجتماع دعت اليه الضرورة لبحث الكارثة التى تهدّد كل موظف من الحاضرين . وبالتالى عليهم ان يكونوا اكثر تلاحماً ووئاماً ولكن ما حدث كان العكس . وبالاضافة الى التباين العظيم فى الآراء ووجهات النظر التى طرحت آنذاك ، فقد كانت تظهر على جميع المتكلمين موجة طاغية من التردد والحيرة جعلتهم يؤكدون اموراً فى لحظة معينة ثم يعودون الى نقضها فى اللحظة التى

تليها . الاّ ان امراً واحداً على الاقل لاح انهم اتفقوا عليه ، وهو ان مظهر تشيتشيكوف وحديثه كانا على درجة من الاحترام لا يمكن ان يكون معها مزيّفاً او لصاً متستراً . اقول ، لاح انهم كلهم متفقون على هذه النقطة من البحث حتى ظهرت صيحة فجائية من مدير البريد الذى كان جالساً منذ مدة مضت مستغرقاً فى التفكير .

صاح يقول «استطيع ان اخبركم من هو تشيتشيكوف !»

فاجاب الجميع فى هياج شديد «من اذن ؟»

«انه ليس غير الكابتين كوبيكين»

«ومن يكون هذا الكابتين كوبيكين ؟»

فنشق نشقة من السعوط (فعل ذلك وغطاء العلبة مفتوح نصف فتحة مخافة ان يتدخل غريب فيدخل اصابعه المتسخة فيها) وراح يقص القصة التالية .

قصة الكابتين كوبيكين

«بعد انتهاء حملة نابليون عام ١٨١٢ ، ارسل انسان جريح الى بيته ، اسمه الكابتين كوبيكين . وكان هذا الشاب عنيداً جريئاً يتدفق حيوية ويضفى حيويته هذه على كل شىء امامه سواء كان فى العمل ام كان فى السجن . وبما انه فَقَدَ ساقه وذراعه فى معركة

كراسنى او معركة لايبزيغ (لا يهم ايهما) ، ولم يكن فى تلك الايام تعويضات للجنود الجرحى ولم يعد قادراً على العمل بيده اليسرى فقط ، لذلك انطلق ليرى اباه فى امر تدبير قوته . ولم يكن فى قدرة الاب ان يعيل ابنه لسوء الحظ ، واطلع الابن على ذلك . فصمم الكابتين على الذهاب الى بطرسبرج وطلب المساعدة منها نظراً الى انه خاطر بحياته فى سبيل وطنه واهرق الكثير من دمه فى الدفاع عن بلاده . ولكم ان تتصوروه فى عربة الشحن التى اقلّته وهو يطل على العاصمة — العاصمة التى لا شبيه لها فى مدن العالم ! وانبسطت امام عينيه صور الحياة كلها ، صور كأنها الف ليلة وليلة قام بتكوين اجزائها نيفسكى بروسبكت وشارع جوروخافايا والبروج الملتفة التى لا حصر لها والجسور التى لا تستند الى شىء — نينوى اخرى كانت فى الواقع مبسوطة امام عينيه . وتنقل يبغى استئجار موضع للسكن يستقر فيه لكنه وجدها كلها تزخر بالستائر والسجاد العجمى وفاخر الاثاث ، ورأى ان استئجارها يعنى استهلاك القسم الاكبر من ماله . حقاً ان المرء اذا سار فى شوارع بطرسبرج فانه يخيّل اليه انه يشم الروبلات بالآلاف ، ولكن جيب صديقنا كوبيكين كان خالياً الاّ من بضع قطع نحاسية وقليل من الفضية لا تكفى لشراء ضيعة على اية حال . واخيراً ، تمكن من ايجاد مأوى له فيما يشبه الحانة حيث تكون حصة النازل فيه طاساً من حساء الكرنب وقشرة من خبز ، مقابل روبل واحد فى اليوم . ولما شعر بانه لا

يستطيع ان يقيم طويلا على حصة كهذه ، استشار الناس فيما يفعل . فقالوا له «ماذا تفعل ؟ الحكومة ليست هنا ، انها فى باريس ، ولم ترجع الجيوش من الحرب بعد . لكن هناك لجنة مؤقتة ومن الافضل أن تذهب اليها وترى ما يمكن ان تفعل لك» . فقال «حسناً ، سأذهب الى اللجنة واقول لها أننى اهرقت دمى وضحيت بحياتى فى سبيل وطنى» . واستيقظ مبكراً صباح ذات يوم وحلق لحيته بيده اليسرى (لان تكاليف الحلاقة غير ذات بال !) وانطلق بساقه الخشبية ليقابل رئيس اللجنة . ولكنه سأل أولا عن محل سكنى الرئيس فقيل له أن بيته فى «كورنيش القصر» . ولم يكن البيت كوخ فلاح طبعاً ، انما كان يعج بالشبابيك المتألقة والمرايا الضخمة والتماثيل والخدم ومقابض الابواب النحاسية ! انه فى الواقع من ذلك النوع من المحلات التى لا تدخلونها الا بعد أن تشتروا قطعة رخيصة من الصابون وتغسلوا انفسكم بها ساعتين كاملتين . وقام على المدخل أيضاً بواب ضخم بهراوة فى يده وياقة مطرّزة على عنقه كانه كلب سمين افطس الانف اتخم اكلا . مهما يكن من امر فقد تمكن صديقنا كوبيكين من الوصول بنفسه وبرجله الخشبية الى صالة الاستقبال . وانزوى فى احدى الزوايا خشية ان يصدم كوعه الصينى المذهب ، وجلس ينتظر وهو مغتبط جداً لوصوله قبل أن يغادر الرئيس فراشه وقبل أن يقدم الخدم له الطشت الفضى اللمّاع لغسيل وجهه . ومع كل ذلك فقد

انتظر اربع ساعات حتى جاء خادم الصباح يقول «سيكون الرئيس هنا حالا» . كانت الغرفة عندئذ تعج بالناس وكأنها خليّة النحل . وما غادر الرئيس غرفة الافطار ودخل الى صالة الاستقبال حتى حمل معه . . . ، أيه ! . . اية عظمة واية فخفخة ، انها أبّهة العاصمة كلها ! واخذ يتنقّل بين الحضور من شخص الى آخر وهو يقول «ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟ ماذا أستطيع ان أفعل لك ؟ ما شأنك ؟» واخيراً وقف أمام كوبيكين ، فقال كوبيكين له «انى اهرقت دمى وفقدت ساقاً وذراعاً فى سبيل بلادى ، ولا قدرة لي الآن على العمل . فهل لي أن اجرؤ اذن واطلب القليل من المساعدة اذا كانت القوانين تسمح بها ؟ او منحة او معاشاً تقاعدياً او اى شىء من هذا القبيل ؟» عندئذ نظر الحاكم فراى ان احدى ساقيه كانت حقاً خشبية وان الكم الايمن المعلّق فى معطفه كان فارغاً . فقال له «حسن جداً ، ارجع لي مرة ثانية فى غضون بضعة أيام» . فشعر كوبيكين بسرور لدى سماعه هذا الكلام ، وقال فى نفسه «الآن قمت بمهمّتى» ولكم ان تتصوروا كيف راح يعرج على الرصيف ، وكيف عرّج على حانة فى الطريق واحتسى كأساً من الفودكا ، وكيف طلب ضلع خروف وعصير البرتقال واشياء اخرى للغداء ، ثم كيف طلب زجاجة من الخمر وكيف ذهب الى المسرح فى المساء . باختصار ، اعطى نفسه حقها على خير ما يرام . وبالتالى ، راى فى الشارع فتاة انجليزية كأنها الاوزة فى تيهها ، فاندفع يعدو خلفها برجله الخشبية . ولما راى أنه لن يلحق

بها قال لنفسه «لكن ، لا . لتذهب هي وامثالها الى الشيطان ! سانتظر حتى اتسلّم تقاعدى . فقد كفى ما قمت بصرفه حتى الآن» . وذهب بعد يومين او ثلاثة أيام لمقابلة رئيس اللجنة مرة ثانية . وقال له «يسرني ان اعرف ان كنت تستطيع الآن ان تعمل لي شيئاً لقاء دمي الذى اهرقت والامراض التى عانيت والجروح التى بها اصبت فى خدمة الوطن والجيش» . فقال له الرئيس «يجب أن اخبرك اولا ان قضيتك لا يمكن البت فيها دون مصادقة من الحكومة العليا . وبغير هذه المصادقة لا نستطيع ان نعمل شيئا . وانت ترى ان معظم الامور تبقى معلّقة حتى رجوع الجيش من الحرب . كل ما يمكنني ان انصحك به هو ان تنتظر عودة القيصر وان تتجمّل بالصبر اثناء ذلك . وتأكد انهم عندئذ لن يغضّوا الطرف عنك» . على اية حال فهذا ما لم يكن يريده كوبيكين ، فقد كان ينتظر ان يتسلّم منحة مقدارها الف روبل فى التو والساعة . وبدلا من «اشرب وامرح» كانت النتيجة «انتظر فالوقت لم يحن بعد» . وهكذا ، فمع ان راسه كان مليئاً باطباق الحساء وشرائح اللحم والفتيات الانجليزيات ، الا انه هبط السلالم الآن مطأطئ الاذنين خافض الذنب ومنظره فى الواقع كمنظر الكلب الذى كبّ عليه الطباخ سطل ماء . فترون أيها السادة ان حياة بطرسبرج قد غيرته تغييراً ليس بالقليل منذ ان ذاق طعمها لاول مرة . فلا يعرف غير الشيطان كيف سيعيش بعد الآن . وازدادت الامور فى وجهه تعقيداً اذ تصور أنه لن يتمتع بشيء حلو بعد

الساعة . ويجب أن تتذكروا دائماً أن للرجل فى عنفوان شبابه شهية الذئب . واذ مرّ صاحبنا بمطعم رأى خادماً فرنسياً بوجه مستدير وقميص هولاندى ومعطف أبيض كالثلج يحضّر طبقاً فاخراً جداً من الطعام يكاد يأكل نفسه ، واذ مر أمام حانوت للفواكه رأى الطيبات مائلة للمجانين من الناس تطلب منهم ان يشتروها بمئة روبل للحبة الواحدة . تأمّلوا معى اذن حالته ! ويمكننا ان نقول انه رأى سمك (السالمون) والبطيخ فى ناحية والمبلغ المؤلم الذى سيدفعه للحانة مقابلها فى ناحية اخرى . وفكّر فى نفسه قائلا «دع اللجنة تفعل بي ما تشاء ، ولسوف اذهب اليها واقيم ضجة كبرى ، وسأخبر كل موظف فيها ان لي الحق بأن افعل ما اريد» . ووجدت وقاحة هذا الرجل الجرأة فى العودة الى اللجنة بالفعل . وقال له الرئيس «ماذا تريد ؟ ما الذى جاء بك للمرة الاخرى ؟ فقد أعطيتك التعليمات التى يجب أن تتبعها» . فاجاب يقول «أجل معي التعليمات ولكني لن أتبعها . اني أريد شيئاً من الطعام» . فقال الرئيس «بعض الحلم ، أيها الكابتين . ان الشيء الحقيقى الذى تريده (اذا سمحت لى بذكره) هو بعض الصبر . ستقبض مكافأة مناسبة ، فلا يليق ان يُترك فى عوز من ضحى فى خدمة الوطن» . ولكم ان تتصوروا ان هذه الكلمات دخلت من احدى اذني كوبيكين وخرجت من الاذن الاخرى .

ما الذى يجب عمله مع شخص مثل كوبيكين ؟ ورأى الرئيس ان اتخاذ اجراءات حازمة أصبح امراً حتمياً .

وقال له «حسناً جداً ، اذا كنت ترفض القناعة بما
أعطيت وترفض أن تبقى هادئاً فى انتظار البت فى
قضيتك ، فعلىَّ اذن ان أجد لك مأوى . أيها الشرطى
خذ هذا الرجل الى مكان سكنه» . فتقدم شرطى كان
واقفاً بالباب طوله ثلاثة اذرع وعلى كتفه بندقية –
شرطى لديه المؤهلات لكى يحرس مصرفاً مالياً كبيراً ،
ووضع صديقنا فى عربة الشرطة . ففكر كوبيكين فى
نفسه وقال «على الاقل سوف لا ادفع هنا أجرة الركوب .
وفى هذا بعض السلوى» . وبعد أن سارت بهما العربة
قليلا قال لنفسه مرة اخرى «لقد قالوا لي فى اللجنة
ان اذهب وافتش عن وسائل اخرى امتع بها نفسي ،
وها انا افعل» . مهما يكن من امر ، فلا احد يعلم الآن
ماذا حدث لكوبيكين ولا الى اين قاده المصير . لقد
غرق على حد قول الشاعر فى بحر النسيان ، واندفنت
اعماله فى اعماقه . لكن اسمحوا لى أيها السادة ان المّ
شعث القصة . فقد ظهر بعد شهرين من هذه الحادثة
عصابة من قطاع الطرق فى غابات ريازان . ولم يكن
رئيس هذه العصابة غير – «فقاطعه رئيس الشرطة
قائلا «لكن اسمع لي ، لقد قلت ان الكابتين كوبيكين
فقد ذراعه وساقه ، بينما تشيتشيكوف . . .»

لم يكن هناك داع لزيادة فى القول ، اذ ضرب مدير
البريد جبهته براحة يده ، ودعا نفسه مجنوناً امام
الجميع ، ولم يكن فى مقدوره أن يفهم كيف لم يخطر
هذا الأمر فى ذهنه منذ بداية القصة ، واعترف بصحة
المثل القائل «الروسى ذكى بعد فوات الأوان» . مع انه

قد جرب أن يصحح خطأه ذاك بقوله أن علم الميكانيكا
فى انجلترا قد وصل الى درجة تصنع فيها السيقان
الخشبية بحيث يتمكن لابسها اذا ما ضغط على لولب ان
يخفيه عن الانظار .

ولكن الجميع كانوا فى شك من أن تشيتشيكوف كان
الكابتين كوبيكين بالفعل ، واعتقدوا أن مدير البريد
قد سرح به الخيال . وهم بالمناسبة لم يقصّروا ، من
جانبهم ، ومضوا أبعد متأثرين فى فطانة مدير البريد .
وقد بحثت نظريات مختلفة أخرى ، منها ان تشيتشيكوف
هو نابليون وان الانجليزى منذ قديم الزمان يحسد
روسيا على كونها بلاداً كبيرة شاسعة ، بل وطبعت عدة
صور كاريكاتورية يصور فيها الروسى يتحدث مع
انجليزى كان يمسك خلفه كلباً من مقوده ، وهم يعنون
به نابليون ، والانجليزى يقول «حذار ، اذا لم يعجبنى
شىء ما ، فسأطلق عليك الكلب !»

ولعلهم الآن قد أطلقوه من جزيرة هيلانه . وهو الآن
يتسلل الى روسيا ، وقد يكون تشيتشيكوف فى حقيقة
أمره ليس شخصاً بهذا الاسم . وبالطبع لم يصدق
الموظفون بذلك ، بل جعلهم ذلك يفكرون فى الأمر ، على
أية حال ، وفى خضم تفكيرهم هذا ، اقتنع كل واحد
منهم بأن تشيتشيكوف ، اذا أدار وجهه جانباً ،
فسيشبه تماماً صورة نابليون . بل ان مدير الشرطة
الذى كان فى الجيش اثناء حملة نابليون عام ١٨١٢ ،
ورأى نابليون شخصياً لم يكن فى وسعه الا ان يقر ان
نابليون ليس أطول قامة من تشيتشيكوف فى كل

الاحوال ، وان نابليون فى هيئة جسمه لا يمكن أن يقال ايضاً انه سمين جداً ، ولكنه ليس النحيف بشكل ملحوظ . ولربما يصف كل هذا بأنه غير مستحب ، والمؤلف أيضاً مستعد ، لارضائهم ، بأن ينعت كل هذا بهذه الصفة ، ولكن من سوء الحظ ان كل ذلك حصل كما يُروى ، والأعجب من ذلك ان البلدة لم تكن فى الانحاء القصية من البلاد ، بل على العكس ، لم تكن بعيدة عن كلتا العاصمتين ، وعلى أية حال يجب ان يذكر ان حوادث هذه القصة قد وقعت بعد ان طرد الفرنسيون من روسيا بسنوات غير عديدة . وفى ذلك الوقت أنقلب كل مالكى الاراضى عندنا ، والموظفين ، والتجار ، والباعة فى المخازن ، وكل المتعلمين ، بل وحتى الاميون الى سياسيين عتاة لمدة ثمانى سنوات على الأقل . وصارت جريدة «وقائع موسكو» وجريدة «ابن الوطن» تقرآن بحماس غير قليل وتداولتهما الأيدى حتى كانتا تصلان الى القارئ الأخير مزقاً لا تصلح لأى استعمال . وبدلا من الأسئلة المعتادة «بكم بعت كيل الشوفان ، يا عم» أو «كيف استفدت من الثلج الذى سقط البارحة» صاروا يقولون «ماذا تكتب الصحف ، الم يطلقوا سراح نابليون من الجزيرة مرة اخرى ؟ وكان التجار اشد الناس خوفاً من ذلك ، لأنهم كانوا يؤمنون كلياً بتنبؤ نبى كان قد أمضى ثلاث سنوات فى السجن . وقد وصل هذا النبى من مكان غير معلوم ينتعل حذاء من ليف ويلبس فروة تفوح برائحة سمك فاسد قوية ، وذكر ان نابليون هو المسيح الدجال وسوف يهرب من سجنه

فى الجزيرة يوماً ما ليمارس السلطة الكبرى على العالم . وسجن النبى جزاءاً على نبوّته ، ولكنه قد ترك تأثيره ، على كل حال ، واثار التجار كليا . وظلوا لزمن طويل ، حتى اثناء عقد الصفقات المربحة ، وتوجههم الى الحانات لتثبيتها بالشاى يتحدثون عن المسيح الدجال . ووجد الكثيرون من الموظفين ونبلاء القوم أنفسهم يفكرون فى ذلك أيضاً ، واصيبوا بعدوى الصوفية التى كانت رائجة ، كما هو معروف ، وعلى الموضة . ورأوا فى الحروف التى يتألف منها اسم نابليون معنى خاصاً يعادل رقم ٦٦٦ اى اسم ابليس الذى تنبأ به سفر الرؤيا . ولهذا فلا عجب اذا وجد الموظفون أنفسهم منقادين الى التفكير فى هذه النقطة ، الا أنهم سرعان ما صحوا ، وقد فطنوا الى ان خيالهم تمادى اكثر من اللازم ، وان الأمر ليس كذلك تماماً .

وصمم الموظفون ان يسألوا نوزدريف ، كآخر ملاذ يلوذون به ، اذ لم يكن هو أول من ذكر الانفس الميتة وحسب ، بل كان يبدو انه على علاقات متينة مع تشيتشيكوف . ومعنى ذلك انه يعرف بلا شك شيئاً من ملابسات حياته ، فلنحاول مرة أخرى ما سيقوله نوزدريف .

غرباء هؤلاء السادة الموظفون ، ومن ورائهم جميع المراتب الاخرى . فقد كانوا يعرفون جيداً ان نوزدريف كذاب ، ولا يمكن التصديق بكلمة واحدة ، مهما تكن تافهة من اقواله ، ومع ذلك فقد لجأوا اليه بالذات . وما اغرب مخلوق فى الدنيا من انسان لا يؤمن بالرب ،

والكنه يؤمن بأن أنفه اذا حكه ، فسيموت لا محالة . ويتغافل عن رائعة شاعر واضحة كالنهار ، مبنية كلها على الانسجام وحكمة البساطة الرفيعة ، ولكنه يتهافت على ما يكتبه طائش يشوش ويلفق ويحطم ويفسد الطبيعة فيعجبه هذا العمل ، ويظل يصيح «انه معرفة حقيقية لأسرار القلب !» وطوال حياته لا يحملهم محمل الجد ، ويؤول أخيراً الى اللجوء الى امرأة من العوام تعالج بالتمتمات والبصقات ، او فى أحسن الاحوال يبتكر هو نفسه مستخلصاً من قاذورات يتصور لسبب لا يعلمه الا الله ، انه يشفى مرضه . طبيعى من الممكن ان نعذر السادة الموظفين بقدر ما بسبب وضعهم الصعب بالفعل . فالناس تقول الغريق يتشبث بالقشة الصغيرة ، وهو فى الوقت ذاته لا يفكر فى ان الذبابة وحدها يمكن ان تركب قشة ، بينما وزنه أثقل بما لا يقاس ، ولكنه فى تلك اللحظة لا يستطيع ان يتصور ذلك ، فيتشبث بالقشة . وبهذا الشكل تشبث سادتنا بنوزدريف . وبناء على ذلك أرسل رئيس الشرطة مذكرة بيد مامور خاص فهرع هذا فى نفس اللحظة بجزمته الطويلة العنق ، وخداه متوردان ، ممسكاً بحسامه متجهاً الى مسكن نوزدريف . كان نوزدريف فى ذلك الوقت منهمكا فى عمل هام جداً ، هو من الاهمية فى درجة جعلته يلزم غرفته أربعة أيام متتالية ، وكان يتناول طعامه من النافذة ولا يقابل زائراً أبداً . والعمل المشار اليه كان يتكون من وضع علامات سرية على عدد كبير جداً من أوراق اللعب بحيث يتمكن من الاعتماد

عليها اكثر مما يعتمد على صديق حميم . وبقى من العمل ما يستغرق اسبوعين على الأقل ، وكان على بورفيرى طوال هذا الوقت كله أن ينظف سرة جرو كلب حراسة ضخم بفرشاة خاصة ، ويغسله ثلاث مرات فى اليوم بالصابون . ولم يكن يحب بطبيعة الحال أن تغزى عزلته ، وبدأ أول ما بدأ بارسال المأمور الى الشيطان . لكنه حالما علم من الرسالة المرسلة اليه ان هناك ضيفاً عند مدير الشرطة حديث العهد باللعب ، راى ان زيارة كهذه لن تكون عديمة الجدوى . فلانت عريكته . وفتح باب غرفته ورمى على كتفيه أول رداء وقع بين يديه وشرع فى الرواح . وكانت افادات نوزدريف وشهاداته وافتراضاته متعارضة مع افتراضات السادة الموظفين حتى أوقعت الاضطراب حتى فى تخميناتهم الأخيرة . لقد كان بالتأكيد رجلا لا وجود للشكوك عنده أبداً . فقد كان له من التصميم والثقة بقدر ما لافتراضاتهم من خلخلة والتهيب . وقد أجاب على كل سؤال سأله اياه الموظفون بثبات وحزم . وقال بان تشيتشيكوف قد اشترى حقيقة أنفساً ميتة بمبلغ عدة آلاف من الروبلات . وفى الواقع انه (أى نوزدريف) باعه بعضها ، وما زال يرى ان ليس هناك ما يمنعه من ان يفعل . وبالتالى أجاب بالايجاب على سؤال بشأن ما اذا كان تشيتشيكوف جاسوساً أم لا ، واضاف يقول بان تشيتشيكوف كان يُعرف منذ أيام المدرسة التى قضاها معه «بالمخبر» ، وقد دق رفاقه عنقه مراراً لهذا السبب . حتى اضطر لوضع مائتين

واربعين علقة على صدغه ، أى انه كان يريد ان يقول اربعين ، ولكن مائتين جاءتا على لسانه من تلقاء نفسها . وأجاب الشاهد بالايجاب على سؤال فيما اذا كان تشيتشيكوف مزيفاً للنقود أم لا ، واستشهد بقصة تدل على مهارة تشيتشيكوف المتناهية فى هذا المضمار ، وهى أن السلطات علمت ذات يوم أن فى بيت تشيتشيكوف مليونى ورقة مزيفة من ذوات الروبل وبناء على ذلك ختمت أبواب البيت بالشمع واحاطته من كل ناحية بالحرس المسلح . فما كان من تشيتشيكوف الاّ أن ذهب فى ظلمة الليل وغيّر الاختام الشمعية بأخرى جديدة ورتب أموره بحيث لما فُتش البيت وُجد ان النقود المزيفة كانت نقوداً صحيحة أصيلة ! وبالاضافة الى ذلك ، لما سئل عما اذا كان تشيتشيكوف قد أعدّ خطة للهرب بابنة الحاكم ، وعما اذا كان صحيحاً انه (أى نوزدريف) شرع فى مساعدته واغوائه على هذا العمل ، أجاب الشاهد بأنه لو لم يشرع فى ذلك لما كان فى الامكان تنفيذ المشروع . وعند هذه النقطة نهض الشاهد اذ أدرك انه قد كذب كذبة يمكن أن تسبب له الكثير من المتاعب . ولكنه لم يكن يستطيع مقاومة لسانه – فالتفاصيل التى كانت تتارجع على طرف هذا اللسان كانت خلابة جداً حتى انه راح يذكر اسم القرية التى كانت تقع فيها الكنيسة التى اتفق الاثنان على عقد القران فيها واسم الكاهن الذى سيجرى العقد ومقدار الاجر الذى سيدفع له (خمسة وسبعين روبلا) . وجزم أيضاً بما يلى – ان الكاهن

رفض بادى' ذى بدء اجراء مراسيم القران حتى هدده تشيتشيكوف بأنه سيفضح الحقيقة التالية ، وهى انه (اى الكاهن) كان قد زوج ميخائيل (وهو بائع حبوب فى المدينة) من قريبته . وجزم أيضاً بأن تشيتشيكوف كان قد هيأ عربة لنقل العروسين وعدداً من خيول المواصلات فى مراكز تبديل الخيول على الطريق . لا ، فالرواية التى رواها نوزدريف وصلت حداً من التفصيل راح يذكر فيه اسماء بعض الحوذية ! وبالتالى سبر الموظفون غوره فى ما اذا كان من الممكن ان يكون تشيتشيكوف هو نابليون ، ولكنهم ما لبثوا أن ندموا على خطوتهم هذه ، لأن نوزدريف راح يهذر هذراً طائشاً لا عهد لهم بمثله من قبل . واخيراً ترك معظم المستمعين الغرفة ولم يبق غير رئيس الشرطة (آملا أن يجمع المزيد من المعلومات) . حتى هو اضطر آخر الامر الى تكذيب المتكلم بايماءة تقول «الشيطان وحده يعلم ما الذى يقوله هذا الانسان !» وعرف الموظفون ان المرء لا يمكن ان يجنى من الشوك العنب . وبقى الموظفون فى وضع أسوأ من ذى قبل ، وكانت النتيجة أنهم لم يستطيعوا ان يعرفوا قط حقيقة تشيتشيكوف .

واصبحت واضحة طبيعة انسان . انه حكيم ذكى ومدير فى كل الاشياء التى تخص الآخرين ، ما عداه . يسدى النصائح الرشيدة الحازمة فى ظروف الحياة الصعبة ! يصيح الجمهور «راس داهية ! اى طبع صلب له !» ولكن ما أن يقع هو فى مصاعب حياتية حتى يتلاشى هذا الطبع ، ويرتبك هذا الرجل الصلب ، ويتبين فيه

جبان بائس ، تافه ، طفل هزيل أو مجرد مائع ، كما ينعته نوزدريف .

كل هذه الاقوال والآراء والشائعات أثرت ، لسبب مجهول ، فى المدعى العام ، اكثر من غيره . وكان تأثيرها فيه من القوة ، بحيث أنه ، حين وصل الى بيته ، اخذ يفكر ، ويفكر ، حتى مات بلا سبب ولا علة ، على حد التعبير الشائع . لا احد يعرف هل اصيب بالفالج او بشىء آخر . الا" انه ما ان قعد ، حتى انكفا من الكرسى على وجهه . وصاحوا وصفقوا يداً بيد على حكم العادة «آه ، يا رب !» وارسلوا فى طلب الطبيب ليحجم له ، ولكنهم اكتشفوا ان المدعى العام ما هو الا جثة بلا روح . وعند ذلك فقط عرفوا ، بحسرة ، ان المرحوم كانت له روح بالفعل ، ولو انه لم يكن يظهرها قط ، بسبب تواضعه . ومع ذلك فقد كان مجىء الموت مرعباً للصغير والكبير على حد سواء . فالرجل الذى كان الى وقت قصير يتحرك ، ويلعب الورق ، ويوقع مختلف الاوراق ، وكان مرموقاً جداً بين الموظفين بحاجبيه الكثيفين ، وعينه الرامشة ، هو الآن مسجى على طاولة ، وعينه اليسرى لم تعد ترمش ، ولكن احد حاجبيه كان مرفوعاً قليلا فى تساؤل . والله وحده يعلم عمَّ كان المرحوم يتساءل ، ولماذا مات ، ولماذا عاش .

الا" ان ذلك لا يقبله العقل ، على كل حال ! ولا يتفق مع أى شىء ! من المستحيل ان يفزع الموظفون انفسهم بهذا الشكل ، ويخلقوا هذه السخافة ، ويبتعدوا عن الحقيقة بينما حتى الطفل نفسه يعرف ما هى المسألة !

وسيقول ذلك الكثيرون من القراء ، ويؤنبون المؤلف على مجانبته للاحتمال ، او يصفون الموظفين المساكين بالحمقى ، لأن الانسان كريم فى استخدامه لكلمة «أحمق» ومستعد لأن يلصقها بجاره عشرين مرة فى اليوم . يكفيه ان يكون جانب واحد من جوانب خلقه العشرة أحمق ليوصف بالاحمق على حساب الجوانب التسعة الجيدة . ومن السهل على القراء ، وهم ينظرون من ركن عليائهم الهادىء ، حيث الأفق مكشوف لهم ، ان يحكموا على كل ما يجرى فى الأسفل ، حيث لا يرى الانسان غير الشىء القريب منه . وفى المدونات العالمية لتاريخ البشرية الكثير من القرون الكاملة التى يبدو شطبها ومحوها ممكنين ، لانها غير ضرورية . فهناك الكثير من الضلالات فى العالم تبدو الآن لا يمكن ان يقوم بها حتى الطفل . فكم من الطرق المعوجة المسدودة الضيقة ، المنيعة المنحرفة بعيداً اختارتها الانسانية فى سعيها للوصول الى الحقيقة الازلية ، بينما كان مفتوحاً أمامها الطريق المستقيم ، كالطريق المؤدى الى هيكل عظيم مخصص ليكون مقراً للقيصر ! فهو اوسع الطرق كلها ، وافخرها ، منوَّر بالشمس ومضاء طوال الليل بالانوار ، ولكن الناس تجاوزته ، وسارت فى الظلام الدامس . وكم من مرة ، حتى بعد ان تزودوا بالرسالة المنزلة من السماء ، زاغوا وانحرفوا سواء السبيل ، ووقعوا من جديد وفى وضح النهار فى مغارات نائية مسدودة ، وأنزلوا من جديد غشاء العمى على عيون بعضهم البعض ، منجذبين الى

السراب الخادع ، ووصلوا الى حافة الهاوية ، ليسأل بعضهم بعضاً فيما بعد : أين المخرج ، أين الطريق ؟ ان الجيل الحالى ، يرى كل شيء الآن بوضوح ، وتدهشه الضلالات ، ويضحك من سخافات سلفه ، ولا يرى ان تلهب النار السماوية تلك المدونة التاريخية ، ليصرخ كل حرف فيها وليشار اليه بالبنان من كل مكان ، يشار اليه ، الى الجيل الحالى ، ولكن الجيل الحالى يضحك ويبدأ بثقة فى النفس واعتداد فى سلسلة من الضلالات الجديدة ، سيضحك منها الخلف ايضاً فيما بعد .

هذا ، ولم يكن تشيتشيكوف يعلم من الامر شيئاً . فقد أصابته قشعريرة خفيفة والتهاب فى الحلق جعلاه يلزم غرفته ثلاثة أيام كان فيها يغرغر حلقه باللبن وعصير التين وقد اكل الفاكهة التى استخرج منها العصير ، ووضع على عنقه كمادة من البابونج والكافور . وكوسيلة لقضاء الوقت اخذ يعمل قوائم مفصلة جديدة عن الانفس التى اشتراها . ثم راح يطالع كتاب «الدوقة دولا فاليير» * وينبش فى حقيبته ويقلب الاوراق والادوات الاخرى التى وجدها فى صندوق المراسلات ، وقد وجد أن كل شيء من هذه الاشياء على ما يرام من الترتيب . ولم يستطع ان يعلل لماذا لم يزره احد من اصدقائه الموظفين للسؤال عن حالة ، لا سيما وقد رأى قبل مدة بسيطة عربات مدير البريد والمدعى العام

* «الدوقة دولا فاليير» – رواية الكاتبة الفرنسية س . جانليس (١٧٤٦–١٨٣٠) . الناشر .

ورئيس المجلس المحلى واقفة أمام الفندق . فتعجب ثم ازداد عجباً وهز كتفيه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . ولم يلبث أن شعر بالتحسن الملحوظ واحس برغبة فى الخروج الى الهواء الطلق مرة أخرى ، فحلق كمية غير قليلة من الشعر النامى على وجهه ولبس بهمة كادت تشق سراويله ورشّ على نفسه ماء الكولونيا ، ولفّ نفسه بالبسة دافئة وربط خده وانطلق عبر الشارع . وكان اول ما عزم عليه هو الذهاب الى بيت الحاكم . وراحت تحوّم في راسه أفكار خاصة بشأن ابنة الحاكم حتى نسي نفسه وأخذ يبتسم مداعباً افكاره .

وما ان وصل الى البيت يهمّ بخلع لفاعه حتى حياه البواب بقوله ، «لديّ اوامر تمنعنى من السماح لك بالدخول» .

فبهت تشيتشيكوف وصاح مندهشاً «ماذا ؟ الا تعرفنى ؟ أنظر اليّ مرة أخرى لتعرف من أنا» .

فأجاب البواب «انا اعرفك طبعاً ، وقد رايتك اكثر من مرة قبل الآن . ولكنى أمرت بأن اسمح لكل انسان بالدخول عدا السيد تشيتشيكوف» .

«حقاً ؟ ولِمَ ذلك ؟»

«هذا ما أمرت به وعليّ تنفيذه» . قال ذلك ولم يتقدم بالطبع لتناول ما سيخلعه تشيتشيكوف كما كان يفعل في المرات السابقة وباللطف السابق . وقد اتضح لديه ان تشيتشيكوف (ما دام السادة قد رفضوا قبوله زائراً) لا بدّ أن يكون سافلا .

فقال تشيتشيكوف لنفسه «أنا لا أفهم هذا» وغادر المكان متخذاً طريقه الى رئيس المجلس المحلي ، ولكن الموظف المذكور بدا عليه انفعال شديد عند رؤية تشيتشيكوف حتى انه لم يستطع ان يلفظ كلمتين متتابعتين ، وانما اخذ يهذر هذراً جعل الضيف وربّ البيت في دهشة داهشة . وتعجب تشيتشيكوف وهو يترك البيت مما يمكن أن تعنيه تمتمات الرئيس الغريبة التى لم يستطع ان يفرّق فيها بين الراس والذنب . وبالتالي زار رئيس الشرطة ونائب الحاكم ومدير البريد بالتتابع . لكنه كان في كل حالة اما ان يرفض قبوله أو يجد أن المقابلة غريبة فيها قدر كبير من التحفظ والتهيب وتشتيت الفكر والاحراج ، حتى انه بدا يخشى الجنون على مستقبليه . وقد حاول مرة واخرى أن يتكهن بالسبب وكان نصيبه الفشل الشديد . وعلى هذا ، راح يتجوّل في المدينة على غير هدى دون ان يدرك ما اذا كان الجنون قد اصابه او اصاب الموظفين . واخيراً عاد الى الفندق في حالة يرثى لها من الحيرة والذهول – عاد الى المكان الذى خرج منه عصر اليوم نفسه بمعنويات عالية يحسد عليها . واحسّ برغبة تدفعه الى ان يعمل شيئاً فطلب الشاى وهو لا يزال مستغرباً من وضعه الشاذّ الغريب ، وكان على وشك ان يصبّه في الكوب عندما فتح الباب ودخل نوزدريف .

وبدأ يقول «يقول المثل «ليس كثيراً أن تمشي يوماً كاملا لتقابل صديقاً» ، وقد كنت ماّراً قرب النزل حينما

رأيت نوراً من نافذتك . وقلت لنفسي «ما رأيك في أن تصعد وتزوره ؟ انه على الارجح لم ينم بعد ، ها ! ها ! انى أرى شاياً على مائدتك . حسناً ، اذن سأشرب معك قدحاً لأننى تناولت طعاماً بائساً وبدأت أحسّ بثقل على معدتي . قل لخادمك أن يعبيء لي غليوناً . اين غليونك ؟»

فاجاب تشيتشيكوف بجفاف «أنا لا أدخن أبداً» .

«هراء ! كأنني لا أعرف أىّ مدخنة أنت ! ما اسم خادمك ؟ فاخرامي ! تعال الى هنا» .

«اسمه بتروشكا وليس فاخرامي» .

«حقاً ؟ لكن كان عندك رجل اسمه فاخرامي . أليس كذلك ؟»

«لا ، أبداً» .

«اذن يجب ان يكون خادم ديريبين هو من افكر فيه . أىّ انسان محظوظ ديريبين هذا ! له عمة تشاجرت مع ابنها لأنه تزوجّ أَمة من الاقنان فتركت كل ثروتها له – لديريبين . آه لو كان لي عمة من هذا النوع احتياطاً لطوارئ المستقبل ! لكن ، قل لي ، لماذا كنت مختبئاً ؟ اظن أنك تغوص في الامور المبهمة وتنغمس في بطون الكتب» . (اما ما الذى جرّ نوزدريف الى هذه الاستنتاجات ، فلا احد يدرى – على الاقل تشيتشيكوف .) «بالمناسبة ، اريد أن أخبرك عن أمر يرضي نعُره الدُعابة لديك» . (وهذا الاستنتاج عن نعرة الدعابة عند تشيتشيكوف لا مبرر له في كلام

نوزدريف) «وذلك أن ترى التاجر ليخاتشيف وهو يخسر كومة كبيرة من النقود في اللعب. بشرفي كنت ستضحك ! وكان معنا شخص اسمه بيربنديف كان يقول ليت تشيتشيكوف كان هنا ، انه كان سيضحك من اعماق قلبه» . (وفي واقع الامر فان تشيتشيكوف لم يقابل في حياته منذ أن ولد شخصاً باسم بيربنديف .)
«مهما يكن من أمر ، فعليك أن تعترف يا صديقي بأنك قد اسات لي يوم ان لعبنا الشطرنج معاً ، لكن ، بما أننى ربحت اللعبة فلن أحمل لك حقداً . بالمناسبة ، اننى الآن عائد من بيت الرئيس وعليّ ان اخبرك بان الراى العام في المدينة ثائر عليك ، لأن كل انسان يعتقد بأنك مزيّف نقود . وقد استدعيت شخصياً وسئلت عنك . ولكنى دافعت عنك في كل صغيرة وكبيرة واخبرت الموظفين انى كنتُ معك في المدرسة واني عرفتُ اباك . لقد رددت السائلين في الواقع خاسئين» .
فقال تشيتشيكوف وهو ينهض من مجلسه «تقول انهم يعتقدوننى مزيّفاً ؟»
فقال نوزدريف «نعم . لكن لماذا رحت تخيف الناس كلهم بأعمالك ؟ ان بعض الناس قد مسّهم الجنون من جرّاء ذلك ويقولون عنك بأنك لص متسترٌ او جاسوس . حتى ان المدعى العام توفي امس من هذه الاخبار وسيدفنونه غداً» . الا تكون هناك ؟ ولكن القوم يكادون يطيرون ذعراً من الحاكم العام الجديد لأنهم يظنون انه سوف يخلق لهم المتاعب بشانك .

بالمناسبة ، يقال عنه انه رجل متكبر يدس أنفه في كل شيء . فاذا كان ذلك كذلك ، فان عواقب النبلاء لن تكون محمودة ، لا سيما وهم قوم يستحقّون التغاضي . أجل ، بشرفي ! اذا ما اعتزل الحاكم العام الجديد في مكتبه وامتنع عن حضور الحفلات فستكون العواقب أوخم ما في الحسبان ! بالمناسبة ، ان مشروعك خطر يا تشيتشيكوف» .
فتساءل تشيتشيكوف بقلق ظاهر «ايّ مشروع تعنى ؟»
«ماذا ؟ مشروع خطف ابنة الحاكم . على اية حال فلا اكتمك الحقيقة اذا قلت لك بانني كنت اتوقع شيئاً من هذا القبيل . وما رأيتك معها في الحفلة الراقصة حتى قلت لنفسي «آه ، آه ! لا يمكن ان يكون تشيتشيكوف هنا لغير ما سبب !» اما انا شخصياً فاعتقد ان اختيارك غير موفّق ، لأني لا ارى فيها اية ميزة اطلاقاً . بينما هناك ابنة أخت صديق لي اسمه بيكوسوف — فتاة لا غبار عليها ! آية من الجمال في ثياب انسان !»
فتساءل تشيتشيكوف وعيناه تتسعان «ايّ شيء بالله هذا الذى تتكلم عنه ؟ وكيف يمكننى ان اختطف ابنة حاكم الولاية ؟ ايّ شيء تعنى بالله ؟»
«ماذا ؟ ماذا ؟ ايّ شخص كتوم ارى ؟ ان كل قصدى من المجيء اليك هو ان امدّ اليك يد المساعدة . أصغ لي . انك اذا ادنتنى ثلاثة آلاف روبل فسأقوم بتكاليف الزواج وباعداد العربة وخيول

المواصلات . يجب ان احصّل على هذا المبلغ ولو متّ في سبيله» .

كان تشيتشيكوف طوال الوقت الذى يهذر فيه نوزدريف يفرك عينيه كي يتأكد فيما اذا كان حلماً ما يرى ويسمع . فاتهامه بالتزييف واتهامه بمشروع الاختطاف وموت المدعي العام (وكأنه كان بسببه) وقدوم الحاكم العام الجديد – كل هذا جعله يشعر بأنه في منتهى البؤس وفي قرارة اليأس .

وقال لنفسه «حيث أن الامور قد وصلت الى هذا الحدّ فمن الافضل أن لا اتلكأ ويجب ان اغادر حالاً» . وما تخلص من نوزدريف بأسرع ما يستطيع حتى ارسل في طلب سيليفان وامره ان يستيقظ مع الفجر لتنظيف العربة ولتهيئة كل شيء للسفر في السادسة صباحاً . ومع ان سيليفان اجابه «سمعاً وطاعة يا بافيل ايفانوفيتش» . الاّ انه تلكأ برهة على الباب . ومن ثم امر تشيتشيكوف بتروشكا ان يخرج له الحقيبة المغبرّة من تحت السرير ، ثم اخذ يكوّم فيها الجوارب والقمصان والياقات (النظيف منها والمتسخ) والاحذية واحدى التقاويم وادوات مختلفة اخرى خليطاً بعضها فوق بعض . وقد وضع كل شيء في الحقيبة كما تناولته يده ، فقد كان هدفه أن يحول دون ما قد يجد من عوائق عند السفر في الصباح . هذا بينما كان سيليفان المتلكئ يترك الغرفة ببطء – ببطء شديد جداً – ثم راح ينزل السلم بالبطء نفسه (تاركاً في كل خطوة من خطواته آثار قدميه الموحلتين) ووقف اخيراً يحكّ

راسه . اما ماذا يعنى هذا الحكّ ؟ وما هذا كله بشكل عام ؟ أهو انزعاج من عدم تمكنه من الإلتقاء المقرر ليوم غد بصاحبه في معطفه البائس المحزم بحزام عريض في حانة أم هو علاقة غرامية مع فتاة في مكانه الجديد ، واضطراره ترك وقفته المسائية عند البوابة في إنتظارها ، وإمساكه يدها البيضاء بأدب جم في تلك الساعة التي يهبط فيها المساء على البلدة ، وفتى في ثوب أحمر يضرب على البلالايكا أمام جمع من الخدم ، وخليط من الشغيلة يتكلمون بأصوات هادئة ؟ ام مجرد أسف على ترك مكان صار عامراً بالدفء ، في مطبخ الخدم ، وهو متدثر في فروته قرب الموقد مع صحن حساء بلُقَم هشّة ، ليعود من جديد الى التجوال في المطر والوحل ، وكل منغصات الطقس السيىء الاخرى ؟ فلن يستطيع احد ان يجيب ، لأن هذا الحكّ عند عامّة الروس يمكن ان يعنى اىّ شيء من مائة شيء .

الفصل الحادى عشر

بيد أن الامور لم تجرى وفق رغبة تشيتشيكوف . اولا ، لأنه نام اكثر من عادته – هذه واحدة . وثانياً ، عندما صحا من نومه وسأل عما اذا كانت العربة مهيّأة وكل شيء جاهزاً ، قيل له لا هذا ولا ذاك – هذه ثانية . واستعد ونفسه مشتاطة غضباً أن يلقي على سيليفان امضّ تعنيف مرّ به في حياته ، واخذ ينتظر بفارغ الصبر سماع ما قد يدافع به الخادم عن نفسه . ولا

حاجة بنا الى القول بأن سيليفان حالما ظهر بالباب اخذ يقدّم المعاذير المعتادة التى يقدمها الخدم عادة عندما يكون السفر المستعجل أمراً حتمياً .

قال على مهله «بافيل ايفانوفيتش ، ان الخيول بحاجة الى حذوات» .

فاجابه تشيتشيكوف قائلا «ايها الغبيّ ! لماذا لم تقل ذلك من قبل أيها المجنون اللعين ؟ ألم يكن لديك وقت كاف لحذوها ؟»

فوافق سيليفان بقوله «بلى ، لقد كان . واحدى العجلات ايضاً تحتاج الى اطار جديد لأن وعورة الطريق أبلت الاطار القديم . ثم ، ان صندوق العربة نفسه اصبح بالياً بحيث لا يحتمل سير مرحلتين» .

فضم تشيتشيكوف قبضته واقترب من سيليفان كأنما سيلكمه ، فتقهقر الأخير خوفاً وانزوى كالكلب في ناحية . وصاح عليه «يا سافل ! هل تنوى أن تهلكنى وتحطم اضلاعي في الطريق أيها الابله اللعين ؟ لم يكن لديك اىّ عمل لثلاث اسابيع خلت ، والآن في آخر لحظة تجيئنى وانت تتلعثم وتلعب دور المجنون ! كان عليك أن تعلم ذلك قبل الآن . هل عرفته أم لم تعرفه ؟ اجبني حالاً» .

فأجاب سيليفان وهو يمدّ رأسه «نعم لقد عرفته» .

«اذن ، لماذا لم تخبرني عنه ؟»

لم يكن لدى سيليفان جواب حاضر ، فاستمرّ يمدّ رأسه وراح يخاطب نفسه بهدوء «يا ويحي ، كيف تصرفت ! كنت أعرف كل شيء ومع هذا لم اقل» .

واستمر تشيتشيكوف يقول «والآن ، اذهب حالا واحضر حداداً . وقل له ان ينجز كل شيء في ساعتين على اكثر تقدير . هل تسمع ؟ واذا لم تفعل ذلك فاني ساجلدك جلداً لم تعهده في حياتك من قبل» . وكان الغضب في الواقع قد اخذ من تشيتشيكوف مأخذه .

فاتجّه سيليفان الى الباب كما لو كان ذاهباً لتنفيذ الاوامر ، لكنه وقف واضاف يقول «وذلك الحصان الارقط يا سيدى ، الا تظن من الانسب ان نبيعه لأنه ليس الّا نذلا . فوجوده عائق لا مساعد» .

«ماذا ؟ اتنتظر منى أن أذهب الآن الى السوق لبيعه ؟»

«أجل يا بافيل ايفانوفيتش ، فهو مظهر خداع فقط لا يصلح لشيء ، لأنه بطبيعته حيوان خبيث جداً ، لم ار في حياتى مطلقاً حيواناً خبيثاً مثله» .

«مجنون ! عندما اريد أن أبيعه فسوف أبيعه . أما أنت فلا تتعب دماغك فيما لا يعنيك ، بل اذهب وأحضر حداداً وليكن كل شيء جاهزاً في غضون ساعتين ، والاّ خلعت شعر رأسك وضربتك حتى أخفى سحنتك . انصرف ! اسرع !»

فانصرف سيليفان ، وثارت ثائرة تشيتشيكوف فرمى على الارض خنجره الذى كان يحتفظ به دائماً كوسيلة لفرض احترامه على من قد يحتاجون الى ذلك . ثم صرف ربع الساعة التالية في مساومة اثنين من الحدادين — وكانا من ذلك النوع السافل من الرجال الذين اذا علموا ان أمراً ما مطلوب بسرعة راحوا يطلبون الأجر اضعافاً .

وفي الواقع لم يستطع تشيتشيكوف بثورته وهياجه وهو يمنحهما ألقاب اللصوصية والنهب والابتزاز ان يؤثر فيهما ، اذ رفضا أن يخفضا من الاسعار التي طلباها – وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع طبيعتهما . وليس ذلك وحسب ، بل صرفا منذ أن بدآ بالعمل حتى انتهيا منه لا ساعتين فقط بل خمس ساعات ونصف ساعة . وسنحت الفرصة لتشيتشيكوف أثناء ذلك ان يستمتع بتلك المتعة السارّة التى يعرفها جميع المسافرين ، الا وهي الجلوس في غرفة خالية خاوية الاّ من نثار الخيوط ونفايات الاوراق وما أشبه ذلك ، حين يكون الشخص لا هو بالمسافر ولا بالمقيم ، ويرى من النافذة المارين المتعرجين المتحدثين عن أمورهم الرخيصة ، والرافعين أبصارهم بفضول أحمق لينظروا اليه ، ثم يمضون في حال سبيلهم ، مما يعكر أكثر الحالة النفسية للمسافر المسكين الضجر . وكل ما يحيط به ، وما يراه سواء أكان الحانوت المقابل له ، أو رأس عجوز تسكن البيت المقابل ، وتقترب من نافذة ذات ستائر قصيرة ، كل ذلك مقرف له . ومع ذلك فهو لا يترك النافذة . ويقف سارحاً تارة ، أو موجهاً اهتماماً مثلوماً الى كل شيء يتحرك أمامه أو لا يتحرك ويقتل من الانزعاج ذبابة تطن في ذلك الوقت وتضرب الزجاج تحت إصبعه . لكن لكل شيء نهاية . وجاءت اللحظة المنتظرة أخيراً ، حين وضعت الامتعة في العربة ووضع اطار جديد للعجل التالف وانتعلت الخيول بالنعال الجديدة وانصرف الحدادان المفترسان بغنيمتهما . ووضع في

العربة رغيفان ساخنان اشتريا لتوهما ، وحشر سيليفان شيئاً لنفسه في مقعد الحوذي ، وصعد بطلنا الى العربة أخيراً ، بيما كان النادل الذى خرج لتوديعه بمعطفه القطني القصير ملوحاً بقبعته ، وخدم الفندق ومختلف الخدم والحوذية لأسياد آخرين قد تجمعوا ليروا كيف يغادر سيد غير سيدهم ، وفي مختلف الظروف الاخرى التي تصاحب المغادرة ، والعربة المفضلة عادة من قبل العزاب والتي تتوقف طويلا في البلدة ، والتي لا بد ان القارئ قد ضجر منها الآن . وفكر تشيتشيكوف «الحمد لله» وانطلقت العربة تدرج عبر بوابة الفندق وتهتز فوق البلاط الحجرىّ . فكر تشيتشيكوف بذلك ورسم علامة الصليب . قرع سيليفان بالسوط . جلس بيتروشكا الى جانبه من جهة اليمين وقد تعلّق لبعض الوقت على موطئ العربة ، وجلس بطلنا في وضع أروح على سجادة جورجية ، ووضع وراء ظهره مخدة جلدية ، وحشر الرغيفين الساخنين . الاّ ان شعوراً غريباً لم يستطع تحديده استولى عليه وملأ عليه صدره عندما راح ينظر الى البيوت والشوارع والبساتين التى قد لا يراها فيما بعد مرّة أخرى . وما إن دارت العربة عند أحد المنعطفات حتى وجد أنه مضطر الى الوقوف فجاة لأن موكباً كبيراً جداً لجنازة لا نهاية لها كان يسدّ الشارع . انحنى تشيتشيكوف الى الامام وهو في العربة وسأل بتروشكا عمّن يدلّ عليه موكب الجنازة ، فأجابه بأنه يدلّ على أنه المدعي العام . فأحسّ

بصدمة مؤلمة وسارع برفع خيمة العربة واسدال الستائر على نوافذها وانزوى في ركن من مؤخرتها . أما سيليفان وبتروشكا فقد خلعا قبعتيهما عندما وقفت العربة وجلسا يشاهدان المشيّعين اثناء سيرهم بعد ان تلقيا تعليمات حازمة بأن لا يطرحا التحية على اىّ خادم يعرفانه . ومضى هو أيضاً يراقب بتهيب من خلال زجاجة الحاجز الجلدى على جانب العربة : كان يسير خلف النعش جميع الموظفين حاسرى الرؤوس . ومع ان تشيتشيكوف أوجس خيفة – لفترة من الزمن – من أن يفطن اليه بعضهم وهو في العربة ، ولكن لم يلتفت أحد اليه ، لأن بالهم كان مشغولا بشيء آخر . وفي واقع الامر ، حتى الاحاديث البسيطة التى تدور عادة بين المشيعين في مواكب كهذه لم تكن تدور بينهم . فقد كان تفكير كل واحد منهم منصرفاً الى مشكلته الخاصة فقط ، الى خبر وصول الحاكم العام الجديد والطريقة التى سينتهجها في ادارته ومدى ما سيلحقه من الاذى منها . وتبع هؤلاء المشيعين عدد من العربات كانت تطلّ من نوافذها وجوه سيدات يرتدين ثياب الحداد . غير أن حركات ايديهن وشفاههن كانت تدلّ على أنهن مستغرقات في أحاديث حيوية – قد تكون حول الحاكم العام الجديد والحفلات الراقصة التى ينتظر أن يقيمها وزينتهن والاعيبهن الخاصّة التى لا تنتهي وفي آخر الموكب مر عدد من العربات الفارغة . وحالما مرت تمكن بطلنا من الاستمرار في طريقه ، فرمى خيمة العربة الى الخلف وراح يناجي نفسه «ايه أيها الصديق

الطيب ، لقد عشت حياتك ، لكنها انتهت الآن ! ستقول الصحف انك متّ ماسوفاً عليك لا من أهلك وعشيرتك وحسب ، بل من البشرية جمعاء . وانك كنت انساناً محترماً وأباً رؤوماً وزوجاً طاهراً لا تشوبه شائبة ، وانك ذهبت الى قبرك بين دموع ارملتك واطفالك ومعارفك . لكن هذه الصحف لو اضطرت لسبب من الاسباب أن تعلل قولها هذا لوجدت أن السبب الحقيقي في حاجبيك الغليظين الذين بلغا من الضخامة ما عهد للناس به من قبل» . ثم أمر سيليفان ان يحثّ الخطى ، وقال «ومع ذلك فلا بأس من مقابلتى لهذا الموكب لأنهم يقولون ان مقابلة الجنازة فال حسن» .

وانعطفت العربة الى بعض الشوارع الضيقة غير المطروقة التى تكون محاطة بأسيجة خشبية والتى تدلّ عادة على قرب الانتهاء من ضواحي المدن . وانتهى البلاط الحجرىّ وتلته حصباء الطريق العام وأخذت تظهر على جنبات الطريق صفوف الاحجار الدالّة على علامات الفرستات والعمال الذين يصلحون ويرمّمون ، والقرى ذات اللون الرمادى وفنادق فيها سماورات ، وفلاحات وفلاحون يهرعون من الحظائر والشوفان ملء اكمامهم ، ومشاة بأحذية متهرّئة يلوح على المرء منهم انه قطع ثمانمائة فرستا ، ومدن صغيرة بأخصاص وضعت فيها براميل ملأى بالطحين المعدّ للبيع وعرضت فيها أحذية وارغفة صغيرة وتوافه أخرى ، وحواجز الطريق ، وجسور شبعت من كثرة الترميم ، وآفاق شاسعة من الحقول ممتدة الى اليمين والى

الشمال ، وفارس راكب يحمل صندوقاً أخضر مقفــلا بالحديـــد كتب عليه «بَطاريّة ال . . . المدفعيّة» ، واخاديد طويلة حرثت حرثاً جديداً كان ينعكس لونهــا أخضر واصفر واسود على وجه الحقول – واختلطت بهذا كله أصوات غناء ذات نفس طويل وذرى شجر الصنوبر سابحة في الضباب ، ونغمات الاجراس البعيدة المدى وسحائب لا نهاية لها من الغربان السحم والافــق الذى لا حدّ له . أيه ، روسيا ، روسيا ، من منزلي الجميل في بلد غريـــب لا أزال أراك ! فيك كل شيء مسكين مشوّش لا يليق . ليس فيك ما يبهج العين ولا مــا يخيف النفس من روائع الطبيعة . فيك لا يرى المــرء المدن ذات العمارات الضخمة المتعددة النوافذ الشامخة شموخ الصخور ، ولا الشوارع الباهية ، ولا الاطلال التى تكسوها الاعشاب ، ولا الشلالات تحيط بهــا الاغصان الدائمة الاخضرار ويصدر منها الهدير الذى لا ينقطع ، ولا الاجرفة الهاوية تبلبل العقول بضخامــة صخورها ، ولا منظر الكروم والعليق وملايين الورود البرية وتلالا زرقاء لا يحصى لأيامها عدد تكاد تبدو أمام السماء الفضية الصافية وكأنها نوع من الخيال . فيــك كل شيء منبسط مكشوف . مدنك بارزة فوق السهــل الاملس المنبسط وكأنها النقط او العلامات ، ولا شيء كائناً ما كان مما يخلب البصر أو يسحره . لكن اىّ سرّ واىّ قوة قاهرة تشدّني اليـــك ؟ اىّ شيء ذلـــك الذى يردّد ويعيد في اذنيّ الاغنية الحزينة التى تحلّق على طول حدودك وعرضها ؟ واىّ عبء تحمــل تلـــك

الاغنية اليّ ؟ لماذا تعول في قلبي وتنتحب وتحزّ فيه ؟ وما الذى تقوله هذه النغمات التى تعانق روحي وتضمّها بالم وتحوّم حولى نافثة ولولاتها ؟ ما الذى تطلبينـــه منى يا الروسيا ؟ مـــا هو الرباط الخفيّ الذى يصل ما بينى وبينك ؟ ولماذا تنظرين اليّ هذه النظرات ؟ ولماذا يصوّب لي كل شيء فيك عينين ملؤهما الشوق والحنين ؟ حتى في هذه اللحظة التى اقف فيها وافكـــر ذاهلا مستغرقا متحيراً في مساحاتك الشاسعة وآفاقك الواسعة يلوح لي ان ديمة منذرة محمّلة بالامطـــار المتجمعة تخيّم فوق راسي . ما ذاك الذى يتنبّأ بـــه اتساعك الذى لا حدّ له ؟ الا يتنبّأ بأن ستنهض فيك ذات يوم أفكار مثلك لا حدّ لها ؟ الا يتنبّأ ايضاً بأن سينبعث منك ذات يوم الابطال القدامى اذا مــا وجدوا المجال لإبراز مواهبهم مرّة اخرى ؟ وكيف يطوينـــي جبروت عظمتك وينعكس في كياني بسحر عجيب غريب ، ويومض في عينيّ وميضاً يتعدّى ما تعهده الطبيعة من وميض ؟ نعم ، انك تسفرين في الحقيقة عن مراى غريب براق سماويّ ! يا الروسيا ، يا وطنى الحبيب !

وصاح تشيتشيكوف في سيليفان يقول «قف ، قف ، ايها المجنون !»

وقد مرّت اثناء قوله هذا عربة ترويكا – في مهمة حكومية – تقرقع على احد جانبى الطريق ثم اختفت فــي عاصفة من غبار . اما الشتائم التى تلقّاها سيليفان من تشيتشيكوف لأنه لم يتجنب الطريق بخفة ، فلم تكــن وحدها التى انصبّت عليه ، فقد قدّم له حصّةً مماثلة

من الشتائم شرطيّ ريفيّ بشاربين كالذراع طولا كان في العربة الاخرى .

أيّ شيء غريب جذّاب بل أيّ شيء خياليّ خلّاب ذلك الذى تدلّ عليه كلمة «الطريق العام» ! وكم هي لذيذة لذاتها هذه الطريق العامة ! فاذا كان اليوم يوماً جميلا (وان كان بارداً) في خريف عذب ، فاضمم اليك عباءة سفرك واسحب قلنسوتك على أذنيك واستكنّ براحة في احدى زوايا العربة قبل ان تسري آخر رعشة في أوصالك ، وسيطرد الدفء الناشئ الجديد برد الخريف ورطوبته . وكم هو جميل ذلك النعاس الذى يأتيك متلصّصاً ويسبل جفنيك والخيول سائرة في طريقها خبباً ! وستظل أثناء نعاسك برهة من الزمن تسمع أنفاس الخيول المتتابعة وقرقعة العجلات ، ولكنك ستستغرق أخيراً في دور الشخير . واذا ما استيقظت – فماذا سترى ؟ ستجد أنك قد قطعت خمس مراحل وأن القمر مشرق في السماء وانك قد وصلت الى بلد غريب ملء بالكنائس والقباب الخشبية والابراج المسوّدة والبيوت البيضاء نصف الخشبية ! واذا ما وقعت اشعّة القمر هنا وهناك فتكاد ترى الجدران والشوارع والارصفة وقد اكتست بالحلل – حلل مبقّعة بالظلال الفاحمة السوداء ، تبدو الاسطحة الخشبية بالنسبة لها اكثر بريقاً تحت أشعة القمر الشاحبة المنصبّة عليها . ولن ترى انساناً في ناحية ، فالكلّ غارق في النوم . لكن ، لا . ففي احدى النوافذ المنعزلة يتلألأ نور تحته يصلح أحد الحرفيين الطيبين حذاءه

او يسحب الخباز قطعة من عجين . أيها الليل ، وايتها القبّة السماوية ، كم هو كامل ظلام قبّتك التى لا حدّ لها – كم هي شامخة وكم هي سحيقة اغوارها الممتدّة في سكون لا يدركه من الاحاسيس الاّ السمع ! وما يزال الليل ينفث انفاسه المهدهدة المنعشة في وجهك حتى تستغرق ثانية في غفوة شاخرة . ويلتفت اليك جارك المسكين مغضباً وقد بدأ يشعر بثقلك عليه ، ومن ثمّ تصحو مرّة أخرى ، ولكنك لا ترى امامك الآن غير المعابر والحقول . حيثما وقع بصرك تجد الخلاء القفر . ولكن الحروف الدالّة على علامات الفرستات تقفز فجأة امام عينيك ! الصباح في انبلاج والرعشة في عودة ، وقد استطعت أن ترى خطّ الافق الذابل يشعّ بالتدريج خيطاً ذهبياً باهتاً . والريح تزداد حدّة وانتعاشاً ، وانت تلتف بعباءتك التفافاً . لكن كم هو عظيم هذا الانتعاش وكم هو مدهش هذا النوم الذى يطويك مرّة أخرى ! ها هي هزّة ! وتعود الى وعيك آخر الامر . الشمس الآن في كبد السماء ، ومن ثم تسمع صيحة قائلة «رويداً ، رويداً» وتلتفت فترى عربة شحن زراعية تطلّ من طريق جانبيّ . ومن تحتك ترى صفحة ممتدّة من الماء يحجزها سد منيع ووجه الصفحة يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه لوح من نحاس . وعلى ناحية من المنحدر تنتشر اكواخ الفلاحين ثم بيت السيد ، وفي حدّ الاخير كنيسة القرية وصليبها الذى يشعّ كالنجم . وتحمل الريح الى اذنيك أصوات ضحكات الفلاحين بينما تشعر في قرارة نفسك بشهية ليس الى

مقاومتها من سبيل . أيتها الطريق العامة الطويلة ، ما اعظمك ! كم مرة في كلالي ويأسي انطلقت ماشياً عبرك فوجدت العزاء والسلوى ! وكم مرة اتبعت هديك فحلّت عليّ الافكار العجيبة والاحلام الشاعرية والانطباعات الغريبة المدهشة ! كانت تخالج تشيتشيكوف في هذه اللحظة رؤى ليست طبيعية عادية كلّها . دعنا نحدّق في نفسه ونشاطره اياها . ظلّ بادئ ذي بدء لا يعي شيئاً مطلقاً لأنه مشغول البال جداً يريد ان يستيقن من أنه قد تخلّص من المدينة حقاً . ولكنه حالما راى انها اختفت امام ناظريه كلياً بمطاحنها ومصانعها ومنشئاتها الاخرى ، وليس ذلك وحسب ، بل حتى غاصت ابراج الكنائس الحجرية تحت الافق ، عندئذ بدأ يعي الطريق واختفت من مخيلته مدينة «ن» تمام الاختفاء كأنها شيء لم يعهده منذ الصبى . ثم أصبحت الطريق بدورها شيئاً لا يهمه ايضاً . وراح يغمض عينيه ويرمي برأسه على الوسائد . وليغتنم المؤلف هذه الفرصة ويتكلم باسهاب عن بطله ، فقد منعته (اي المؤلف) أشياء كثيرة من ان يفعل ذلك – نوزدريف والحفلات والسيدات والمؤامرات المحلية وآلاف التوافه التي تظهر توافه فقط اذا ما وضعت في كتاب ، ولكنها في الحياة الواقعية أمور لها اهميتها . دعنا نطرح هذه الاشياء جانباً ونشرع في العمل .

اما فيما اذا كانت الشخصية التي اخترتها لبطلي سترضي القارئ ، فهذا بالطبع شيء مشكوك فيه كل

الشك . على أية حال ، فالسيدات لن يرضين عنه ، لأن الجنس اللطيف يتطلّب من البطل الكمال . والعياذ بالله ، اذا حصلت لطخة نفسية أو جسدية ! نعم ، فلن يهمّ العمق الذي يسبر به المؤلف غور نفسية البطل ، ولن يهمّ ذلك الوضوح الذي يصوّر به صورته كما لو كانت تنعكس على مرآة ، فلن يعترفن له بفضل فيما فعل . والواقع ان بدانة تشيتشيكوف وتقدمه في السنّ يعملان ضدّه . والصفة الاولى في البطل جريمة لا تغتفر ، ومعظم السيدات في حالة كهذه سيشحن بوجوههنّ عنه قائلات لأنفسهن «اوف ، أيّ وحش هذا !» نعم ، والمؤلف على علم بذلك . الاّ انه وان لم يستطع – ابقاء على حياته – ان يتخذ انساناً فاضلا ليقوم بالدور الرئيسيّ في القصة ، فقد تكون في القصة قضايا لم تطرق بعد ، وقد يبرز فيها كل الغنى الروحي الروسي الذي لا يحدّه حدّ . فهي تصوّر الى جانب تشيتشيكوف الفلاح بالفضائل التي حباه بها الله ، والفتاة الروسية الرائعة التي لا تضاهيها في العالم فتاة أخرى في جمال الروح الانثوية ذلك الجمال الذي تمتد جذوره الى الطموح النبيل والكرامة الاصيلة . ولو قابلنا في الواقع هذه النماذج الروسية بمثيلاتها في الشعوب الاخرى ، لبدت هذه جامدة عديمة الحياة كما يبدو كتاب جامد لا حياة فيه اذا ما قوبل بنص كتاب ينبض بالحياة والروح . نعم ، فمن حركة فكرية تظهر في روسيا ، يتضح جلياً أن هذه الحركة هي من صميم الطبيعة السلافية ، بينما هي الزبد

الذى يطفو على السطح في الأمم الاخرى . لكن لماذا اتكلم هكذا ؟ وما الذى ارمى اليه من وراء هذا الحديث ؟ انه لمن العار حقاً على مؤلف بلغ منزلة الرجال منذ أمد بعيد وربّى نفسه على دراسة نفسه وتمحيصها تربية عنيفة ، وثقّف نفسه تثقيفاً محترماً أن يعطي المجال لهذه التحليقات التافهة حول نقطة كهذه . فلكلّ شيء دوره ومكانه وزمانه . وكما كنت اقول ، فلم يكن بوسعي ان اختار شخصية فاضلة لبطلي . وساخبركم عن السبب . السبب هو ان قد مرّ وقت طويل جداً على استعمال كلمة «فقير ، لكنه ذو فضيلة» . السبب هو ان كلمة «رجل محترم» اصبحت كلمة مبتذلة . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد انقلب الى حصان وليس من كاتب الاّ ويركبه ويجلده بمناسبة وبغير مناسبة . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد اجيع حتى لم تبق لديه ذبالة من فضيلة ولم يبق في جسمه الاّ الجلد والعظم . السبب هو ان «الرجل المحترم» يُخْفَى دائماً عن الانظار . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد فقد احترام كل انسان . لهذه الاسباب أعود فاؤكد ان الوقت قد حان لنشدّ سافلا الى النير . تعالوا اذن نشدّ هذا السافل الى النير .

كانت ابتداءات بطلنا معتدلة كل الاعتدال ، غامضة كل الغموض . كان والداه فى الحقيقة من الاعيان ولكن الابن لم يشبههما بحال من الاحوال . على اية حال فقد حضرت ميلاده امرأة قريبة له ، قصيرة بدينة ، وقالت وهي ترفعه بين يديها متعجبة «انه غير ما كنت اتوقّع

ان يكون . كان يجب ان يشبه احد أبويه ، ولكنه كما يقول المثل – لا لأمه ولا لأبيه بل رمته الريح في قارعة الطريق» . هكذا نظرت الحياة لتشيتشيكوف بامتعاض مرير ، فكان كالنافذة التى تجمّع عليها الصقيع فاصبحت تحجب النور : لا صديق له ، ولا زميل في المدرسة . غرفة صغيرة ذات خزائن حقيرة لم تفتح صيفاً ولا شتاء ، أب عليل عليه دثار بطانته من جلد الخروف ، وقدمه حافية تلفها الرباطات ، ما ينفكّ يزفر زفرات حارة عميقة ويذرع الغرفة جيئة وذهوباً ويبصق في علبة رمل ، وهو نفسه يقضى الفترات الزمنية بالجلوس على مقعد خشبىّ ، الريشة في اليد والحبر يصبغ اليدين والشفتين ، وكان يسمع في فترات اخرى عبارة مأخوذة من كتاب تقول «لا تكذب أبداً ، بل اطع رؤساءك وارع الفضيلة في قلبك» . واصوات جرّ نعال لا تنتهى رائحة غادية في الغرفة ، واذا ما اضنت الصبىّ واجباته القاتلة فحاول ان يحلّي دفتره بصورة من بنات افكاره سمع دائماً صوتاً مجلجلا يصيح به قائلا «ها أنت تتغابى مرّة اخرى !» وهناك وقت عسير يحسّ فيه احساساً مألوفاً أبداً ، لكنه مزعج أبداً ، يتبع الكلمات السابقة حينما تفرك اذنا الصبىّ فركاً مؤلماً بين اصبعين طويلتين ملتويتين عند الطرف – هذه هي الصورة البائسة لطفولة لم يعد تشيتشيكوف يذكر منها غير أطياف باهتة . لكن كل حال تحول ، وكل شيء في هذا العالم قابل للتغيير والتبديل الفجائيين . ففي ذات يوم من اطلالة الربيع عندما ذاب جليد الانهار ،

انطلق الاب وابنه الصغير في تِليزّكا • يجرّها جواد
اشقر من النوع الذى يسمّيه أصحاب الخيول «سورروكا»
(اى عقعق) ، ويسوقها أحدب قليل الحجم هو ربّ
العائلة الوحيدة من الاقنان التى يمتلكها تشيتشيكوف
الاكبر ويقوم في بيت تشيتشيكوف بكلّ الاعمال .
وسار بهم سورروكا يوماً ونصف يوم كاملين ، قضوا
الليل بينهما في نزل على جانب الطريق ، وقطعوا نهاراً
واكلوا فطائر باردة ولحم خروف مشوىّ ووصلوا
اخيراً الى المدينة . وظهرت الشوارع في عينى الفتى
بمظهر برّاق غيرمالوف . ففغر فاه ذاهلا . وانعطفت
العربة في زقاق موحل استدعى الوحل فيه جهد سورروكا
الجهيد ومسبّات السائق والسيد ، ووصلت أخيراً الى
رتاج حظيرة فيها بستان صغير للفواكه فيه بعض
الشجيرات ، وشجرتان مبرعمتان من التفاح ، وسقيفة
صغيرة قذرة حقيرة هي كل المنشآت التابعة للبيت الذى
جار عليه القدر . هنا عاشت احدى اقارب
تشيتشيكوف ، عجوز مسنّة ذاوية كانت تنزل الى
السوق بنفسها وتجفف جواربها على السماور . وما إن
رات الصبيّ حتى ربّتت على خديه وابدت الرضى عن
صحته . واتضحت له الحقيقة الآن ، وهي انه سيعيش
عندها فترة من الزمن يذهب فيها الى المدرسة . وعزم
الوالد بعد ان استراح ليلة أن يعود الى بيته . ولم
تتخلل الدموع الفراق بين الأب والابن . انما اعطى الأب

• عربة مكشوفة باربع عجلات . **المترجم** .

24—1244

الصبيّ قطعة نحاسية او قطعتين ، ثم القى عليه (وهذا
هو الأهم) النصائح التالية ، «إصغ لي يا بنيّ . اجتهد
في دروسك ولا تكسل ولا تتغاب . وليكن همّك قبل
كل شيء استرضاء معلّميك . وما دام هذا النهج نهجك
فالنجاح حليفك ، وستبزّ اقرانك حتى لو حرمك الله
من نعمة العقل ولو اصابك الفشل في الدروس . ولا
تندمج كثيراً مع الرفاق فانهم لا ينفعون ، واذا كان لا
بدّ من ذلك فلتكن صداقتك مع اكثرهم غنى فقد
يفيدونك ذات يوم . ولا عليك ان تكرم او تقرى منهم
احداً ، بل دعهم هم يكرمونك ويقرونك . واخيراً ، وقبل
كل شيء ، احتفظ ووفّر كل كوبيك لديك . فاهم ما في
الحياة هو توفير النقود . ان الرفيق والصديق يخيبان
ظنك دائماً وهما اول من يجفوك ان حلّت بك
ضائقة ، ولكن الكوبيك لن يتخلّ عنك مهما عظمت
النازلة التى تلمّ بك . وفي هذه الدنيا لن يتعذّر
عليك عمل شيء ولن تعجز عن الوصول الى ما تبتغي
بمساعدة النقود وعونها» . وما إن القى الأب هذه
النصائح حتى ضمّ ابنه اليه وقفل عائداً .ومع ان
الابن لم ير اباه بعد ذلك ابدا الاّ ان كلمات الأب غرقت
في اعماق نفسه واستقرت في زواياها .
وفي اليوم التالي حضر بافلوشكا الصغير المدرسة
لأول مرة ، ولكن نفس الصبيّ لم تستكشف عن اية
موهبة خاصة في ايّ فرع من فروع العلوم التى
يتلقّاها . انما كانت ميزته البارزة هي المثابرة
والترتيب . اما من نواحي الحياة العملية فقد نما عنده

ذكاء خارق . ففي أسرع من لمح البصر فهم كيف يجب ان تسير الامور وحذق فنّها . ومنذ ذلك الوقت اخذ يسلك سلوكاً خاصاً نحو زملائه بحيث اذا ما قدموا اليه هدية – وشدّ ما كانوا يفعلون – لم يكن يكتفي بعدم ردّ مثلها اليهم بل كان في بعض الاحيان يضع الهدايا في جيبه ويبيعها لرفاقه . ومع انه كان صبياً – كما هو – الاّ انه تمكن من ان يصبح عصامياً . فلم يصرف كوبيكاً واحداً من العطية التافهة التى أعطاها له والده ، بل زاد في الواقع الى ذخيرته في السنة نفسها بان صنع عصفوراً من الشمع ودهنه وباعه بمربح غير قليل . وبالتالي ، ومع مرور الزمن ، شرع يشتغل في صفقات اخرى – هي بالذات بيع المأكولات . فكان يتّخذ مجلسه قرب الاولاد الذين يحملون وفرة من النقود ، واذا ما بدت على احد هؤلاء الموسرين امارات الاعياء (وهذا يعنى انفتاح شهيته) دسّ له من تحت المقعد قطعة من الفطير او كعكة زنجبيل ثم تقاضى الثمن حسب شدة الشهية وحجم القطعة . وقضى ايضاً شهرين في تدريب فار احتفظ به في قفص خشبيّ صغير في غرفته . ولما وصل التدريب الى نهايته آخر الامر كان الفأر يقف على رجليه الخلفيتين ويضطجع وينهض ثانية امتثالا لأوامر يلقيها عليه . ثم باع هذا المخلوق بكمية محترمة من النقود . وهكذا بمرور الزمن بلغت مدخرّاته خمسة روبلات وبناء على ذلك صنع لنفسه كيس نقود ، وابتدا يملأ كيساً آخر مماثلا . لكن سلوكه تجاه اصحاب النفوذ

كان اكثر دقّة واتقاناً . فلم يكن باستطاعة امرىء ان يجلس في مقعده بالهدوء الذى كان يجلس به . وبهذه المناسبة يجب ان نذكر ان معلمه كان رجلا يحب الهدوء وحسن السلوك قبل كل شيء ، ولم يكن يطيق الاولاد الاذكياء الماهرين لأنه كان يظنهم يضحكون منه . وبناء على ذلك ، فكل من استرعى انتباه المعلم بذكائه في يوم من الايام كان يكفي منه انتقاله من موضعه او تحريك حاجبيه حتى تثور ثائرة المعلم عليه فيطرده من الغرفة ويعاقبه عقاباً لا رحمة فيه . وكان يقول ، «ايه ، يا لك من ظريف ! عندى دواء لوقاحتك وقلة احترامك لمعلمك ! انني اعرفك اكثر مما تعرف انت نفسك ، ولأكبحنّ جماحك واجعلك تجثو على ركبتيك» . ومن ثم يضطر الصبي التعيس لسبب لا يعلمه ان يخرّ على الارض راكعاً حتى تتهرأ ركبتاه وان يقيم على الجوع يوماً كاملا . وكان المعلم يقول «ان المواهب والكفاءات هراء في هراء ، ولن احترم الاّ السلوك الحسن . وسأعطى العلامات الكاملة لأولئك الذين يحسنون السلوك حتى لو لم تساعدهم مواهبهم على تعلمّ الابجدية . اما اولئك الذين أرى فيهم الميل للدعابة والمزاح فلن يكون نصيبهم الاّ الرسوب حتى ولو كانوا يفوقون صولون علماً» . ولهذا السبب نفسه كان المعلم يكره المؤلف كريلوف لأنه يقول في احدى قصصه «من الاحسن ان تشرب الخمر ولكن تعرف عملك» . وغالباً ما كان الاستاذ يقص على تلاميذه كيف كان في سالف الايام معلماً في المدرسة وكان الصمت

يخيّم عليها حتى يسمع المرء طنين الذبابة وكيف كانت تنقضي السنة دون أن يعطس تلميذ او يسعل في غرفة الدراسة ، وكيف كان الصمت كاملا فلا يحسّ انسان بوجود انسان . وفي لمح البصر أدرك تشيتشيكوف عقلية المربّي ، وعدّل من سلوكه بحيث يرضيه . فلم يكن يتحرّك له حاجب أو يطرف له رمش خلال ساعات الدراسة مهما تلقّى من خلفه من قرصات . واذا ما قرع الجرس ركض سابقاً زملاءه ليقدّم لمعلمه القبّعة المثلثة الزوايا التى اعتاد ان يلبسها الاستاذ ، ومن ثمّ يكون اول من يترك غرفة الدراسة ليقابل المعلم في الطريق أثناء عودته الى البيت لا أقل من مرتين او ثلاثاً حتى تسنح له الفرصة في كلّ منها ان يرفع له قبعته محيّياً . وقد أثبت هذا المشروع نجاحه الكلّي . فكان طوال اقامته في المدرسة ذا حظوة كبرى ولما تركها حاز على علامات كاملة في كل موضوع ، وشهادة دراسية وكتاباً نقش عليه بالاحرف المذهبة «جائزة الاجتهاد المثالي والسلوك الممتاز» . كان عندئذ قد كبر فاصبح فتى حسن المنظر وبلغ السنّ التى تطلب الذقن فيها موسى الحلاقة . وفي تلك الآونة مات والده ، مخلّفاً له بيتاً ، واربعة صدارات متهرّئة ومعطفين وكمية قليلة من النقود . يتضح من هذا أن الوالد كان بارعاً في اسداء النصائح عن توفير النقود لا فى توفير النقود . فباع تشيتشيكوف البيت القديم وما يحيط به من الارض بألف روبل ، وانتقل بقنّه وقنّ العائلة الى العاصمة

حيث شرع يؤسس بيتاً جديداً وهو يريد أن يلتحق بخدمة الحكومة . وفي الوقت الذى كان فيه تشيتشيكوف يفعل ذلك ، حدث ان فقد ناظر مدرسته (لغبائه او لسبب آخر من هذا القبيل) خدمته في المدرسة والتى اختزن فيها الكثير من الصمت وحسن السلوك . وجرّه حزنه الى الخمر . ولما لم يبق لديه حتى ما يفى بهذا الغرض اعتزل مريضاً يائساً جائعاً ، في خص محطم كئيب . ولكن بعض تلاميذه السابقين – اولئك الصبية الاذكياء الماهرين الذين كان يتهمهم بالوقاحة وسوء السلوك – سمعوا بحالته التى يرثى لها فجمعوا له من النقود ما استطاعوا حتى أنهم باعوا بعض حاجاتهم الضرورية ، الاّ تشيتشيكوف فانه لما طلب اليه ذلك ادّعى بعجزه وساومهم على تقديم قطعة واحدة فقط من فئة البياتاك • ردّها له زملاؤه القدامى في وجهه صائحين «اوه ! يا لك من بخيل !» اما المربّي المسكين فلم يكد يسمع بما عمله تلاميذه السابقون حتى دفن وجهه بين يديه وانفجرت الدموع من مقلتيه الذابلتين كما تنفجر من عينى الطفل اليائس ، وتمتم بصوته الضعيف يقول «لقد بعثكم الله اليّ كي تبكوني على فراش موتي» . ولما سمع بانباء تشيتشيكوف تنهد تنهداً عميقاً وقال «ايه يا بافلوشكا . كيف يمكن ان يتغير الانسان ! لقد كنت تلميذاً طيباً ذات يوم ، ولم تسبب لي المتاعب ، ولكنك الآن اصبحت متكبّرا حقاً !» لكننا يجب أن لا نستنتج

• قطعة فضية قيمتها خمسة كوبيكات . الناشر .

من هذا ان شخصية بطلنا اصبحت قاسية متجهمة او ان ضميره قد تجمد حتى تنفي عنه كل ذرّة من الشفقة والعطف . وحقيقة الامر انه كان يحسّ بهاتين العاطفتين وكان يسرّه جداً ان يقدّم العون والمساعدة لمعلمه القديم لو لم يستدع ذلك المساس بذخيرته التى قرر ان تبقى سليمة لا يمسّها احد . وبكلمات أخرى نقول ، ان نصيحة الوالد التى قال فيها «احتفظ ووفرّ كل كوبيك» اصبحت قانوناً صارماً لا يخرق عند الابن . الا ان الشاب لم يكن الدافع عنده لجمع النقود هو حبّ النقود لذاتها ولم يكن مصاباً بغريزة البخل وجمع المال . انما كانت تحوم امام عينيه صور الحياة وملذّاتها واطايبها – صور عن العربات والبيت المؤثث بفاخر الاثاث والولائم الفخمة . وعلى امل الحصول على هذه الاشياء يوماً من الايام راح يدخرّ كل كوبيك ويضيّق على نفسه وعلى الآخرين ، واذا ما مرّ به غني في عربة فخمة يجرّها جوادان متماثلان مسرعان كان يقف مفكراً تفكيراً عميقاً ثم يقول لنفسه فعل من يصحو من النوم ، «لا بدّ ان هذا الرجل كان موظفاً اخصائياً في دوائر المالية ، فكان تسريحه بسيطاً جداً !» خلاصة القول ، ان كل ما يختص بالثروة والغنى كان يؤثر فيه تأثيراً لا يمحّي . حتى حين ترك المدرسة ، لم يروّح عن نفسه بعطلة يستجمّ فيها ، اذ كانت رغبته شديدة جداً في الحصول على عمل والدخول في سلك الحكومة . الاّ انه مع كل ما احتوت عليه شهادته من مديح وتقريظ لم يتمكن الاّ بعد عناء شديد من تنسيب اسمه

في وظيفة صغيرة بمرتّب قدره ثلاثون او اربعون روبلا في السنة . ومع كل ذلك ، وعلى بؤس الوظيفة التى حصل عليها فقد صمّم ان يتغلّب على كل العقبات وان يصل الى النجاح بالانتباه الشديد الى عمله . وقد ابدى في الواقع من الصبر والعصامية والاقتصاد ما يستحقّ الاعجاب . فكان يجلس منذ الصباح الباكر حتى هزيع متأخر من الليل منغمساً في عمله الحقير من نسخ الوثائق الرسمية بحماس في الروح والجسد لا يعروه الكلال ، وينام على المكاتب في غرف الدائرة ، وكان يأكل ما تأتى له مع الحارس صاحب النوبة . لكنه كان يحاول دائماً ان يظل نظيفاً مرتّباً وان يحافظ على بشاشة ملامحه وقد جرّب ان يكسب حركاته سمات الخفة والرشاقة . ويمكن ان نذكر عابرين ، ان زملاءه الموظفين كانوا على قدر غريب من البساطة ، ذوى اشكال لا تستحبّ ، وكانت لبعضهم وجوه كالخبز الذى اسيء خبزه ، وخدود متورّمة ، وذقون متقلّصة ، وشفاه مشققة متقرحة . ولم يكن في الحقيقة منهم انسان جميل . هذا الى ان نغمة شرسة كانت دائماً في اصواتهم كما لو كانوا يفكرون في ضرب من معه يتكلمون . وقد اتضح من تضحياتهم المتكررة لباخوس ان الطبيعة السلافية لا يزال فيها شيء من الوثنية . لا ، بل كانوا يدخلون غرفة المدير وهم لا يزالون تحت تأثير الخمر ، وبما ان رائحة انفاسهم لم تكن عطرة جداً فسرعان ما يصبح جو الغرفة غير عطر ايضاً . وبطبيعة الحال ، بين موظفين على هذه الشاكلة ، لم يفشل تشيتشيكوف في

استرعاء الانتباه وإلفات النظر لانه كان على النقيض من زملائه في كل شيء – في المرح ورقة الصوت واهمال المشروب اهمالا كليّاً . غير ان السبيل لم يكن امامه سهلاً ، اذ كان يرأسه لسوء حظه ، رئيس كتبة كان منحوتاً للتبلّد وقوة الاستمرار . فهو دائماً بعيد المنال ، على الوتيرة نفسها ، لم يبتسم في حياته قط ولم يسأل مرة من المرات عن صحة احد معارفه . ولم يعهده امرؤ ابداً يختلف في الشارع او في البيت عما هو عليه في مكتبه ، او مبدياً اقلّ اهتمام باى شيء مهما كان ذلك الشيء او شارباً او منغمساً في نشوة الكاس او مستسلماً لذلك المرح الغريب الذى يستسلم له حتى اللص اذا ثمل . لا ، لم تكن لديه ذرة واحدة من هذا ، بل لم تكن لديه ذرة واحدة من اىّ شيء ، حسناً كان ام سيئاً . شخصية سلبية تمام السلبية كان لها اثر غريب . وعلى هذا المنوال ذاته كانت تقاطيع وجهه الرخامية الذابلة التى لم تكن تذكر رائيها بشيء ، كانت على قسط كبير جداً من التناسق الجامد . وكانت آثار الجدرىّ المنتشرة في وجهه هي الشيء الوحيد الذى يضمه الى ذوى الوجوه التى يقول فيها المثل الدارج «مشى عليها الشيطان في الليل يطحن فولا» . وباختصار ، كان يلوح وكان اى امرئ لا يستطيع ان يقرب هذا الرجل او ينال رضاه . غير ان تشيتشيكوف حاول جهده . فقد اخذ بادىء ذى بدء باستمالته في كل التوافه من الامور . فكان ينظف ريشته بكل عناية واذا ما اتمّ ذلك وضعها حسب رغبته عند كوعه ، ثم ينفض

الغبار ورماد التبغ عن المكتب ويكنسه ويحضر مفرشاً جديداً لمحبرته ، ويعتنى بقبّعته – احقر قبعة عرفها العالم – ويهيؤها له في الوقت المحدد لانتهاء العمل ، ويمسح ظهره بالفرجون اذا ما تلطّخ بجير الحائط . الاّ ان كل هذه الامور مرّت دون ان تسترعي انتباه الرئيس ، وكان شيئاً لم يكن . واخيراً ، حشر تشيتشيكوف انفه في عائلة رئيسه وفي حياته البيتية ، وعلم ان له بنتاً راشدة هي ايضاً بوجه مشى عليه الشيطان ذات ليلة يطحن فولا . هنا ظهرت فرصة لشنّ هجوم جديد ! وبعد ان عرف اىّ كنيسة تزور يوم الاحد اخذ يقابلها فيها بملبس مرتّب وقميص منشّى . وسرعان ما تكلّل مشروعه بالنجاح والتوفيق . وتردّد رئيس الكتبة الجافّ بعض التردّد ، لكنه ما لبث ان انتهى بدعوته الى تناول العشاء . ولم يكن باستطاعة اى رجل من زملائه في المكتب ان يخبرك كيف توصّل تشيتشكوف في فترة وجيزة الى الانتقال الى بيت رئيس الكتبة وان يصبح ضرورة لازمة في البيت لا غنى عنها . فاصبح يشترى الطحين والسكر ويعامل البنت معاملة الخطيبة وينادى رئيس الكتبة «بابنكا» * ويقبل احياناً يد بابنكاه .وقد ظن الموظفون في الواقع ان الزواج في نهاية شباط (اى قبل الصوم الكبير) بل وراح الاب الجاف يوصى السلطات بشأن تشيتشيكوف حتى تمكن هذا من الحصول على وظيفة شغرت آنذاك هي

* يا ابتاه . المترجم .

وظيفة رئيس كتبة . وكان ذلك ايذاناً بنهاية العلاقة
بين تشيتشيكوف ومضيفه لأنه أسرع الى تعبئة اغراضه
خلسة في حقيبته ، وفي اليوم التالى كان في بيت جديد .
وانقطع فيما بعد عن مناداة رئيس الكتبة ببابنكا وعن
تقبيل يده وانتهت حكاية الزواج نهاية فجائية كما لو لم
تكن موضوع بحث في يوم من الايام . الاّ انه لم ينس
يوماً أن يضغط على يد مضيفه السابق اذا ما قابله او
يدعوه الى تناول الشاى معه . اما من الناحية الاخرى ،
فكان رئيس الكتبة – مع ما هو عليه من الجمود وعدم
المبالاة – يهزّ راسه ويتمتم قائلا ايه ، يا صديقي
العزيز ! لقد ازددت كبرياء ، لقد ازددت كبرياء !»

كانت الخطوة السابقة اصعب الخطوات التى كان على
بطلنا ان يجتازها . فقد اصبحت الامور بعدها اكثر
سهولة وأسرع نجاحاً . وكان يسترعي الانتباه أينما حلّ
لا سيما وقد نمىّ نفسه على كل ما هو ضرورىّ في
هذه الحياة – الخلق الجذاب والصبر الجميل والاجتهاد
العظيم في شؤون الاعمال . واذ كان متسلحاً بهذا الدهاء
فقد تمكن من الحصول على ترقية الى مركز يوصف عادة
بأنه «مركز ثخين» ، فاستغلّه الى أقصى حدود
الاستغلال . وقد جرى في تلك الايام تحقيق شديد في
موضوع الرشى ، ولكنه لم يخشه – لا ، بل استفاد
منه لتدعيم مركزه ، مظهراً بذلك الدهاء الروسيّ الذى
لا يخفق في ان يبلغ الأوج فيما يتعلّق بالابتزاز . اما
طريقته في ادارة الاعمال في مكتبه فقد كانت كما يلي .
حالما يأتي اليه المدّعي او مقدّم الطلب ويمدّ يده الى

جيبه ليخرج النقود ، يمسك تشيتشيكوف بيده مبتسماً
ويصيح متعجباً « لا ، لا ! بالتأكيد انا لست . . . لكن
لا ، لا ! هذا واجبنا ، وان عمله فرض علينا . ولسنا
بحاجة الى مكافآت اذا قمنا بما هو واجب . اما بشأن
قضيتك فيجب أن يستريح بالك . سيتم كل شيء غداً .
اذا تفضلت باعطائي عنوانك ؟ لا حاجة بك ان تكلّف
نفسك عناء الحضور مرة أخرى لأن الوثائق سترسل الى
بيتك بسهولة» . ويعود صاحب المعاملة الى بيته وهو
يكاد يطير فرحاً ، ويقول لنفسه «لقد كنا بحاجة ماسّة
الى رجل كهذا منذ امد بعيد . ان هذا الرجل جوهرة لا
تقدّر بثمن» . ويجلس في بيته يوماً ويومين وثلاثة
ايام ينتظر رسولا يحمل الوثائق ، لكن دون جدوى . ثم
يعود الى الدائرة مرة اخرى ليجد ان قضيته لم تمسّها
يد بعد . واخيراً يقابل «الجوهرة التى لا تقدّر بثمن» .
فيعلو صوت تشيتشيكوف برنّة ادب ولباقة يقول ، وهو
يمسك بيد زائره ويضغط عليها «الحقيقة ان لدينا عملاً
كثيراً جداً ! ولكن مسالتك ستنجز غداً ، واني متأسف
جداً لتأخيرها» . وتظهر على وجهه اثناء ذلك تعابير
معزّية جذّابة . لكن الوثائق لاتصل الى بيت صاحب
المعاملة لا في الغد ولا في اليوم الذى يليه ولا في
اليوم الذى يلي الذى يليه . وبناء على ذلك يفكر فيما
اذا كان عليه ان يعمل شيئاً . وما يكاد يسال حتى يجاب
بأن عليه ان يدفع شيئاً للناسخين . فيقول «حسناً ،
لا ضير في ذلك . وقد اعددت قطعة او قطعتين من فئة
ربع الروبل» . فيكون الجواب «اوه ، لا ، لا . ان ربع

الروبل لا تكفي للناسخ ، فهو يتقاضى روبلا كاملا» . «ماذا ؟ روبل لكل ناسخ ؟» – «طبعاً ، وهل في ذلك ما يدعو الى التذمّر ؟ سيتقاضى الناسخ نفسه ربع روبل فقط امـــا الباقي فيذهب الى الرئيس» . وعلى ذلك يستشيط صاحب المعاملة المضلل غيظاً لهذه الطريقة من اختلاس النقود ويلعن سلوكهـــم الشائـــن العاتي . ويتحسّر قائلا «كان الانسان قبل اليوم يعرف ما يفعل . كان اذا اعطى المدير ورقة مالية اصبح الامر في يده . امّا الآن فيضطرّ بعد انتظار اسبوع الى اعطاء كـــل ناسخ روبلا كاملا لكي تسير اموره كما يشتهـــي . الى الشيطان بهؤلاء الموظفين المحترمين !» وكان الحق كل الحق مع الرجل في سخطه هذا ، فما دام قد انتهى دور المرتشين وما دام المديرون قد اصبحوا ذوى مكانـــة واحترام – كما يقولون – فلماذا يوعزون الى الكتبـــة والموظفين بأن يقوموا لهم بأعمال اللصوصية ؟ وبمرور الزمن انفتح امام تشيتشيكوف مجال اوسع ، فتشكلت لجنة للاشراف على اقامة مبان للحكومة وقد رشّح عضواً فيها فاثبت انه من انشط الاعضاء . وشرعت اللجنة بالعمل دون تاخير ، ولكن المباني المذكورة لم تتم فـــي غضون ست سنوات . وقد يكون السبب في ذلك ان الطقس قد اعاق عملية البنـــاء او ان الموادّ التـــي استعملت كانت من النوع الذى لا يسمح لمبان كهذه بان تعلو عن الاساس . وفي الوقت نفسه شاهد اهل المدينة بيتاً جميلا ذا هندسة غير حكومية يقام لكل عضو مـــن اعضاء اللجنة . من الواضح ان التربة التى اقيمت عليها

اساسات هذه البيوت كانت اصلح من تلك التى اقيمت عليها بناية الحكومة المنكودة . وبالمثـــل ، فقد بدت مظاهر الرخاء على كل اعضاء اللجنة واكملوا نصف دينهم بالزواج . حتى ان تشيتشيكوف لأول مرة في حياته ، هجر القوانين الحديدية التى فرضها على نفسه من كبت شديد وحرمان لا يرحم ، ولطّف من حدّة التقشـــف في الامتناع عن اطايب الحياة التى كان قادراً ايـــام شبابه على الامتناع عنها . نقول ، ان بعض الحاجـات الكمالية اخذت تظهرّ في بيته ، فاستخدم طاهياً ماهراً ، واخذ يلبس القمصان الكتانية ، واشترى لنفسه بذلة من نوع لا يلبسه احد في المقاطعة ، ولبس الثياب ذات النقوش المربّعة بالوان حمراء وبنّية زاهية ، واشترى حصانين اصيلين (كان يقودهما بلجام واحد) ، وتعوّد ان يستحمّ باللبن المخلوط بماء الكولونيا ويفرك جسمه بافخر انواع الصابون حتى يكسب جلده مسحة مـــن الصفاء .

الاّ ان الاحوال لا تدوم ، فقد ظهر على المسرح فجأة مدير جديد – رجل عسكرىّ شديد التعصّب في عدائه للمرتشين ولكل ما يشذّ عن القانون . وفي اليوم التالي لوصوله طلب دفاتر الحسابات واكتشف مواضع النقص والكميات المفقودة . وتنبّه الى البيوت الجميلة السابقة الذكر والمبنية بناء مدنيّا غير حكوميّ . ونتج عن ذلك تنقلات عامّة . فاحيل كثير من الموظفين على التقاعد ، واستردّت الحكومة بيوتهم ، وحوّلتها الى ملاجئ مختلفة او الى مدارس لأبناء الجنود . وهكذا خرّ الصرح القديم

الى الارض هاوياً – وخاصة تشيتشيكوف . فكان المدير
يمتعض امتعاضاً شديداً من وجه تشيتشيكوف بالذات .
اما لماذا كان ذلك بهذا الشكل ؟ فمن الصعب ان تجيب .
لكنه امر يحدث غالباً في حالات مماثلة لا تعرف له
سبباً . مهما يكن من امر ، فقد ابغضه المدير بغضاً
قتّالاً لكن المدير على ما هو عليه من عقلية عسكرية لم
يكن على علم بالدهاء الوافر في العقلية المدنية . لذلك
لم يمض وقت طويل حتى تمكنت عصابة جديدة من
الموظفين بمظهر من الحصافة والكياسة ومقدرة على
المداهنة والرياء ، ان تعيد اليه وداعته . فوجد الجنرال
نفسه في أيدى لصوص أبرع من سابقيهم ، لصوص لا
يتسرّب اليهم الشكّ ، ظنا منه انه اختار النخبة
الصالحة ، وراح فوق ذلك يفتخر بان له عيناً ثاقبة في
ادراك المواهب . وما لبث الموظفون المذكورون ان
اخذوا يكيلون له الثناء على نفسيته وشخصيته . ونتيجة
لذلك توهّم أن الدائرة التى يعمل فيها قد تحوّلت الى
مؤسسة لاكتشاف كل ما يشذّ عن القانون .
ففي كل مكان وفي كل حالة كانت تطارد هذه
المخالفات كما يطارد الصياد بخطّافه الحوت السمين .
وقد برهنت هذه الرياضة على نجاح تامّ . ففي
برهة وجيزة أصبح كل صياد من القوم المذكورين
يمتلك عدّة آلاف من الروبلات . عندئذ ارتدّ عدد كبير
من العصابة السابقة الى الطريق السوىّ ، وسمح لهم
بالعودة الى وظائفهم . ولكن تشيتشيكوف لم يستطع
بوسيلة من الوسائل أن يتخذ الى الرجوع سبيلا ، مع

ان السكرتير الاول للجنرال والمدير الحقيقي لشؤونه –
مدفوعاً بمبالغ مختلفة من الاوراق المالية – حاول جهده
ان يدافع عن صالح بطلنا . ويظهر ان الجنرال كان من
صنف من الرجال الذين وان كانوا يقادون من انوفهم
بسهولة (شريطة ان يجرى ذلك دون علمهم) الاّ انه
اذا تمسك بفكرة في راسه فانها تثبت فيه كالمسمار
الذى لا يقتلع . وكل ما استطاع فعله ذلك السكرتير
الداهية هو ان يمزّق الوثيقة الرسمية التى تدل على
سوء سيرة تشيتشيكوف عند الحكومة – حتى هذا لم
يستطع فعله الاّ بعد ان قدّم استرحاماً للجنرال
باسم زوجة تشيتشيكوف واطفاله (الذين لم يكن لهم
وجود فى الواقع) .
وقال تشيتشيكوف لنفسه «حسناً ، لقد بذلت جهدى
ولكنى اخفقت في كل شيء حتى الآن . ان ندب الحظ لا
يجدي فتيلا . فالى العمل» . وصمّم عندئذ ان يبدا حياته
من جديد وان يتسلّح بالصبر والعصامية مرة اخرى .
ولكي يسهل عليه ذلك ، كان عليه طبعاً ان يغيّر
المدينة التى يسكن فيها . ومع هذا فقد اخفقت مساعيه
فترة من الزمن . ووجد نفسه اكثر من مرة مضطراً الى
تغيير وظيفته الى وظيفة اخرى لأقل اشارة . وكانت هذه
الوظائف كلها على احقر واتعس ما تكون . غير انه وهو
الرجل المتناهي في الاناقة ، لم يمنعه اختلاطه بزملاء
اقلّ ما يقال فيهم انهم لا يعرفون ما هي الاناقة ، من ان
يحافظ على حبه الفطرىّ لكلّ ما هو محترم المظهر وعلى
غريزته التى كانت تقوده الى تزيين مكتبه بالزخارف

الخشبية المصقولة والى احلال الترتيب والنظام في كل مكان . ولم يكن يسمح في وقت من الاوقات لكلمة نابية أن تتسرّب الى حديثه ، وكان يشعر باستياء شديد اذا ما مرّت في حديث الآخرين اشارة مهينة الى ما يختص بالكبرياء والمناصب . وسوف يسرّ القارئ أيضاً اذا ما علم أن بطلنا كان يبدّل ثيابه يوماً بعد يوم ، وفي أيام الصيف عندما تشتدّ الحرارة كان يبدّلها كل يوم ، لأن اقل شكّ في رائحة كريهة كان يسيء الى تأنقه . ولهذا السبب نفسه كان — عندما يأتي اليه بتروشكا — يحشو منخريه بقطعتي قرنفل . باختصار ، كان المساس بالوجاهة والكبرياء يؤذي نفسه ويضر بها حتى كانت تمرّ عليه اوقات تنهار فيها اعصابه وكانها اعصاب فتاة ، وهذا مما يزيد امتعاضه من العمل مع رجال لا معرفة لهم بالاحتشام في هذه الحياة . وعلى الرغم من تمسكه الشديد بهذه العادات الاّ ان اوقات الضائقة والشدائد غيرّت من صحته فبدا عليه شيء من الترهّل . وكان قد اخذ يسمن ويتخذ تلك الاشكال المدوّرة المعتبرة التي وجده القارئ فيها ، حين تعرف عليه ، وحين كان يتطلع الى نفسه في المرآة كان يفكر غير مرة عن اشياء كثيرة لطيفة منها ما يتصل بالنساء ، ومنها ما يتصل بالطفولة ، وكانت الابتسامة تشبع هذه الافكار . وكان اذا ما راى نفسه في المرآة لم يتمالك ان يصيح «يا للعذراء المقدّسة ! ايّ وحش قبيح أرى ؟» ويروح فيما بعد يفكر مدّة طويلة في هذه القضية بانفعال شديد . لكنه تحمّل ذلك كله بالصبر

والجلد . وانتهى به الامر الى الاشتغال في دائرة الجمارك . ويمكن أن نقول ان هذه الدائرة كانت الهدف الذي يطمح اليه في سرّه منذ امد طويل ، لأنه لاحظ الرشاقة الاجنبية التي يتحلّى بها موظفوها ، ولاحظ انهم يرسلون بين الفترة والاخرى هدايا من الصيني والقماش النفيس الى اخواتهم وعمّاتهم . . . بل الى صديقاتهم عموماً . نعم ، وكان يناجي نفسه ويتنهّد قائلا «هذه هي الدائرة التي يجب أن اكون فيها . مدينة على الحدود ، وزملاء ذوو ذوق . عندئذ ساصبح قادراً على اقتناء القمصان الكتانية الممتازة» . ويمكن أن نقول ان افكاره كثيراً ما كانت تتجه الى نوع من الصابون الفرنسي يكسب الجلد ابيضاضاً والخدود نضارة وبهاء . واسم هذا الصابون لايعلمه الاّ الله ، لكنه على الاقل يمكن الحصول عليه عند الحدود فقط . وكما اقول ، فقد كان تشيتشيكوف يصبو دائماً الى الجمارك ، ولكن اعاقته عن تقديم الطلب اليها — برهة من الزمن — اللجنة البنائية وما فيها من خيرات متنوعة مدرارة . وكان على حق في أن يرى في الاخيرة طيراً في اليد ، والاولى طيراً على الشجرة . ولكنه صمّم الآن — مهما كانت الظروف — ان يتخذ الى الجمارك سبيلا . وقد اتخذ هذا السبيل وقد بدأ العمل الجديد بحماس شديد مصدره انه كان يعتقد ان الطبيعة قد خلقته خلقاً خاصاً ليكون موظفاً في الجمارك . وفي الحقيقة كان ما ابداه من النشاط والبصيرة الثاقبة وحضور الذهن شيئاً لم يعهد ولم يحلم به من قبل . ففي اربعة اسابيع على اكثر

تقدير أحاط الاحاطة التامّة بشؤون الجمارك واصبح على علم بكل صغيرة وكبيرة فيها . فلم يكن يتقن الكيل والميزان وحسب ، بل كان يستطيع ان يقدّر عدد الاذرع في لفّة القماش ، او اذا كانت مادة أخرى فانه يأخذ منها رزمة في يده فيعرف عندئذ عدد الارطال التي كان سيسجّلها الميزان . امّا عند التفتيش ، أجل ، فقد اعترف زملاؤه بأن له حاسّة الكلب الشموم . ولا يستطيع المرء الاّ ان يعجب بالصبر والاناة اللتين كان يتحلّى بهما اذ يفتّش كل زرّ وعروة في الشخص الظنين . وهو اثناء ذلك كله محتفظ بأدب صامت وبرودة في الدم تفوق مدى التصوّر . وفي الوقت الذى يكون فيه المهربون يرغون غيظاً والزبد يعلو أشداقهم ويتمنّون لو بدّلوا ضحكة سحنته بصفعة قوية رنّانة ، تجده هادئاً لا تتحرك عضلة في وجهه ولا ينقص لطفه ذرّة واحدة ، ويتمتم قائلا «هل تسمح لي بأن تكلف نفسك عناء الوقوف ؟» او «الرجاء ان تتفضلي بالدخول الى الغرفة التالية يا سيدتي ، حيث ستعتني بك زوجة أحد الموظفين» ، او «أرجوك ان تسمح لي بأن أجزّ هذا السكين في بطانة معطفك» (ومن ثم يروح ينتزع البطانة قطعة قطعة بفتور وبرود كالبرود الذى يخرج به امتعته من حقيبته الخاصة) . حتى ان رؤساءه اعترفوا بأنه شيطان في عمله اكثر منه انساناً . فكانت غريزته مدهشة جداً في التفتيش في عجلات العربات وصواريها وفي آذان الخيول وفي محلاّت يجب على المؤلف ان لا يفكر بها حتى في خياله — محلات لا يسمح الاّ لرجال

الجمرك بالتدخل فيها . وتكون النتيجة أن يصبح المسافر التعيس الذى قطع الحدود ضائعاً في بحر من الحيرة ، يتصبّب عرقاً ويفور جسمه الفورة تلو الاخرى ، ويقبع يرسم علامة الصليب «مه ، مه ، مه !» ويشعر هذا المسافر في الواقع ان مثله مثل التلميذ الذى دعاه الناظر ليلقي عليه بعض التعليمات فكان نصيبه بدلا من ذلك أن ضربه ضرباً مبرحاً . وخلاصة القول ، ان تشيتشيكوف قطع رزق المهربين فترة من الزمن . وقد أوقع اليهود البولونيين بالذات في حالة من اليأس والقنوط . وكانت استقامته ونزاهته من المناعة حتى لا تكاد تبدو طبيعية . فكان يتعفف عن المال البسيط الذى يمكن الحصول عليه من البضائع المصادرة التى كانت لا تسلّم للحكومة عادة توفيراً للعناء الكتابيّ . ولا حاجة بنا الى القول أيضاً ، ان عملا كهذا بحماس طاغ لا مصلحة من ورائه قد استرعى انتباه الموظفين وتبعاً لذلك انتباه السلطات . وعلى هذا فقد وصلته ترقية ما لبث بعدها ان وضع مشروعاً متيناً لاكتشاف المهربّين شريطة ان تخول له السلطة اللازمة لتنفيذه . وخوّلت له هذه السلطة حالا ، كما اعطيت له صلاحية لا حدّ لها في اجراء أى نوع من البحث والتفتيش . كان هذا هو كلّ ما يريد . وحدث ان تأسست قبل ذلك شركة للتهريب على خطط مرتبة منظمة ، وكان هذا المشروع يبشّر بالملايين . ومع أن تشيتشيكوف كان على علم بها من قبل الاّ انه قال لرسول الشركة الذى جاء لشرائه أول الامر «لم يحن الوقت بعد» . لكنه الآن — وقد

اصبح زمام الامور في يده – أرسل كلمة للعصابة يقول فيها «ان الوقت قد حان» . ولم يكن مخطئاً في حساباته ، فقد استطاع في غضون سنة واحدة ان يحصّل على ما لم يكن ليحصّل عليه في عشرين سنة من خدمة امينـــة . والحكمة نفسها هي التي جعلته يرافض في ايامه الاولى ان ينشىء علاقات مع الشركة ، لأنه لم يكن عندئذ شيئاً يستحق الذكر ولن يكون له في الغنائم شيء يذكر . اما الآن ، فالمسألة مسألة اخرى ويستطيع ان يملي مـــا يريد من شروط . وبالاضافة الى ذلك ، ولكي تسير الامور على ما يرام ، لم ينس ان يتواطأ مع موظـــف مسؤول آخر من اولئك الموظفين الذين – وان شاب شعرهم – الاّ ان عزائمهم تخور امام المغريات . فاجرى العقد وباشرت الشركة العمل . وقد بدأ العمل في غاية التوفيق . لكن معظم القراء في الغالب يعرفون القصة التي كثر ترديدها حول الماعز الاسبانيّ عبـــر الحدود ولكلّ معزى منها جلدان تحمل بينهما ما فيه الكفاية من الدنتلات التي تباع بمليون روبل . ولن أعيد القصـــة مرة ثانية ، الاّ أنني أقول ان رحلات كهذه لم تقع قبل ان يصبح تشيتشيكوف رئيساً للجمارك ، وانه لو لم تكن له يد في المشروع لما استطاع يهود العالم اجمع ان يكللوه بالنجاح . ولما تمت ثلاث رحلات او اربـع من هذه الرحلات الماعزية الضخمة حتى غدا تشيتشيكوف وشريكه يملكان اربعمائـة الف روبـــل دفعة واحدة . وهناك من يقدّرون ان ارباح الاول منهمـــا بلغـــت نصف المليون لانه بذل جهداً اكبر في هذا الشأن . ولا

يعلم الاّ الله ما هو الرقم الذى كان سيصل اليه ربحهما لو لم يقطع عليهما ترتيباتهمـــا طارىء سيء . نقول ، ان الشيطان لسبب ما اضاع احساس الموظفين المتآمرين فراحا يتنابذان بالحديث وانتهى الامر بينهما الى خصام . ذات مرة اثناء جدال عنيف قال تشيتشيكوف لزميله – وقد يكون نشوان ساعتئذ – «يا ابن الكاهن» ، ومع ان هذا الوصف هو الحقيقة الاكيدة بالنسبة للزميل ، الاّ انه استاء منه وردّ على تشيتشيكوف بصوت حادّ عال يقول «أنت الكاهن أبـــوك» . واضاف نكايـــة في تشيتشيكوف يقول «نعم ، هذه هي حقيقتك ، وليكن هذا معلوماً لديك» . ومع أنه قلب لتشيتشيكوف ظهر المجنّ وردّ التحية بأحسن منها وتوّج عمله هذا بالتأكيـــد الأخير ، الاّ انه لم يقتنع الاّ بأن ارسل خطاباً سرّياً للسلطات . ويروى آخرون رواية اخرى عن نزاعهمـــا هذا ، فيقولون انه كان بسبب امرأة كانت على حـــدّ التعبير الذى وصفهـــا به رجال الجمارك «كأنها لباب اللفت في نضارتهـا وعنفوانهـا» ، وأن اشقياء قـــد استؤجروا ليهاجموا بطلنـــا في زقاق مظلـــم ، وان المشروع مني بالفشل ، وقد تبيّن ان تشيتشيكـــوف وزميله كانا مخدوعين لأن السيدة كانـــت تكنّ الودّ لكابتين اسمه شَمْشاريف . على اية حال فلا يعلـــم الحقيقة الاّ الله . ولندع القارىء الفضوليّ يستنبطها بنفسه اذا اراد . اما ما حصل في الواقع فقد كان ان اكتشفت الاتصالات بالمهربين اكتشافاً تاماً . ومع ان الموظف نفسه قد وقع في المكروه ، إلا انه اغـــرق

زميله . ووقع الموظفان تحت طائلة التحقيق وجرّدا مما يملكان وأجبرا على تسجيل كلّ ما عملاه . ولم يتحمل زميل تشيتشيكوف وطاة خطيئته فادمن على شراب حسب العاده الروسية . اما تشيتشيكوف فقد واجه الامر بالحزم ، وعلى الرغم من جهود السلطة الجهيدة في معرفة مغانمه الاّ انه استطاع ان يخبىء قسماً منها ، ولجا الى كل الحيل والالاعيب التى يتقنها رجل حنكه الزمان فخبر زملاءه خبرة واسعة . فلم يترك وسيلة مجدية دون ان يستخدمها – الاخلاق السمحة والخطب المثيرة والنفاق والرياء وحشو راحة اليد بالنقود بين آونة واخرى . وكانت نتيجة ذلك ان ما لحقه من الفضيحة كان اقلّ مما بزميله ، وان نجا من محاكمة فعلية بتهمة جنائية . بيد انه خرج مجرّداً من كل راسماله ، مجرّداً من كل ما جمعه ، مجرّداً من كل شيء وكان هناك راغبون في كل هذه الاشياء . نقول ، ان كل ما تبقىّ لديه هو عشرة آلاف روبل ادّخرها ليوم عاصف ، واربعة وعشرون قميصاً كتّانياً وعربة صغيرة من النوع الذى يقتنيه العزاب ، وخادمان اسمهما سيليفان وبتروشكا . نعم ، وقد دفع العطف موظفى الجمرك الى ان يعطوه بعض قطع الصابون التى كان يستحسنها لنضارة الخدود . وهكذا وجد بطلنا نفسه موهوناً مرّة اخرى . فما هذه المصائب المتجّمعة التى انصبتّ على راسه ؟ – لكنه كان يسمّيها «المقاساة في سبيل الحقيقة» . وسيظن القارىء ظنّاً لا مراء فيه ان تشيتشيكوف بعد هذه الصدمات والمحن وتقلّب الحظوظ – اى بعدما ذاق مرارة الحياة

وصابها – سينسحب بنفسه (وبالعشرة آلاف روبل الغالية) الى ركن هادىء في مدينة ريفية حيث يقبع مرتدياً عباءته يستمع الى الفلاحين وهم يتشاجرون في ايام الاعياد أو يذهب (ترويحاً عن النفس) الى بائع الطيور ويجسّ الفراخ اذا كانت تصلح للحساء فيقضي حياة هادئة ليست عبثاً . لكن شيئاً كهذا لم يحدث ، وهنا علينا ان نعترف بقوّة شخصيته . وبكلمات اخرى ، مع انه قد اصيب بما كان سيعتبره معظم الرجال دماراً وتثبيطاً وقضاء على الآمال الاّ انه ظلّ محتفظاً بهيبته . وقد شعر – وهو المنبوذ الساخط المستاء من العالم أجمع – بثورة على القدر الظالم وتبرّم من معاملة الرجال . غير انه لم يتمالك الاّ ان يكرّر المحاولة مرّة اخرى . وباختصار ، كان ما ابداه من الصبر يزيد عن نوع الثبات الالماني المتخشّب – الثبات الذى يرتدّ أصله الى دورة دمه البطيئة الوسنى . ولكن الامر عند تشيتشيكوف لم يكن كذلك ، لان طبيعته تجعل تدفّق الدم في عروقه عنيفاً ، وكان عليه ان يبذل الكثير من قوّة الارادة ليكبح في نفسه جماح العناصر الثائرة التى توشك ان تنفجر وتعربد في طلب الحرية . وقد فكرّ ثم فكرّ ، ولاح له في تأمّلاته المنطق .

وقال لنفسه «كيف صرت الى ما صرت اليه ؟ ولماذا لاحقنى سوء الحظّ هكذا ؟ ومن يترك فرصته تضيع الآن في الخدمة عند الحكومة ؟ الجميع يحصلون . لم اسيء في حياتي الى فقير ، ولم اسلب ارملة ، ولم اطرد

مخلوقاً من بيتي . كان كلّ همّي دائماً ان اغنم من اولئك الذين يملكون اكثر مما يستحقون . ولم اكن – زياده على ذلك – التقط الحبّ الاّ حيث يلتقطه كل انسان ، ولو لم أفعل لالتقطه غيرى بدلا مني . اذن لماذا ينجح الآخرون بينما اهوى انا الى الحضيض ؟ ما انا ؟ ولماذا اصلح ؟ وكيف استطيع في المستقبل أن أنظر الى وجه ايّ اب شريف ؟ وكيف اتخلّص من عذاب الفكرة التى احملها عن تحطيمى ؟ وماذا سيقول ابنائي عنى في السنين المقبلة الاّ أن ابانا كان حيواناً لم يخلّف لنا شيئاً نعيش من ورائه ؟»

ويجب ان اشير هنا الى مدى التفكير الذى كان تشيتشيكوف يكرسّه لسلالته المقبلة . والحقّ اقول ، انه لو لم يطرق عقله دائماً هذا السؤال القائل «ماذا سيقول اطفالي ؟» لما انغمس في فعاله بهذا العمق . ومع ذلك فقد كان كالقطة الحذرة التى تختلس النظر يمنة ويسرة لترى فيما اذا كانت ربتها ستاتي قبل أن تستطيع اختطاف شيء ما وقع تحت مخلبها (سواء كان زبدة أم دهناً او شحم خنزير او كنارى او ايّ شيء آخر) . – كان مثل صاحبنا مؤسس الاسرة المقبلة مثل هذه القطة ، يبكي ويندب حظّه دائماً الاّ ان عينيه لا تتغاضيان عن شاردة ولا واردة . فاحتفظ بتوقدّ ذهنه ونشاطه وابقى على قدح فكره واعماله ، وكان كل ما يحتاج اليه هو خطّة يسير عليها . لذلك كله ، مرة اخرى استجمع قواه ، ومرّة اخرى خاض غمار الحياة ، ومرة اخرى حشر نفسه في كل شيء ومرة اخرى ترك

الجوّ النقيّ المحترم الى حياة القذارة والانحطاط . وبكلمات اخرى اشتغل في وظيفة كاتب للدعاوى – ريثما يتيسر له عمل افضل – وهي وظيفة لا مكانة لها ، يتزاحم عليها الكثيرون ، ولا يحترمها حتى صغار الموظفين في المحاكم ، وظيفة دعت اليها الضرورة ينظر اليها الجميع بفظاظة واستخفاف . ولكنّ الحاجة الماسّة ارغمت تشيتشيكوف عليها . ومن بين المهمات التى عهد اليه بها هي ان يقدّم لمجلس الخزينة بضع مئات من الفلاحين كانوا يعملون في مزرعة حلّ بها الخراب . وقد حلّ الخراب بهذه المزرعة من مرض اصاب الماشية ومن سفالة المديرين ومن اخفاق الموسم ومن الاوبئة التى تقتل احسن العمال ، واخيراً وليس آخراً ، من ادارة صاحبها الحمقاء الذى اعدّ لنفسه بيتاً في موسكو على احدث طراز وبعزق كل كوبيك لديه بحيث لم يبق له ما يقيم به اوده فاضطر الى رهنها بكل ما فيها من فلاحين . كان الرهن الى خزينة الدولة في تلك الايام بدعة ينظر اليها بكثير من التحفّظ ، فاضطر تشيتشيكوف ، كوكيل في القضية أن يستفسر من كل الموظفين الذين يعنيهم الامر (ونحن نعرف أن ابسط المسائل القانونية لا يمكن ان توضع موضع التنفيذ الاّ اذا صببت في حلق كل كاتب زجاجة من الماديرا سلفاً) ، وان يبينّ لهم – مخافة ما قد يجد من الاعتراضات القانونية – ان نصف الفلاحين قد ماتوا .

فساله السكرتير «هل هم مسجّلون في لوائح

الاحصاء ؟» وأجاب تشيتشيكوف «نعم» ، فأكمل السكرتير يقول «اذن ما الذى يخيفك ؟ اذا ماتت نفس من النفوس تولد اخرى تحلّ محلّها» . وبهذا هبطت على بطلنا افكار ملهمة لم تطرق عقلا بشرياً من قبل ، وراح يناجى نفسه قائلا «يا لبساطتى ؟ لقد كنت أفتش عن قفازى بينما هو معلّق طول الوقت في نطاقي . اجل ، أفلو قمت بشراء الف نفس ميتة قبل صدور اللوائح الجديدة فسيعطينى مجلس الخزينة العام مائتى روبل لكل نفس ، وسأجد نفسي عندئذ برأسمال قدره مائتا الف روبل مثلا ! واللحظة الحالية هي الوقت المناسب اذ قد حلّت اوبئة في مختلف أرجاء البلاد ، وقد مات عدد كبير من النفوس والحمد لله ، وقد اخذ الملاكون في هذه الآونة يلعبون الورق ويقيمون الولائم ويصرفون النقود بغير حساب وراحوا ينضمون الى خدمة الحكومة في بطرسبورج . واملاكهم بناء على ذلك سائرة الى الخراب والدمار ، فهي تدار كيفما تيسّر الامر ، ولا يستطيع اصحابها دفع الضرائب عنها الا بشقّ الانفس سنة بعد اخرى . واذا كان ذلك كذلك ، فسوف يسرّهم أن يتنازلوا عن أنفسهم الميتة بدلا من دفع الضرائب عنها . بهذه الوسيلة سوف أجمع من المال غير قليل . هناك بعض المصاعب طبعاً ، لكنى يجب ان استعمل كل الدهاء لكى اتجنّب الفضيحة . لقد اعطي الانسان عقلا ليستعمله لا ليطرحه جانباً . واحدى مزايا هذا المشروع هو انه غير محتمل الوقوع ، واذا ما طرأ طارئ فلن يصدّقه انسان . حقيقة ان شراء الفلاحين او رهنهم

دون الارض هو عمل غير قانوني ، ولكنى استطيع ان اتظاهر بسهولة انني اشتريهم لنقلهم الى مكان آخر . والأراضي في توريدا وخارسون لاتكاد تساوى شيئاً ، وليس على المرء الا ان يصلحها . اذن الى خارسون سوف انقلهم وليعيشوا هناك طويلا ! وسيكون تسجيل نفوسي الميتة على أدقّ الاصول القانونية ، واذا ما طلبت منى السلطات إثباتاً بشهادة فسأبرز لهم كتاباً من رئيس الشرطة الخراسوني . واخيراً سيكون اسم القرية المنتظرة في خارسون «تشيتشيكوفوى» ، بل الافضل «بافلوفسكى» حسب اسمي الاول . هكذا نبت في عقل بطلنا هذا المشروع الغريب الذى قد يرضى عنه القارئ او لا يرضى ، ولكن المؤلف راض عنه بكل تأكيد ، لانه لو لم يخطر ببال تشيتشيكوف لما رات هذه القصّة النور .

وبعد ان رسم على نفسه علامة الصليب ، حسب العادة الروسية ، راح منطلقاً بمشروعه . واخذ بحجّة التفتيش على مكان يستقرّ فيه يتفحّص زوايا الامبراطورية الروسية ، موجهاً اهتمامه الى تلك التى حلّت بها الكوارث الطارئة كاخفاق الموسم وارتفاع نسبة الوفيات او اى شيء آخر يمكّنه من شراء الانفس بارخص سعر مستطاع . لكنه لم يختر الملاكين اختياراً عابراً ، انما اختار اولئك الذين توسّم فيهم الخير ورأى انهم يلائمون ذوقه وتوقّع ان يعقد معهم الاتفاقيات دون عناء . وكان يحاول اول ما يحاول – سواء على اساس التعارف ، او الافضل من ذلك على اساس الصداقة – ان يحصل على

النفوس مجاناً حتى يتجنب تكاليف الشراء . وبهذه المناسبة يجب أن لا يلومني قرائي اذا لم تعجبهم الشخصيات التى وردت على هذه الصفحات أيما اعجاب . فالخطأ ليس بخطئي انما هو خطأ تشيتشيكوف لأنه سيد الموقف وعلينا ان نتبعه حيث سار . واذا ما ندد بي قرائي ، أيضاً ، لشيء من الغموض أو لنقص في الايضاح عن بعض الشخصيات الرئيسية فجوابي على هذا بأن منحى الكتاب ومغزاه العام لن يتضحا منذ البداية . مثل ذلك مثل المسافر الذى يدخل المدينة ، او العاصمة ، لأول مرة ، فينطبع عندئذ في ذهنه للوهلة الاولى طابع من الغموض ويبدو كل شيء أمام عينيه رمادي اللون على وتيرة واحدة وتظهر اعمدة دخان المصانع وصفوف المعامل لا نهاية لها ، ولكنه مع مرور الوقت تنجلي أمام عينيه معالم البنايات ذات الطوابق الستة والحوانيت والشرفات ومناظر الشوارع العريضة وخليط من الابراج والاعمدة والمسلات – كل هذا ضمن اطار من الضجة والصخب والعجائب التى لا حد لها مما توصل اليه عقل الانسان ويده . اما الطريقة التي اتبعها تشيتشيكوف في مشترياته الاولى فالقارئ على علم بها . وسيعرف أيضاً تبعاً لذلك كيف تطورت الامور ، وما مر به بطلنا من النجاح والاخفاق ، وكيف كان عليه أن يتذرع بالحزم ليتغلب على مشاكل هي اكثر صعوبة من سابقتها ، وبأي قوة جبارة كانت تتحرك مجريات هذه القصة الممتدة الاطراف ، وكيف يترتب على ذلك كله أن ينفسح الافق حتى ينتحي كل

شيء فيه منحى العظمة والشاعرية . نعم ، فلا تزال هناك فرستات عديدة ستقطعها فرقة مكونة من رجل وعربة من النوع الذى يقتنيه العزاب وخادم اسمه بتروشكا وسائق اسمه سيليفان وثلاثة خيول من المستشار الى الارقط عرفناها بأسمائها واحداً واحداً . وبالاضافة الى ذلك ، ومع أننى قد قدمت وصفاً كاملاً لمظهر بطلنا الخارجي (كما هو تماماً) الا أننى قد اسأل عن تعريف شامل لشخصيته الخلقية . اما أنه ليس بالبطل الذى يتحلى بالفضائل والكمال ، فهذا أمر يجب أن يكون واضحاً منذ الآن . اذن ماذا يكون ؟ هل هو نذل ؟ ولماذا ندعوه نذلا ؟ ولماذا نقسو هذه القسوة على رجل مثلنا ؟ لقد انعدم الانذال من الوجود في هذه الايام . بل هناك اناس اصحاب شهامة لطاف . ولكنك قد تجد اثنين او ثلاثة اهانوا أنفسهم بأن عرضوا خدودهم للصفع على الملأ . وحتى هؤلاء يتحدثون الآن عن الفضيلة . من الافضل أن ندعوه جشعاً . ان الجشع وحب التحصيل خطأ شائع عند معظم الناس ، وهو السبب في نزوات كثيرة ، وكثيرة جداً توصف عادة بأنها «غير شريفة» . وشخصية من هذا القبيل ، في الحقيقة فيها عنصر من القباحة . ولكن القارئ اثناء تجواله في الحياة قد يجلس مع شخصية من هذا النوع وقد يقضي مع صاحبها أطيب الاوقات ، ولكن سيكون اول من ينظر اليه نظرة المتسائل اذا ما علم انه يتزيا بزي بطل في رواية او قصة . لكنه حكيم جداً ذلك القارئ الذى اذا قابل شخصية كهذه يتفحصها بامعان

ويسبر غورها الى الاعماق بدلا من أن ينكمش عنها بامتعاض . وما من شيء في شخصية الانسان الا وهو قابل للتبديل والتغيير في طرفة عين – لا شيء فيها الا وقد تنبثق منه سوسة اكالة تمتص منها العصارة الحية في لمح البصر . فلن تبدو لك في الانسان العاطفة الطاغية وحسب ، بل ستبدو لك عاطفة أخرى من أحط الدرجات في رجل خلق لأمر اجل من هذا . وهذه العاطفة الاخرى تقوده الى نسيان واجباته العظيمة وفرائضه المقدسة فيرى الجلال والتقديس في اتفه الامور . ان عواطف الانسان كرمال الشاطئ لا يحصى لها عدد ، وهي بلا شك اكثر تنوعاً . وتبتدئ كلها ، رفيعها ووضيعها ، في خدمة الانسان ، ثم تتدرج حتى تصبح سيده المستبد . سعيد ، اذن ، هو ذلك الانسان الذى ينتخب من سلسلة العواطف البشرية عاطفة نبيلة ! ساعة بعد ساعة ستنمو هذه الغريزة وتتكاثر الى ان تصبح خيراً عميماً ، وساعة بعد ساعة ستغوص اعمق واعمق في جنان نفسه السرمدية . غير ان هناك عواطف لا يستطيع الانسان ان يتخلص منها ، ولدت معه منذ ولادته ولا حيلة له في تركها . وعلى هذه العواطف تسيطر قواه العليا فتكبتها ، ولكنها تظل تناديه وتابى السكوت حتى نهاية حياته وستاخذ دورها الكامل في مجال الحياة ، سواء تسترت تحت جنح الظلام أم تزيّت بزى سيتحول الى نور يضيء أرجاء العالم . وهي في كلتا الحالتين قد انبثقت لصالح الانسان . على هذا المنوال قد يكون منشأ العاطفة التى جرت تشيتشيكوف

الى ان يعمل ما عمل دون ان يكون نفسه شاعراً بما يعمل ، وعلى المنوال نفسه قد يكمن وراء الجوهر البارد شيء يجعل الرجال يتذللون يوماً امام حكمة الله السرمدية . وهناك نقطة اخرى غامضة ، وهي لماذا طلعت تلك الشخصية في هذه القصيدة التي توشك ان تنشر .

اما ان لا يرضى الناس عن بطلي ، فهذا ليس من الاهمية في شيء ، فالذى يهمني هو استحسانهم الذى لا بد منه تحت ظروف معينة وفي مواقف معينة . فلو لم يتوغل المؤلف كثيراً في نفس تشيتشيكوف ولو لم يحرك في اعماقها ما انكمش واختبأ عن الانظار ولو لم يكشف عن افكار بطله التى لم يكن هذا البطل ليكشف عنها حتى الى اعز اصدقائه وفي الواقع لو اظهر المؤلف تشيتشيكوف كما اظهر هذا نفسه لأهل مدينة «ن» ولمانيلوف وللباقين – لكان علينا عندئذ ان نطمئن الى انه سيحوز على رضى كل قارئ وسيعده هذا انساناً لطيفاً جداً . وقد لا يكون من الضرورى ان نصور تشيتشيكوف للقارئ بهذه الصورة التى رسمناه بها فجعلناه ماثلا أمام العين بشكله وهيئته ونفسيته حتى نترك له (اى للقارئ) من هدوء البال ما يستطيع به بعد فراغه من مطالعة الكتاب من ان يعود الى اعتكافه وعبادته للعب الورق الذى هو السلوان والمسرة الكبرى لخيرة الروس كلهم . نعم ، يا قارئي هذا الكتاب ، ليس فيكم مَنْ يكترث عن صدق لرؤية البشرية وهى تتعرى . وتقولون «ولم نفعل ذلك ؟ وما فائدته ؟ الا نعرف من قبل ان في البشرية كثيراً مما

هو ثقيل محتقر ؟ الا يكفي أن نرى بأم اعيننا الكثير من المزعجات ؟ كان من الافضل لو وضعت لنا قصة لطيفة جذابة ننسى بها انفسنا قليـــــلا» . وعلى هذا الطراز يخاطب الملاّك مأمور املاكه فيقول «لماذا جئت تخبرني أن شؤون املاكـي متدهورة ؟ انـنـي اعرف هذا دون مساعدتك . أليس عندك شيء آخر تنبئني به ؟ ارجوك أن تسمح لي بنسيان هذه الحقيقة ، او دعني ابقـى جاهلها . ولك مني اطيب الشكر» . ومن ثم يروح هذا الملاّك يصرف على ملذّاته النقود التى كان يجـب ان يصرفها في تعمير املاكه . والعقل الذي يمكـــن ان يكتشف مصدراً غير متوقع للتأثيرات العظيمة نائـم الآن . بينما انهت ضربة مطرقة عملية بيع ضيعة فـي مزاد علني ، ومالكها رحل ليطوف في العالم ، وينسى ، وروحه من التطرف مستعدة لكل القبائح الذى كان هو نفسه يرتعب منها من قبل .

وقد يتعرّض المؤلف للملامة من الذين يدعـــون «بالوطنيين» الذين يجلسون بهدوء في زواياهم يجمعون الاموال ويصبحون رأسماليين على حساب الاخريـــن . نعم ، واذا ما حدث شيء مما يسمّونه ماساً بسمعـة الوطــن – كنشر كتاب عـن الحقائـق المرّة مثلا – فستجدهم عندئذ يخرجون من مخابئهـم كالعنكبوت التى لمحت ذبابة تقع في نسيجها . وسيصيحون قائلين «هل حسن ما اظهرت للعالم وتركت الناس يلوكون الحديث حوله ؟ ان الذى وصفت يمسّنا وهو من شأننا نحن . هل هذا هو سلوك المواطن الصالح ؟ لماذا تريد مـــن

الاجانب أن يفترضوا أن كل شيء لدينا على غير ما يرام واننا خلو من الشعور الوطنيّ ؟» اجل ، فليس فـــي الحقيقة مــن جواب يجـاب به على هذه الملاحظـــات الحكيمة ، وخاصة فيما يتعلّق برأى الاجانب فينا . لكن رويدك لقد عاش في يوم من الايام في زاوية من زوايـا روسيا البعيدة مواطنان روسيان . احدهما كان رجلا طيباً اسمه كيفا موكيفتش وهو اب له عائلة ، كان لينّ العريكة وكان سائراً في حياته بعباءة يتدثر بها . ولم يكن يكترث لشؤون بيته ، وسبب ذلك انه كان قد ركز اهتمامه في التفكير والتأمل في الطبيعة . وكان في هذه بالذات منهمكا في مسألة فلسفية يصيغها عادة في السؤال التالي ، «لقد ولد الحيوان عارياً . ولماذا كان ذلك كذلك ؟ لماذا لا يولد الحيوان كما يولد الطير – اى بأن يفقس من بيضة ؟ ان الطبيعة اعلى من الادراك مهما حاول المرء أن يسبر غورها» . كان هذا هو محور تفكير كيفا موكيفتش . لكنّ هذه ليست هي النقطة الرئيسية . اما الآخر فكان اسمه موكى كيفوفيتش ، ابن الاول . كان ما نسمّيه – نحن الروس – بطلا . اذ بينمـــا كان والده يفكر في مولد الحيوان كان مزاج الابن العنيف ابن العشرين سنة يناضل نضالاً جباراً في سبيـــل تطوّره ، غير انه لم يستطع ان ينجز امراً دون ان يحدث معه حادث مماثل في الجبروت والعنف . كسر مرّة اصبع احد الناس ومرّة اخرى لكم شخصاً على انفه ، حتى اصبح يهرب منه كل انسان وكل حيوان – مـــن الخادم حتى الكلب في الساحة ، ولم يسلم من ذلك حتى

فراشه في سريره فقد تناثر قطعاً . هكذا كان موكي كيفوفيتش . ومع هذا فقد كانت روحه خفيفة لطيفة . لكن هذه ليست هي النقطة الرئيسية ، بل النقطة الرئيسية كانت تتمثل في الواقع التالى . اذ كان الجيران والخدم ياتون الى الاب قائلين ، «سيدنا العزيز كيفا موكيفتش ، ماذا انت عامل لنا بموكي كيفوفيتش ؟ اننا لا نرتاح منه ، فهو يرى نفسه اكبر مما هي» . فكان الاب يجيب «ان هذا لعب منه فقط ، ان هذا لعب منه فقط . وماذا تنتظرون منه غير هذا ؟ لقد فات اوان الخصام معه ، ولو حاولت ان افعل فسيتهمنى الناس بالخشونة والفظاظة . انه مغرور في الحقيقة بعض الغرور ، ولكنى لو وبّخته امام الناس فسيصبح هذا مدار الحديث وسيلقّبه الناس بألقاب الكلاب . واذا فعلوا ذلك فسوف يمسّنى القول لأننى ابوه . ثم اني ايضاً مشغول بالفلسفة ولا وقت لدىّ لهذه الاشياء فى بعض الاحيان ، ولكننى ابو موكي كيفوفيتش هو ابني ، وهو عزيز جداً على قلبى» . واكد لهم كيفا موكيفيتش مرة اخرى وهو يضرب صدره بيده ، واضاف ان ابنه لو راى ان يظلّ سادراً في لعبه ذاك ، فليس له – اى للاب – ان يصرح بالحقيقة او ان ينفصل عن ابنه . وبعد ان تلفّظ كيفا موكيفتش بهذه الكلمات المليئة بالحنان الابوىّ ، ترك موكي كيفوفتش لأعماله البطولية وعاد بنفسه الى تاملاته المحبوبة التى كان موضوعها الآن المسالة التالية «لنفرض ان الفيلة بدات تفقس من البيض ، الا تكون قشرة هذه البيضة من

السمك بحيث لا تخترقها قنابل المدافع وهذا ما يدعو الى اختراع اسلحة من نوع جديد ؟»

وهكذا ، فاننا نرى بانتهاء هذه القصة اثنين من سكان زاوية هادئة من زوايا روسيا ، يريان – كما لو كانا يطلاّن من نافذة – يجيبان جواباً متواضعاً عن الاتهامات الموجهة من جانب الوطنيين المتحمسين ، المنشغلين بهدوء حتى الآن بفلسفة من الفلسفات او بطرق الاثراء على حساب وطنهم الذي يحبون ، وهم لا يفكرون في ان يتجنبوا فعل ما هو شائن ، بل في ان لا يتحدث الناس عن كونهم يقومون بهذا الفعل الشائن . نعم ، فالشعور الذى يثير من يسموّن بالوطنيين ليس من الوطنية في شيء اطلاقاً . انما هنالك شيء آخر يكمن وراءه . ولم الخوف من قول ذلك ؟ ومن ذاك الذى سيرفع الصوت عالياً لأظهار الحقيقة ان لم يكن المؤلف نفسه ؟

ان رجالا مثلكم – يا مواطنيّ الزائفين – ليرتجفون رعباً من العين التى تستطيع ادراك الامور ، فانتم انفسكم ترتعبون من توجيه نظرة عميقة الى شيء ما ، وتحبون ان تمرروا عيونكم غير المفكرة على كل شيء خطفاً . وبعد ان تضحكوا ملء قلوبكم على نكبات تشيتشيكوف – وربما تمدحون المؤلف على براعة الملاحظة او طرافة الخاطرة – ستشعرون بكبرياء متعاظمة في انفسكم وستبتسمون ابتسامة ملؤها الرضى وتقولون «اجل ، اننا لا ننكر ان هناك في بعض المقاطعات افراداً على جانب من الغرابة والسخرية وان هناك سفلة انذالا لا ضمير لهم» .

بيد أنكم اذا ما جلستم هادئين وحيدين واخذتم تحاسبون أنفسكم ، فمن منكم لا يحسن صنعاً اذا ما راح يسبر غور نفسه ويطرح عليها السؤال الرزين التالي «أليس فيّ عنصر من تشيتشيكوف ؟» ولماذا لا يكون ؟ ومن منكم لا يحتمل ان يمرّ به في الشارع ذات يوم أحد معارفه ، فيلكز جاره ويقول بسخرية لا تكاد تخفى «انظر ! هو ذا تشيتشيكوف ! ان الذى مرّ بنا هو تشيتشيكوف نفسه !»

لكننا كنا نتكلم بأعلى أصواتنا بينما كان بطلنا لا يزال نائماً في العربة ! وقد تردّد اسمه كثيراً ونحن نسرد قصة حياته ، ولا بدّ انه قد سمعنا ! وهو دائماً نزق سريع الغضب اذا ما وردت سيرته بغير احترام . وقد لا يهتم القارىء قتيلا لأغضاب تشيتشيكوف ، ولكن خصام المؤلف مع بطله معناه الخراب ، اذ لا يزال عليه أن يمشي مع تشيتشيكوف ، يداً بيد ، مسافات بعيدة المدى .

وصدرت صيحة من تشيتشيكوف تقول «ايه ، ايه ، يا سيليفان !»

فأجاب سيليفان بصوت ناعس «ما المسألة ؟»

«ما المسألة ؟ ما بالك تسوق ناعساً ؟ اسرع حرّك نفسك قليلا !»

وكان سيليفان في الواقع جالساً منذ مدّة طويلة بعينين نصف مغمضتين ويدين لا تستحثان الجياد الوسنى الا بمسّها باللجام على اردافها بين فترة واخرى . اما بتروشكا فقد أضاع قبعته وكان منحنياً الى

الخلف حتى ارتاح رأسه على ركبتي تشيتشيكوف — وهو أمر استدعى ايقاظه بلكمة . وتحمس سيليفان وجاد على الارقط ببضع ضربات على ظهره جعلته يركض خبباً ولوح سيليفان للجميع بسوطه من فوق ، وغمغم بصوت مترنم رخيم : «لا تخف !» وما إن حذا زميلاه الآخران حذوه حتى راحت العربة تدرج الى الامام كأنها حبة من خرز . وشحذ سيليفان صوته وصاح «هيه ، هيه !» بينما كانت تعاريج الطريق تهزّه صاعداً نازلاً على مقعده . وأتكأ تشيتشيكوف في الوقت نفسه على الوسادة الجلدية داخل العربة وابتسم ابتسامة الرضى اذ احسّ ان العربة تنطلق كالريح . وأى روسى لا يحبّ ان يسرع ؟ ومن منا لا يتوق بعض الاحيان الى ان يطلق لجياده العنان ويلقي لها الحبل على الغارب ويصيح قائلا «الا فليذهب العالم الى الشيطان !» وكيف لا تحبها نفسه هذه اللحظات ، وفيها شيء رائع عجيب اذ يحسّ المرء ان قوى جبّارة ترفعه فكأنه على جناح ، فيجد أنه يطير والى الناحية المعاكسة كل شيء آخر يطير — علامات الفرستات والتجار على عربات الشحن والغابة ذات الخطوط المعتمة التى يرسمها شجر التنوب والصنوبر والتى قد يسمع منها صوت بلطة الحطاب ونعيق الغراب . نعم ، ومن خلال ذلك البون الشاسع المدى الذى يكتنفه الغموض تتقدم الطريق الىّ ، ولا يبدو للعين شيء ساكن غير السماء ، والغيوم الخفيفة التى يشقّها القمر . ايه ايتها الترويكا ، أيتها الطائر ، من اخترعك ؟ لا يمكن ان تولدي إلا في شعب عالي الهمة ،

في ارض لا تحب المزاح ، بل تنداح منبسطة لتكون
نصف العالم ، فيظل المسافر يعد صُوَى الطريق ويعد
حتى تتعب عينيه . وقد يظن المرء ان واسطة السفر
هذه لا دهاء فيها . إنها غير مثبته بمسامير حديدية ،
ولكنها صنعت على عجل بالفأس والازميل ، وضمٌ بعضها
الى بعض فلاح حاذق من يارسلافل . وسائقها ليس المانياً
في جزمة طويلة الساقين ، بل ملتح مورد الخدين يقعد
على شيء لا يعلم ما هو إلا الله . ولكن ما إن يرفع
جسمه ، ويقرع بسوطه ، ويطلق صوته بالغناء حتى
تنطلق الخيول كالعاصفة ، وتصير قضبان العجلات
دائرة واحدة متماسكة ، والطريق وحده يهتز ، والماشي
يتوقف صائحاً في فزع ، وتنطلق الترويكا
وتنطلق ! . . . ولا يبقى إلا الغبار يدوم في البعيد ،
ويتلولب في الهواء .

وانت ، يا روسيا ، الست انت ايضاً ، تنطلقين
مثل ترويكا خاطفة لا تسابق ؟ الطريق يتزوبع تحتك
كالدخان ، والجسور تهدر ، وكل شيء يتراجع ، ويبقى
الى الخلف . ويتوقف المتفرج مصعوقاً بهذه الاعجوبة
الألهية . ألعلها بارقة هبطت من السماء ؟ ما هذه الحركة
التي تثير الفزع ؟ وما هذه الروح غير المنظورة في
تلك الخيول التي لم ير العالم مثلها ؟ آه ، يا خيول ،
يا خيول ، واية خيول ! اهي الزوابع مخفية في اعرافك !
اهي آذان مرهفة السمع تتوهج في كل عصب منك .
سمعت صوت اغنية مالوفة تغنّى في الاعالي ، فوتّرت
صدورها النحاسية على الفور ، وهي لا تكاد تمس الارض

بحوافرها ، وتحولت إلى خط واحد ممدود طائر في
الهواء ، منطلقة بوحي من الرب ! روسيا ، الى اين
أنت تنطلقين ؟ اجيبيني . انها لا تجيب . جرس يملأ
الهواء برنين عجيب ، والهواء يرعد ، ويصير ريحاً ،
ويتحول الى مزق . كل شيء على الأرض يمرق عائراً ،
وتنظر الشعوب شزراً وتتنحى الشعوب والدول الأخرى
فاسحة الطريق لها .

تعليقات

صدر المجلد الأول لاول مرة فى عام ١٨٤٢ فى كتاب مستقل بعنوان : «مغامرة تشيتشيكوف او الانفس الميتة . قصيدة ن . غوغول» . موسكو . ١٨٤٢ .

ترجع بداية العمل فى هذه القصيدة الى عام ١٨٣٥ . والرسالة التى ارسلها غوغول الى الكسندر بوشكين ، بتاريخ ٧ تشرين الأول ١٨٣٥ – وهى الرسالة التى طلب فيها أن يعطيه موضوعا لمسرحيته المقبلة «المفتش العام» تتضمن ايضا المعلومات الأولى عن «الانفس الميتة» : «بدات اكتب «الانفس الميتة» . الموضوع امتد ليصير رواية طويلة جدا ، واعتقد انه مضحك جداً . . . احب ان اظهر فى هذه الرواية جانباً واحداً على الاقل من روسيا» . وغوغول ، فى ابلاغه بوشكين هذا المشروع المعروف له يبدو وكأنه يستأنف حديثاً قد بداه من قبل .

وفيما بعد ، تحدث غوغول فى «اعترافات مؤلف» عن الظروف التى قدم فيها بوشكين له موضوع «الانفس الميتة» : «كان يحثنى منذ زمن بعيد على البدء بمؤلف كبير ، واخيراً ، وذات مرة ، بعد ان فرغت من قراءتى

مقطعاً صغيراً من مشهد مسرحى صغير ، كان قد اعجبه ، على كل حال ، اكثر مما قراته له سابقا ، قال : «كيف يمكنك ان لا تبدا بعمل كبير ، ولك هذه القدرة على حدس الانسان ، وتصويره ببضع لمسات ليطلع امامك حياً ! ان ذلك جرم تماما !» وفى اثر ذلك اخذ يصور لى ضعف بنيتى ، وعللى ، التى يمكن أن تبتر حياتى فى وقت مبكر . وضرب لى مثلا فى سرفانتس الذى كتب بعض الروايات الصغيرة الرائعة جداً والجيدة ، ولكن لو لم ياخذ بكتابة «دون كيخوت» لما احتل تلك المكانة التى يحتلها الآن بين الكتاب ، وختاماً لكل ذلك اعطانى موضوعا من عنده كان يريد هو نفسه ان يكتبه على شكل قصيدة ، وما كان سيعطيه لشخص آخر ، حسب قوله . وكان ذلك موضوع «الانفس الميتة» .

ويشير غوغول فى موضع آخر اورده فيما بعد (الرسالة الثالثة ، فى «الرسائل الاربع» لاشخاص مختلفين بخصوص «الانفس الميتة») الى ان المسودات الاولية للقصيدة كانت مكتوبة بنبرات مختلفة قليلا واكثر جهامة ، وشخصياتها تشبه «الغيلان» . وقد شعر غوغول بضرورة تغيير هذه الطريقة بعد قراءة القصيدة فى بيت بوشكين (كان ذلك فى نهاية ١٨٣٥ او فى النصف الثانى من عام ١٨٣٦) . «حين بدات اقرا لبوشكين الفصول الأولى من «الانفس الميتة» بما فى ذلك ما كانت عليه من قبل اخذ بوشكين الذى كان يضحك دائماً عند قراءتى (وكان مولعا بالضحك) يتعبس شيئاً فشيئاً ، واخيراً صار فى منتهى الجهامة . وما ان انهيت

القراءة حتى قال بصوت ملوّع : «يا الهى ، كم هى موحشة بلادنا روسيا !» اذهلنى هذا . . . ومنذ ذلك الحين اخذت لا افكر الا بتخفيف الانطباع المرهق الذى يمكن ان تتركه «الانفس الميتة» .

فى خريف ١٨٣٦ استأنف غوغول العمل فى «الانفس الميتة» الذى كان قد بدأ فى بطرسبورج استأنفه فى فيف (سويسرا) ومن ثم فى باريس . وهو يبلغ صديقه الشاعر فاسيلى جوكوفسكى فى رسالة مؤرخة فى ١٢ تشرين الثانى : «. . . كل ما بدأته قد راجعته من جديد ، وفكرت اكثر فى الخطة كلها ، وانا الآن اسير بها بهدوء كمدونة تاريخية . ومنذ ذلك الحين بدت لى سويسرا افضل ، وجبالها الرمادية الليلقية الزرقاء السماوية الوردية اخف واشف . ولئن انجزت هذا العمل بالطريقة التى يجب أن ينجز فيها . . . فاى موضوع ضخم اصيل سيكون» . وحسب خطة غوغول الجديدة يجب ان لا يكرس محتوى العمل الجديد للجوانب المظلمة من الحياة الروسية فقط ، وبدلا من تصوير روسيا من «جانب واحد» يتحدث غوغول الآن عن «روسيا كلها ممثلة فيه» . وفى الرسالة المذكورة الى جوكوفسكى لم تعد «الانفس الميتة» تسمى رواية (كما فى رسالته الى بوشكين) بل «قصيدة» . والسطور التالية التى وردت فى رسالة الى الكاتب والمؤرخ والصحفى ميخايل بوغودين بتاريخ تشرين الثانى ١٨٣٦ تشير الى تلك التغيرات : «العمل الذى انكب عليه الآن واكدح . . . لا يشبه رواية قصيرة ، ولا رواية . . انه

طويل ، طويل ، فى عدة مجلدات . واذا اعاننى الرب فسأنجز قصيدتى ، كما يجب ، انها ستكون اول عمل ابداعى معتبر لى . روسيا كلها منعكسة فيه» .

ورسائل غوغول فى تلك الفترة الى معارفه وذويه مشبعة بالرجاءات لتزويده بمختلف المعلومات فى موضوع «القضايا المثيرة للفضول» ولا سيما تلك التى «يمكن ان تحصل عند شراء النفوس الميتة» . ويطلب غوغول من جوكوفسكى : «ابلغ بوشكين بذلك ، فقد يجد هو ايضاً شيئاً من جانبه» . وكل هذه المادة ضرورية للاستمرار فى القصيدة .

فى شباط ١٨٣٧ يصل الى غوغول ، وهو فى باريس ، نبأ مقتل بوشكين . ويكتب غوغول من روما : «كل متعة حياتى ، كل متعتى الرفيعة اختفت معه . لم اكن اقدم على اى شىء بدون نصيحته . . . وعملى الحالى ، الموحى منه ، هو ابداعه . . .» والآن يعتبر غوغول «الانفس الميتة» بمثابة «وصية مقدسة» لبوشكين . (رسالة الى ف . جوكوفسكى بتاريخ ١٨ نيسان ١٨١٧) .

فى اواخر عام ١٨٤٠ انتهى العمل فى المجلد الأول بشكل عام ، واخذ غوغول يعده للطبع . وفى كانون الأول يبلغ الكاتب سيرغى اكساكوف فى رسالة من روما : «انا الآن اعد المجلد الأول من «الانفس الميتة» فى صيغته النهائية . اغير ، وانقح ، واعيد العمل كلياً فى اشياء كثيرة . . .»

وساعد فى استنساخ القصيدة الاديب فاسيلى بانوف قريب سيرغى اكساكوف ، والذى صاحب غوغول فى

رحلته الى ايطاليا ، وبعد ذلك ساعد فى الاستنساخ بافيل انينكوف ، الناقد والناثر وكاتب المذكرات . وقد خلف انينكوف رواية بديعة يصف فيها كيف جرى استنساخ القصيدة فى صيف ١٨٤١ فى روما .

«بعد ان يضع نيقولاى فاسيليفيتش الكراسة امامه . . . كان يستغرق فيها كليا ، ويبدأ بالاملاء بتوازن وانتشاء ، وباحساس وزخم تعبير جعل فصول المجلد الأول من «الانفس الميتة» يكتسب فى ذاكرتى نكهة خاصة . كان ذلك اشبه بالهام هادئ متدفق باتساق يولده عادة الادراك العميق للموضوع» .

وحين استنسخ انينكوف «قصة الكابيتن كوبيكين» التى اثارت فى مؤلفها الاحساس بارتياح واضح عبّر انينكوف عن شكه فى ان تنشر القصة فى يوم ما . فاجاب غوغول بثقة فى النفس : «النشر شيء هين كل شيء سينشر» . «وتجلّى شعور المؤلف بالارتياح النفسى بقوة أشد ، عند وصف حديقة بلوشكين . وانا اتذكر ان حماسة الاملاء لم تبلغ هذا العلو فى غوغول كما بلغته فى هذا الموضع ، مع الاحتفاظ بكل الطبيعة الفنية . حتى أن غوغول نهض من مقعده (والظاهر ان طبيعة ما يصفه مرّت أمام عينيه فى تلك اللحظة) وصاحب املاءه باشارة فخورة آمرة . وبنهاية كل هذا الفصل السادس المذهل كنت منفعلا ، فوضعت الريشة على الطاولة ، وقلت بصراحة : «اعتبر هذا الفصل ، يا نيقولاى فاسيليفيتش ، شيئاً عبقرياً» . كوّر غوغول بقوة الكراسة الصغيرة التى كان يملى منها ، وقال بصوت

نحيل لا يكاد يسمع : «صدقنى ان بقية الفصول ليست اسوأ» .

فى تشرين الأول ١٨٤١ عاد غوغول الى موسكو عن طريق بطرسبورغ لاستنساخ «الانفس الميتة» بشكل نهائى وطبعها .

فى ٧ كانون الأول قدّم غوغول المخطوطة الى الرقيب ايفان سنيغيروف ، وقد رجاه ان يبدى رأيه فيما اذا كانت لجنة الرقابة فى موسكو ستسمح بها .

وفيما بعد تحدث غوغول الى صديقه الكاتب والصحفى بيتر بليتنيف (رسالة مؤرخة فى ٧ كانون الثانى ١٨٤٢) عن الوقائع التى حصلت فى اجتماع اللجنة : «ما ان سمع غولوخفاستوف * الذى كان يحتل مكان الرئيس اسم «الانفس الميتة» حتى جأر بصوت الرومانى القديم : «لا ، هذا لا يمكن ان اسمح به أبداً . النفس خالدة ، ولا يمكن ان توجد نفوس ميتة . ان المؤلف يحارب الخلود» . واوضح للمراقبين ان المقصود فى ذلك الاقنان المسجلون فى الاحصاء ، فزاد ذلك من انزعاج المراقبين . فان ذلك غير مسموح به ، ان ذلك يعنى الخروج على نظام القنانة» . كما لم تنفع حماية سنيغيريف الذى كان قد قرأ المخطوطة . والى جانب معارضة «المراقبين-الاسيويين» عارض «المراقبون-الاوربيون» . وقد قال أحدهم ، وهو نيكيتا كريلوف

---

* مساعد ناظر الدائرة التعليمية الموسكوفية ، وعضو رقابة . **الناشر** .

استاذ القانون الرومانى فى جامعة موسكو : «مهما قلتم فان الثمن الذى يدفعه تشيتشيكوف . . . الروبلين والنصف التى يدفعها للنفس الواحدة ، تقلق النفس . . . ان هذا لا يمكن ان يسمح به لا فى فرنسا ، ولا فى انجلترا ، ولا فى أى مكان . . ثم ان اى اجنبى لن ياتى الينا بعد هذا» .

واسترجع غوغول المخطوطة من لجنة الرقابة فى موسكو خائفا من منعها ، وسلمها لبيلينسكى الذى كان مسافراً الى بطرسبورغ وكان غوغول يعتمد على مساعدة اصدقائه فى العاصمة وهم – أوديفسكى * وبليتنوف وسميرنوفا ** – فى تسهيل طريق «الانفس الميتة» الى الرقابة . وبالفعل ، سمحت الرقابة فى ٩ آذار بنشر القصيدة مع بعض التعديلات ، ولكن بحذف «قصة الكابتين كوبيكين» . وفى الاول من نيسان ابلغ الكسندر نيكيتنكو الذى راجع المخطوطة كرقيب ، ابلغ غوغول أن «من المستحيل تماماً السماح بقصة كوبيكين ، وما من أحد بمن فيهم ذوو السلطة ، يقدر ان يبقى عليها ، وأنت نفسك ستوافق ، بالطبع ، على أننى غير قادر على ان افعل شيئا فى هذا الخصوص» .

ومع ذلك فقد قرر غوغول أن يبقى على «القصة» بكل ما يملك من جهد . فقد كتب الى نيكيتنكو فى ١٠

---

* كاتب وفيلسوف وناقد وصحفى . **الناشر** .

** اميرة متقربة من الامبراطورة صديقة غوغول . **الناشر** .

نيسان : أن القصيدة ، بدونها ، «ستصاب بثقب لا يمكن ترقيعه بشىء» و«هذه القطعة ضرورية ليس لربط الاحداث ، بل لجذب اهتمام القارئ وتشويقه بانطباع تلو انطباع . . .» ويغير غوغول الرواية ، منزّلا رتبة الشخصيات ، اذا صح القول : كبير القوم ، الجنرال ، يصير مجرد «رئيس» وليس من بين زواره جنرالات . ويبلغ غوغول صديقه بليتنوف فى ١٠ نيسان «اننى حذفت كل الجنرالات ، بل وحذفت حتى اسم «كورنيش القصر» تحاشيا لان يتبادر الى الذهن قصر الشتاء الموجود فى هذا الكورنيش مع قصور كبار الموظفين البارزين . كما حذفت من خلق كوبيكين صفات من مثل التزمت وشدة الحساسية ويوافق غوغول حتى على تغيير اسم البطل («اذا كان اسم كوبيكين يضايقهم فانا مستعد الى تسميته بـ«بياتكين» وما شاءوا» يكتب الى نيقولاى بروكوبوفيتش ، فى ١٥ نيسان خائفاً ، كما يبدو ، من ان يتبادر الى الذهن الشقى كوبيكين الذى كان اسمه شائعاً فى الفولكور الشعبى فى ذلك الحين . ولكن لم تظهر حاجة الى ذلك فى هذا الخصوص . فقد سمح بنشر الصيغة المعدّلة من الرواية (النص المنشور فى الطبعات الحديثة ، بما فى ذلك الطبعة الحالية ، قبل خضوعه للرقابة) كما عدلت الرقابة اسم القصيدة : اذ كتب نيكيتنكو بالحبر الاحمر العنوان الجديد : «مغامرة تشيتشيكوف أو . . .» فوق عنوان الكتاب القديم «الانفس الميتة» (والقصيدة فى الطبعات المعاصرة تصدر تحت الاسم الاول) .

وبينما كان الكتاب يطبع رسم غوغول نفسه غلافاً له . وهذا الغلاف مهم كمثال للتصميم الغروتسكي بشكل واضح ، والذى يجمع فى تآليف عجيبة مواضيع الحياة اليومية ، وصور الناس والحيوانات ، مع عدد كبير من الجماجم الانسانية مما يناسب ، من جهة ، المحتوى الغروتسكى نفسه ، وقد قاد ، من جهة اخرى ، الى التقاليد القديمة فى الزخرفة الغروتسكية الحائطية بجمعها الفريد لتفاصيل الطبيعة الجامدة ، والعالم النباتى والحيوانى والانسانى .

وصدر الكتاب فى أواخر آيار . وتركز اهتمام الرأى العام كله على عمل غوغول الجديد هذا ، وقد اثارته من قبل قراءات فصول منفصلة منه (ابتداء من صيف ١٨٣٧ ، على اقل تقدير ، قام غوغول لعدة مرات بقراءة مقاطع من القصيدة فى بيوت مختلفة) وحمسته الشائعات عن تعقيدات الرقابة . ويذكر بيلينسكى : «كل الاهتمامات الادبية ، وكل الاسئلة الصحفية مركزة الآن على غوغول» .

ومن بين التقييمات الأولى لهذه القصيدة أحد المدونات من يوميات الكاتب الكسندر غيرتسين الذى صار فيما بعد ثورياً وشخصية اجتماعية ، مؤرخة فى ١١ حزيران : «الانفس الميتة» لغوغول كتاب مدهش ، تقريع مرير لروسيا الحالية ، ولكن لا يخلو من أمل» .

بقلم يورى مان

ترجمة غائب طعمة فرمان